تجديد التاريخ
في تعليله وتدوينه
"إعادة النظر في التاريخ"

تأليف
عمر فروخ

دار الباحث
بيروت - لبنان

تجديد التاريخ

في تعليله وتدوينه

"إعادة النظر في التاريخ"

تأليف

عمر فرّوخ

دكتور في الفلسفة
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي
عضو المجمع العلمي العراقي

دار الباحث

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨٠م

دار الباحث للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

مقدمة

التاريخُ روايةٌ: ينقلُهُ راوٍ متأخّرٌ عن راوٍ مُتقدّم. وفي مسير أحداثِ التاريخ من راوٍ إلى آخرَ تَتعرّضُ تلك الأحداثُ للتبديلِ أو للزيادةِ والنُقصان. ثمّ إنّ الأحداثَ التي يشاهدُها المؤرّخ بنفسهِ ثمّ يُدوِّنُها بنفسِه أيضاً تتعرّضُ - في المدّة التي تنقضي عادةً بينَ مشاهدة الحادث وتدوينه - لمثل ذلك: للتبديل أو للزيادةِ والنُقصان. ثمّ هنالك حوادثُ مصنوعةٌ لم تَجْرِ في الاجتماع الإنسانيّ قطّ - أو لم تجْرِ على الصورة التي وَصَلَتْ إلينا. من ذلكَ الخُرافات؛ وإن كانتِ الخُرافة في أصلِها حادثةً صحيحةً رُوِيَتْ روايةً خاطئةً.

والأحداثُ المصنوعةُ كَثيرةٌ جدّاً في تاريخ الأمم، يحسُنُ أن يُشارَ هنا إلى التاريخ اليهودي كما يُروى في التّوْراة الموجودةِ بأيدي الناس أو إلى التاريخ الظالمِ الذي يَنْسِبهُ نفرٌ من المؤرّخين في العصرِ الحديث (من الأجانب) أوَ في الزمن المُعاصر (من الأجانبِ ومن العَرَبِ أنفسِهم) إلى التاريخ العثماني في البلاد العربية. ويرى القارىء أشياء من ذلك كلّه في فصول هذا الكتاب.

إنّ نفراً من المؤرّخين في القرن التاسعَ عَشَرَ قسموا شعوبَ العالم أقساماً ثلاثةً ثمّ نسبوهم جميعاً إلى أولادِ نوحٍ الثلاثةِ: سامٍ وحامٍ ويافث. وليس من المقبولِ في العقل ولا من المعروف في العِلم ولا مِنَ المُشاهد في

الاجتماع الإنساني أن يخرُجَ من نسلِ رجلٍ واحدٍ شعوبٌ تختلف صفاتُها الجسدية وخصائصها اللغوية آختلافاً بَيِّناً كالمُشاهَد بين الزُنوج والجرمان مثلاً أو بين الصِينيِّين والعرب. ولم يكن للذين زَعَموا ذلك سندٌ سوى أنهم قَبلوا ما في الروايةِ المذكورة في التوراة الموجودة بأيدي الناس على ما فيها من المطاعن[1].

وكذلك ظَلَمَ نفرٌ مثلُ هؤلاء تاريخَ الدولة العُثمانية في بلاد العرب.

ليس من منطقِ التاريخ ولا من حقيقة الإنصاف أن نُدافعَ عن العثمانيّين لأنّهم عثمانيّون ولا أن نُسوِّدَ صفحةَ الإنكليز لأنّهم إنكليز. ولكنّ من منطقِ التاريخ ومن حقيقةِ الإنصاف أن نأخُذَ بقواعدِ التاريخ حينما نأتي إلى الحكم على جماعةٍ من الجماعات فنذكُر لها ما أحسنتْ فيه ونحمّلها وِزْرَ ما أساءتْ فيه. إنّ الدولةَ العثمانية - ككُلِ دولةٍ أخرى - شَهِدَتْ في أوّلِها عُهودَ قُوّةٍ ثمّ خَضَعَتْ في آخر أيامِها لعوامِلِ ضَعْفٍ. والأمم في أيامِ ضَعْفها تكون عِرضةً لكلِّ تُهْمة، وكثيراً ما تَصْدُقُ تلك التُهَمُ عليها. والذين يَحْمِلُون على الحُكم العثمانيّ في البلاد العربية منذُ مطلعِ القرنِ الحاضرِ يغفُلون عن جوانبَ كثيرةٍ من حقائقِ التاريخ:

- إنّ الدولة العثمانية قد ضعفت فعلاً في أواخر القرنِ التاسعَ عَشَرَ

(١) تعوّد المؤرّخون أن يطلقوا على الشعوب القديمة في الشرق الأدنى (في غربيّ آسيّا): الأموريّين والبابليّين والكنعانيّين والعبرانيّين والآراميّين والعرب وسائر إخوانهم إسم «ساميين» تسمية خاطئة. وقد اقترح صديقي الدكتور زكي عبد الرحمن النّقّاش (ولد ١٣١٣ هـ = ١٨٩٥ - ١٨٩٦ م) - مدّ الله في عمره - أن يطلق على العرب وأشقائهم اسم «أعرابيّين» لأنّهم كلّهم هاجروا إلى مواطنهم الحالية من أقسام شبه جزيرة العرب، تلك الأقسام التي كانت تسودها البداوة أو كانت تطغى عليها الرمال أو ينتشر فيها الجفاف ويطول. ولقد اقترح الدكتور النقاش تلك التسمية «أعرابيين» في كتابه: «دور العروبة في تراثنا اللبناني»، بيروت (دار لبنان) ١٩٧٤.

وأوائِلِ القرن العِشرين للميلاد فاضْطَرَبَتْ أحوالُها. وفي الأحوالِ المضطربةِ تحدُثُ عادةً حوادثُ من الظلم ومن سوء الحكم ومن التخلّف السياسي والاجتماعي والثقافي.

- في مثل هذه الأحوال تنشأ في الأمم عناصرُ تنتسبُ في الظاهر إلى الأمّةِ الضعيفةِ ثمّ تكون في الحقيقة من أعداء تلك الأمّةِ الضعيفة. إنَّ نفراً كثيرين من المتنفّذين في حزب الاتّحاد والترقي وحزب تركية الفتاة كانوا من الدونما (اليهود الذين اتّخذوا مظاهرَ من الإسلام في أسمائهم وفي عددٍ من أعمالهم ثمّ ظلّوا في حقيقة أمرهم يهوداً أعداءً للأتراك وللعرب وللإسلام). فلمّا قام هؤلاء بالأعمال القاسية السيّئة نسَبَ أولئك المؤرخون الغافلون كلَّ ذلك إلى العثمانيّين المسلمين.

- ويُكثر أولئك المؤرخون الغافلون الكلامَ في أمرين: التخلّفِ الذي لَحِقَ بالعرب (من أثر الحكم العثمانيّ في رأيهم) ثمّ حوادثِ الإعدامِ التي قام بها العثمانيون في البِلاد العربية بشنق نفرٍ من العرب القوميّين. أمّا الكلامُ في نسبة تخلّف العرب إلى الحكم العثمانيّ فساقطٌ مرّةً واحدة. لقد ترك العثمانيّون بلاد العرب التي كانت في حكمهم منذ نحو سبعين سَنَةً، ولم يزَلْ أهل هذه البلاد حيث كانوا أو قد أصبحوا أسوأ ممّا كانوا. ثمّ إنّ العثمانيّين لم يدخلوا إلى المغرب الأقصى ولا إلى موريتانية ولا حكموا المسلمين في الهند وأندونيسية، ولم يحكموا الحبشة وليبيريا، وكلّ هذه الشعوب التي عددتُها لا تختلف في تخلّفها عن العرب في تخلّفهم. وأمّا شنق نفرٍ من العرب في أثناء الحرب العالمية الأولى فكان من أخطاء الدولة العثمانية الضعيفة، فإنّ الجماعات الضعيفة تعتقد أن قتل فرد واحد أو أفراد كثيرين يمكن أن يبدّل مجرى التاريخ.

ثمّ إنّ كلّ دولة تعتقد أن وجودها في كلّ أرض تحكمها وجود شرعيّ،

فإذا قاومها مقاومٌ لجأتْ إلى عقابه على شكل هي ترضاه. إنّ الإنكليز كانوا مستعمرين في الهند، وإنّ الإفرنسيين كانوا مستعمرين في تونسَ والجزائر والمغرب وفي سورية ولبنانَ فصنعوا من المظالم ما نَعْرِفُه. وما أمر فلسطين منّا ببعيد.

- إنّ كثيراً مِمّا نُسمّيه قوميّاتٍ كان من غايتِه تقسيمُ البلادِ العثمانية بينَ الدول الغربية. وإذا كانت الدعوةُ إلى قوميةٍ عربيةٍ دعوةً صحيحةً غايتُها، كما قيل، توحيدُ البلاد العربية وٱستقلالُها، فلماذا نجد في البلاد العربية اليومَ نحو عِشرين دولةً قلَّ أنْ تَجِدَ دولتين منها على وفاق؟ أنا لا أقولُ إن العرب مخطئون في السير على مِنهاجٍ قومي، ولا أنا قلتُ أيضاً إنّهم مُصيبون. ولكنّي أقولُ شيئين ٱثنين:

- إنّ العرب لم يَصِلوا من طريقِ القومية إلى الأمل الذي أرادوا تحقيقه.
- إن العربَ كانوا مُخطئين ـ في جميع ميادين حياتهم السياسية والاجتماعية ـ لمّا تركوا الإسلام الذي نَهَضَ بهم من قبلُ ثمّ تبدّلوا به نظرياتٍ قوميةً أو سياسيةً ٱنحدرتْ بهم إلى حيث هُمُ الآنَ.

ومن العرب مَنْ يقول إنّه يسير سيراً قومياً عربياً، ولكنّه في الحقيقةِ يجري جرياً أجنبياً أممّياً. إنّه يعتقد أن السير في جانب نافعٌ وفي الجانب الآخر ضارٌّ. إنّ الجانبين سواء: يختلفانِ في التَسْمِية ثمّ يَتّفقانِ في المبدأ والمُنتهى..

هذا الكتاب في «تجديد التاريخ: في تعليله وتدوينه» ليس كتاباً جامعاً لأشتات من النظريّات والأقوال. إنّه يَمَسّ النظريّاتِ مَسّاً خفيفاً ثمّ يضَعُ عليها فصولاً. في هذا الكتابِ فصولٌ من التاريخ القديم وفصولٌ من التاريخ الأوسط وفصولٌ من التاريخ الحديث. ولقد كان بوُدّي أن أضعَ فصولاً في التاريخ

المعاصر، كما أرى وَضْعَ هذه الفصول من التاريخ المعاصر، ولكنّي وجدتُ أنّني سأصدمُ وأصْطَدِمُ فآثرتُ السلامة للكتاب ولما يحتوي.

وهنالك تاريخٌ يموتُ: هو التاريخُ الذي يُخادِعُ العربَ عن حاضِرهم ويَنْسِبُ تخلّفهم إلى الحكم العثمانيّ. إنّ العالمَ يستفيقُ الآنَ من تلك البغضاء التي كان يُكِنُّها للأتراكِ العثمانيّين، وفي كلِّ يومٍ نَجِدُ مؤتمراً أو كِتاباً أو مقالاً يُحاولُ أن يُردّ التاريخَ العثمانيَّ إلى مَكانته. واليومَ (١٩/٦/١٩٨٠) ظَهَرَ في جريدة «السفير» (بيروت، ص١٢) مراجعةٌ لكتاب هو «ذِكرياتُ يوسف الحكيم» (١٨٧٩ ـ .....) في جزأين: «سوريةُ والعهدُ العُثمانيّ ـ بيروتُ ولبنانُ في عهدِ آلِ عُثمانَ» (دار النهار للنشر ـ بيروت). والمراجعةُ بقلم محمّدِ فرحاتٍ. والمؤلّفُ يوسفُ الحكيم يذكر العهد العثمانيّ بالخير ويُشيد بما كان في الحكمِ العُثماني من العدل ومن المساواة بين جميع الرعايا.

أنا لم أجيء بهذهِ الكلمةِ لأزيدَ على ما ذَكَرْتُه في بعضِ فصولِ هذا الكتاب، ولكنْ لأقولَ إنّ التاريخ أمانةٌ في الأعناق لأنّه المَدى الذي يجري فيه تهذيبُ الشعوب. إنّ تربيةَ الشعوب على الكَذِب كتربيةِ الشعوب على الضَغينة، كلاهُما مُضِرٌّ بالشَعْبِ الذي يقرأ ذلك التاريخ القائمَ على الكَذِبِ أو على الضغينة.

إنّ على العرب في حاضِرهِمْ أن يُعيدوا كتابةَ تاريخِهمُ الحديثِ حتّى تَتَّضِحَ لهم رُؤيةُ المستقبل. ولعَلّي قد خَطَطْتُ بالصفحاتِ التالية إطاراً يَصْلُحُ لأنْ يكونَ مُنطلقاً لإِصلاحِ مَوْقِفنا من ماضينا ومن حاضِرِ الدُوَلِ التي تُناصِرنا باللسانِ وحدَه ثمّ تُحاولُ القضاء علينا باليدين معاً. فعسى أن يَعِيَ ذلك سادتُنا وكُبَراؤنا.

بيروت: سادس شعبان ١٤٠٠.
١٩/٦/١٩٨٠م.

ع. ف

تجديد التاريخ

إعادة كتابة التاريخ

إنّ الواقعةَ (الحادثة التاريخيّة) الواحدةَ يُمكن، في كثيرٍ من الأحوال، أن تُكتَبَ عدداً من المرّاتِ على أوجهٍ مختلفة. يُدَوِّنُ المؤرخ عادةً كلَّ واقعة على وجهٍ يَسْتَنِدُ فيه إلى ما يَعْرِفُ من التفاصيل المُتّصلة بتلك الواقعة وإلى ما يُدْرِكُ من أسبابِ حُدوثِها. فإذا اتّفَقَ أنْ عَرَفَ ذلك المؤرّخُ، فيما بعدُ، عدداً جديداً من التفاصيل أو أدْرَكَ عدداً جديداً من الأسباب، وَجَبَ عليه حينئذٍ أن يُعيدَ كِتابَةَ هذه الواقعةِ من جديدٍ حتّى يُدخِلَ تلك التفاصيلَ الجديدةَ وتلك الأسبابَ التي أدْرَكَها استئنافاً في الإطارِ التاريخيِّ الذي يجعَلَ هذه الواقعةَ نفسَها أوضَحَ في السَّرْدِ وألصَقَ بالمَنْطِق وأقربَ إلى الواقع: إلى الذي جرى في التاريخ.

وفي روايةِ التاريخ طَرَفانِ: السَّرْدُ القَصَصيّ والمُعالجة المُعَلِّلة (المُفَلْسَفة بالأسباب والنتائج). أمّا التاريخُ الذي يجري في السرد القصصيّ (وهو ليس بتاريخٍ على الحقيقة) كقِصّة عنترٍ ومُغامراتِ الأبطال الخُرافيّين والتاريخِ الوطنيّ للأطفال، مِمّا يُرادُ به تَسْلِيَةُ عوامِّ الناس أو تَحْميسُهم أو تَنْشِئَتُهُمْ تَنْشِئةً مُعَيَّنَةً بضَرْبِ الأمثال، فإنّه يُكتَبُ مرّةً واحدةً كتابةً عاطفيّةً مُنَمَّقةً ثمّ يَبْقى على صورتِهِ هذه أبَداً (إلّا ما يُضافُ إليه بينَ الحينِ والحين من زيادةٍ

في المُبالغاتِ أو زيادة الألفاظ لِزيادةِ التأثير في العواطف، أو ما يَنْقُصُ منه أحياناً بالنِسيان، أو ما يُبَدَّلُ فيه تَبَعاً لِرَغْبة السامعين أو مُداراةً للحاكمين أو تَقَرُّباً لذوي البأس والوَجاهة ممّن يَظْهَرونَ بينَ الحينِ والحينِ في مَيْدانِ الحياةِ السياسية أو على مَسْرحِ الحياة الاجتماعية).

وأمّا التاريخُ الذي يَجْري في المُعالجة المُعلِّلَة فهُوَ المقصودُ ببَحْثِ «تَجْديد التاريخ»، وهُوَ مجموعُ الوقائعِ التي يَجِبُ أن نُعيدَ كِتابَتَها مرّةً بعد مرة كُلّما وَصَلَ إلينا تفاصيلُ جديدةٌ منها أوِ انكَشَفَتْ لنا أسبابٌ مُستأنَفَةٌ لها.

مسوّغات تجديد التاريخ

والمُسَوِّغات لتجديدِ التاريخ كثيرةٌ. أوّلُها أن الوقائعَ تَتَوالى بتَوالي الأيام، فكُلُّ يومٍ جديدٍ يأتي بوقائعَ جديدةٍ يَجِبُ أن تُدَوَّنَ وتُضَافَ إلى سِلسلة التاريخ الّتي لا تنتهي. ثمّ إنّ عدداً من الوقائعِ تَنْكَشِفُ لها مَعَ الأيّام تفاصيلُ جديدةٌ، كما مرّ قبلَ بضعةِ أسطرٍ. وتختلف الأحوالُ باختلافِ الأزمانِ فيَحْتاجُ المُؤرِّخُ إلى عَرْضِ الوقائعِ القديمةِ عَرْضاً جديداً لِفَهْمِ تلك الأحوالِ فَهْماً أدقَّ وأصحَّ وأحسن.

وتحدُثُ في العالم أحداثٌ من الحروب العامّةِ والثّوْرات المَحَليّة والنَهَضات الاجتماعية والكُشوفِ العِلْمية فتبرُزُ في الحياة العامّةِ عناصرُ جديدةٌ مِنَ السياسة والاقتصاد والدين ومِنَ الحُرّيّة أو الاسْتِبْداد ومن الانتصار أو الهزيمة ومِنَ الرُقِيِّ أوِ التَقَهْقُر وسوى ذلك فيَرْجِعُ نَفَرٌ من المُؤرّخينَ، إلى التاريخ يُريدون أن يُفسّروا به ما حَدَثَ من التغيير في بيئَتِهِمُ الاجتماعيةِ الخاصّةِ أو في الحياة العالمية العامّة - لاعتقادِهِم أنّ هذا الذي حَدَثَ لم يَكُنِ ابن ساعتِه، ولكنّه نتيجةُ أسبابٍ كثيرةٍ ونهايةُ تَطَوُّرٍ طويلٍ

ـ فيُعيدون تدوينَ عددٍ من فصولِ التاريخ من جديدٍ لِيُوكّدوا جانبَ العواملِ الجديدةِ التي كانت قد بَرَزَتْ في بيئةٍ من البيئات الاجتماعية أو في الحياة العامّة منذ زَمَنٍ قريبٍ.

وتجديدُ التاريخ مرتبطٌ بالعَدالة (بالعِلم والأمانة والخُلُق)، إذ ليس تجديدُ التاريخِ إلغاءً لما سَبَقَ من الوقائع التي يُخالف بعضُ الناسِ فيها بعضاً من الرأي السياسيِّ أو الديني أو الاجتماعيّ أو الشخصيّ. إنّ نفراً من الأُمَراء أو الثُوّار أو السياسيّين العاديّين إذا هم وَصَلوا إلى الحُكْم أشاروا بطَمْسِ آثارِ مَنْ سَبَقَهُمْ وبإبراز آثارِهِمْ هم. وربّما رَجَعَ بعضُ هؤلاء إلى التاريخ المُدَوَّنِ فأَمَرَ بتَبْديله أو تَشْويهه حتّى يكونَ اسْمُهُ هُوَ بارزاً بينَ الأسماء أو عالياً فوق الأسماء. وربّما كان بَعْضُ هؤلاء مُخْلِصاً فاعْتَقَدَ أنَّ الحياةَ الماضيةَ كانتْ خاطِئَةً فعَلَى المجموع أنْ يبدأ حياةً جديدةً بتاريخٍ جديدٍ. في مِثْلِ هذه الحالِ الثانيةِ يَقَعُ التَنْبيهُ على ما حَسُنَ من الحياةِ الماضية (والحَثُّ على الاحتفاظ به) والتنبيهُ على ما ساء منها (والحثُّ على إهماله وتناسيه). ولقد جاءتْ هاتانِ القاعدتانِ المُتلازمتانِ في حديثين لرسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم. فالقاعدةُ الأولى: الإسلامُ جَبٌّ (قَطَعَ) ما قبلَه (فهذا الحديثُ يَنُصُّ على وُجوبِ تناسي ما أساء فيه الأفرادُ والجماعاتُ قبلَ الإسلامِ من العَصَبيـة والثّأرِ والربا والأحقاد حتّى يستطيعَ المسلمون أن يَحْيَوْا حياةً جديدةً لا أعباءَ ثِقالاً فيها). وأما القاعدةُ الثانية فداخِلَةٌ في الحديثِ الشريفِ: أحاسِنُكُمْ في الجاهلية أحاسِنُكُمْ في الإسلامِ (ممّا يَدُلُّ على أنّ في الماضي حَسَناتٍ وسيّئات. وليس العاقلُ مَنْ ألْغى الماضيَ بكلّ ما فيه، بلِ العاقلُ من مازَ الحَسَناتِ من السيّئات فاحتفظ بالأولى وأهْمَلَ الأخيرةَ).

تجديد تاريخنا الحديث

ومعَ أنّ المسلمين اليومَ محتاجون ـ بعدَ ما نَزَلَ بهم من الكوارث مُنْذُ الحروبِ الصليبية ـ إلى تجديدِ تاريخِهِمْ بالتعليلِ والتَدْوين في جوانبَ كثيرةٍ من حياتِهِمُ الماضية، فإنّ حاجتَهم المُلِحَّةَ إنّما هِيَ إلى إعادةِ كتابةِ فصولٍ من تاريخِهِمُ الحديث[1] وما سَبَقَه قليلاً: مُنذُ بَدْء حركةِ الاستعمار والاعتداء على استقلالِ البلادِ الإسلامية في آسِيَةَ وإفْريقِيَةَ. ومُسوّغ هذا التجديدِ هنا سَبَبانِ أوّلُهما أنّ المستعمِرَ كَتَبَ لنا تاريخاً مصنوعاً يُبرِزُ فضلَ استعماره بلادَنا، فجاء نَفَرٌ كثيرون منّا فاعتمدوا هذا التاريخَ المصنوعَ ـ عَفْواً وغَفْلةً[2] أو قَصداً واسْتِنامةً ـ فأصبحَ هذا التاريخُ يُمَثِّلُ جانباً من ماضينا الضعيفِ المُخزي ثمّ لا يدُلُّ على وَعْينا الحاضرِ ولا يُوافق أمَلَنا في الوُثوبِ إلى مُسْتَقْبَلٍ ألْيَقَ بنا. وأمّا ثاني السَبَبَيْنِ فهو حاجتُنا إلى أن نَعْرِفَ تلك العواملَ التي جَعَلَتْ منّا في الماضي القريبِ شُعوباً تخضَعُ للاستعمار والاستعباد ثمّ تَصْبِرُ عليه هذه المُدّةَ الطويلة.

(١) راجع تحت: التجديد في تقسيم أدوار التاريخ (ص ١٥).

(٢) من الأمثلة في الاعتماد على الغربيّين المستعمرين في كتابة تاريخنا ما ذكره اللواء الركن محمود شيت خطّاب في كتابه القيّم «العقيدة والقيادة»، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م (ص ٤٢٢، الحاشية)، قال: «من المؤسف أن ينقل قسم من الكتّاب العرب والمسلمين مزاعم المفترين الحاقدين من مؤرّخي الغرب بلا تمحيص دقيق ولا دراسة عميقة. من هؤلاء الكتّاب الأستاذ محمّد عبد الله عنّان في كتابه: مواقف حاسمة. فقد نقل افتراءات الغربيّين بحذافيرها في بحثة فتح القسطنطينية (ص ١٦٩ ـ ٢٠٠). وأفْتَرِضُ توفّرَ النيّة الحسنة في نقله لأنّه اقتصر على المصادر الأوروبّيّة فقط... وآمل أن يعيد النظَر في ما كتب وأن يرجع عمّا سجّله (دونّه) من أخطاء تاريخية، فليس ما كتبه تاريخاً بل اتهامات باطلة يرفضها العقل ولا تناسب علمَه وفضله وجهوده في خدمة التاريخ العربي والإسلامي». انتهى ـ فإذا كان المؤرخ الكبير محمّد عبدالله عنان قد عثر هذه العثرة، فما بالك بمن هم دونه علمًا واختباراً وعدالة!.

أسس تجديد التاريخ

لتجديدِ التاريخِ أُسُسٌ نظريّةٌ وأسسٌ عمليّة. أمّا الأُسُس النظريّةُ فكثيرةٌ، والكلامُ عليها بشيء من التفصيل يكون في الكلامِ على تعليل التاريخ[1]. وأمّا الأُسس العمليّةُ فهِيَ المتعلّقةُ بتدوينِ التاريخ فعلاً. من هذه الأسسِ العملية:

أ - تقسيمُ الأعصُرِ التاريخيّةِ تقسيماً جديداً ينطبقُ على تاريخِ الحَضارة الصحيحةِ، وفيما يتعلّق بتاريخِ الإسلامِ خاصّة.

ب - كَرُّ البصرِ ثانيةً في عددٍ من وجوه التاريخ القديم، وفي تاريخِ العِبرانيّين - وهُوَ في مُعْظَمِه تاريخٌ مصنوع - على الأخصّ.

ج - تَخْلِيَةُ تاريخِ الإسلام من الإسرائيليّات (القِصص المحبوكة بالخُرافات أو بالمُحالات).

د - تعريبُ الأعلام بنَقْلها من اللفظ الأجنبيّ الذي وَضَعَها فيه المؤلّفون الغَرْبيون (الفرنسيّون والإنكليز خاصّة) بحَسْبِ قواعدِ لُغاتِهم، ثمّ جئنا نحن فَنقلناها عنهم بألفاظِهِمْ هُمْ. والصوابُ أن نُثْبِتَ تلك الأعلام

(١) راجع «كلمة في تعليل التاريخ» للمؤلّف، بيروت (دار العلم للملايين).

بلفظِ أهلِها (البابليّين أو الكَنْعانيّين أو الإغريق واليونانيّين أو اللاتين) أوْ أنْ نُجْريهَا في الصِيَغ العربية.

هـ - إعادةُ النظر في الأحداث المُفْرَدَةِ عند التدوينِ فَنَتْرُك التكويمَ الذي لجأ إليه كثيرون ثم نَتَخَيَّرُ الأحداثَ التي تَرَكَتْ أثَراً حَضارياً باقياً.

وهنالك عددٌ آخرُ مِنَ الأسسِ تَمُرُّ بنا عندَ الكلام على تعليلِ التاريخ.

تقسيم الأعصر التاريخيّة:

إنّ أوّلَ ما يَجِبُ علينا في تجديدِ التاريخ أنْ نعودَ إلى الأعصر التاريخية فنُحاوِلَ لها تقسيماً جديداً.

قَسمَ المُؤرّخونَ الغَربيّون (الأوروبيّون) عصورَ التاريخ ثلاثَ فَتراتٍ جامعةً عامّةً: العصور القديمةَ والعصورَ الوُسْطَى والعصور الحديثةَ. أمّا العصورُ القديمةُ فتَبْدأ منذُ أقْدمِ الأزْمِنَةِ وتنتهي بسُقوط رُومِيَةَ عِنْدَ هَجَمات البرابرةِ الجرْمان على أوروبّة وسُقوط الإمبراطورية الرومانية الغَرْبية، عامَ ٤٧٦ للميلاد. وأمّا العصورُ الوُسطى فَتَبْدأُ من عام ٤٧٦م وتنتهي بسُقوطِ القُسْطَنْطينية عاصمةِ الدولةِ الرُومية (أوْ بيزَنْطِيَة، أو الإمبراطورية الرومانية الشَرْقية) في يدِ الأتراك العُثمانيين، عامَ ١٤٥٣م. ثمّ تأتي العصورُ الحديثةُ، من عام ١٤٥٣م إلى أيامنا.

لا شَكَّ في أنّ العُصورَ التاريخيةَ - وَهِيَ عُهودٌ حَضاريةٌ في الواقع - لا تتبدَّلُ بينَ يومٍ ويومٍ ولا بينَ عامٍ وعامٍ، ولكن لا بُدّ لنا من حُدودٍ في الزمنِ نبدأ منها ثمّ نَقِفُ عندَها ونحنُ ندرُسُ تاريخَنا. وكان الغَرْبيّون الأوروبيّون، لمّا اتّخذوا تلك الأعوامَ الفواصِلَ عندَ تقسيمِ أعصُرِ التاريخ، قد نَظَروا إلى

تاريخِهِمْ هُم واتّفق أن كان هذا التقسيمُ العرفيّ مُلائماً لحَياتِهِمُ الحَضاريةِ والثقافية. كانَ أولئكَ المُؤرِّخون نصارى. مِنْ أجلِ ذلك عَدّوا سُقوطَ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ الغَرْبية (وهي دولةٌ نَصْرانية كاثوليكيّة، في النِصْفِ الغَرْبي من قارّةِ أوروبّةَ) ثمّ سُقوطَ القُسطنطينيّة (وَهِيَ عاصمةُ دولةٍ نَصرانيةٍ أرْثوذُوكسيّة، في النِصْفِ الشرقي من قارّةِ أوروبّةَ) مَعْلَمَيْن عَظيمين يُمَثِّلان خُسرانَ النَصرانيةِ في الشَرْق والغَرْب ثُمّ يتحَوّلُ عِندَهما مَجْرى التاريخِ تَحَوُّلاً أساسيّاً.

ومَعَ أن تاريخَنا، نحنُ العربَ عامّةً والمُسلمين خاصّةً، يَنْطَبِقُ في عددٍ من حُدوده الزمَنِيّةِ على هذا التقسيم، فإنّ من الأصوبِ أن يكونَ لنا تقسيمٌ أكثرُ انطباقاً على عهودِ حضارتِنا وثقافتِنا. من أجلِ ذلك يحسُنُ أن نَعْتَبِرَ التقسيمَ التاليَ:

العصور القديمة.

أ - عصورُ ما قبلَ التاريخ (منذُ أقدمِ الأزمنة - منذُ أصبحَ الإنسانُ إنساناً[١] - إلى نحوِ عام ٤٥٠٠ قبل الهِجْرة). إنّ معرفَتَنا بهذه العصورِ قائمةٌ على دِراسةِ بقايا الإنسانِ: بقايا جسده[٢] وبقايا أدَواتِه المصنوعةِ من الحِجارة[٣]، قبلَ وقوعِه على مَعْدِنِ النُحاس، نحو عامِ ٤٥٠٠ ق.هـ.

(١) الإنسان: هو الكائن المفكّر البارع في الصناعات التي يعملها بيديه.
(٢) بقايا الإنسان: بقايا جسده (عظامه: الجمجمة، الهيكل العظمي، عظام متفرّقة) نفسها أو في شكل متحجّرات (حينما تطمر العظام ويتصلّب ما حولها ثمّ تفنى العظام نفسها تترك فراغاً يشبه شكلها. ويتّفق أن يمتلىء هذا الفراغ على مرّ الأيّام بالطين الذي يتجمّد ويتصلّب بدوره فيتّخذ شكل الفراغ الذي خلّفته العظام. هذا الطين الذي اتّخذ شكل العظام ثم تصلّب هو المتحجّرات).
(٣) كانت هجرة محمّد رسول الله من مكّة إلى المدينة في عام ٦٢٢ للميلاد. فإذا نحن كنّا نتكلّم على =

ب - العصُور التاريخية (منذُ عام ٤٥٠٠ ق.هـ. إلى الهِجرة[١]). في مطلَعِ هذا الدورِ عَرَفَ الإنسانُ الكتابةَ، ثمّ أصبحتْ مَعْرِفَتُنا بهذه العصورِ التاريخية قائمةً في الدَّرَجة الأولى على قراءة الرُقُم[٥] التي بَقِيَتْ لنا من الشعوب المختلفة. وفي هذا الدور عَرَفَ الإنسانُ المعادن: النُحاس والحديد والشَبَهَ (النُحاس الأصفر[٣])، وقد عَرَفَ أيضاً الفِضّةَ والذهبَ والقَصْدير (الذي كان يَخْلُطُ بِهِ النحاسَ حتّى يحصُلَ على الشَبَهِ) وغيرَها. ثمّ عَرَفَ صُنْعَ الزجاج.

العصور الوسطى.

تنتهي العصورُ القديمةُ بالهِجرة وتبدأُ العصورُ الوسطى لأنّ الهِجرَةَ مَعْلَمٌ أبرزُ في تاريخِنا وفي تاريخِ العالَمِ أيضاً مِنْ سُقوطِ رُومِيَة في يدِ القُوط عامَ

= العهود السابقة للتاريخ (العصور الحجرية) فإنّنا نستطيع أن نزيد على التواريخ المعمول بها الآن (بحسب ولادة المسيح عليه السلام) خمسمائة عام أو أن نبقي تلك التواريخ على ما هي لأنها في الأصل تقريبية. وليس يضرّ الباحث في تاريخ الإنسان في العصور الحجريّة أن يقول إن الظاهرة أو الواقعة التاريخية كانت قبل خمسين ألف سنة أو قبل خمسين ألف سنة وخمسمائة سنة أو قبل واحد وخمسين ألف سنة.
في الجلسة التي عقدتها لجنة التاريخ في الملتقى السادس للتعرّف على الفكر الإسلاميّ اعترض عضو واحد على بدء العصور الوسطى بالهجرة وأصرّ على أن يكون البدء بظهور الإسلام (أي لمّا صدع محمّد رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم بالدعوة) والفرق بين الحدّين ثلاث عشرة سنة. ومع أن البدء بتأريخ العصور الوسطى بالدعوة الإسلامية (قبل ثلاث عشرة سنة) لا ينتج منه (بالبناء للمجهول) فرق ملموح (راجع الحاشية السابقة)، فإنّني أحب أن ألزم رأي سائر أعضاء اللجنة الذين كانوا قد اقترحوا أن يكون الحدّ بين العصرين هجرة محمّد رسول الله إلى المدينة، ذلك لأنّ النتائج الحضارية كانت تالية للدور المدني في تاريخ الإسلام.
(١) الرقيم: حجر عليه صورة أو كتابة.
(٢) النحاس الأصفر تسمية شائعة ولكنّها خطأ. فالنحاس الأصفر ليس عنصراً معدنيّاً ولكنّه مزيج.
(٣) القوط قبائل من البرابرة الجرمان كانوا قد جاءوا (مع أقارب لهم في أعصر قديمة جدّاً) من شماليّ الهند إلى شماليّ أوروبّة. ثمّ انهّم بدأوا يعيشون في أوروبّة منذ القرن السادس قبل الهجرة (الأوّل للميلاد). وفي القرن الثالث قبل الهجرة انحدروا إلى شرقيّ أوروبّة، ومن هنالك انساحوا في جنوبيّها وغربيّها. والقوط الشرقيّون هم الذين استقرّوا في شرقيّ أوروبّة وفي إيطالية وقضوا على الإمبراطورية الرومانية الغربية، سنة ١٤٦ قبل الهجرة (٤٧٦ م).

٤٧٦ م. إنّ النتائجَ الحَضاريّةَ التي تَلَتِ الهِجْرةَ وظهورَ (انتشارَ) الإسلام كانتْ أشدَّ تأثيراً في العالَمِ من سقوطِ رُومِيَةَ الذي يُمْكِنُ أن يُعَدَّ واقعةً مَحلِّيَّةً أو أوروبيّةً على الأكثر، بينَما ظهورُ الإسلامِ وانتشارُه كان ذا نتائجَ حَضاريّةٍ عامّةٍ أعمقَ أثراً في آسِيَةَ وأُوروبّة وإفريقِيَةَ معاً. والأثرُ الوحيدُ لسقوطِ رُومِيَةَ كان أثراً سلبيًّا: القضاء على حَضارةٍ شائخَةٍ كانتْ في طريقِ الزّوال، وكانْ يُمْكِنُ أن تَسْقُطَ بكُلِّ حَدَثٍ آخَرَ، يدُلُّنا على ذلك أنّ أوروبّةَ ـ أوِ العَالَمَ المَسيحيّ في أُوروبّة على الأصحّ ـ قد غَرِقَتْ بعدَ ذلك في ظلامٍ دامِسٍ قُروناً كثيرة.

أمّا الهِجْرةُ (أو ظهورُ الإسلامِ، انتصارُه، انتشارُه) فقد كانَ لها نتائجُ سلبيةٌ كالقضاء على الوَثَنِيّة وعلى الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرُومية، كما كان لها نتائجُ إيجابيةٌ بَنّاءةٌ. لقدِ كان الإسلامُ، لِلمرّةِ الأولى في التاريخ، ديناً مُوَحِّداً توحيداً صحيحاً (خالصاً من التعديد والتجسيم ومُجَرَّداً حتّى من الرُموز والرسوم) استطاع أن ينشُرَ حَضارةً جديدةً أفضلَ وأسمى وأوسعَ من الحَضارتين اللّتَيْنِ قضى عَلَيْهِما (أو كانَ في الحقيقة سَبَباً للقضاء عليهما): الحضارةِ الفارسيةِ والحضارة الروميّة. والإسلامُ لم يترُكْ آسِيَةَ الوَثَنِيَّةَ وأوروبّة البيزَنْطية[1] وإفريقية الساذَجَةَ كما كانت عليه، مِثْلَما فَعَلَ سقوطُ رُومية بأوروبّة، بل نَقَلَ هذهِ القارّاتِ الثلاثَ إلى حضارةٍ جديدةٍ فَتِيَّةٍ قَوِيّةٍ في الدّين واللُّغة والسِّياسة والثقافة. فالهِجْرة أحقُّ أن تكونَ المَعْلَمَ بينَ العُصورِ القديمةِ والعصورِ الوُسطى حتّى بالإضافةِ إلى أُوروبّةَ نفسِها، إذ بينَما نَقَلَ سُقُوطُ رُومية

(١) الدولة الرومية نسبة إلى الروم (وهو الإسم الذي أطلقه العرب أول ما أطلقوه على جيرانهم اليونان، وإن كانت هذه التسمية «الروم» مشتقّة من اسم مدينة روما عاصمة إيطالية وموطن الرومان). أمّا التسمية المقابلة «للدولة الرومية» في كتب الغربيّين فهي الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطيّة (نسبة إلى بوزنطيوم أو بيزنطيوم: الاسم القديم للقسطنطينية). وأوروبّة البيزنطيّة. هي الأصقاع التي كانت خاضعة للدولة الرومية وكان مذهبها الديني في النصرانية المذهب الأرثوذكسي الذي لا يقرّ برئاسة البابا.

العالمَ الأوروبيَّ من حضارةٍ ضَعيفةٍ يسيرةٍ إلى هَمَجيّةٍ، ومِنْ شيء من بَقِيَّةٍ من العِلْمِ إلى جهلٍ مُطْبِقٍ، ومِنْ بَصيصٍ من النور إلى ظُلمة حالكةٍ، رأينا الإسلامَ ينقُلُ ثلاثَ قارّاتٍ من الظُّلُماتِ إلى النور، ومن الجهلِ إلى العِلْم، ومن شِبه هَمَجيّة إلى حضارةٍ زاهرة. وليس أدلَّ على ذلك مِنْ أنّ البلادَ التي دَخَلَها الإسلامُ في أُوروبّةَ نفسِها (كالأنْدَلُس وجَنوبيّ إيطالية) أصبحَتْ في ذِرْوةِ الرُقِيِّ والحضارةِ بينَما بَقِيَتِ البلادُ الأوروبّية التي لَمْ يدخُلْ إليها الإسلام (كألمانية وفَرَنْسَة وإنْكلْتَرَة) في حَضيضِ الجهلِ والهَمَجيّة. ثمّ إنّ هذه البلادَ نفسَها لم تدخُلْ إليها الحضارةُ فيما بعد إلّا من طريقِ الأندلُسِ وجَنوبيّ إيطالية بوَساطةِ الكُتُبِ التي نَقَلَها الأفرادُ المُتَنَوّرونَ من أهْلِها من اللُّغةِ العربية إلى اللغة اللاتينية وإلى اللغات الجرْمانية والرومانسية. مِنْ أجْلِ ذلك كلّه لا يجوزُ أنْ يَظَلَّ اسْمُ هذه العُصورِ في تاريخِنا (ولا في تاريخ العالَم) العصورَ المُظْلِمَةَ، بل يَجِبُ أن نُسَمّيَها «**العصورَ المُشرقة**». إنّ عصراً فيه أُمّتانِ. أمّةٌ ذاتُ حضارةٍ ساميَةٍ وأمّةٌ بلا حَضارةٍ لا يجوزُ أن نَنْسِبَهُ إلى الأمّة التي لا حضارةَ لها. فالعُصُورُ الوُسطى. لا يجوزُ أنْ تُنْسَبَ في التاريخ إلى أوروبّةَ المَسيحيةِ ولا أن تُسَمّى بِصِفَةٍ من صفاتِ أوروبّةَ المَسيحية يومَذاك، بل يَجِبُ أنْ تُنْسَبَ العصورُ الوُسطى إلى الأمّة التي خَلَقَتْ حَضارةَ العصورِ الوُسطى، كما أنّه لا يجوزُ ـ مَعَ الأسَفِ الشديدِ ـ أن نَنْسِبَ العصرَ الحاضرَ إلى الأمّةِ العربية ولا أنْ نُسَمِّيَهُ بِصِفَةٍ من صِفاتِ العربِ اليومَ.

العصور الحديثة:

تبدأ العصورُ الحديثة في التقسيمِ الغَرْبيِّ الأوروبّيِّ بالفتحِ العُثْمانيِّ لِلْقُسْطَنطينية، سَنَةَ ٨٥٧ للهِجْرة (١٤٥٣م) لأنَّ فتحَ القُسْطَنطينية (وهم يقولون: سُقوطُ القسطنطينية) مَعْلَمٌ فاصلٌ في تاريخ النصرانية. إنّ سقوط

رُومية (٤٧٦م) في يَدِ القُوطِ البرابرةِ كان قد قضى على سُلْطَةِ رُومِيَةَ السِياسيةِ وأقامَ في أوروبّةَ وَحَداتٍ سياسيّةً تُنازِعُها (وقد كان من أسبابِ الحروب الصليبية، في إبّانِ العصورِ الوُسطى، أنّ البابويّةَ أرادتْ أن تَتَخلّصَ من الأمراء الذين كانوا يُنازعونها السُلطانَ السِياسيَّ بأن تَقْذِفَ بهم إلى حَرْبٍ بَعيدينَ عن أوروبّة).

ثم ها هم أولاءِ العُثمانيّون يفتحون القُسطنطينيةَ ويَقْضُون على الدَّولة البيزنطية (الإمبراطورية الرُومانية الشَرْقية) فَتَفْقِدُ الكنيسةُ المَسيحيّة سُلْطَتَها السِياسيّةَ العُليا في شَرْقِ أوروبّةَ، كما كانتْ قد فَقَدَتْ سُلْطَتَها السياسةَ العُليا في غَربيِّ أُوروبّةَ بسُقوط رُومِيَةَ.

إلا أن هذا الحَدَثَ التاريخيَّ الّذي اتّخَذَهُ الأوروبيّون مَعْلَماً مُؤسِفاً في تقسيمِ العُصورِ يُمكِنُ، إذا نحنُ نَظَرْنا إليه مِنَ الجانبِ الآخَرِ، أن نتّخِذَه أيضاً مَعْلَماً في تقسيمِ العصورِ التاريخيّة عندَنا. كان العَرَبُ يُريدون فتحَ القُسطنطينيةِ مُنْذُ أيامِ الخليفةِ الثاني في الإسلام، عُمَرَ بن الخطّاب (ت ٢٣ هـ = ٦٤٤م). ولكنّ عُمَرَ بنَ الخَطّاب لم يُوافِقْ على المشروع الّذي تقدّمَ به وَالِي الشامِ مُعاويَةُ بنُ أبي سُفيانَ. وفي أيامِ الخليفةِ الثالثِ عُثمان ابنِ عَفّانَ بدأ العَرَبُ فُتوحَهم في البحر.

ومُنْذُ أيامِ مُعاويَةَ بن أبي سُفيانَ في الخِلافةِ الأمويّة (٤٠ ـ ٦٠ للهجرة: ٦٦٠ ـ ٦٨٠م) أخَذَ العَرَبُ بِحِصارِ القُسطنطينيةِ بُغْيَةَ فَتْحِها فلَمْ يُوَفَّقوا[١].

---

(١) كثرت محاولات فتح القسطنطينية في التاريخ. وقد حاول العرب فتحها مراراً كثيرة منذ خلافة عثمان بن عفّان، في أواخر سنة ٣٢هـ (٦٥٣م). وكذلك حاول العثمانيّون فتحها. وفتحها الصليبيّون، سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م). راجع موازنة بين حسن المعاملة التي لقيها سكّان القسطنطينية النصارى من السلطان المسلم محمّد الفاتح وبين سوء المعاملة التي لقيها سكّان القسطنطينية أنفسهم على يد الصليبيّين إخوانهم في الدين.
إقرأ مثلاً في كتاب «العقيدة والقيادة» للواء الركن محمود شيت خطاب (ص ٤١٣ وما بعد).

فلمّا اسْتَطاعَ السُلطانُ العُثمانيّ مُحَمَّدٌ الثاني (الفاتح) أن يدخُلَ القُسطنطينية ظافراً ثمّ استطاع الفتحُ العثمانيُّ للقسطنطينيةِ أن يُبَدِّلَ حضارةَ شرقيِّ أوروبّةَ ثمّ يُبَدِّلَ سياسةَ أوروبّةَ كلِّها، أصبحَ فَتْحُ القُسطنطينة مَعْلَماً بارزاً يجوز أن يكونَ حَدّاً فاصلاً بينَ عصرَيْنِ من عُصورِ التاريخ.

والعصورُ الحديثةُ، منذُ فتحِ القسطنطينية إلى اليوم (٨٥٧ ـ ١٤٠٠ هـ)، مدّةٌ طويلةٌ جدّاً لا لأنها تمتدُّ خَمْسَمائةِ عامٍ أو تزيدُ، فإنّ القرونَ الوُسطى كانتْ أطولَ أمَداً، ولا بالإضافة إلى العصور القديمة الّتي امتدّتْ منذُ فَجرِ التاريخ ألوفَ الأعوامِ ومِئاتِ أُلوفِها، بل بالإضافةِ إلى سُرْعةِ تتابُعِ الأحداثِ السِياسية والعَسكرية والثقافية.

هذه العصور الحديثةُ يَجبُ أن تُقْسَمَ، بالإضافةِ إلى حياتِنا، ثلاثةَ عُهودٍ:

أ ـ العهدَ الحديثَ على الحَصْرِ، من فَتْحِ القُسطنطينية إلى حَملةِ بونابرتَةَ على مِصْرِ وساحِلِ الشام (سَنَةَ ١٢١٣ هـ = ١٧٩٩م). ويُقارِبُ هذه السَنَةَ سُقوطُ الدولة المغُوليّةُ المُسْلمة في الهِنْد (١٢٢١ هـ = ١٨٠٦م) واحتلالُ فَرَنْسَةَ للجزائر (١٢٤٦ هـ = ١٨٣٠م). ويمكن أن نَصِفَ هذه الفترةَ بأنّها «أعْقابُ السُلطة الإسلامية في العالَم»، فإنّ الإنكليزَ قَضَوْا في الهِنْد على دَوْلَةِ المُغُل (المُغول) المُسْلِمة ثمّ حكموا في الهِند حُكْماً مَسيحيّاً من وراء الهِندوسِ المَجوسِ، كما أن فرنسةَ حكَمَتِ الجزائرَ حُكْماً مَسيحيّاً تَبْشيريّاً.

ب ـ العهدَ الاسْتِعْماريَّ، مِنْ حَملةِ بونابرتَةَ إلى نِهايةِ الحربِ العالَميةِ الثانية (١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥م). في هذِهِ الفَترةِ كانتْ جميعُ البِلادِ الإسلاميّة، في

آسِيَةَ وإفْرِيقِيَةَ، تحتَ الاحتلالِ الأوروبيِّ المُباشر، فقد تقاسَمَتِ الحُكْمَ على البلادِ المُسلمةِ (وعلى معْظَمِ البلاد غيرِ المُسلمة) في تَيْنِكَ القارّتين دُوَلُ أُوروبّة المَسيحيّةُ (بَريطانية وفَرنسة وألمانية وإيطالية وإسبانية والبُرتغال وبلجيكة والروسية ثمّ الاتّحاد السوفياتي). وإذا كان بعضُ الناسِ لا يعُدُّ الاتّحادَ السوفياتيّ بَلداً مسيحيّاً (لأنّ حكومتَه لا تَدينُ بالنصرانية عِبادةً)، فإنّ سياسةَ الاتّحادِ السوفياتي تِجاهَ البلادِ الإسلامية هي سياسةُ العِداء التي تَتّسِمُ بها سياسةُ الوِلايات المُتّحدة وبَريطانيةَ والبُرتغالِ وغيرِها سَواء بسواء.

ج ـ العهدَ المُعاصِر، مُنْذُ نِهايةِ الحَرْبِ العالَمِيةِ الثانيةِ[1]، وفيهِ مُحاولةُ البِلادِ التي كانت تحتَ الاستعمارِ الأوروبّيِّ في قارّةِ آسِيَةَ وقارّةِ إفريقيَةَ للحصولِ على استقلالِها ولِمُمارَسَةِ هذا الاستقلال على دَرَجاتٍ مختلفةٍ من الاعتماد على الدُّوَلِ الأوروبيّةِ نفسِها. في هذه البلادِ البلادُ الإسلاميةُ العربيةُ، وفيها البلادُ الإسلاميةُ غيرُ العَربية، وفيها البلادُ غيرُ الإسلامية. ولقدْ سَكَّ عُلماء الاقتصادِ الأوروبيّونَ لهذه البلاد اسْمَ «الدُّوَلِ المُتَخلِّفَةِ»، ثمّ رَأَوْا ـ لأسبابٍ نَفْسِيّةٍ ـ أن يجعَلوا الاسْمَ «الدُّوَلَ النامِيَة». في هذهِ البلاد التي كانتْ مُستَعْمَراتٍ ثمّ أصبحَتْ دُوَلاً ناميةً عددٌ منها فضّلَ أن يَبْقى على صلةٍ اقتصاديةٍ وثقافيةٍ وسِياسيّة أيضاً بالدولة الكُبرى التي كانت تَسْتَعْمِرُهُ (فإنّ قديماً تَعْرِفه خيرٌ من جديدٍ تُحاول

(١) كان اقتراح أعضاء لجنة التاريخ في الملتقى السادس (في الجزائر) للتعرّف على الفكر الإسلاميّ أن يبدأ هذا الدور من العصور الحديثة بالعام الذي استقلت فيه الجزائر (١٣٨٢ هـ = ١٩٦٢ م). ولكن لا بأس في البدء بانتهاء الحرب العالمية الثانية لأنّ عدداً من الدول العربية والإسلامية الناهضة قد نالت استقلالها أو بدأت كفاحها في سبيل هذا الاستقلال في عام من الأعوام التي تلت انتهاء الحرب العالمية الثانية.

مَعْرِفَتَهُ)، بينما فضّل عددٌ آخرُ من الدولِ الناميةِ أن يَتَبَدّلَ بالمُسْتَعْمِرِ القديمِ مُعِيناً جديداً. وبما أنّ «الاشتراكية» كانتْ زِيّاً شائعاً بعدَ الحرب العالَمية الثانية، فإنّ عَدداً من الدول النامية آثَرَ أنْ ينقُلَ مَكانَ سُكناه من المُعَسكَرِ الغربيِّ الرأسمالي إلى المعسكر الشرقيِّ الشيوعي. وهكذا نَجِدُ أنّ البلادَ التي كانتْ مُستعمراتٍ (أو بلادَ انتدابٍ أو مَناطِقَ حِمايةً، وكلُّ هذهِ بمعنىً!) قد نالتِ استقلالاً حُقوقِيّاً نظرِيّاً على دَرَجاتٍ مُخْتلِفةٍ من المَكانة الدوليةِ (بالاضافة إلى سَعَةِ أراضيها وعَدَدِ سُكّانها ثمّ بالنِسْبةِ إلى شِدّة مُقاوَمَتِها أو ضَعْفِ مقاومتها لنُفوذ الدول الكبرى). ولكنّ هذه الدُّوَلَ الجديدةَ ظلّتْ كُلُّها متخلّفةً (وهذه هي الصِفَةُ التي أُطْلِقَتْ على هذهِ الدُّولِ أوّلاً) في ميادينِ الاقتصادِ والثقافةِ والفَنّ الصِناعي «التكنولوجيا».

غيرَ أنّ في هذا العهدِ شيئاً من التناقُضِ البارز: ضَياعَ فِلَسْطينَ (بعَوامِلَ كثيرةٍ مَحلِيَّةٍ ودَوْلية) ثمّ استقلالُ الجزائر اسْتقلالاً قام على جُهودٍ صَحيحة من «حَرْبٍ للتحرير»، لا على رَغْبَةٍ من الدُّوَلِ الكُبرى في إنهاء اسْتِعمارِها (حقيقةً أو مَجازاً) كما حَدَثَ في فِلَسْطينَ مَثَلاً. ويبدو أن اسْتِقْلالَ الجَزائِرِ هو المَعْلَمُ الواضحُ الذي بَرَّرَ تَسْمِيَةَ هذا العهدِ بعهدِ الاستقلال.

٢ ـ كرّ البصر في تاريخنا القديم

وفي تجديدِ التاريخِ يجب أن نُعيدَ النظرَ في التاريخ القديم عامّةً وخاصّة: يجبُ أن ننظُرَ أوّلاً إلى نشأةِ الإنسانِ في بلادِنا[1] ثُم نجعَلَ أحداثَ

(١) يبدو أنّ أقدم أشخاص النوع الإنسانيّ على الأرض يرقى إلى نحو مليونين من السنين. ومنذ خمسين ألف عام أو تزيد ظهر الإنسان العاقل (وهو بالفرنجية Homo Sapiens) وكان قد اكتسب الاعتدال في حجم الجمجمة والاستقامة في الجبهة (مقدّم الرأس) والتكوّر في القحف (القسم الخلفي من =

بلادنا مِحْوَرَ التاريخ فنؤرّخَ لجميعِ الأمم والشعوب بالإضافةِ إلى تاريخِنا، ولا نترُكَ تاريخَنا ـ حتّى في عصورنا الحَضارية الزاهية ـ تَبَعاً لتاريخ الغَرْبِ، كما يفعَلُ المؤرّخون الغربيون عادةً وكما يفعَلُ نَفَرٌ مِنّا أيضاً.

وكذلك يجب أن نُعيدَ النظرَ في تاريخنا القديم: يجبُ أن نُفَصِّلَ الكلامَ على تاريخ شِبه جزيرةِ العَرَب، وخصوصاً في اليمنِ فإنّ اليمنَ القديمةَ غَنيّةٌ بأحداثها وتُراثها. وتكادُ اليمنُ تكونَ مُهْمَلَةً في مُعْظَمِ كُتُبِ التاريخ العربيّة. وأسوأ من تاريخ اليمن حظّاً تاريخُ بلادِ البربر وبلاد الزَّنْج (في إفريقيَة)، مَعَ أنّ أُمّةَ البربر (الأمازيغن: الأحرار، الأشراف) وأمّةَ الزَّنجِ قد شاركتا الأعرابيّين في نَهضة الحضَارة القديمة. إنّ تاريخ هاتينِ الأمّتين العظيمتين قليل البروز في سير التاريخ الذي ندوّنه. ولعل السببَ الأوّل في ذلك هو جهل العرب لغة البربر ولغة الزنج (أو لغات البربر ولغات الزنج على الأصح).

ثمّ يجب أن نُخفّفَ كثيراً من تاريخ العِبرانيّين، لا لِضَئالة الصلة الصحيحةِ بينَ تاريخِ العِبرانيّين وتاريخِ العَرَب [1]، بلْ لأنّ التاريخَ العِبرانيّ القديمَ مصنوعٌ في أكثرِه وموضوعٌ لا يثبُتُ على التحقيق والبحث. إنّ جانباً

= الجمجمة) وصغر الذقن والأسنان ثمّ أصبحت أطرافه (يداه ورجلاه) موافقة لوقوفه منتصباً. هذا الإنسان العاقل (الحكيم، المرويّ: المفكّر) كان قد أصبح قادراً على استخدام يديه في صنع أشياء كثيرة، كما كان قد أصبح يروّي في الأمور ويعرف الجوانب الفكرية والروحيّة والفنيّة من حياته الفطرية. وقد عاش هذا الإنسان في آسية وإفريقية وأوروبّة. وقد وجدت بقايا هذا الإنسان في بئر العاتر (الجزائر) على نحو ثلاثين كيلو متراً إلى الشرق من مدينة تلمسان. وكذلك وجدت بقاياه في كرومانيون Cro-Mangnon (في مقاطعة دوردون، في أواسط فرنسة). والإنسان العاقل هذا هو الجدّ الأعلى للعرق الأبيض.

(١) إنّ اللغة العربية واللغة العبرية فرعان من الفروع الشمالية للغة الأعرابيّة الأمّ. ويبدو أن اللغة العربية أقدم في النشأة وإن كانت متأخّرة عنها في الرواية والتدوين. وتمتاز اللغة العربية بأنها احتفظت بالإعراب التامّ الذي هو خاصّة أساسية في اللغة الأعرابية الأمّ. وقد كثر اتّصال التاريخ العربي بالتاريخ العبرانيّ قبيل الهجرة وبعدها، ولكنّ ذلك الاتّصال لم يكن حميداً ولا سعيداً، بل كان كما هو اليوم.

كبيراً من أعدادِ السنينَ فيه اختلافٌ كبيرٌ كتاريخِ داوودَ وسُليمانَ مثلاً، دعْ عنك تواريخَ يوسفَ ويعقوبَ وموسى وإبراهيم.

حتّى نسبةُ التوحيدِ إلى العِبرانيّين لا تستقيمُ إذا نحن نَظَرْنا في أخبارٍ كثيرةٍ من التوراة. إنّ يَهْوَه ـ وهو لفظٌ قلَّ ما استعمله اليهودُ ـ كلمةٌ رمزيّةٌ في وجهِ اشتقاقِها وضبطِ لَفْظِها خِلافٌ كبير، حتّى غالى نَفَرٌ من الباحثين فجعلوها تَرْجِعُ إلى اللفظ اللاتيني «يوبيتر» (المُشتري من الكواكب) كبيرِ الآلهةِ عند الرومان، ويقابلُه عند الإغريق (قدماء اليونان) «زفس». وبما أن العِبرانيّين يَلْفِظون الواو فاء فارسيّةً، فقد قال هؤلاء المُغالون إنّ كلمةَ يهوه (يهفه) منحوتةٌ من أول كَلِمَةِ يوبيتر اللاتينية وآخر كلمة زفس اليونانية: «يوفس». وإذا كُنّا نحن لا نُلقي بالاً إلى هذه التفاصيلِ فإنّه لا مندوحةَ لنا عن القولِ بأنّ أعظمَ الكَلِماتِ في اللغة العبرية وأقدَسها في الدين اليهوديّ يَكْتَنِفُها الغموضُ [1].

وأنا قد أوردتُ هذا التحليلَ اليسيرَ لا لذاتِه بل لأنّي أُريد أن أخلُصَ إلى القولِ بأنّ كَلِمَةَ «آلِهِ» عندَ العِبرانيّين لن تَكْتَسِبَ «المَدْرَكَ المُطْلَقَ»، ما داموا يُضيفون لَفْظَةَ إلَه إلى مُضافٍ إليه جُزئيّ: إلَهي، إلَهك، إلَهنا، إلَهكم، إلَه العبرانيّين، إلَه اسرائيل الخ، وأن «الله» عندهم قد ظلّ إلَهاً قَوْمِيّاً: إلَه العبرانيّين (سفر الخروج ٩:١) وإلَه إسرائيل (صموئيل الأوّل ١٧:١، يوشع ١٣:٧، ١٩، ٢٠، ٨:٣٠، ١٨:٩، ١٩). وليس استعمالُ «إلَهِ اسرائيلَ» استعمالَ تعميمٍ بل استعمالُ تخصيصٍ بمعنى أنّ لِكُلِّ شعبٍ إلَهاً

(١) مع هذا الغموض في وجه اشتقاق كلمة يهوه، فإن اليهود لا يذكرون «يهوه» لفظاً، بل هم يشيرون إليه بلفظ «أدوناي» (سيّدي، ربيّ). وذكر لي صديقي الدكتور أنيس فريحة (ولد ١٩٠٢/٩/٢١ م) أن يهوه فعل مضارع يقابله في العربية «يهوي ـ بياء منقوطة بنقطتين» من الماضي «هوى» (وقع ـ وجد) فيكون معنى «يهوه» الموجود» (الذي هو موجود).

خاصاً به، كما يبدو في سفر التَّثْنِية (٤ : ٧): «لأنه أيّ شعبٍ هو عظيمٌ لهُ آلِهَةٌ قريبةٌ منه كالربّ إلَهنا». وهذا كله منافٍ لمدرك التوحيد.

فإذا نحن أضَفْنا إلى هذا كلّه أنّ كلمةَ «ألوهيم» هِيَ صيغةُ الجَمْعِ للكلمة وأنّ العِبرانيّين كانوا يُقيمون المذابحَ لإلَهِهم ويُقدّمون له القرابينَ، أدْرَكْنا وشيكاً أن نِسبَةَ التوحيدِ إلى العبرانيّين (كما زَعَم نَفَرٌ من مؤرّخي العصور القديمة) نِسبةٌ لا تستقيمُ بحالٍ. ولقد تصرّف الذين نَقلوا التوراة إلى اللغة العربية حينما وَضعوا كلمةَ «الله» مكانَ كلمة ألوهيم[1] «راجع سفر التكوين ١ : ١ وما بعد، مع مقارنة الترجمة العربية بالأصل العِبري، ذلك لأنّ كلمة «ألوهيم» نفسها لا تزل في أماكن كثيرة من التوراة تدلّ على «إله محلّيّ إقليميّ» خاصّ ببني اسرائيل[2].

٣ ـ تخلية تاريخنا من الاسرائيليّات:

إنّ العُلماء المسلمين قد تَنَبّهوا إلى الإسرائيليّاتِ (الخُرافات التي دَسّها اليهودُ) في تفسير القرآن الكريم (بعدَ أن دَخل نَفَرٌ من اليهود في الإسلام رياء ونِفاقاً أو لأنّ نَفَراً من أحْبارهم قد رَوَوْا لِنَفَرٍ من المفسّرين والمحدّثين المسلمين رواياتٍ مدخولةً أو مصنوعةً، فتقبّلَ هؤلاء النفرُ المسلمون تلك الرواياتِ غَفْلةً منهم وثِقَةً بالذين رَوَوْها فكانتْ ثِقَتُهم في غير مَحَلّها). ولقد قام نفرٌ من عُلمائنا بتَخْلِيَةِ التفسيرِ والحديث مِن الأقوال المَوْضوعة.

(١) الوهيم صيغة للجمع لا شكّ في ذلك. ولكن اليهود يقولون إنهّا جمع للتعظيم لا للتعديد (ولكن لعلّ هذا الجمع كان في الأصل يدلّ على التعديد، إذ كان لكلّ قبيلة «آلوهاً». والواضح من التوراة أن العبرانيّين لما خرجوا مع موسى من مصر كانوا لا يزالون وثنيّين يعدّدون الآلهة، كما يبدو من التوراة في أماكن مختلفة من سفر التكوين وسفر الخروج وسفر التثنية وسفر القضاة. وليس هنا مكان تفصيل ذلك. فكلمة آلوهيم، إذن، تدلّ على التعديد وعلى أن العبرانيّين وحّدوا آلهتهم في إله واحد ولكن تركوا اسمه بصيغة الجمع إرضاء للأسباط كلّهم.

(٢) Cf. Doane 334'

غير أن التاريخَ السياسيَّ لم يَنَلْ مِثْلَ العِنايةِ التي نالَها التفسيرُ والحديثُ. ولقد ذَكَرَ ابنُ خلدونٍ في المُقدّمةِ أمْثِلَةً من هذه الخُرافات والأخبار المكذوبة. من هذه الأمثلة: غزوُ ملوكِ التتابعة[1] في إفْرِيقيَة ـ أوْهامُ نَفَرٍ من المؤرّخين في تفسير سورة الفَجْر[2] ـ أسبابُ نَكبَة البرامكة ـ المأمونُ وشُرب الخمر والتسلّق بالحِبال إلى مساكن النساء، وغيرُها. إنّ بعضَ هذه الأخبار، إذا لم تكُنْ من وَضْعِ اليهود على الحصْر، فإنّ الذين رَوَوْها كانوا «يستندون في ذلك إلى أخبارِ القُصّاص الواهيةِ، والتي لعلّها من افتراء» الأعداء[3].

ثمّ إنّ جانباً من الإسرائيليّات قد وَجَدَ طريقَه إلى تاريخنا لمّا قَبِلَ نَفَرٌ من مُؤرّخينا التعليلَ اللاهوتيَّ الذي تَقوم عليه الحِكايات الواردةُ في التوراة[4]، وهُوَ تعليلٌ لم يَقْبَلْهُ الإسلامُ، لأنّ الإسلامَ جعَلَ للانسانِ يَداً في سَيْرِ التاريخ: «إنّ الله لا يُغَيّرُ ما بِقَوْمٍ حتّى يُغيّروا ما بأنْفُسِهِمْ[5]».

٤ ـ تعريب الأعلام.

من المعقول في تدوين أسماء الأعلام أن نُثْبِتَ العَلَمَ كما يَلْفِظُه أهلهُ أو أن نُجْرِيَه في صِيغةٍ تأْلَفُها لُغَتُنا.

اعتمدَ مُعْظَمُ المؤرّخينَ المُعاصرين لنا في تدوينِ التاريخ القديم على المصادرِ الأجنبيةِ (الإفرنسية والإنكليزية في الأكثرِ). وعادةُ الأوروبّيّين أن

(١) مقدّمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠ م) ص ١٢ وما بعد؛ (بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٦١ م) ص ١٤ وما بعد.

(٢) السورة ٨٩، وموضع الشاهد الآية السابعة: إرم (بكسر الهمزة وفتح الراء) ذات العماد (بكسر العين).

(٣) مقدّمة ابن خلدون ١٩، ٣١.

(٤) راجع التعليل اللاهوتي ثمّ التعليل الإسلامي. * «كلمة في تعليل التاريخ» ٨ ـ ٩.

(٥) القرآن الكريم ١٣ : ١١، سورة الرعد.

يتناولوا الأسماء القديمةَ ويُجروها على مُقْتضى لَفْظِهم. فإذا عَلِمْنا أن الأمَمَ تَتَبايَنُ في الأصواتِ الخارجةِ مِن حَناجرها أدْرَكْنا مَدى التَشْويهِ الذي يُمْكِنُ أن يلحَقَ بتلك الأسماء عندَ نَقْلِ ألفاظها من لُغةٍ إلى لغةٍ. إنّ اللُغَةَ اليونانية واللغةَ اللاتينية ليس فيهما من الأصوات جيمٌ أو حاء أو شين أو عين أو غين. وليس في اللاتينية خاصّةً ثاء أو ذال. وبما أن الأعلامَ التي أخذها مُؤرّخونا عن الإفرنسيّين والانكليز كان الإفرنسيون والإنكليزُ قد أخذوا المتعلّقَ منها بالتاريخِ القديمِ من الرومان (أهلِ اللغة اللاتينية) أو اليونانِ، أدرَكْنا التَبايُنَ العظيمَ الذي يُمْكِنُ أن يلحَقَ بالاسْمِ الذي وَصَلَ إلينا من تاريخ المصريّين أو البابليّين أوِ الأشوريّين أوِ الكَلْدانيّين أوِ الفرس على لسان الفرنسيّين أوِ الانكليز روايةً عن الرومان واليونان.

إنّ مُعْظَمَ المؤرّخين في لُغتنا يقولون «رَعْمَسِيسُ» لِفِرْعَوْنَ[1]، ومنهم من يقول رَمْسِيسُ (ففي مِصْرَ مثلاً رمسيس اسمَ شخصٍ، وفيها أيضاً: مسرحُ رمسيسَ) هذا الاسْمُ في اللفظِ الفِرْعونيّ «رع مَسّو» (رَعْ خَلَقَهُ)، ورَعْ هو إلهُ الشمس عِنْدَ المصريّين القدماء. وجاء اليونانُ إلى هذا الإسم فعَمِلوا فيه عملاً عاقلاً على مُقتضى لُغتهم: حَذَفوا منه العينَ (لأنّ هذا الصوت الحَلْقيّ ليس في لِسانهم فليس له في أبْجَدِيَّتِهِمْ حرفٌ دالٌّ عليه) وجرّدوه من الواو (علامةِ الرفع في الفرعونية) فَبَقِيَ منه «رَمس» ثمّ إنّهم ألْحقوا به «يس» علامةَ الرفع في عَدَدٍ من الأعلام عندهم) فإذا هو رَمْسِيسُ. فمِنَ المعقولِ أن نقولَ نحنُ اليومَ: رعْمَسّو (باللفظ الفِرْعونيّ) أو أنْ نَنْقُلَ هذا الاسمَ إلى لُغتنا فنقولَ: عبدُ شمسٍ، وَهْبُ رَع، هِبَةُ رع (عطا الله)، ولكنّي لا أرى بوجهٍ أن نقولَ: رَمْسِيسُ (لفظاً أجْنَبياً خالصاً) ولا رعمسيسُ (لفظاً مُشوّهاً بينَ الفِرعونية

(١) فرعون: لقب لملوك مصر.

والفرنسية أو الإنكليزيه). ولنا من تَعريبنا للاسمِ العِبْريّ «يوحانان» يوحنّا، أو حَنّا اختصاراً، مَثَلٌ بارزٌ[1]. فنحن نقول: يحيى.

ويقولون: نيبور، وهي نِفَّرُ (بلدةٌ في جَنوب العِراق، شرقَ النَجَفِ، يُنْسَبَ إليها محمّدُ بنُ عبدِ الجبّار النِفّريّ صاحبُ كتاب «المواقف») وسامال، ويُمْكِنُ أن نَرُدَّها إلى أصلها الأعرابي: سَمـال أو شَمال أو سَمْأل أو شَمْأل (وهي بلدةٌ قديمة في شَمالِ الشام ـ سُوريَةَ ـ كانتْ منافسةً لأشورَ). ثم أرك أو أوروك، وهي الوَرْكاء[2] (بلدةٌ قديمةٌ في جَنوب العراق)، كما يقولون: البتراء، وَهِيَ سَلْعُ (بلدةٌ في جنوب شَرْقِ الأردنّ) سمّاها العربُ الأوّلون «سَلْعَ» لأنّها في مكانٍ صخريّ. فجاء اليونان فعبّروا عنها بكَلِمَةٍ من لُغتهم: بَتْرا (الصخْر، الحجَر). فلِماذا نأخُذُ نحنُ اليومَ الأسم اليونانيَّ بلفظه ولا نَرْجِعُ إلى الأصل العربي بلفظه ومعناه؟

ويقولون: سرجون، وهو شَرّوقينُ: مَلِكٌ أكّديٌّ (عقديّ) قديمٌ جدّاً تَسمّى بـاسمه نَفَرٌ من ملوك أشـور ـ اثـور). هـذا الاسمُ مؤلّف من مقطعين: «شَرّو» (مَلِك) وقَين[3] (عبد)، وعلى هذا يمكن أن نقولَ فيه: قَيْنُ الملكِ أو عبدُ الملك. ويقولون: أشوربنيبال (أحدِ ملوكِ أشورَ)، ويمكن أن يُقالَ له في العَربية: ثَوْرُ بْنُ بَعْلٍ. ويقولون: سمير اميسُ، وَهِيَ سمّورامات

(١) إن الإسم يوحانان ورد في التوراة (العهد القديم). هذه الصيغة العبرية أصبحت في الآرامية يوحنّا ثمّ نقلت إلى اللاتينية «يوهانس» ثمّ هي في الألمانية يوهان، وفي الإنكليزية جون، وفي الإفرنسية جان. فالإفرنسي إذا كان يؤلّف كتاباً في التاريخ أو الأدب مثلاً ومرّ برجل له هذا الإسم (سواء أكان الرجل يونانيّاً أو رومانيّاً أو ألمانيّاً أو إنكليزياً أو فرنسياً) فإنّه يسمّيه «جان» (بالصيغة الفرنسية).

(٢) الوركاء (في القاموس ٣: ٣٢٣): مولد إبراهيم الخليل (والمشهور في التاريخ الغربي أن إبراهيم ولد في مدينة أور).

(٣) في القاموس (٤: ٢٦٢) القين: العبد والحدّاد (وكان عرب الجاهلية يحتقرون الحدادة). والكينة(بكسر الكاف التي قبل الياء). الشدّة المذلّة (القاموس ٤: ٢٦٤).

(قيل مَلكةٌ أشوريةٌ كانتْ زوجَ شَمْسي هَدَدَ (حدد؟) الخامِس بنى لها الجنائنَ المُعلّقة في بابل). ويقولون: داريوس، وقال العرب دارا اختصاراً من اسمه في الفارسية القديمة: داريا فاوْش.

وقال أُستاذنا الدكتور أسدُ رُسْتُمَ لَمّا ألّفَ كتابَه المدرسيَّ «تاريخَ لبنان الموجز» وقَرَنَ اسْمَهُ على غِلافِه باسم فؤاد أفرام البستاني: «وكان الجيشُ العثماني قد تَحرّشَ بالمِصْريّين، سَنَةَ ١٨٣٩، في نِزبَ (بجهاتِ الفُرات» (طبعة عام ١٩٥٧، ص ١٢١) والصواب «نصيبين». وقد أصْلَحَ الدكتورُ أسدُ رستم هذا الخطأ في كِتابه «الروم وصلاتهم بالعرب» (عام ١٩٥٦، ١: ٧٥، ٧٦، ٢: ٢٧، ٤١) فتكلّم على نَصِيبينَ ولم يُسَمِّها نزب!

٥ ـ التخيّر والتكويم

وحينَما يجيء المؤرّخُ إلى أحداثِ التاريخ لِيُدَوِّنَها ـ سَواءٌ عليه أكانَ يُعالجُ التاريخَ العامَّ أو تاريخَ أُمّةٍ أو تاريخَ بلدٍ أو تاريخَ عَصرٍ ـ فإنّ هذه الأحداثَ تكونُ كثيرةً حتّى لَيَسْتَحيلُ عليه أنْ يتناولَها كُلَّها. وينقسم المؤرّخون هنا قِسْمَيْن: منهم مَنْ يُحاولُ أن يَزْحَمَ صَفَحاتِ كتابه بالأحْداث مَلْزوزةً لزّاً شديداً وهُوَ يظُنُّ أنه بذلك يُقَدِّمُ للقاريء صورةً «كاملةً» للعَصْر الذي يدوّن تاريخَه. ومنهم من يَتَخَيَّرُ الحوادثَ فيَقْتَصِرُ على أُمّهاتها لأنّ الحادثَ عنده ليس مَقْصوداً لِذاتِه بل لِما يترُكُ من الأثر في حياةِ الناس. من ذلك المعارِكُ مَثَلاً. ففي كُلِّ حربٍ من الحروب عددٌ من المعارك التي تَقِلُّ حيناً وتكْثُرُ حيناً آخَرَ. فعلى المؤرّخ أن يتناولَ عند تَدْوينِ التاريخ تلك المعاركَ أو تلك المَعْرَكَةَ التي تركَتْ أثَرَها واضحاً في حياة الذين خاضوها. لِنأخُذَ مثلاً على ذلك أيامَ العَرَب[1].

(١) تطلق كلمة يوم في تاريخ الجاهلية على «الحرب» فنقول مثلاً: يوم ذي قار، كما تطلق على المعركة=

إنّ مُحَمّدَ بنَ جَريرٍ الطَبَريَّ (ت ٣١٠ = ٩٢٣م) ذَكَرَ في كِتابه في التاريخ[1] يَوْمَ جَذِيمةَ ويومَ الزَبّاء ويوم طَسْمٍ وجَديسَ (لأنها أيامٌ بينَ الملوك) ويومَ ذي قارٍ. ومَعَ أنّ أبا الفَرَجِ الأصْفهانيَّ (ت ٣٥٦هـ = ٩٦٧م) ليسَ مُؤَرِّخاً في الدَرَجة الأولى (بل ليس مؤرّخاً ولكنّه أديبٌ إخباريّ قال عن نفسه إنّه يختارُ الرواياتِ الأدبيّة والأشعارَ التي يَطْرَبُ لها القاريء. وربّما جَمَعَ بعضَ الأخبارِ إلى بَعْضٍ حُبّاً بالاختصار)، فإنّه ذَكَرَ في كِتابه «الأغاني[2]» أنّ عِظامَ أيامِ العَرَب ثلاثةٌ: يومُ الكُلاب وهُوَ يومٌ انتصرَ فيه عَرَبُ الشَمال على عرب الجَنوب بعدَ عَهْدٍ من الانتصارات المُتَوالِيَة لِعَرَب الجَنوب على عرب الشَمال؛ ثمّ يومُ شِعْبِ جَبَلَةَ وهو يوم بَدأ بين بني عَبْسٍ وبني ذُبْيانَ ثمّ انْضَمَّ إلى كلِّ قبيلةٍ أحلافٌ لها من عرب الشَمال؛ ثمّ يومُ ذي قارٍ وهو يَوْمٌ كان بينَ العرب والفُرْس انتصرَ فيه العربُ على الفرس لأوّلِ مرّةٍ في تاريخهم.

أمّا عِزُّ الدين بنُ الأثير المؤرّخُ (ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ م). فقد ذَكَرَ في كِتابه «الكامل في التاريخ[3]» رأيَه في هذا المَوْضوع فقال: «أمّا أنا فإنّني أذْكُر الأيّامَ المَشْهورةَ والوقائعَ المذكورةَ التي اشتملَتْ على نَفَرٍ كثيرين وقتالٍ شديدٍ؛ ولم أُعَرِّجْ على ذِكْرِ غاراتٍ تشتملُ على النَفَرِ اليسير (من المتقاتلين لأنّها كثيرةٌ تخرُجُ عن الحَصْر».

غير أنّ هذه القاعدةَ في تَخَيُّرِ الأحداثِ عندَ تدوين التاريخ تختلفُ بينَ الكتابِ المُخْتَصَر المُوجز والكِتاب الوَسيطِ المُعْتَدلِ الحَجْمِ والكتاب

= من معارك الحرب. ولا ريب في أن المنطق يجعل «اليوم» يدلّ على المعركة الواحدة (لأنّ المعركة كانت تدور في يوم واحد أو في نهار واحد على الأصحّ).

(١) تاريخ الرسل والملوك أو تاريخ الأمم والملوك (دار المعارف، مصر) ٢: ١٩٣ ـ ٢١٢.

(٢) طبعة دار الكتب ١١: ١٣١.

(٣) طبعة بيروت (دار صادر ودار بيروت) ١: ٥٠٢.

المبسوط المُفَصَّل. فإذا نحنُ جِئْنا إلى الحروب التي قام بها رَسولُ الله وجدناها كثيرةً[1] بينَ غَزْوةٍ قادَها بنفسه وبين سَرِيَّةٍ بَعَثَها بقيادة قائدٍ. ولا يستطيعُ المؤرِّخُ - حتى في الكِتاب المدرسيّ للمَرْحَلة الابتدائية - أن يَفِيَ هذه الحروبَ حَقَّها في انتشارِ الدعوة إلّا إذا ذكر منها أربعَ غَزَوات: غزوةَ بدرٍ الكُبرى، غزوةَ أُحُدٍ، غزوة الخَنْدق، فَتْحَ مَكّةَ.

ولكنْ إذا نحنُ استَعْرَضْنا تلك الغَزَواتِ والسَرايا لم نَجِدِ المؤرِّخَ، مَهْما يُرِد التوسُّعَ فيها، مُحتاجاً في جَلاء الصورةِ التاريخيةِ لانتشارِ الدعوة - إلى أكثرَ من إحدى عَشْرَةَ غزوةً منها الأربعُ التي ذُكِرَتْ آنفاً؛ أمّا الغَزَواتُ السَبْعُ فهي:

سَرِيّة عبدِ الله بنِ جَحْشٍ أُولى الغَزَوات كُلِّها (سنة ٢ هـ) لِمَا فيها من وُضوحِ السِياسة العسكرية، فقد كَتَبَ رسولُ الله لعبدِ الله بن جحشٍ كتاباً وأمَرَهُ ألّا ينظُرَ فيه حتّى يَسيرَ يومَيْن ثمّ ينظُرَ فيه فيَمْضِيَ لِما أَمَرَهُ به».

- إجْلاء بني النَضير (السنة الرابعة للهِجْرة) وَهِيَ مِثالٌ لِسياسةِ الرسولِ في أمرِ اليهود ونَقْضِهِمْ للعُهود مرّةً بعدَ مرّةٍ.

- الحُدَيْبِيَةُ (٦ هـ): خَرَجَ الرسولُ في عَدَدٍ كبيرٍ من أصحابه من المدينة يريدُ مَكّةَ للحجّ. كانت قُرَيشٌ (أَهْلُ مكّةَ المُشْرِكون) قد أَدْرَكَتْ ما صارَ إليه أمرُ الرسول من القوّة فأرسلوا إليه وفداً لِيَثْنِيَه عن دخولِ مكّةَ في ذلك العام على الأقل. وقد عَقَدَ الرسولُ مَعَ سُهيلِ بنِ عَمرو (مُمَثِّلِ المكّيين) مُعاهدة صلْحٍ لم تكُنْ في مَصْلَحةِ المُسلمين في أشياءَ كثيرةٍ. ولكنّ أَهَمِّيتَها أنّ أهلَ مكّةَ أقرّوا لرسولِ الله أنّه أصبَحَ ذا نُفوذٍ في شِبهِ جزيرةِ العرب يستطيعُ به أن يُمْلِيَ

---

(١) أحصى اللواء الركن محمود شيت خطّاب (العقيدة والقيادة، ص ١٣٦ - ١٢٨، ١٦٧ - ١٧٦) حروب الرسول فكانت ثماني وعشرون غزوة واثنتين وخمسين سريّة.

عليهم عدداً من الشروط لأنّ الدَعْوَةَ كانت قد ثَبَتَت في المدينة وأصبحتْ تَجْتَذِبُ إليها جماعاتٍ من أنحاء شِبهِ جزيرةِ العربِ ومن أهلِ مكّةَ أنفسِهِمْ.

- سريّة مؤتة (٨ هـ) أوّلُ مَعْرَكَةٍ اصْطَدَمَ فيها المسلمون بالروم (وبعدَ استشهادِ عددٍ كبيرٍ من المسلمين فيهم قادةُ السَرِيَّةِ الثلاثةِ الذين عَيَّنَهُمْ رَسولُ الله لِيَتَوَلَّوْا القيادةَ واحداً بعدَ واحدٍ) أخَذَ خالدُ بنُ الوليدِ الرايةَ بنفسِه (أقامَ نفسَه قائداً من عند نفسه) وانْسَحَبَ بالمُسلمين الباقِين.

- غزوة هَوازِنَ أو حُنينٍ (في السنة الثامنة للهِجْرة بعد فتح مكّة): آخِرُ معركةٍ جَرَّبَ فيها المشركون (العربُ الذين لم يكونوا بعدُ قد دخلوا في الإسلام) أن يَتَغَلَّبوا على المُسلمين فجَمَعوا أكبرَ عَددٍ من المُحاربين يستطيعون جَمعَه ثم باغتوا المسلمين في وادي حُنينٍ مُباغتَةً مُحْكَمَةً. حتّى أهلُ مَكّةَ الذين كانوا قد دَخلوا في الإسلامِ حديثاً أصبَحَ هَوَى نَفَرٍ منهم مَعَ المشركين على المسلمين. وقد وقعتِ الهزيمةُ على المسلمين في أوّلِ الأمر حتّى إنّ الرسولَ بَقِيَ وَحدَهُ في نَفَرٍ من أصحابه فيهم عَمُّه العبّاسُ بنُ عبدِ المُطَّلِب. وقال الرسولُ للعبّاس: «يا عبّاسُ، اصرُخْ: يا مَعشَرَ الأنصار» (وكان العبّاسُ جسيماً شديدَ الصَوْتِ). فاجتمعَ على صوتِه نحوُ مِائَةِ رَجُلٍ. فاستَقْبَلَ رسولُ الله بهؤلاء الرجالِ المِائَةِ جموعَ المُشركين وقاتَلَهُمْ. فكانَتْ معركةُ حنينٍ آخِرَ معركةٍ وَقَفَ فيها المُشركونَ في وجهِ الدَعْوة الإسلامية.

ويتبَعُ غزوةَ حُنينٍ حِصارُ مدينةِ الطائف. كان بنو ثَقيفٍ (أهلُ الطائف) أكثرَ أحلافِ بني هَوازِنَ يومَ حُنينٍ وأشدَّهم عَداوةً وقِتالاً للمسلمين. فلمّا وقعتِ الهزيمةُ في وادي حُنينٍ على المشركين، انسحَبَ بنو ثَقيفٍ ومَعَهم جماعاتٌ من غيرِهم إلى مدينتِهم، وكان عليها سُورٌ (حائطٌ) يُطيفُ بها (ولذلك سُمِّيَتِ «الطائفَ»). ورأى الرَسُولُ أن يأتِيَ إلى الطائف لِقتالِ أهلِها، فإنّ

مَعْرَكَةَ الطائفِ كانتْ ـ من الناحيةِ العسكرية ـ تَتِمّةً لمعركةِ وادي حُنين. وبَعْدَ حصارٍ طال أكثرَ من عِشرينَ يوماً تَخَلَّلَها قِتالٌ شديدٌ اسْتَسْلَمَتِ الطائفُ ودَخَلَ أهلُها في الإسلام.

غزوة تَبوكَ (سَنَةَ ٩ هـ) وتبوكُ في مَدْيَنَ شَماليّ الحِجاز) على مَقْرُبَةٍ من خليجِ العَقَبَةِ (في الأردُنّ اليومَ). وقد قَصَدَ الرسولُ بهذه الغزوةِ أن يُقاتِلَ الرومَ، وكان قد «بَلَغَهُ أن هِرَقلَ مَلِكَ الرومِ ومَنْ عِنْدَهُ من مُتَنَصِّرَةِ العَرَبِ قد عَزَموا على قَصْدِه» (ابن الأثير ٢ : ٢٧٧).

وأقامَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم في تَبوكَ بِضْعَ عَشْرَةَ ليلةً فلم يُجاوِزْها هو ولا قَدِمَ عليه أحدٌ من الروم أو مِنْ مُتَنَصِّرةِ العرب للقتال. ولكنّ يوحنّا بنَ رُؤْبَةَ صاحبَ أَيْلَةَ (مِنطقة العَقَبة) جاء إلى الرسول وصالحه على جِزْيةٍ. فكَتَبَ له رسولُ الله بذلك كتاباً (مُعاهدةَ جوارٍ وسلام). وفَعَلَ عددٌ من أهلِ المدن المُجاورةِ لِلْعَقَبَةِ فِعْلَ يوحنا بن رُؤبة.

ـ سَرِيّةُ أُسامةَ بن زيدٍ، عَقَدَ الرسولُ لواءها ثمّ تُوُفِّيَ قبل أن يَفْصِلَ أُسامةُ عنِ المدينة، فأنْفَذَها أبو بكرٍ الصِديقُ بعدَ أن بُويِعَ بالخلافة. ومَعَ أن رِدّةً على أبي بكرٍ قد حَدَثَتْ بعدَ وَفاةِ الرسولِ واحتاجَ أبو بكرٍ إلى جيوشٍ كثيرةٍ لمحاربةِ أهلِ الرِدّة، فإنّه أصرَّ على إنفاذِ سَرِيّةِ أسامةَ وقال: «لا أحُلُّ لِواءً عَقَدَهُ رسولُ الله». والقيمةُ التاريخيّةُ لهذه السَرِيّةِ تأكيدُ رَغْبةِ رسولِ الله في الفتحِ خارجَ شِبْهِ جزيرةِ العربِ والتأكيدُ على أنّ الدعوةَ إلى الإسلامِ للناسِ جميعاً.

أربع تراجم قديمة

في هذا الفصلِ أربعُ تراجِمَ لأربعةٍ من أصحابِ الأسماء المشهورة في أُمَمِهِم وفي التاريخ العامّ أيضاً. هؤلاء القدماء الأربعةُ هم: أوصيري (أوسيريس أو أوزيريس) المِصْري ثمّ كرِشْنا وبوذا الهِنديّان ثم زَرادَشْتُ الفارسيّ. وبرُغْمِ تباعُدِ بلادِ هؤلاء وأزمانهم، فإنّ الأحداثَ المنسوبةَ إليهم متقاربةٌ كثيراً أو قليلاً. أمّا السياقُ العامُّ فيكادُ يكونُ واحداً. ولكنْ يبدو أن حياةَ زَرادَشْتَ تختلف في الدرجة لا في النَوع عمّا رأينا عند أوصيري وكرشنا وبوذا من الذين أراد اتباعُهم المتأخّرون ـ في الزمنِ ـ أن يقطَعَ كلُّ فريقٍ حياةَ صاحبهِ من الحياة الإنسانيةِ ثمّ يُلْحِقَها بحياةٍ هي فوق الإنسانية. إنّ حياةَ الرجالِ المشهورين ـ سواءٌ أكانوا أشْخاصاً مرّوا في التاريخ الإنساني أو أمْثِلَةً مرّت في خيالِ الناس تُكْتَبُ ـ في مُعْظَمِ الأحيانِ ـ بعدَ وفاةِ أولئك الرجال. وكثيراً ما تكونُ حياةُ كلّ واحدٍ من هؤلاء الأشخاصِ أو أمثلةِ الأشخاصِ من عَمَلِ خيالِ الكاتبين مقطوعةً مرّةً واحدةً من الأحداثِ التي وقعتْ فِعْلاً في حياةِ أولئك الرجالِ المشهورين.

نحن (و«نحن» تُشيرُ هنا إلى الكَثْرة من عوامّ البشر) نَنْسِبُ عادةً إلى المشهورينِ ما نُحِبُّ نحنُ أن يكونَ أولئك المشهورون قدِ اتّصفوا به في

حياتِهِمُ الواقعةِ أو المُتَخَيَّلَة. وكثيراً ما نجمَعُ من حياة العباقرة والناجحين والأكرمين كلَّ ما لَمَعَ من الأحداثِ ومن الأعمال ـ وخصوصاً ما ضَؤُلَ الجُهْدُ فيه وَعَمّتْ نَتائِجه ـ ثمّ نخلَعُ ذلك كُلَّه على الفردِ الذي نُحِبّه. ولا ضيرَ علينا حينئِذٍ، فيما يرى العامّة منّا وأشباهُ العامّة، إذا نحن نَسَبْنا إلى هؤلاء الأفراد من قَوْمِنا جميعَ المُتناقضات أو جَمَعْنا في أشخاصِهم كلَّ المُحالات. إنّ حياةَ المشهورين من الناس في كلِّ شعبٍ، أكانَ أولئك المشهورون من العُظماء أم لم يكونوا، ليستْ ـ في العادة ـ صورةً لأولئك المشهورين، بل هي صورةٌ لخيالِ الناسِ الذين يُحِبّون أولئك المشهورين.

غير أنّنا لا نُنْكِرُ أنّه قد مرّ في التاريخ رجالٌ عظماء يَنْزِلون في المرتبةِ العالية من طَبَقات الجُهْد الإنساني. وسَرْدُ الأحداثِ الواقعةِ في حياةِ هؤلاء مجرّدةً من كلِّ تزيينٍ ترفعُ هؤلاء ـ عند عقلاء النوعِ الإنساني ـ فوقَ جميعِ الأخيلةِ القائمةِ على المُبالغات اللفظية.

هذه هيَ الفِكْرةُ التي جَعَلْتُ التراجمَ الأربعةَ التالية أمْثِلَةً على القِسمِ الأوّل (الخُرافي) منها.

١ ـ أوصيري (أوزيريس).

كان أوصيري (معنى اسمه: الملك، المستولي على العرش، البُشرى، ويمكن أن يكون أيضاً مَحْجِر العين) ابنَ غبّ ملك الأرض المُمَثَّل في صورة إنسان) من نوت مَلِكة السماء (وأختِ غبّ وزوجته). وقد حَبِلَتْ نوت بابنها أوصيري وهي بعدُ عذراء.

ثمّ أنّ أوصيري تزوّج آسى (أو أوست: إيزيس)، وكانت إلاهة تصنع المعجزاتِ فتشفي المُرضى كما كانت شفيعةَ الأمهات وحاميةَ الأسرة. وكان

المِصريون يمثّلون آسى بِبَقَرةٍ أو يجعلونها امرأةً تستند بِيَدَيْها ورِجْلَيْها إلى الأرض تشبيهاً لها بقوس السماء فوق الأفقين. وقد كان الناس يتعبّدون لها.

وحَمَلَتْ آسى بابنها حور (هورس) وهي عذراءُ في شهر آذارَ (مارس) ثمّ وَلَدَتْهُ في أواخرِ شهرِ كانونَ الأوّلِ (ديسمبر). وكانت وِلادةُ هور من آسى العذراء سِرّاً من أسرارِ ديانةِ المصريّين القدماء. وكثيراً ما نجد صُوَرَ حور بين ذِراعَيْ أُمّهِ العذراء أو على رُكْبَتَيْها. وكذلك نجده أحياناً موضوعاً عَقِبَ وِلادته في مَعْلِف.

ولّما وُلِدَ حُمِلَ سِرّاً إلى جزيرة بوتو خوفاً عليه من أخيه ست (أو تيفون)، فقد حاول ست أن يحولَ دون وِلادة أخيه حور ثمّ حاول القضاء عليه بعد وِلادته. وكان حُور يُدعى الراعِيَ الصالحَ المَلِك. وكذلك كان حور يجترحُ المُعجزاتِ فيُقيم الموتى من الموت مِثْلَ أُمه آسى. وحور، عند المصريين القدماء، هو الله ابن الله والمولود من الله.

وأوصيري وآسى وحور يمثّلون المثلّث (الثالوث) الفِرْعوني في الدين القديم.

وفي روايةٍ أنّ ستّ كان أخا أوصيري (وعمّ حور). وكان ست قد تنبأ بأنّ أخاه أوصيري سيقتله، فدبّر ست قتلَ أوصيري ثمّ وَضَعه في تابوت وألقاه في نهر النيل، فحَمَلَ نهرُ النيل ذلك التابوتَ إلى البحر الأبيض المتوسّط ثمّ قَذَفَ به إلى شواطىء جُبيلَ (في لُبنانَ). فخَرَجَتْ آسى في طلب جُثّة أوصيري وبحثت عنها طويلاً حتّى وجدتها فعادت بها إلى مِصر.

ولكنّ ستّ عَلِمَ بأنّ آسى عادت بجُثّة أوصيري فما زال يبحث عن تلك الجُثّة حتّى اهتدى إلى مكانها فأخذها فقطّعها أربَعَ عَشْرَةَ قِطعةً ثم نثَرها في

نواحٍ مختلفةٍ من الأرض. ولكنّ آسى استطاعت أن تجمَعَ هذه القِطَعَ فأخذتها وَدَفَنَتْها. وبعدَ ثلاثة أيّامٍ (وقيل: بعدَ أربعينَ يوماً) نَهَضَ أوصيري من قبره في الخامسِ والعشرينَ من شهر آذارَ (مارس)، في مَطْلَعِ الربيع، ثمّ ارتفع إلى السماء. وكان قدماء المصريّين يحتفلون في كلّ عام بقيام إلاههم ومُخَلِّصِهِم أوصيري فيُحيون ذِكرى موته بعَشاء قُرباني[1] يأكلون فيه الكَعْكة المُقدّسة[2] التي يكون الكَهَنَةُ قد باركوها فأصبحت قطعةً من لحم أوصيري. إنّ الخُبْزَ بعدَ هذه الطقوسِ المقدّسة بهذه الطريقة يُصْبِحُ جسدَ أوصيري. وقد كان المصريون القدماء يأتون بالخُبز والخَمْر إلى الهياكل ويقدّمونها قرابينَ.

بعدئذٍ آثَرَ أن يَنْزِلَ إلى العالم السُفليّ، إلى الجحيم، لِيُصْبِحَ مَلِكَ ذلك العالم السفليّ والقاضِيَ الديّانَ فيه.

وأراد أوصيري أن يكونَ صالحاً، ولكنّ الشرَّ التقاه من كلّ جانبٍ. وحاول أوصيري أن يتغلّب على الشرّ ولكن قُتل.. ولمّا ارتفع أوصيري إلى السماء صُلِبَ في السماء ليكونَ مُخَلِّصاً للبشر من آثامهم. وأوصيري يتولّى «عمادة» الموتى في العالم السفليّ - في أرض الظلام - لِيَغْسِلَ عنهم ذُنوبَهم. وكان المصريّون يصورونه يَسْكِبُ الماء على المُذنبين، وهم رُكوعٌ بين يَدَيْه، من إبريقٍ في يده. وكذلك كان المصريّون القدماء يَعْرِفون «ماء التطهير»، وكانوا يَغْمِسون الإنسانَ فيه غمساً كاملاً حتّى يتجدّدَ ويُصْبِحَ بلا ذنوبٍ.

---

(١) عشاء قرباني: طعام ديني جماعي (بفتح الجيم) يقام في مناسبة معلومة تقرّباً إلى أوصيري.
(٢) لا يزال المصريون، برغم دخولهم، في الإسلام منذ الفتح، يعدّون «كعك العيد» في كلّ مناسبة جزءاً أساسيّاً ضروريّاً من العيد. ويقال إنّ عدداً من المآسي يمكن أن تحدث في الأسرة إذا لم يستطع ربّ البيت أن يهيّىء اللوازم لصنع كعك العيد. ولا ريب في أنّ جميع البلاد (إسلامية وغير إسلامية) تحتفل بالعيد بصنع مآكل معلومة حسب العادة بصنعها في المناسبات المخصوصة (المشبّك في نصف شهر شعبان، والمعمول والأقراص بتمر في عيد الفطر وعيد الأضحى) إلاّ أنّ هذه كلّها لا ترتبط بوجود كالذي يقال إنّ كعك العيد في مصر يرتبط به.

واتّخذ المصريّون القدماء علامةَ الصليب بجميع أشكالها؛ وأشهرُ هذه الأشكال الصليب ذو العُروة وكانوا يُعدّونه علامةَ الحياةِ والخلود.

٢ - كرِشْنا

في الرواياتِ الهندية القديمة أنّ الإلَه يَلِدُ إلَهاً. وقد كان للإلَه فشنو ثمانيةُ تَجَسُّداتٍ: أمّا السبعةُ الأولى فكانت جزئيةً ظَهَرَ في كلّ تجسّدٍ منها جزء من فشنو. وأمّا التجسّدُ الثامنُ والأخيرُ (قبل أيّامنا) فقد تَبَدّى الإلهُ فشنو كاملاً في كرِشنا، فكان كرِشْنا (عند الهندوكيّين) هو الله المتجسّد أو الله نفسه في صورةِ إنسانٍ.

وكان التجسُّدُ الثامنُ للإلَهِ فشنو في أُسرةٍ من قبيلةِ يادو أشرفِ قبائلِ الهند من ذواتِ النَسَبِ المَلَكيّ. وكانت وِلادةُ فشنو (في صورة كرشنا) من عذراء عفيفةٍ تُدعى ديفاكي اخْتيرت، لأنّ تكونَ «أمَّ الله» (تعالى الله). وقد كان لديفاكي زوجٌ أصبحَ ظِئراً[1] لكرشنا. من أجل ذلك كان كرشنا هو بَراهْما[2] نفسَه. أما كيف يُمْكِنُ للهِ العَليّ أن يتلبَّسَ صورةَ إنسانٍ، فذلك عند الهنادكة من الأسرارِ العميقة في الدين.

كان الإلهُ فشنو يتبدّى جُزئيّاً في هذا العالم بينَ الحين والحين للمحافظةِ على الأخيار ولإهلاكِ الأشرار ولنشر الفضيلة. فلما عمّ الشرُّ وامتلأ العالَم بالخطيئة أرادَ فشنو أن يُجَلِّيَ للناسِ قُدرته كاملةً فيظْهَر في عالَمنا الفاني

---

(١) الظئر: القائم على تربية الطفل (وكلمة «ظئر» تطلق على الأمّ المرضعة إذا لم تكن والدة وعلى الأبّ المربيّ إذا لم يكن والداً).
(٢) براهما: الإلَه الأكبر المطلق عند الهنادكة.

بحقيقتِه التامّةِ بأن يُولَدَ من رَحِم[١] ديفاكي ابناً لها وفي بيتِ زَوْجِهافاسوديفا[٢] فيُخَلِّصَ الناسَ من عَبَثِهم ويُريحُ المظلومين.

ومنذُ اللحظةِ الأولى التي احْتَوَتْ فيها أحشاء ديفاكي على فشنو بدأتِ الآلهةُ تُمَجِّدُ ديفاكي، ولم يَبْقَ بإمكان أحدٍ أن يَتفرّسَ طويلاً في وَجْهِها لما كان يَشِعُّ منها من النور الذي امتلأت به. ولمّا دنا مَولدُ فشنو بتجسّدِه الثامن باسم كرشنا بدأتْ نجومُ السماء تُشير إلى مَوْلده وتدلّ على مكانه. ولمّا وُلِدَ كرشنا من رَحِمِ ديفاكي في نصف الليل أضاءتْ آفاقُ السماء بألوانِ الفرح حتّى لَكَأنَّ ضوء القمر كانَ مُنتشراً على وجه الأرض كلّها، ثمّ جعلَتِ الملائكةُ وعَذارى السماء يرقُصْنَ ويُغَنِّينَ. وهطَلَت من السُحب أنواعٌ من الأزهار عمّتِ الفضاء كلَّه. وفي اللحظةِ التي خرج فيها كرشنا إلى هذا العالَم من رَحِمِ ديفاكي ازدادتْ أُمُّهُ جمالاً وأضاء ما حول جِسْمِها، كما أضاء الكهفُ الذي وُلِدَ فيه كرشنا بأنوارٍ سماويّة ملأتْه. ثمّ جعَلَ وجهُ أبيهِ ووجهُ أمّهِ يَشِعّانِ بنورٍ من المجد.

ولمّا وَلَدَتْ ديفاكي ابْنَها كرشنا وَضَعتْه في مِذْوِدٍ[٣] كان في الكهف. وكان أولَ مَنْ عرَفَ بمَوْلِده الرعاةُ الذين كانوا على مَقْرُبَةٍ من الكهف فجاءوا ثمّ وَقَفوا ينظُرون إليه، وسَرْعَانَ ما رَأَوْا علاماتِ الألوهية فعَرَفوا في المولودِ الجديدِ المخلّص[٤] الموعودَ المُنْتَظَرَ وسجدوا بينَ يَدَيْهِ. ثمّ إنّ النبيَّ نارِدَ[٥] سَمِعَ به

(١) الرحم: الكيس الذي يحتوي الجنين في بطن المرأة.
(٢) كان فاسوديفا زوجاً لديفاكي والدة كرشنا، ولكنّه لم يكن والداً لكرشنا (لأنّ كرشنا ولد من ديفاكي وهي عذراء قبل أن يمسّها فاسوديفا). ـ لاحظ أن في الإسمين (آخر فاسوديفا وأوّل ديفاكي) مقطع «ديف ـ بالامالة بين الفتح والكسر) الذي يدلّ الألوهية.
(٣) المذود: وعاء توضع فيه طعام البهائم.
(٤) المخلّص: المنقذ، إنسان متّصل جسديّاً أو روحيّاً بأحد الآلهة يأتي في آخر الزمان إلى الأرض حتى يهلك الظالمين، ثمّ يحمل عن المظلومين ذنوبهم.
(٥) نارد: نبي (كاهن) هندوكي.

فزارَ أبَوَيْهِ ونظر في النجوم وحَسَبَ طالعَ المولود[١] ثمّ أعلنَ أنّه من نَسْلٍ إلَهيّ. وتتالى الزوّارُ على الكهف وتعبّدوا للمولود الجديد، كما نَزَلَتْ على المولود الجديد نِعَمٌ شتّى من السماء. بعدَئِذٍ جاء الملوكُ من أطراف الأرض يَحْمِلون إليهِ الهدايا الثمينة من خَشَبِ الصَنْدَلِ ومن أنواع الطِيب[٢].

وكان العَرّافون قد تَنَبّأوا للمَلِكِ الشرّير كنسا (ملك ماتّورا المقاطعة التي وُلِدَ فيها كرشنا) بأنّ طِفْلاً إلَهيّاً سيُولَدُ وسيُقَوِّض له مُلْكه. فأرسَلَ كنسا رُسُلاً لِيَذْبَحوا جميعَ الأطفال الذكور الذين ولدوا في تلك الأنحاء في ذلك الوقت. في هذه الأثناء سَمِعَ أبو كرشنا صَوتاً سَماوياً يَهْمِسُ في أُذُنه أنِ اهْرُبْ بالطِفْلِ عبرَ نهر جَمْنا. فحَمَلَ الأبُ طِفلَه في نصفِ الليل وذَهَبَ به إلى مكانٍ بعيدٍ في ماتّورا نفسِها حيثُ ربّاه بقّار[٣] يدعى ناندا...

وقد نَسَبوا إلى كرشنا مُعْجزاتٍ كثيرةً، قالوا: إنّه شفى من البَرَص[٤] وأقام المُقْعَد[٥] وأحْيا المَوْتى. رأى كرشنا يوماً رَجُلاً من زُهّادِ البراهمة فقال له: ما أعظمُ رَغَباتِك؟ فقالَ البَرْهَمِيُّ: أعظمُ رَغَباتي أنْ أرى وَلَدَيَّ المَيْتَيْنِ يَعودانِ إلى الحياة! فقال له كرشنا سيكونُ ذلك فَوْراً. وبُعِثَ الابنانِ من الموت وجِيء بهما إلى أبيهما.

وأبرزُ ما في الدِيانة الهندوكية عقيدةُ التثلبت. في عقيدةِ الهنادكة مُثَلَّثٌ (مُثَلَّثٌ) يُدعى تْرِي مُورْتي[٦] (الطبائعَ الثلاث) يُمَثِّلُها براهما وفشنو وسِيفا.

(١) نظر في النجوم: درس مواقع النجوم في ذلك الوقت. وحسب الطالع: عينّ النجم الذي كان طالعاً وقت ولادة كرشنا من رحم ديفاكى.
(٢) الصندل: خشب ثمين ذو رائحة ذكيّة. الطيب: مادّة ذات رائحة طيّبة.
(٣) البقار: راعي البقر.
(٤) البرص: مرض شديد معد يتهرّأ منه اللحم ويتساقط.
(٥) أقام المقعد: أنهض العاجز عن القيام (جعل الشخص العاجز عن المشيُ مستطيعاً أن يمشي).
(٦) من اللغة الهندية: ترى (ثلاثة) مورتي (طبائع).

أمّا براهما فيُمثِّلُ الكائنَ المُطْلَقَ المُفارِقَ ـ العاري عنِ الأشكال المحسوسة والمُتحرِّرَ من حدود الزمان والمكان والناجيَ من تأثير الأسباب ـ إذ هو الموجودُ بنفسِه. وشاء براهما، إرضاء لنفسِه وحدَها، أن يَخْلُقَ هذا العالَمَ فاتّخذ طبيعةَ القُدرةِ والفِعل فأصبحَ شخصاً مُذكّراً هو براهما الخالقُ (وخَلَقَ هذا العالَمَ). وبعدَ ذلك أراد براهما ـ في مراتبِ تَطَوُّرِهِ من تِلقاء نفسه ـ أن يتّخذَ طبيعةَ الخَيْرِ والمحبّة فأصبحَ فشنو الحافظَ (المُمْسِكَ للعالم). ثمّ اتّخذَ طبيعةَ الظلام فأصبحَ سيفاً المُهْلِكَ والمُعيدَ (الذي يُوجِدُ الأشياء الماديّة في هذا العالَم ثمّ يُتْلِفُها إذا شاء ثمّ يُعيدُ خَلْقَها إذا أحبّ). هذه الطبائعُ الثلاثُ ـ عند الهنادكة ـ لا تنقسمُ في جَوْهَرِها ولا تفترقُ في أعمالها، ولا سبيلَ للإنسانِ إلى إدراكها لأنّها سِرٌّ عميقٌ من الديانة.

واعتقد الهنادكة بالخَلاص بالإيمان[1].

قيل إنّ كرشنا عُلِّقَ على شَجَرَةٍ (صُلب) ثمّ سُمِّر عليها بسَهْمٍ أصابه. وكثيراً ما كان الصليبُ يدعى «الشَّجَرَةَ الملعونة». وقد كان استخدامُ الأشجارِ للصَلب معروفاً مألوفاً. ثمّ إنّ لكرشنا صُوراً كثيرةً تُمَثِّلُهُ مُعَلَّقاً على صليبٍ. ومن ألقابِ كرشنا: غافر الخطايا والمُنْقِذُ من أفعى الموت.

وفي ساعةِ موتِ كرشنا أتى على العالم مصائبُ حادثةٌ وإنذاراتٌ بمصائبَ مُقبلةٍ، وأحاطتْ بالقمر هالةٌ سوداء وأظلمتِ الشمسُ في نِصفِ النهار ثمّ أمْطَرَتِ السماء ناراً ورَماداً، وأخذ اللهيبُ يتعالى من النيران ولكن شاحباً مُظلماً. وكانتْ ألوفٌ من الأشباحِ تُرى في مَطْلَعِ الشمسِ ومَغْرِبِها يُقاتلُ بعضُها بعضاً.

---

(1) الخلاص بالإيمان: الإعتقاد بأن المذنب إذا آمن بصاحب الدين تغفر ذنوبه وينجو في الآخرة من العذاب.

وبعدَ ثلاثةِ أيامٍ (وقيل بعدَ أربعين يوماً) قام كرشنا من الموتِ وصَعِدَ بجَسَدِهِ إلى السماء. في ذلك الحين بدأ نورٌ عظيمٌ غَمَرَ الأرض وملأ الفضاء. ورافَقَتْ كرشنا في صعوده إلى السماء ملائكةٌ وأحاطتْ بهِ الأنوارُ ـ كما كان قد اتّفق له في أثناء ولادته ـ. وفي هذا الموكب تابعَ كرشنا صُعودَه من الأرض إلى السماء، إلى الجنّة الغَنّاء التي كان قد هَبَطَ منها. ولقد شاهَدَهُ في أثناء صُعوده جميعُ البشر وتَعجّبوا من ذلك وكانوا يصْرخُون قائلين: أنظُروا، إنّ رُوحَ كرشنا تصعَدُ إلى مَسْكَنِها السّماويّ.

ويعتقدُ الهنادكة أن فشنو سيَرْجِعُ في آخر الزمانِ إلى الأرض في صورةِ فارسٍ على حصانٍ أبيضَ ذي جَناحَيْن وهو يَحْمِلُ في إحدى يَدَيْهِ سَيْفاً مُشتعلاً كأنّه شِهابٌ ليُهْلِكَ الأشرارَ الذين يكونون حينَئِذٍ في الأرض. أمّا في اليَدِ الأخرى فسيَحْمِلُ خاتَماً لامِعاً دَلالةً على أن الدَوْرَ الأعظم للأجيال[1] قد تَمّ وأنّ الآخرةَ قد اقتربتْ. فإذا اقتربَ رجوعُ فشنو فإنّ الشمسَ ستُظْلِمُ وإنّ الأرضَ ستَتَزَلْزَلُ، وسَتَتَساقَطُ النجومُ من قُبّةِ السماء.

٣ ـ بوذا

يَرْجِعُ نسبُ بوذا إلى قبيلةٍ من قبائلِ الهند عُرِفَتْ باسمِ غَوْتاما. أمّا أُسرتُه فتَنْتَسِبُ إلى طبقةِ الكُهّان (ريشي!)، وإن كانت الرواية تجعَلُها من طبقةِ الفُرسانِ ثمّ ترقي الخُرافةُ بنَسَبِ بوذا إلى الأسرةِ المالكة. وكان أبو بوذا يدعى «سوذو دانا» (أي الأرزُّ النَقيُّ)، ممّا يمكنُ أن يدُلَّ على أنّه كان من طبقةِ المُزارعين. وكانتْ أمّهُ تدعى مايا أو ماري (دون ١٥، ١٨٩).

---

(1) الدور الأعظم. مجموع الأدوار التي يبقى فيها الإنسان على وجه الأرض قبل خراب العالم وقبل أن يبدأ خلق العالم من جديد.

(2) Doane 15, 189.

وكانتْ ماها مايا (مايا الكبيرةُ) عاريةً عن جميعِ الشَهوات تَحْيا حياةَ العِفّةِ التامّةِ. حتّى إنّ أحشاء مايا لم يكن فيها تلك الفَضَلاتُ التي تنشأ في أحشاء البشر. وكذلك كان رَحِمُ[1] مايا وِعاء خالصاً لِتَوَلُّدِ بوذا، وما كان بإمكانِ طفلٍ آخَرَ أن يتولَّدَ في تلك الرَحِمِ.

وأرادَ بوذا أن يكون مُخَلِّصاً للبشرِ فوُلِدَ وِلادةً إلَهيّةً من عذراء فأحبّ أن يترُكَ الجنّةَ (السماء) التي هو فيها ثمّ يَنْزِلَ إلى الأرضِ رَحْمَةً بالبشر لِيَحْمِلَ عنهم ذُنوبَهم ويدفَعَ عنهم شقاءهم ويَهْدِيَهُمْ ويُخَفِّفَ عنهم شيئاً من العَذابِ الذي ينتظِرُهم من أجلِ الجرائمِ التي كانوا قد ارْتَكبوها.

ولمّا اقتربَ نُزولُ بوذا نادى ملائكةُ السماء أهلَ الأرضِ قائلين: «أيُّها البشرُ زيِّنوا أرْضَكُم لأنّ بوذا، بوذا العظيم، سَيَنْزِلُ من توسيتا (السماء) ويُولَدُ بَيْنَكم. اسْتَعِدّوا!

ونَزَلَ شَنْغ شِنّ - الروحُ القُدس - على مايا العذراء. لقد رأتْ مايا العذراء في مَنامها أن فِيلاً أبيض ظَهَرَ لها ثمّ دَخَلَ في رَحِمِها. وهكذا نَزَلَ بوذا من عالَمِ الأرواحِ وَدَخل في جَسَدِ مايا العذراء. عندئذٍ اتّخَذَ رَحِمُ مايا فوْراً شَكْلَ زُجاجةٍ صافيةٍ فبدا بوذا من خِلالِها ساجداً على رُكْبَتَيْهِ مُعْتَمِداً على كَفَّيْهِ.

وُلِدَ بوذا في الخامسِ والعِشرينَ من شَهْرِ كانونَ الأوّلِ (ديسمبر) من عام ٥٦٠ (وقيل عام ٦٢٤) قبلَ الميلاد. وجاء أُمَّه المَخاضُ[2] بينما كانتْ مُسافرةً، فكانتْ ولادَتُهُ تحتَ شَجَرةٍ في أثناء الطريق. ولمّا وُلِدَ تَطَلَّعَ إلى أُمّه

---

(١) الرحم (بفتح فكسر، مؤنّثة): كيس في جوف المرأة يتكوّن فيه الجنين.
(٢) المخاض: الطلق (تقلّص الرحم حتىّ يدفع الجنين إلى الخروج، ويكون عادة مصحوباً بوجع شديد).

وخاطَبَها قائلاً: «أنا أعظمُ الرجال». ثُمّ إنّ أُمَّه لَجَأتْ به إلى خانٍ (فُنْدُقٍ صغير). وسُمّي هذا الطفلُ سذاتا (الأُمْنِيَةُ التي تَحَقَّقَتْ).

وعِنْدَ وِلادةِ بوذا ظَهَرتْ في الشرق كَوْكَبَةٌ (عُنقودُنجومٍ) وأخَذَتْ ترتفعُ فوقَ خطِّ الأفق. ثمّ امتلأتِ الكائناتُ كلُّها بالفرح، وجَعَلَتِ الأنغامُ العَذْبَةُ تُسْمَعُ مُنْسابَةً في كلِّ مكانٍ من الأرض. ثُمّ انْهَمَرَ من السَماء أنواعٌ من الأزهارِ كما تنهمر الأمطارَ. وهَبّ نسيمٌ عليلٌ جَعَلَ يمسَحُ وجهَ الأرضِ وشَعّتْ في كلِّ مكانٍ أنوارٌ عجيبةٌ.

وعَرَفَ الحُكماء أنّ الكوكبةَ التي ظَهَرتْ في الأُفُقِ الشَرقيّ كانتْ علامةً سماويّةً دالّةً على وِلادةِ المُخلّص. فلمّا جاء أُولئك الحُكماء ونظروا إلى الطِفل بوذا أدركوا فيه فَوْراً علاماتِ الأُلوهيّة وأهْدَوْا إليه الجواهرَ الكريمةَ والأشياء الثمينة. وقَبْلَ أن يَمُرَّ يومٌ واحدٌ على وِلادتِهِ جعَلَ الحكماء يُحَيّونَهُ باسمِ إلَه الآلِهَةِ. ولمّا جاء الشيخُ أسوتا ونظر إلى الطفل أعلنَ أنّه سيكونُ له في الأرضِ مستقبلٌ عظيم. ومُنذُ وِلادته عَرَفَ الناظرون في وَجْهِهِ أنّه سيُعينُ الشيوخَ ويَشْفي المَرْضى ويُواسي المُضطَهَدين والمُصابين ويُخَلِّصُ أولئك الذين وَقَعوا في شَبَكَةِ الفسادِ الطبيعيّ، كما أنّه سيُنْقِذُ الإنسانيةَ من الآلامِ والأحزان.

وكان في مِنْطَقَةِ مغاذا (في جَنوبيّ الهِند) مَلِكٌ اسمُه بيمباصارا كان شديدَ الخوف على مُلْكه. وكثيراً ما جَمَعَ وزراءه وتَداولَ مَعَهم في هذا الأمر. وقد قيل له مرّةً: في شَماليّ الهِند قبيلةٌ نبيلةٌ هي قبيلةُ الساكـيا، وقد وُلِدَ فيها حديثاً طِفل هو بِكْرٌ لأُمّه. هذا الطفلُ هو بوذا، ويمكن أن يكونَ هو الذي سَيُقَوِّضُ المُلْكَ. عِندئذٍ أمرَ بيمباصارا فَوْراً بتوجيهِ جيشٍ كبيرٍ لإهلاكِ هذا الطفل.

ومـاتتْ مايا (أمّ بوذا) وَشيكاً، فتزوّجَ سوذودانا أُخْتَها باجاباتي، فَحَضَنَتْ ياجاباتي الطِفْلَ بوذا وَرَبّته. وجَرَى تعميدُ بوذا بالماء، وكان رُوح الله حاضراً وقت العمادة. وهكذا لا يكونُ الإلهُ الأعلى وَحْدَه قد حَضَرَ في تلك المُناسبةِ بل الروحُ القُدُسُ أيضاً، وهو الروحُ القُدُسُ الذي نَزَلَ غوتاما بوذا إلى رَحِم مايا لِيَتَجَسَّدَ فيها. وعلى هذا لا يكونُ بوذا تجسُّداً لله، بل يكونُ ـ في رأيِ أتباعِه ـ هو الله نفسَه!

وفي الثانيةَ عَشْرَةَ من العُمرِ أصبحَ بوذا يُجادلُ العلماء ويُفْحِمُهم. ولمّا دَخَل إلى الهيكل نهضتِ التماثيلُ عن قواعِدِها ثمّ سجدتْ عند أقدامه. وأمّا في المدرسةِ فكانَ بوذا فوقَ جميعِ التلاميذِ في كلِّ علمٍ وفي كلِّ شيء، وكان المُعلّمون يستغربون ما يظهَرُ منه من دلائل النُبوغ ومن الإحاطة بأنواعِ المعارف.

وقبلَ أن يبدأ بوذا دَعْوَتَهُ امْتَحَنَهُ الروحُ الشرّير مارا (خالق الشر[1]) وقال له لا تسْلُكَ حياةً دينيةً، فإذا لم تَسْلُكْ حياةً دينيّة فإنّك ستُصْبِحُ ـ بعدَ سبعةِ أيامٍ ـ مَلِكاً على العالم. وما كاد الروحُ الشرّير يبدأ بمِحْنَةِ بوذا حتّى تساقَطَتْ شُهُبٌ كثيرةٌ مُخيفةٌ ثمّ انتشرتِ الغيومُ وسادَ الظلامُ، حتّى الأرضُ التي هِيَ كائنٌ من جمادٍ اهتزّتْ واضْطَربتْ بما فيها من بحارٍ وما عليها من جبالٍ كأنّها إنسان واعٍ مُدْرِكٌ ـ كما يتفق للخطيبةِ العاشقةِ إذا فرّقَ الناسُ بينَها وبينَ خطيبها بالقوّة أو كأنما كانتِ الأرض خُوطاً[2] ناعماً وَقَعَ في مَهَبِّ العاصفة. ثمّ إنّ البحارَ كلَّها ماجتْ بفِعْلِ الزلازل التي اجْتاحَتْها ثمّ جَرَتِ الأنهارُ مرتدّةً إلى منابِعِها. وقِمَمُ الجِبالِ التي كانت مُغطّاةً بالأشجارِ الضَخْمة مُنذُ أُلوفِ السنينَ

(١) Doane 176.

(٢) الخوط: الغصن الطريّ (أوّل ما يخرج في أيام الربيع).

تَقَلْقَلَتْ في أماكِنِها ثمّ انْقَضّتْ مُتَدَحْرِجَةً إلى السُهول السفلى. بعدَئِذٍ هَبّتْ عاصفةٌ جائحةٌ تَعْوي في أقطارِ الأرضِ وغطّى وجهَ الشمسِ وِشاحٌ كثيفٌ من الظلام المُخيفِ وملأَتْ جيوشٌ من الأشباحِ المقطوعةِ الرؤوسِ أكنافَ الفضاء.

والتفتَ بوذا إلى الروحِ الشرّير وقال له: انْصَرِفْ عنّي، يا هذا!

وبعدَ أنِ انصرفَ الروحُ الشرّير عن بوذا أخذتِ السماواتُ تساقِطُ أزهاراً جميلةً وَيَفُوحُ منها روائحُ زكيّةٌ.

وفي حياة بوذا على الأرض ـ في أثناء دَعْوَتِهِ ـ أحداثٌ كثيرةٌ يجري أكثرُها عند البوذيين مَجْرى المُعْجزات. في يومٍ من الأيّامِ كان أناندا أحدُ تلاميذِ بوذا قد سار مسافةً طويلةً فَلَقِيَ ما تَنْجي، وَهِيَ امرأةٌ من طَبَقَةِ كاندالة المنبوذةِ عندَ بئرٍ فطَلَبَ منها شَرْبَةَ ماء. فأخبرته ماتَنجي بحقيقةِ أمرِها وأنّه لا يجوزُ لها أن تَقْتَرِبَ منه. فقال لها: أناندا، يا أُخْتاه، أنا لا أسألُكِ عن طَبَقَتِكِ ولا عن أُسْرَتِكِ، ولكنّني أسأَلُكِ جُرْعَةَ ماء. بعدَئِذٍ أصبحتْ ماتَنْجي إحدى تِلْميذات بوذا.

وفي يومٍ آخر كان بوذا على جبلِ باندافا في جزيرةِ سَرَنْديبَ (سَيْلانَ) ـ وقدِ اتّفق ذلك في أواخر حياتِه ـ فهَبَطَ عليه فجأةً لهَبٌ مُضيء غَلّفَ جِسْمَه كلَّه ثمّ رسم هالةً حولَ رأسِه. فَلَمَعَ جَسَدُهُ بنورٍ ساطعٍ حتّى كأنّما كانَ تمثالاً من ذَهَب، وكان لَمَعانُهُ أكثرَ من لَمَعانِ نورِ الشمسِ ونورِ القمر معاً. ثمّ انقسم جِسْمُهُ ثلاثةَ أقسامٍ خرج من كلِّ قسمٍ منها شُعاعٌ كثيفٌ من النور.

ويقول بوذا إنّ الرجلَ الحكيمَ يَجِبُ أن يَتَجَنّبَ الزَواجَ إذا أراد أن يَعِظَ الناسَ وأن يَدْعُوَهُمْ إلى التوبة، لأن مَمْلكةَ الله أصبحتْ قريبةً (لأنّ آخِرَ الزمانِ

قدِ اقترب)، فقد كان هَدَفُ بوذا إقامةَ مملكةٍ دينيةٍ، مملكةٍ للسماء على الأرض.

ولمّا عانى بوذا البشرَ تحرّكتِ الشَفَقَةُ في قلبِهِ عليهم فعزَمَ على أن يَهَبَهُمْ حياتَه وكأنّها عُشبةٌ صغيرةٌ (لا قيمةَ لها) حتّى يكونَ ذلك سَبَباً لِخَلاصِهم.
وتقولُ أُغْنِيَةٌ يَتَوجّهُ بها البوذيّون إلى بوذا:

«لقدِ احتملتَ أنواعَ الاضطهادِ باستمرارٍ واحتملتَ الشَتْمَ واللَعْنَ والموتَ والاغتيالَ، احتملتَ هذه كلَّها بصبرٍ وبمحبّةٍ لِتُوَفِّرَ السعادةَ للناسِ جميعاً، فاغْفِرْ لِقاتِليك!» ويُروى عنه أنّه قال: لِتَقَعْ عليَّ جميعُ الذنوبِ التي أَرْتَكَبَها البشرُ في هذا العالمِ حتّى يَنْجُوَ البشرُ كلُّهم من العذابِ المُقْبِلِ.

وكان يُقالُ لبوذا: الطبيبُ العظيمُ ومُخَلِّصُ العالمِ والمباركُ والإلَهُ بينَ الآلهةِ والمسيحُ والمُنْقِذُ الموعودُ وإنّه وحدَه اللهُ المولودُ.

وسيعودُ بوذا إلى الأَرْضِ مرّةً أُخرى ـ في آخرِ الزمانِ ـ وستكونُ رِسالتُهُ يومَئِذٍ أن يُعيدَ السَعادةَ والنِظامَ إلى هذا العالَمِ.

٤ ـ زرادشت (٦٦٠ ـ ٥٨٣ ق. م.)

مُنذُ أقدمِ الأزمنةِ كانت ولادةُ زرادشتَ[١] منتظرةً. منذ أوّلِ الخلقِ،

(١) كان للإسم زرادشت، في اللغة الفارسية القديمة واللغة الفارسية الحديثة، قراءات (صور، تهجئات) كثيرة. وكذلك نقلت هذه القراءات لإسم زرادشت إلى اللغات الأجنبية القديمة والحديثة نقولاً مختلفة. والعرب يرسمون هذا الاسم «زرادشت»، والمشهور أنّه بفتح الدال. وكذلك لهذا الاسم معان كثيرة. في بعض المصادر العربية: زرادشت بن أسفيمان، والصواب زرادشت أسفيمان أو الأسفيمانيّ (زرادشت الأبيض) من الجذر الفارسي القديم سبيت، والسنسكريتي سفيت، والفارسي الحديث سبيذ، والتركيّ سفيد بمعنى الأبيض. (ويقال أن «أسفيمان» لقب لأسرة زرادشت. أمّا اللفظ «زرادشت» نفسه فيمكن أن يعني في صوره المختلفة: =

حينما كان الثورُ الأوّلُ الخُرافيّ[١] (الذي جاء منهُ الحيواناتُ كلُّها)، عنّت لذلك الثور وبدت في لمحةٍ من لَمَحات نفسه، صورةُ زرادشتَ المُثلى، وذلك قبل مولدِ زرادشتَ بثلاثةِ آلافِ عام. ثمّ إنّ جَمْشيدَ[٢] أنذرَ الشياطينَ بالقضاءِ عليهم حينما يُولَدُ «الطفلُ الرَجُلُ» المجيدُ. وقبلَ ثلاثةِ قرونٍ من ولادةِ زرادشتَ ظَهَرَ ثورٌ تامُّ الخِلقةِ فأُعطِيَ القُدرةَ على الكلام فتكلّم بلسانٍ فصيحٍ وأعلن أنّ زرادشتَ سيأتي وسيخرُجُ الوَحْيُ الإلَهيُّ من بين شَفَتَيْهِ، وأنّ المجدَ المَلَكيّ سينْتَقِلُ من مَلِكٍ إلى ملِكٍ ومن وليّ صالحٍ إلى وليّ صالح حتّى يلمَعَ أخيراً في زرادشت.

كان بُورشَسْبُ والدُ زرادشتَ من آذربيجانَ، وكانت والدة زرادشتَ من الريّ. وتقول الرواياتُ الفارسيةُ إنّ اللهَ لمّا خَلَقَ الدنيا جعلَ روحَ زرادشتَ في شَجَرةٍ أنشأها في أعلى عِلِّيّينَ (أعلى طَبَقات الجَنّة) ثمّ غَرَسَها في قِمّة جبلٍ من جبال آذربيجان. بعدَئذٍ مازَجَ شَبَحُ زرادشتَ (صورة جسمه) لبنَ بَقَرةٍ فَشَرِبَ أبو زرادشتَ هذا اللبنَ، فأصبحَ هذا اللبنُ نُطْفةً[٣] في جسمِ والدِ زرادشت ثمّ مُضْغَةً في رَحِم[٣] أمّ زرادشت. وقد كان المُقَدَّرَ منذُ الأزل أن المَجْدَ الملكيَّ سيمتزجُ بالروحِ الحافِظ وبالجِسْم الماديّ فيظهَرُ من هذا الاتّحادِ

= الجمل الأحمر، الجمل الكبير (ولا يزالون في الكويت إلى اليوم يسمون كبيرة الأسرة: الشيخ العود بفتح العين أي الجمل الكبير والشيخ الكامل، كما في القاموس). وربّما كان المعنى «ذهب الصحراء» (زر: ذهب، تدشّت بالضمّ: صحراء). وقيل: الذهب الملكي، مملكة الذهب، صديق النار، المغتسل بالذهب، الفضّة الذائبة، النجم الذهبي، الخ.

(١) أوّل ما خلق الله ـ في الروايات الفارسية ـ كيومرت (الإنسان الأوّل أبو البشر) ثمّ حيوان (ويقال: ثور على التخصيص). فمن كيومرت جاءت أجناس البشر، ومن الحيوان (الثور) جاءت أنواع الحيوانات.

(٢) جمشيد هذا أو جمّ أحد ملوك الفرس القدماء.

(٣) النطفة في الأصل: الماء الصافي، وفي باب التخصيص «ماء الرجل» (المنيّ) أو هي على الأصحّ أوّل تكوّن الجنين. المضغة في الأصل: قطعة من اللحم، وعلى التخصيص «الجنين قبل أن يتبين خلقه. الرحم (بفتح فكسر، مؤنّثة): كيس في بطن المرأة يتكوّن فيه الجنين.

المُثَلَّث ذلك الطفلُ العجيبُ: زرادشتُ!

وزرادشتُ لم يولَدْ من تَماسٍ بين أبي زرادشت وأمّ زرادشت بل وُلِدَ من الطُّهْر بشُعاعةٍ[1] من العقل الآلهيّ، وكانت رَحِمُ أمّهِ قد قُدِّسَت حتّى تُصبحَ مُتَهَيّأَةً لِحَمْلِ هذه الثمرةِ المقدّسة: زرادشت. وقد ذَكَرَ أفلاطونُ[2] أنّ زرادشتَ كان ـ من أجلِ ذلك ـ ابنَ أَهْرمَزْدَه، إلّه النور، أي آبْناً لله! ولمّا عَلِمَ الشيطانُ أنّ أمّ زرادشتَ حُبْلى قَصَدَها وَغيَّرَها (أَسْقَمَها) حتّى يحولَ دون ولادة زَرادشت، وساعدَه على ذلك أعداء النور. ولكنّ أمّ زرادشتَ سَمِعَتْ من السماء نداء فيه دَلالاتٌ على بُرْئِها (شِفائها) فبرِئَتْ وحَمَى اللهُ زرادشتَ من أعدائه.

ولمّا وُلِدَ زرادشت ـ في الحادي عشر من الشهر الثاني في التقوم الزرادشتي (١/٥/٦٦٠ق.م) في مغارة عند الفجر ـ مرّ في السماء شِهابٌ مُضيء وظهر نجْمٌ في مُنتصَفِ النهار شديدُ اللّمَعان واهتزّتِ الأرضُ وفَرِحَت الطبيعةُ وبدا الفَرَحُ على الأشجار والأنهار وانتشرَ الفرحُ في جميعِ أنحاء العالم وَعَلَتْ أصواتُ الفرح في كلّ مكانٍ. وكذلك أضاءت الغُرفةُ التي وُلِدَ فيها زرادشتَ ثمّ طاف النور الآلهيّ حولَ البيتِ كُلِّه. أمّا أهرمان (آلهُ الشرّ) وأتباعهُ الشياطينُ فقدِ اختبأوا في أعماق الأرض.

ولمّا خرجَ زرادشت من بطن أُمِّهِ لم يَبْكِ ـ كما يفعل جميعُ الأطفال عَقِبَ الولادة ـ بلِ ابتسمَ ضاحكاً. وكان مولدُه في مكانٍ ما بينَ نهرِ السند (غربيّ الهند) ونهرِ دِجْلةُ (شرقيّ العراق).

---

(١) الشعاعة واحدة الشعاع: خيط من نور.

(٢) أفلاطون: فيلسوف يوناني (ت ٣٤٧ق. م.) مثالي النظر في الأمور.

وبعدَ أن وُلِدَ زرادشت حاول أعداؤ ه أن يُهْلِكوه قتلاً بالسُمّ وإحراقاً بالنار ورَمْياً تحتَ أرجُلِ قطيعٍ من الثيران أو دَعْساً تحتَ حوافر الخيل، كما أَلْقَوْا به في مَدرجةِ (طريق) الذِئاب، ولكنّ العنايةَ الإلّهية كانت في كلّ مرّةٍ تُنْقِذُه حتّى إنّ الثيرانَ والخيلَ والذِئابَ كانت تقومُ بنفسها على حِمايته بَدَلاً من أن تُصيبَه بالشرّ.

ولمّا بلغ زرادشتُ السابعة من عُمره دَفَعَهُ أبوه إلى رجلٍ حكيمٍ عالم ليُؤَدِّبَهُ ويُعلّمه. وفي الخامسةَ عَشْرَةَ من العُمُر بدأ زرادشتُ دَعْوتَه، وهي عبادةُ الله والكُفر بالشيطان والأمرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المُنكر واجتنابُ الخبائث. ثمّ قال إنّ النورَ والظُلمة أصلانِ مُتضادّانِ، وكذلك يَزْدانُ (أهرمزده إلّهُ النورِ والخير) وأهْرِمَنُ (إلّهُ الظلام والشرّ)، وهما مبدأُ موجوداتِ العالم. وقد حَصَلَتِ التراكيب مِنَ امتزاجِهِما، وحصلتِ الصُوَرُ (الأجسام) من التراكيب. والباري تعالى خالقُ النور والظلمة ومُبْدِعُهما وهو واحدٌ لا شريكَ له ولا ضِدٌّ ولا نِدٌّ... (الشهرستاني ٢: ٦٨ ـ ٦٩) ولكنّ دعوتَه هذه كانتْ في ذلك الحين من عندِ نفسِه قبلَ أن ينزلَ عليه الوَحْيُ.

ولا نعلمُ في حياةِ زرادشت، بينَ الخامسةَ عَشْرَةَ وبين الثلاثينَ أحداثاً كثيرةً ويبدو أنّه في نحوِ العِشرينَ من عُمُره اعتزل الدنيا وانصرف إلى فِعلِ الخيرِ إلى الناسِ وإلى الحَيَوانات. ثمّ إنّه اعتزل إلى جبلٍ عالٍ مُنصرفاً إلى العبادة والتفكير..

وفي مُنْتَصَفِ شهرِ أرتافاهشتو (٥/٥/٦٣٠ق. م.) بدأ الوحيُ إليه، وكان ذلك عند الفَجْرِ على ضِفّة نهر داتيا في آذربيجان حينما ظَهَرَ كبير الملائكة فوهومان (الفِكرةُ الطيّبة) لزرادشت مُقبلاً من الجَنوب وحاملاً في يده عصاً لامِعَةً (رمزُ الغُصن الروحيّ للدين) ثمّ حمل روحَ زرادشت إلى آهورامزده إلّهِ

النور. ولمّا وَصَلَ زرادشت إلى السماء جَلَسَ قليلاً ينتظر. ثمّ فُتِحَ بابُ السماء وأُدْخِلَ زرادشت. ورأسَ إلَهِ النور الاجتماعَ الذي حَضَرَهُ كِبارُ الملائكة، وألْقى إلَهُ النور على زرادشت عقائدَ الدين. ثمّ عاد زرادشتُ إلى الأرض.

وكان أوّلَ المؤمنين بزرادشت ابنُ عمّه. ثمّ إنّ زرادشتَ طاف في البلاد طويلاً يدعو الناسَ فلم يَسْتَجِبْ له إلا نفَرٌ قليلون. وفي هذه الأثناء، في مَدَى عَشْرِ سَنَواتٍ اجتمع زرادشتُ بإلَه النورِ بِضْعَ مرارٍ ثمّ كان له مع رؤساء الملائكة ستّةُ اجتماعاتٍ تَلَقّى في أثنائها الأمرَ بالعِناية بالأشياء التالية: تربيةِ الأنعام (الحَيَوانات النافعة) - العناية بالنار وبجميع بيوت النيران المقدّسة (الإلَهية، الرسمية) والشعبية - العناية بالمعادن - (العناية بأقطار الأرض) - العناية بالماء، بما يتّصل بالبِحار والأنهار - العناية بالنبات. وقد كانت هذه الاجتماعات بكِبارِ الملائكة في فصول الشتاء، لأنّ زرادشتَ كان يقومُ في كلّ صيفٍ بالطَواف في الأرض لنشر الدعوة.

وعادتْ قُوى الشرّ تتجمّعُ لِتُوقِعَ بزرادشتَ وتُهْلِكَه. أرادوا قَتلَه مباشرةً فلم يستطيعوا. بعدئذ تآمروا عليه فوضعوا في مسكنه مساميرَ ورؤوسَ هِرَرَةٍ ورؤوسَ كلابٍ ليوهموا أنّه ساحر. وصدّق الملكُ يَشْتاسْبُ (أو كشتاسب) بن لهراسب التُهْمَةَ فأمر بالقبض على زرادشت وإلْقائِه في السجن. وتدخلت العِناية الالَهية في شأن زرادشتَ، فقد كان للملك يشتاسبَ حِصانٌ أسودُ وكان يشتاسبُ شديدَ الشَغَفِ به، فدَخَلَتْ قوائمُ هذا الحِصان في بطنه فلم يَقْدِرْ بعدَ ذلك على الحركة. وسَمِعَ زرادشتُ بذلك وهو في السجن فأرسل يُخْبِرُ الملكَ بأنه قادرٌ على ردّ الحصان إلى حاله الأولى إذا وعده الملكُ بأن يعتنقَ الدينَ وأن يُدافعَ عنه وينشرَه. فوعده الملكُ بذلك. وشَفَى زرادشتُ الحِصانَ ممّا به فاعتنق الملكُ الدينَ الجديدَ ولكنّه طَلَبَ دليلاً جديداً على صِدق زرادشت، وذلك أن

يُخْبِر زرادشتُ الملكَ بمستقبله. وتمّتِ المُعجزة فجاء نَفَرٌ من رؤساء الملائكة في صُورةِ فُرْسانٍ يَلْبَسون ثِياباً خُضْراً وهم في السلاح الكامل. وخاف الملكُ من عددِ هؤلاء الفرسانِ ومن جُرأتِهِمْ على الدُنُوِّ منه. عندَئذٍ انْطَلَقَتْ أَلْسِنَةُ النيرانِ تقول للملك: إنّ هؤلاء الفرسانَ ما جاءوا يُريدون شَراً به، ولكنّهم جاءوا لِيُبَشِّروه بأنّه سيعيش مِائَةٍ وخمسينَ سَنَةً وسيُسْبِغُ اللهُ عليه كثيراً من النِعَم.

اعتنقَ الملكُ هذا الدينَ ودعا المَلِكَةَ إلى اعتناقه. عندَئذٍ أسرع جميعُ أهلِ البَلاط إلى اعتناق دينِ زرادشت. وكذلك دَخَلَ في دين زرادشت زرير (زرين) أخو الملكِ وإسفنديار ابنُ الملك. وقام إسفنديار على الأخصّ بحروبٍ كثيرةٍ لِنَشْرِ دين زرادشتَ فانتشرَ هذا الدين في كَشميرَ وفي خراسانَ (شرقيَّ إيران) وفي بُخارى (التركستان) وفي فارس (غربيّ إيران) وكَثُرَتْ في هذه المناطق بيوتُ النيران. ثمّ بدأ انتشارُ الدين في الهند.

وخاف البراهمةُ حكماء الهِند على دينِهِمْ فجاء رجلٌ حكيمٌ منهم إلى بلاط يشتاسبَ لِيُناظِرَ زرادشتَ ويُفَنِّدَ آراءه. ولكنّ زرادشت استطاعَ أن يُعَلِّمَ ذلك البرهميَّ حكمةً لم يكن يَعْرِفُها، فإنّ زرادشتَ فتح كتابَ النَسْك أو كتاب الأفستا[1] وقرأ فيه جميعَ الأسئلة الصَعْبة التي كان البَرهمي قد أعدّها في نفسه ثمّ قرأ أجوبتها أيضاً من ذلك الكتاب. حينئذٍ اعتنقَ ذلك البرهميُّ الدين المقدّسَ وأصبح من أتباع زرادشت المخلصين.

وكان لزرادشتَ مُعجِزاتٌ منها أنّه كان مُحيطاً بجميع أنواعِ المعارفِ

(١) النسك (بفتح النون) أو الأفستا: مجموع النصوص المتعلّقة بدين الفرس القديم، وهو منسوب إلى زرادشت. ويقال أن زرادشت أظهر هذا الكتاب بجميع اللغات.

العِلمية وبجميعِ الأمور الاجتماعية. وكان يَشْفي المَرْضى ويَرُدُّ البَصَرَ إلى العُميان: من ذلك أنّه مرّ على أعْمَى في بلدةِ الدِينَوَر فقال: «خُذوا حشيشةً وَصَفَهَا لهم وأعْصِروا ماءها في عَيْنَيْهِ فإنّه يُبْصِرُ. ففعلوا فأبصر الأعمى[1].

وقد تنبّأ زرادشتُ بيومِ مَوْتِهِ. ثمّ كانتْ وفاته في اليوم الحادي عَشَرَ من التقويم الزرادشتي في السنة الثامنة والأربعين من دَعْوته (١/٥/٥٨٣ ق. م.) قيل سَقَطَتْ عليه صاعقةٌ من السماء، وقيل هَبَطَتْ عليه نارٌ من السماء أحاطت به ثمّ صَعِدَتْ به إلى السماء، وكان عُمْرُهُ يومَذاك سبعةً وسبعين عاماً وأربعين يوماً.

وقيل أيضاً أنّ الطورانيّين (الترك) أغاروا على مملكة الفرس ثمّ دخلوا مدينة بَلْخ وفيها بيتُ النيران العظيمُ فدخلوه وذبحوا من كان فيه من الهرابذة (الكَهَنة خَدَمة النار) فسالتْ دماء هؤلاء غزيرةً حتّى انطفأت بها النار. وفي هذه الهَجْمة على بيتِ النار في بَلْخ قُتل زرادشت نفسُه: ضَرَبَهُ طربراطرشاه بالسيف. ولكنّ زرادشت انتقم قبل موته من طربراطرشاه إذ ألقى مِسْبَحَتَهُ في وجهِ طربراطر شاه فأهلكه.

وفي بعض الرواياتِ الفارسيةِ أن زرادشت ينهَضُ من الموت، فإذامضى على موته ألفُ عامٍ رَجَعَ دينُه إلى الأرض وانتشر في جميعِ أنحاء العالم.

(١) الشهرستاني ٢: ٧.

الإسكندر المقدوني والتعليل البطولي
التاريخ بين القصّة الخرافية والمدرك الحضاري

في عِلْمِ دِراسةِ التاريخ بابٌ اسْمُهُ «التعليلُ البطوليُّ» يقومُ على تفسير أحداثِ التاريخ تفسيراً تغيبُ فيه صورةَ المجموعِ وتَبرُزُ فيه صورةُ الفردِ البطل. وأقربُ الأمثلةِ إلينا في هذا البابِ قِصّةُ عَنْتَر (أو سيرةُ عَنْتَرَة). إنّ واضعَ هذه القِصّة - أو واضعي هذه القِصةِ على الأصح - قد جَعَلَ الأحداثَ كلَّها تدورُ حَوْلَ بَطَلٍ واحدٍ، كما جَعَلَ جميعَ الأشخاصِ وجميعَ الوقائعِ في هذه القِصّةِ تَتّجهُ في الأدوار التي تقومُ بها نحوَ غايةٍ واحدةٍ هِيَ إعلاء شأنِ البطل. هذا التعليلُ البطوليُّ يُحاولُ شيئاً واحداً: الإشادةَ بأعمالِ البطلِ إذا انتصر في كِفاحٍ أو أصابَ في عَملٍ، مَعَ المبالغة. أمّا إذا انهزمَ البطلُ في معركَةٍ أو أساء في عملٍ، فإنّ هذا التعليلَ البطوليَّ يحشُدُ حولَهُ عواطفَ الشَفَقةِ ثمّ يعتذر من أخطائه بأن يجعَلَ من الهزيمةِ الماديّةِ انتصاراً روحيّاً، ومِنَ الإساءةِ الحاضرةِ صواباً في الزمنِ المُقْبِل، ومن الزَلّةِ الواقعةِ قاعدةً حكيمةً في عالَمِ المُثُلِ العُليا.

وفي التاريخ قديمِهِ وحديثِهِ فصولٌ كثيرةٌ تتّصلُ بالتاريخ البطوليِّ في عالَمِ الحَقيقةِ والواقع أو في عالَمِ الخُرافة والخَيال. من هذه الفصول عددٌ خُصّتْ به هذه الأسماء التالية: شرّوقين (عبد الملك) الأكّدى[1] - رع مسو (رعمسيس[2]) حمورابي - قَدْموس - قُورُش - حَنّبَعْلُ - الإسكندر المَقْدوني - يوليوس قَيْصر كليوباترا - المُهَلْهِل - عَنْتَرَة - صلاحُ الدين - هولاكو - تَيْمورلَنْك - نابوليون - مُصطفى كمال - هِتْلر.

(١) راجع فوق، ص ٢٩ ، ثمّ تحت، ص ٥٧.
(٢) راجع، فوق، ص

إنّ في الذاكرةِ الإنسانية لكلّ اسمٍ من هذه الأسماء صورتَيْن إحداهُما من التاريخ الواقع والثانيةُ منهما من الرواية الخَيالية. هاتان الصورتانِ قد تَتَقاربانِ حتّى تَتَماسّا أو تكادانِ، وقد تَتَباعدانِ حتّى تنقطعَ الصِلةُ بينَهما انقطاعاً يكادُ يكونُ تامّاً. فمِنَ الصُوَرِ التي يتقارَبُ كلُّ زوجَيْنِ منها تقارباً شديداً صورةُ صلاحِ الدين الأيوبي. قال بهاء الدين بنُ شَدّادٍ (ت ٦٣٢ = ١٢٣٤ م) في كتابه «النوادرِ السلطانية والمحاسن اليوسفيّة» يذكُرُ شَجاعةَ صلاحِ الدين الأيوبيّ (ص ٤١ - ٤٢):

«وكان - رَحِمَهُ الله - إذا اشتدّتِ الحربُ يطوفُ بين الصَفّيْن ويخرُقُ العسكرَ من المَيْمَنَةِ إلى المَيْسرة ويُرتِّبُ الأطلابَ[1] ويأمُرُهُم بالتقدُّم والوقوف في مواضعَ يراها. وكان يُشارِفُ العَدُوَّ[2] ويجاوِرُهُ. ولقد قُرِيءَ عليه جُزءانِ من الحَديث[3] ونَحْنُ على ظُهورِ الدوابِّ بَيْنَ الصَفّيْن نَمْشي تارةً ونَقِفُ أُخرى».

لقد كان هذا العملُ من صلاحِ الدين «طَلَبَ العِلْمِ» وهو على مَقْرُبَةٍ خَطِرَةٍ من العَدُوّ (الإفرنجِ الصليبيّين) - لأنّ العِلْمَ يُلْهي عن كلّ شيءٍ آخَرَ - مُغامرةً جريئةً لا يأمُرُ بها العقلُ وإن كان يَقْبَلُها الإيمان. ولكنّها على كلّ حالٍ أمرٌ مُمكِنٌ في النِطاق الإنسانيّ البَشَريّ.

وأمّا الاسْمُ الذي يُطْلَقُ على شخصٍ له في الذاكرةِ التاريخية صورتان لا تكادُ إحْداهما تَتّصِلُ بالأخرى، فالاسْمُ «قَدْموس». إنّ الصورة التي يُمْكِن أن تكونَ تاريخيةً في هذا الإسم هي أنّ كَلِمَةَ قَدْموس اسمُ جِنْسٍ، وَهِيَ صِفَةٌ أصلُها في اللُّغة الكَنْعانية «قدمو» (قديم). والمفروض أن هذه الصفةَ كانت

(١) الأطلاب جمع طلب (بكسر الطاء): الأمر الذي يقصده أو يريده الإنسان، هنا: تنفيذ مهمّة (بفتح الميم ثمّ تشديد الميم المفتوحة): عسكرية.
(٢) شارف العدوّ: اقترب منه من مكان مرتفع.
(٣) الحديث: أحاديث رسول الله.

نَعْتاً لرجلٍ تاجرٍ من الكَنْعانيّين (أو لعدد من التجار)، وكان هذا الرجلُ يَتَنَقَّلُ بتجارته بينَ بلادِه بلادِ الإغريق (اليونانيّين القُدَماء). فاتّفقَ أنْ رآه الإغريقُ يُدَوّنُ أسماء بضائعهِ وأثْمانَها بطريقةٍ جميلةٍ مُوجَزةٍ عَرَفوا منها أنها كِتابةٌ أبْجَديَّةٌ. فاستَحْسَنوا تلك الطريقةَ وتَعَلّموا منه هذه الأبجديةَ ثمّ كَتَبوا بها لُغَتَهُمْ. وجَرى ذِكْرُ هذا الرجلِ بينَ الإغريقِ فأجْرَوُا اسْمَه مَجْرى الأسماء في لُغَتِهِمْ وألْحقوا بهِ علاماتِ الإعرابِ على مُقتضى النَحْوِ الإغريقيّ فَرَجَعَتْ إلينا صِيغَةُ هذا الاسْمِ في حالةِ الرَفْعِ «قَدْموس» (بزيادةِ السين علامةَ الرفع في بعضِ الأسماء اليونانيّة). ومِنَ القرائنِ على أنّ كلمة «قَدْموس» ليستْ في الأصلِ اسمَ عَلَمٍ على شخصٍ بعَيْنِه إن هذه الكَلِمَةَ «قدموس» تُطْلَقُ على بلدةٍ في جبال النُصَيرية في غَربيِّ سُوريَةَ يبدو أنّها خَضَعَت لِمِثلِ ما خَضَعَتْ له لفظةُ قدموس الدّالةُ على ذلك الرجلِ التاجرِ الكَنعانيّ.

وأمّا الصورةُ الأخرى للشخصِ الذي أُطْلِقَ عليه في الذاكرةِ العاميّة اسْمُ قدموس فَهِيَ صورةٌ لرجلٍ فينيقيٍ[1] اخترعَ الأحرفَ الأبجدية! ليس في العالَمِ رَجُلٌ أو جيلٌ أو شَعْبٌ اخترعَ الأبجديةَ أو اخترعَ الكيمياء أو اخترعَ الطائرةَ. بل هنالك تَطَوُّرٌ في تاريخِ الإنسانيةِ للأبجديةِ والكيمياء والطائرةِ ولآلةِ التصوير وللنَظَريّةِ الذريّة.

وإذا كانَ لِرَجُلٍ - كلِّ رجلٍ - في الذاكرةِ الإنسانيةِ صورتانِ، فلا بُدَّ من أن تكونَ كلُّ صورةٍ منهما مُرْتَبطةً بوجهٍ من وجوهِ النَشاط الإنسانيِّ في التاريخ.

كان شرّوقِينُ الأكّديُّ (ت ٢٩٠٠ ق. هـ = ٢٣٣٠ ق. م) فاتحاً عظيماً أقام إمبراطوريةً واسعةَ الأرجاء عمّتْ واديَ الرافِدَيْن وسُوريَةَ ثمّ ترامتْ إلى

(١) فينيقي (اقرأ: كنعاني). أنّ كلمة «فينيقيا» وضعها اليونان (في قصة طويلة).

المناطقِ الشرقيةِ من آسِيَةَ الصُغرى. غيرَ أنّ شرّوقينَ لم يكُنْ رجلاً عسكرياً فحَسْبُ، بل كان مُصلِحاً اجتماعياً كبيراً، فهُوَ أوّلَ من خطَرَ بباله أن يُحضّرَ قومَهُ الأعرابيين بأنْ يَحْمِلَهُمْ على أن يَتَبَدّلوا بخيامِهِمُ التي كانوا يَرْحَلون بها من مكانٍ إلى مكانٍ بيوتاً من الطين المَشْويّ مُسْتَقِرّةً في مكانٍ واحدٍ. بهذا الخاطر العابر استطاعَ شَرّوقينُ أن يجعَلَ قومَهُ الأوّلين، أُمّةً متحضّرةً. وكذلك أمَرَ شرّوقينُ قومَهُ بأن يُدوّنوا لُغَتَهُمْ بالخطِّ المِسماريّ. وَمَعَ أنّ لُغَةَ الأكّديّينَ، لُغَةَ قومِ شرّوقين، كانت لُغَةً أعرابية، ومَعَ أنّ الخطَّ المِسماريَّ الذي كان السُومريّون قدِ كتبوا به لُغتَهُمْ غيرَ الأعرابية كان مُعَقّداً صَعْباً، فأنّ هذا الخطَّ الذي يُلْقى على الأفكارِ حِجاباً كثيفاً كما يَضَعُ على التعبير قُيوداً شديدةً قد حَفِظَ لنا جانباً من تاريخِ الحَضارة الأكّديةِ وروى لنا قِسْطاً من تُراثها الأدبي.

ومَعَ أن الأكّديين قد تناولوا الحضارة بمَجْموعِها من السُومريّين ـ والحضاراتُ كلُّها يَتَطَوّرُ بعضُها من بعضٍ ـ فإنّ الحضارةَ الأكّديةَ فاقت الحضارةَ السومريّةَ في كلِّ وجهٍ. إنّ الأدبَ الأكّديَّ بَلَغَ رُتبةً رفيعةً، وإنّ الفنَّ عند الاكّديينَ ـ فنَّ النحتِ، مثلاً ـ قدِ ارتقى عِندَهم مِنَ الخُطوطِ الجامدةِ على سَطْحٍ مُسْتَوٍ إلى الخطوطِ المُتَموِّجَةِ في الأبعادِ المُتَخَيَّلَةِ. إنّ النوعَ الأوّلَ مِن الرسمِ والنَّحْتِ هو فنُّ الرسمِ الطُفولي الذي لا يكونُ الشكلُ المرسومُ فيه دالاًّ على شخصٍ مُعَيَّنٍ من البَشَرِ ولا على شَجَرةٍ معيّنةٍ من الشجر. إنّ جميعَ الناسِ في هذا النوعِ من الرسم يَبْدونَ وكأنّهُمْ شخصٌ واحدٌ، وإن جميعَ الأشجارِ تبدو وكأنّها نَبْتَةٌ من فصيلةٍ واحدةٍ.

وَبَرَعَ الأكّديّون في صِناعةِ الحَرْبِ فكانوا أوّلَ من صَنَعَ خُوذَةً ـ طاساً من حَديدٍ مُبَطَّنٍ بِجلْدٍ يَضَعهُ الجُنديُّ على رأسِه عند خَوْضِ المعارك ـ فكانوا

بذلك رُوّادَ الآلاتِ الحربيةِ المُدَرَّعَةِ. وأُصِيبَتْ غَنَمُ عتونَ[١] الأكّديِّ بالعُقْمِ فلم يُنْتِجْ منها في فُصولٍ مُتَتاليةٍ من الربيع حِملانٌ[٢]،فَرَكِبَ عَتونُ عُنُقَ نَسْرٍ وطارَ به في السماء بحثاً عنِ العُشْبِ الذي يَشْفي مِنَ العُقْمِ. فأوْحَتِ الحضارةُ الأكّديةُ إلَيْنا ـ من خِلالِ هذه الخُرافةِ ـ بأوّلِ صورةٍ للإنسانِ الطائر.

ومرَّ الزمانُ فنَسِيَ الناسُ فُتوحَ شرّوقينَ ـ مَعَ أنّ ذِكْرَها ما زالَ في عَدَدٍ من كُتُبِ التاريخ ـ ذلك لأنّ فُتوحاً تاليةً جاءت فيما بعدُ فكانتْ أعمقَ أثراً وأوضحَ نتيجةً. ولكن لمّا زالتْ فُتوحُ شرّوقين من أذهانِ الناسِ، كما زالَ أثَرُها عن وَجْهِ الأرض، لم تَزُلْ جُهودُ شرّوقينَ الحَضاريّةُ. إنّ شرّوقين لمّا حَضَّرَ قومَهُ البَدْو استمرّوا حَضَراً بعدَ ذلك إلى اليوم. ثمّ إنّ قومَ شرّوقينَ أنشأوا في فَجْرِ تاريخِهِمْ حضارةً وثقافةً زاهِيَتَيْنِ أنافتا على ما كانَ قَبْلَهُما برُغمِ أنّ قوم شروقين كانوا قد تناولوا بَوادِرَ تَيْنِكَ الحضارةِ والثقافةِ عمّن كان قَبْلَهُمْ.

إنّ الدفاعَ العَسكريَّ قد ظلّ حتّى الأمسِ القريبِ ـ ولا يزالُ إلى حدٍّ ما ـ مَديناً بوجهٍ من وجوهِه، في القُوّاتِ المُدَرّعةِ، للحضارةِ الأكّديّة التي سار بها شرّوقينُ شوطَهُ المكتوبَ. وكذلك الطيرانُ مَدينٌ بمرحلةٍ من مراحلهِ، في الفِكْرة الباعثةِ على تَخَيُّلِهِ إلى قَصّاصٍ بارعٍ من قومِ شرّوقين.

ولسنا نعلمُ فاتحاً قامَ بصِغرِ سِنّه ـ وفي حياتِه وحدَه ـ بما لم يَقُمْ به كِبارُ الفاتحين بأعمارِهِم الطِوالِ إلاّ الإسكندرُ المَقْدونيّ. وُلِدَ الإسكندرُ

(١) العتون (العتون) بالعبرية الأسد)(Gesenis, 1884, P. 839، واسم علم عرّب في التوراة (الطبعة العربية، الأميركية) عتني (بضمّ العين) وفي النسخة الإنكليزية (Othni) (الأيّام الأولى ٢٦ : ٧). وعتن في العبرية جذر ممات يعني في الأصل عنف (بفتح فضمّ) عليه وبه: استخدم العنف والشدّة (في معاملة الناس). وفي العربية: عتنه إلى السجن يعتنه (بفتح التاء في الماضي وضمّها في المضارع): دفعه (دفعاً) شديداً عنيفاً. والعتون (بفتح العين): (الرجل) الشديد (القاموس ٤ : ٢٤٦).

(٢) الحملان جمع حمل (بفتح ففتح): صغار الغنم.

المقدونيُّ[1] في عام ٣٥٦ قبلَ الميلاد (٩٧٨ قبل الهجرة). ولمّا بَلَغَ الثالثةَ عَشْرَةَ من عُمُرِهِ استقدمَ له أبوه رجلاً هو أكبرُ فلاسفةِ العالمِ بلا مُنازعٍ أرسطو ليكونَ له مُؤَدِّباً (مُربياً ومُنَشِّئاً) لا مُعلّماً فقطْ. وهكذا أصبح الإسكندرُ المَقْدونيّ سليلَ ثلاثَ عَبقريّاتٍ من الفِكر المبدْع ونتاجَ ثلاثةِ أجيالٍ من العقلِ الإنسانيّ الجبّار: أخذَ العِلْمَ عن أرسطو الذي أخذَ عِلْمَهُ عن أفلاطونَ الذي كان تلميذاً لسُقراط!

كان سُقراطُ الحكيمُ داعيةً إلى إثارة جانبِ الفُضول في العَقْلِ الإنسانيّ لِلتَوَصُّلِ إلى المعرفةِ النابعة من ضَمير الإنسانِ واختباره للحُكْم حُكْماً مُجَرَّداً من الأهواء الشخصيةِ والمُلابسات الآنيَّةِ في سَبيل إرساء قواعدِ الحقّ المُطْلَقِ إلى جانبِ ما يَفْرِضُه هذا الحقُّ المُطْلَقُ مِنَ النَفْعِ الاجتماعيّ العامّ. أمّا أفلاطونُ فكان أرحبَ الناس خَيالاً في النَظَر إلى الوجود المِثالي الذي يَجب أن تَتَحلّى بِهِ الإنسانيةُ حتّى يكونَ الناسُ جميعاً سُعداءَ في نفوسهم نافعينَ للذين يَعيشون مَعَهُمْ، يَصْدُرونَ في تَفْكيرهم عن اتّساقٍ بالمَنْطِق ويَقومون بأعمالِهِمْ على قواعدَ ثابتةٍ من الواجب اللازمِ الذي لا يُبَدِّلُ شيئاً منه اختلافُ الزمان والمكانِ. فإذا وَعَى كلُّ حاكمٍ تَبِعَتَهُ ومكانَتَهُ - في رأيِ أفلاطونَ - ثمّ أدرك كلُّ مُواطنٍ نِطاقَ واجبهِ وحُدودَ حُرّيّتِهِ أصبحَ عالَمُنا هذا الذي نَعيشُ فيه عالَماً فاضلاً كاملاً هو العالَمُ الذي يَصْبو كلُّ إنسانٍ إلى الوصولِ إليه ولكن يَعْجِزُ الفَرْدُ العاديُّ عنِ الاستدلال عليه. ولَقَد حَرَصَ أفلاطونُ، في سبيلِ تحقيقِ هذا الخَيالِ الجميلِ، على أن يَرْفَعَ البَشَرَ كلَّهُمْ إلى مَنْزِلَةِ الإنسانِ الحكيم. وعَجْزُ أَحَدِ الناسِ - أوْ نفرٍ من الناس، أو الكَثْرةِ من الناس - عن حلّ مسألةٍ

(١) الإسكندر المقدوني الكبير ذو القرنين خلف أباه فيليب الثاني باسم الإسكندر الثالث. مقدونية: مقاطعة في شماليّ اليونان.

في الرياضيّات، مَثَلاً، ليسَ دليلاً على أن هذه المسألةَ ليس لها حلٌّ.

ثمّ يأتي أرِسْطو عظيمُ المُفكّرينَ مُدَوّنُ عِلْمِ المَنْطِقِ ومُنَظِّمُ علم ما وراء الطبيعة وصاحبُ تَصْنيفِ العلومِ وتَقْسيمها وتوضيحها ومُسَمِّيها بأسْمائها ومُنْزِلُها منازلَها في التأليفِ والتعـليم فيُعْطي قَضيّةَ النفسِ ما تحتاجُ إليه من التأمُّلِ النَظَريِّ الروحي ثمّ يُوَفّي العالَمَ الواقعَ حَقَّهُ من البَحْثِ العَمَليّ والمُعالجةِ الماديّة.

هذا التُراثُ الثمينُ الشاملُ الذي انْحَدَرَ إلى الإسكندرِ المَقْدوني - ولا مَفَرَّ من الإقرار بأنّ الإسكندرَ المَقْدونيَّ كان يَتَمَتَّعُ باستعدادٍ فِطْريٍّ بالغٍ - ما كانَ بالإمكانِ إلّا أن يجعَلَ من الإسكندرِ المَقْدونيّ رجُلاً يَمْلِكُ مقاييسَ الحُكْمِ الصحيحِ في الأمورِ، لأنّه كان قد أصْبَحَ ينظُر إلى حقائقِ الأشياء ونتائجِ الآراء ثمّ إلى أُسُسِ العُمران (الاجتماع الإنسانيّ) ومَجْرى التاريخ بِفِكْرٍ تَثَقَّفَ بالعِلم الكثيرِ المُنَظَّمِ وبالاختبارِ الصادقِ الواسع.

بعد مَعْرَكَةِ إسّوس - عندَ خليجِ الإسكندرونة - وبَعْدَ هزيمةِ دارا[1] الثالثِ هزيمةً تامّـةً (عام ٣٣٣ق. م. = ٩٥٥ق. هـ.)، وَقَفَ المَلِكُ الشابُّ - وهو لا يزالُ، إذا عَدَدْنا عُمُرَهُ بِحساب السنين وحدَها طِفلاً في الثانيةِ والعِشرينَ من عُمُرِه - يتأمَّلُ مَوْقفَه من وَجْهَيْهِ: أَيَقِفُ حيثُ وَصَلَ أمْ يَسْتَمِرُّ في الفَتْحِ!

واجتمع قوّادُ الإسكندرِ ومُسْتَشاروه حوله، وكان البرُّ الواسعُ والجبالُ العاليةُ عن شِمالِهم وإلماء الغامرُ والأمواج الصاخبةُ عن يَمِينِهم يتدارسون

(١) دارا: صاحب، ملك. ويعرف في اللغة الأجنبية باسم داريوس (السين في اليونانية علامة الرفع). واختصر العرب الاسم «دارا» من الأسم في الفهلوية (الفارسية القديمة): Darayavaush. ويطلق هذا الإسم على نفر من ملوك الفرس

الحَرْب ويُوازنونَ بَيْنَ الخُطَطِ. في أثناء هذا المَوْقِفِ الغائِمِ الحائرِ وَرَدَتْ رِسالةٌ من كِسرى عظيمِ الفُرْس، من دارا الثالث، يطلُبُ الصُّلْحَ ويَعْرِضُ على الإسكندرِ أن يكونَ نَهْرُ الفُراتِ خطّاً فاصلاً بين بلادِ الحُكْمِ الفارسيّ وبلادِ الحكمِ اليونانيّ (وكان لا يزالُ بينَ الإسكندرِ وبين أقربِ نقطةٍ على الفراتِ مائتَا ميلٍ).

كانتِ الرسالةُ في يَدِ الشابِّ المَلِكِ وكانت صُوَرُ المُسْتَقْبَلِ تَتوالى مُتزاحمةً في خاطرِه: صُلْحٌ عزيزٌ واسْتيلاء بل قتال على بلادِ غربيِّ آسِيَةَ، مَهْدِ الحضارةِ القديمة! وسأل الإسكندرُ قُوّادَه ومُستشاريه أن يُعينوه بآرائهم. فأجْمعوا على أن العَرْضَ الفارسيَّ سَخيٌّ جداً وعلى أنّه لا يُمْكِن أن يتَخَيَّلَ إنسانٌ أزهى من هذا النَّصْر. ثمّ قالوا: ليسَ من المعقولِ أن يَستطيعَ الجيشُ اليونانيّ أن ينالَ بالحربِ فوقَ ما عُرِضَ عليه بالسِلْم! ولكنّ الاسكندرَ رَفَعَ رأسَه لِيُصْدِرَ الأمر إلى الجيشِ بِمُتابعةِ الزَحْف: انْحَدَرَ الإسكندرُ بالجيشِ جَنوباً واستولى على جميعِ السواحلِ الشَرقية من البحر الأبيض المتوسّط حتّى يقطَعَ الأسطولَ الفارسيَّ عن قواعِده ومراكزِ تموينه فَبَلَغَ باستيلائه هذا إلى مِصْرَ. ثمّ إنّه عاد أدراجَه وقَطَع باديَةَ الشام من جانبِها الشَّماليّ وواقَعَ دارا الثالث إرْبِلَ، شَرْق المَوْصِل» عامَ ٣٣١ق. م. حيثُ تَشَتَّتَ الجيشُ الفارسي. وفرّ دارا الثالثُ هائماً على وَجْهِه فَقَتَلَهُ واحدٌ من أتباعِه طَمَعاً بما على جِسْمه من الجواهر...

تابعَ الإسكندر المقدونيُّ زحفَهُ شرقاً حتّى استولى على مقاطعة السِنْد (في الغرب الشَماليّ من شِبه قارّة الهند) ثمّ وصلتْ طلائعُ جيشِه إلى خُجَنْدَةَ (في جَنوبيّ التُركستان). وفي مَدى عَشْرِ سَنواتٍ كانتْ إمبراطوريّةُ الإسكندر المقدونيّ قدِ امتدّتْ من الشرق إلى الغرب نحو خَمسةِ آلافِ ميلٍ. ومَعَ هذا

كلّه فإنّ إمبراطوريّةَ الإسكندرِهذه قد تَقَسّمتْ يومَ وفاتِه، في العامِ الحادي عَشَرَ بعدَ ابتداء فُتوحه. ولكنّ الجانبَ الحضاريَّ من هذه الحملة العسكرية هو الذي قد عاشَ إلى اليومِ: لا على الخارطةِ فَحَسْبُ - في إسكندريةِ مِصْرَ وإسكندريةِ العراق وفي سائرِ الإسكندريات[١] في كلِّ مكانٍ - بل في الثقافة الهِلّانية أيضاً، تلك الثقافةِ التي كانَت مزيجاً من الفكر اليونانيّ ومن أوجُهِ التفكير المشرقيّة. ومَعَ أن هذه المذاهبَ الفلسفيةَ الهِلّانيةَ ليستْ من نَجْرِ فلسفةِ أفلاطونَ وأرسطو في سَلامةِ المنطق وعُمْق التفكير وجِدّةِ البحث وقيمة الموضوعات، فإنّها مذاهبُ شَغَلَتِ الدارسينَ مُنْذُ ذلك الحين وما تزال تَشْغَلُهم. ثم إنّ أثرَ المذاهبِ الهِلّانيّة في الجماعات الدينية خاصّةً كان شديداً جدّاً، أشدَّ من تأثير فلسَفَتَيْ أفلاطونَ وأرسطو، ذلك لأن جُمهورَ الناسِ

---

(١) بنى الإسكندر المقدوني في أثناء الحملة التي قام بها على المشرق (٣٣٤-٣٢٣ق. م.) عدداً كبيراً من المدن سمّاها كلّها باسمه. جاء في «معجم البلدان» لياقوت الحمويّ (تحت كلمة «الإسكندرية، راجع أيضاً دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة Alexandria):
قال أهل السير: بنى الاسكندر ثلاث عشرة مدينة سمّاها كلّها باسمه. ثمّ تغيّرت أسماؤها بعده وصار لكلّ مدينة إسم جديد، منها: اسكندروبوليس (في اليونان) ثمّ الإسكندرية المعروفة بالمحصّنة (لعلّها تلك التي قرب طروادة في آسية الصغرى والمعروفة باسم «حصارلق» في تركية) ثمّ الإسكندرونة (الإسكندرية الصغيرة (المرفأ الشمالي الغربي في سورية، وقد أتبعت بتركية رسمياً عام ١٩٣٩ فسمّاها الأتراك هاتاي)، ثمّ الإسكندرية العظمى (في مصر) ثمّ هنالك في شرق الأردنّ مشهد لمدينة قديمة كان اسمها الإسكندرية. وفي العراق أربع مدن تحمل هذا الإسم إحداها قرب إربل (شرق الموصل) والثانية بأرض بابل (قرب الكوفة على نهر اسمه النيل منها أبو الفتح الإسكندري المكدي (البطل) في «مقامات بديع الزمان الهمذاني»، والثالثة على دجلة بإزاء الجادّة قريبة من واسط، والرابعة كانت على الخليج الفارسي قبل أن يلتقي دجلة بالفرات. وهنالك مدينتان بهذا الإسم إحداهما بين حماة وحلب والثانية منهما بين مكّة والمدينة. ويبدو أنّه كان ثمت عدداً كبيراً من المدن قرب مرو (في خراسان، شرق إيران) وهراة وغزنة (أو قندهار) وكابل (كابول)، وهي في الأفغان، ثمّ مدينتان أو أكثر على نهر السند (في باكستان اليوم) ثمّ على نهر جيحون وقرب مدينة سمرقند ومدينة خجندة (جنوب طشقند(أبعد ما وصلت إليه فتوح الإسكندر (وهذه في التركستان). وهنالك طبعاً مدن أخرى نستطيع اليوم توقيعها على الخارطة. ويحسن أن نعلم أن ثمّت عدداً من المدن القديمة والحديثة تحمل إسم الإسكندرية وليست من بناء الإسكندر المقدوني.

أقربُ إلى فَهْمِ الأمورِ الخاطئة منهم إلى فهم الحقائق. وفي ما يلي عددٌ من وجوه الأثر الذي تركته حملةُ الإسكندر المقدونيُّ في الثقافة الإنسانية ثمّ لا نزال نحن إلى اليوم نرى في حياتنا شيئاً من أثرها من خير أو شرّ.

انصرفَ علماء ذلك الدورعن علمِ ما وراء الطبيعة (العالمِ الغائب عن الحسِّ الإنسانيِّ) إلى العلومِ الطبيعية والعلومِ التاريخيّة والعلوم الأدبية - تلك العلومِ التي هي ألصقُ بالحياة الإنسانية الواقعة وأطوعُ لتلاعبِ الإنسانِ بها والتبديل في أحكامِها بحَسْبِ رَغَباتِهِ وشَهَواته - ثمّ مالوا في معالجة الأخلاق والسُلوك إلى فَهْمٍ هو أقربُ إلى جُمهور الناس (باتّخاذِ المواقفِ الوَسَط واللُجوء إلى التَسْويات التي تسمَحُ لكلّ خَصْمٍ في القضايا المختلفة بشيء من التَرْضيةِ من غير مُحاولةٍ للجزم الباتّ في أمرٍ من الأمور)، إذْ أصبحت الأخلاقُ نِسْبيّةً ولم تَبْقَ قائمةً على مُثُلٍ عُليا ولا على مقاييسَ مُطلقةٍ. ومَعَ أنّ هذا الاتّجاهَ قد مهّدَ الطريقَ للفلسفةِ كي تَنْتَشِرَ بينَ الناس، فإنّه قد مَزَجَ الفلسفة بالدين ثمّ مال بالفلسفةِ إلى جانبِ الجَدَلِ وقَصَرَ اهتمامَ الفلاسفة على المسائلِ الجُزئية والقضايا الجانبية الفَرْعية. وبدَلاً من أن يكونَ التفكيرُ الفلسفيُّ جامعاً للناس على الأُلفة والتسامح وعلى العيش بما يقضي العقلُ، عَظُمَ النزاعُ بين أصحاب المذاهب الفلسفية الجديدة. وقد قلَّ الابتكارُ في الفلسفة من أجل ذلك وكَثُرَ الاهتمامُ بالشُروح على كتب الأقدمين وبالتعليق (إبداء الآراء الشخصية) عليها، اسْتجابةً لذلك الجَدَل الذي كان قد انعقدَ حُبُّه في القلوب. وبذلك أصبحتِ الفلسفةُ الجديدةُ باباً من الأدب - أو قريباً من ذلك - تَغْلِبُ عليها العاطفةُ وتتبدّلُ أحكامُ أصحابِها بتبدُّلِ المُلابساتِ العارضة.

ثمّ أنّ الناسَ تَخلَّوْا عن جانبٍ من العَصَبية القومية وتَبَدَّلوا بها شُعوراً

إنسانيّاً عامّاً فزالَ التفريقُ بينَ اليونانيّينَ وبينَ البرابرةِ (غير اليونانيّين). ثمّ كثُرَ اهتمامُ المتفلسفين بالفَرْدِ وحُرّيتهِ فيما يتعلّقُ بالتفكير والسُلوك والتعبير عن العاطفة قولاً وعملاً، كما اقتصرَ اهتمامُ الفردُ على نفسه. ونَظَرَ الفردُ إلى السعادةِ على أنّها الاطمئنان الداخليّ الشخصيُّ مقطوعاً عن مَجرى الأمور العامّة وعنِ اهتمام المجموعِ أيضاً: إنّ الفردَ (من هؤلاء) لم يَبْقَ جُزْءاً من العالمِ المُحيطِ به إلاّ بمِقْدارِ ما يتّصلُ بِهِ من أجْزاء العالمِ القريبةِ منه.

وقَوِيَ الأثرُ الدينيُّ في النفوس بما كان قد دَخَلَ في التفكير اليونانيّ من عناصر المذاهبِ (الدينيةِ) الشرقية، والمذاهب الباطنيّة خاصّةً، فبَرَزَ الاتّجاهُ الصوفيُّ الذي يرمي إلى تفسير الظواهر المادّية في الوجودِ تفسيراً روحيّاً أو يجعَلُ للأقوالِ الصريحةِ تأويلاً باطنيّاً (مَعْنىً خَفيّاً عن عوامّ الناس) يَرْجِعُ إلى أنّ لِعَدَدٍ من الأمور الجارية في عالَمِنا أسراراً طواها اللهُ عنّا فلا يَطّلِعُ الأكثرون منّا عليها. من أجلِ ذلك كان يقومُ، بينَ الحين والحين وبينَ الجماعاتِ القليلةِ العددِ المُسْتَضْعَفَةِ أو المُضْطَهَدَةِ، أفرادٌ يَتَوَلَّوْن الدعوة سِرّاً إلى التقيّد بتلك الأمورِ القائمةِ على الأسرارِ ويُجادلون عنها بلُغةٍ مَمْلوءةٍ بالرُموز، ثمّ يَعِدونَ تلك الجماعاتِ الضعيفة بنصرٍ جديدٍ في هذا العالمِ أو بأملٍ عظيمٍ في الحياة الأُخرى.

وجَرُؤَ الإنسانُ على مدركِ الألوهيّة فرفَعَ نَفَراً مِنَ الملوك ومن الناس إلى مرتبةِ التشبيهِ بالله، وكان ذلك يَرْجِعُ إلى الاعتقاد اليونانيّ القديمِ من أنّ الآلهةَ أُسرةٌ كبيرةٌ وأنّهم يتزوّجونَ ويتناسلون وأنّهم يتنافسون ويتقاتلون وأنّهم يمرضون ويموتون. وكما نَسَبَ أهلُ ذلك العصر عدداً من صفاتِ البشرِ إلى الله، فإنّهم نَسَبوا أيضاً عدداً من صِفاتِ اللهِ إلى البشرِ كالقيامِ بالكَرامات

والمُعْجزات وعلمِ الغيبِ وشفاء المَرْضى على غيرِ المنهج الطِبّيّ المِزاجيّ العِلميّ.

إنّنا اليومَ قد نَسِينا ـ أو قد نَسِيَ جُمهورُ الناسِ ـ أن الإسكندريةَ في جُمهوريّة مِصْرَ العربية قد بناها الإسكندرُ المقدونيُّ اليونانيّ، ولكنّ آثار حملةِ الاسكندر التي كان من نتائجِها المادّيّةِ بناء إسكندريةِ مِصْرَ وأخَواتِها لا تزالُ قائمةً في حَياتنا الثقافية، مَعَ أنّنا قد نَسِينا أيضاً تاريخَها القديمَ ونِسْبَتَها إلى حملةِ الإسكندرِ المقدونيّ على الشرق!

خلفاء الإسكندر

الفتوح لا تثبت إلّا بالعامل الحضاري

إنّ العملَ الذي يقوم به البطلُ الفردُ ـ مقطوعاً عن جهود قومه وأتباعِه ـ يزولُ بموتِ ذلك البطل. أمّا إذا أشْرَكَ البطلُ قومَه مَعَه وجعل من جهوده حركةً اجتماعيّة، فإنّ العملَ الذي قام به في حياته يبقى ويرسُخُ ويزدادُ قوّة.

تعوّدَ العربُ في جاهليّتهم أن يَقيسوا أعمالَهُم العامّةَ من الحروب خاصّةً بجُهودِ أبطالِهم. فإذا نحنُ بدأنا دراسةَ أيام العرب (حروبَهم ومعاركَهم في الجاهليّة) رأيْنا الذِّكْرَ للرجالِ المشهورين دون غيرهم. ففي حرب البَسوس برزَ اسم المُهلْهِلِ (عَديّ بن ربيعةَ) واسمُ سعدِ بن مالكٍ (جَدّ طَرَفَةَ بن العبدِ الشاعر) واسمُ الحارثِ بنِ عبّادٍ، برزتْ اسماء هؤلاء في أدوارِ الحرب المختلفة. ثمّ في أعقابِ حربِ البسوس برزَ اسمُ عمرِو بن كُلثومٍ. ثمّ برزَ اسمُ عنترةَ بنِ عمرِو بنِ شدّادٍ (أو عنترةَ بن شدّادٍ، في المشهورِ من القِصَص) في حربِ داحسٍ والغبراء. وبرزَ اسمُ هاني بن مَسعودٍ في حربِ ذي قارٍ. ولقد كَسَفَ اسمُ عنترةَ في الجاهلية اسماء الأبطالِ جميعَها. ومَعَ ذلك فإنّ كلَّ ما فعله هؤلاء لا يَعْدُو الأحداثَ التي قاموا بها في حِينها. ثمّ لمّا ماتوا زالَ كلُّ شيء فعلوه. إنّ حربَ البَسوسِ قد دامتِ العداوةُ الناشئةُ منها أربعينَ سَنَةً لأنّ المُهَلْهِلَ كان يُوقدُ نار تلك الحربِ كُلّما خشِيَ من نارِها خُموداً. ثمّ وَجَبَ

أن تَقِفَ تلك الحربُ فلم تَقِفْ حتّى قَنِعَ المُهَلْهِلُ أنْ ينسحبَ من مَيْدانِها ويعتزِلَ في مكانٍ قَصِيٍّ من البادية. إنّ حربَ البسوس أُنْشِبَتْ بسببٍ شخصيٍّ على يَدَيْ شخصٍ بَطَلٍ. فلمّا غابَ الشخصُ البطلُ عن مَيْدانِ تلك الحربِ وَقَفَتِ الحربُ نفسُها.

ثمّ جاء الإسلامُ فنَظَرَ نفرٌ من المسلمين إلى محمّدٍ رسولِ الله نِظْرَتَهم إلى بطلٍ جاهليٍّ، وظنّوا أن هذا الدين سيذهبُ بذَهابِ الذي صَدَعَ بالدعوة إليه. فنزَلَتِ الآيةُ الكريمة (٣: ١٤٤، سورة عمران): «وما محمّدٌ إلّا رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِه الرُسُلُ. أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أعقابكم؟ ومَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً. وسَيَجْزي اللهُ الشاكرين».

إنّ محمّداً رسولَ الله قد دعا إلى دينٍ (جاء من عندِ الله بالإسلامِ) وقام بحركةٍ اجتماعيّةٍ واسعةٍ شاملةٍ ربّى فيها أُمّةً على نظامٍ وطيدٍ مَكينٍ. فلمّا لَحِقَ محمّدٌ رسولُ الله بالرفيقِ الأعلى لم تبطُلْ دعوتُه ولم تضعُفْ، بل زادتْ قوّةً وآثاراً في العالم.

إنّ حملةَ الإسكندرِ على المشرق كان لها جانبانِ: جانبٌ مقصودٌ وجانبٌ غيرُ مقصودٍ. أمّا الجانبُ المقصودُ فقد كان الاستيلاء على العالمِ كلّه ـ على العالمِ الحَضاري الذي كان معروفاً في ذلك الحين. وقدِ استطاعَ الاسكندرُ ذلك في مدّةٍ قصيرة، حتّى بالإضافة إلى العصرِ الحديث. وأمّا الجانبُ غيرُ المقصودِ فَهُوَ الثقافة التي خَلَّفَتْها تلك الحملةُ في الأراضي التي وَطِئَتْها جيوشُ الإسكندر. ولقد رأينا من قبلُ أنّ الذي بَقِيَ للإنسانية من تلك الحملة كان ذلك المزيجَ الحَضاريَ من التفكير الغَرْبي (اليوناني) المُطَعَّمِ بالتفكيرِ المَشْرِقي (البابلي والمِصري والفارسي). وأما الجانبُ المقصود: الاستيلاء العسكريُّ فقد زالَ بأسرَعَ ممّا كان.

وماتَ الاسكندرُ المقدوني (٣٢٣ق. م. = ٩٤٥ق. م.) في بابلَ (قُربَ الكوفة اليومَ)، وهو راجعٌ من فتوحه في السِند (غربيّ الهندِ، باكستانَ اليومِ)، بعدَ مرضٍ قصير، وكان في أثناء ذلك يُعِدُّ العُدّةَ للرجوع بحراً من الخليج الفارسي (خليجِ البصرة) لِيَدورَ حولَ شِبه جزيرةِ العرب راجعاً في البحر الأحمر فيستوليَ على شِبهِ الجزيرة العربية ثمّ يَمُدَّ يدَهُ إلى الجانب الغربيّ منه فيَتِمَّ له الاستيلاء على بلادِ حوضِ البحر الأبيض كلِّها.

وكان موتُ الإسكندرِ المقدونيّ الكبير باكراً، غيرَ مُجاوِزٍ ثلاثةً وثلاثين عاماً، كارثةً مُخيفةً ـ من وِجْهَةِ نظرِ اليونان ـ ولكنْ سَهْلَةَ التعليلِ في مَجالِ المَنْطِقِ التاريخيّ.

إنّ العباقرةَ في العالمِ قليلون. وإنّ الأفرادَ الناجحين في الحياة العَمَلية قليلون أيضاً. أمّا العباقرةُ الناجحون فقليلونَ جدّاً لا يظهَرُ منهم في تاريخ الحضارة إلا الفردُ بعد الفرد في الأزمنةِ المُتطاولة. ولم يكنْ في مَنْطِقِ التاريخ، ولا في الإمكان الواقعِ أن يَخْلِفَ الإسكندرَ المقدونيَّ الكبيرَ رجلٌ في مستواه العقلي والعَسكري. ومِنْ سوءِ حظِّ الشُعوبِ أنْ يَتَوالى على حُكمها ملوكٌ أقوياء وملوكٌ ضِعافٌ.

ويبدو أنّ أقدرَ قوّادِ الإسكندر وأكثرهم طُموحاً كان أنطيغونوس مونو أوفثالموس (الوحيد العين ـ الأعور) فطَمِعَ في أن يحوزَ مُلْكَ الاسكندرَ كلّه في الشرق والغَرْب. فنَشِبَتْ بينَهُ وبينَ سائرِ القوّاد حروبٌ مَريرةٌ متطاولةٌ حتّى انهزَم في معركة إبسوس، عام ٣٠١ق. م. ثمّ قتل فيها، قتله زميلٌ له من قوّاد الاسكندر المقدونيّ الكبير هو سلوقوس نيقاطور. ولكنّ مقتلَ أنطيغونوس لم يُقِرَّ السِلْمَ بينَ المتنازعين ـ بعدَ رُبْعِ قرنٍ من المعارك ـ ولا حَفِظَ وَحْدَةَ الإمبراطوريّةِ التي كان الاسكندرُ قد بناها.

وتقسّمتْ امبراطوريّة الاسكندرِ الكُبرى ثلاثَ إمبراطوريّاتٍ صِغاراً:

أ ـ أراد أنطيغونوس غوناطاس (حفيد أنطيغوناس الأعور) أن يستبدَّ بالقِسم الأوروبيّ ممّا كان في مُلْكِ الاسكندرِ المقدوني ومُلكِ أبيه فيليبَ، ولكنّه لم يَسْتَطِع أن يحكُمَ جميعَ البلاد اليونانية في القارّة الأوروبيّة، ذلك لأنّ الدويلاتِ اليونانيةَ لم تشأ التنازلَ عنِ استقلالِها ولا هي أقرّتْ لأنطيغونوس بما كانت قد أقرّتْ به للاسكندرِ المقدونيّ، فاضْطُرّ إلى الاكتفاء بالحُكْمِ على مقاطعةِ مَقْدونيةَ (الجزءِ الشماليّ من شبه جزيرة اليونان) بعد أن أخضعها بالقوّة. ومعَ ذلك فإنّ المشاكل الخارجيّةَ والداخلية ظلّتْ تَجْبَهُ أنطيغونوسَ وخلفاءه مِنْ كلِ جانبٍ.

وَمَعَ أنّ مملكةَ مقدونيةَ كانتْ أصغرَ الممالكِ التي انقسمتْ مِنْ امبرطوريّة الاسكندرِ، فإنّها لم تكن أضعفَ تلك المَمالك، وخصوصاً في المعاركِ البحريةِ التي خاضَتها في وَجهِ مملكة البَطالسةِ في مصر ومملكة السَلوقيّين في آسية.

ب ـ أمّا أقوى الممالكِ الثلاثِ فكانت مملكةَ البطالسة في مصر.

في عام ٣٠٥ق. م. أسّس بَطْلَيْموسُ ـ وكان جُندياً قديماً في مملكة فِليبَ المقدوني ثمّ من الحَرَسِ الخاصِّ بالاسكندر ـ مَملكةَ مصر. ولكنّ بَطْلَيْموسَ هذا(قد عُرفَ فيما بعدُ بلقب بطليموس صوطار، أي المُنْقِذ) لم يحكُمْ في مِصرَ على المَنْهجِ اليوناني الديموقراطي الشُورَوي)، بلْ حكم حُكْماً استبدادياً واختارَ أن يَتْبَعَ خطوات الحُكّام الفُرْسِ وأن يتَسمّى «سِترابًا» (حاكماً إقليمياً فارسياً ذلك لأنّ الفُرْسَ كانوا يحكُمونَ مِصرَ قبلَ أنِ استولى عليها الاسكندرُ المقدونيُّ. غيرَ أنّه

فيما بعد نادى بنفسه مَلِكاً وحَكَمَ على المنهجِ الفِرعونيّ فلم يُولِ الشعبَ في مِصْرَ شيئاً من العِناية، بل كان كُلُّ ما يَهُمُّهُ أن يجمَعَ أكبرَ قدرٍ مُمْكِنٍ من المال للإنفاق على أوجهِ الحضارة والبَذْخ مِمّا يُطمَحُ إليه في المُلك.

اضطُرَّ بَطْلَيْموسُ الأوّلُ إلى أن ينازِعَ أنطيغونوسَ مَلِكَ مَقْدونيةَ وسَلوقوسَ مَلِكَ سوريةَ. وقدِ استطاعَ في أثناء ذلك أن يمُدَّ سُلطانَه إلى بَرْقَةَ (الجانب الشرقيّ من ليبيا اليومَ) وإلى قُبرُسَ ثمّ استولى على فِلَسْطينَ وَجنوبيّ سوريةَ وعلى أراضٍ متفرّقةٍ من آسيَةَ الصغرى.

ومنذُ أيامِ بَطْلَيْموسَ الأوّلِ أصبحتِ الاسكندريةُ عاصمةً ونشأ في مِصْرَ إزدهارٌ تِجاريٌّ ورُقيٌّ ثَقافيٌ. ثمّ أصبحَ للبَطالِسةِ أُسطولٌ كبيرٌ قويٌّ يَذْرَعُ البحرَ الأبيضَ المتوسّط ويعرقلُ تجوُّلَ الأُسطولَيْن اليونانيّ (المقدوني) والسوريّ (السلوقي)، كما كان يجولُ في أنحاء البحرِ الأحمرِ. ومنذ ذلك الزمنِ أُنْشِئَتْ مكتَبةُ الاسكندرية ومُتْحَف الاسكندرية.

وكانتْ أوسعَ الممالكِ الثلاثِ مملكةُ السَلوقيّينَ: كانت تضُمُّ جميعَ فتوحِ الاسكندرِ في قارّةِ آسيَةَ (السِنْدِ وفارسَ والعراقِ وسوريةَ وآسيةَ الصغرى).

أسَّسَ سلوقوسُ نيقاطُور (الغالب) مملكتَهُ عامَ ٣٠٥ق. م. (٩٢٧ق. هـ.) وبنى عاصمةً لها في ما بين النهرَيْن (مكانَ بابلَ، على مقرُبَةٍ من الكوفةِ اليومَ) في العراق سُمّيَتْ سَلوقيَةَ دِجْلَةَ (لأنّ سَلوقوسَ هذا كان قد بنى عدداً من المُدُنِ في أقطارٍ مختلفةٍ وأطلق اسمَه عليها كُلِّها. فلمّا تَقلّصت مملكةُ السلوقيّين، من ناحيةِ المَشْرِق خاصّةً، نقل انْطيوخوسُ الأوّلُ (ابنُ

سلوقوسَ نيقاطور) العاصمةَ إلى إنطاكِيَةَ (على مقرُبةٍ من مَصَبِّ نهرِ العاصي، في شَماليِّ سورية)* وهي مدينةٌ كان قد بناها سلوقوس.

سَلَكَ السلوقيّون في مَمْلَكتهم مَسْلَكاً مُغايراً لمسلك البطالسة في مِصْرَ: لقد أرادوا صبغَ سوريةَ بالصِبغةِ اليونانية وجعلَها مقدونيةً ثانيةً. من أجل ذلك اهتمّوا بالجانب الشَّمالي الشرقيِّ من مملكتهم لِشَبَهِهِ ببلادِ اليونان!) وأسّسوا فيه عدداً كبيراً من المُدُنِ ثمّ منحوا تلك المدنَ حرّيةً واستقلالاً (على غِرارِ ما كان معروفاً في اليونان) واكتَفَوْا من تلك المُدُنِ بشيئَيْن: الإقرارِ لملوك السَلوقيّين بالطاعةِ ودفعِ أتاوةٍ سنوية.

ولمّا عَظُمَتْ قوّةُ البطالسةِ في البحر خاصّةً وأصبح الأُسطولُ المِصْريّ قادراً على وَقْفِ حَرَكَةِ الأُسْطولَيْن السَلوقي والمَقْدُوني في البحر المتوسّط، اتّحدتْ سوريةُ ومَقْدونيةُ في قِتالِ البطالسةِ فامتدّتِ المعاركُ بين الفريقَيْن خمسةَ عَشَرَ عاماً من غير أن تُتيحَ للسلوقيّين والمقدونيّين أن يتغلّبوا على البطالسةِ أو أن يَثْبُتوا في مقاومةِ البطالسة. ويبدو أن تعليلَ ذلك ليسَ صعباً أو بعيداً عن المنطق.

- إنّ البطالسةَ عاشوا في أرضِ مِصْرَ كأنّهم جزء من الناس الذي يَحكمونهم، مَعَ الحِفاظ على طبقةِ الحكّام وطبقةِ المحكومين. وبما أنّ البطالسة أخْلَوْا أيْديَهُمْ من المشاكل التي كانت تملأ أيْديَهُمْ في أيامِهم الأولى في مَقْدونيةَ ثمّ في أيامِ حملةِ الإسكندر، فإنّ استغناءهم هذا على التَرِكَةِ السياسية المُثْقَلة بالمشاكلِ القومية (اليونانية) قد جَعَلَهُمْ أقوى في إدارة بلادهم وفي التَصدّي لخُصومهم. ثمّ إنّ اهتمامَهم بالجانبِ الثقافي والجانب الحضاريّ خفّفَ الحِقدَ عليهم في الداخل والخارج: لقدِ اشتغلَ البطالسةُ بالعِلم ثمّ تركوا الحُكْمَ في ظاهِره على ما كان مألوفاً من قبلُ فلم يَرَ الشعبُ المِصريُّ القديمُ

أنه قد تَغَيَّر كثيراً عمّا كان عليه. وكان بطلَيْموسُ الأوّلُ ذكيّاً جدّاً لمّا تَسمّى «صوطاراً» (المنقذَ) يَعني بذلك أنّه أرادَ أن يُنْقِذَ الشعبَ المِصريَّ من الحكم الفارسيّ الأجنبيّ (كما كان في مِصْرَ يومَذاك) للعودةِ به إلى الحكم المِصْري الوطنيّ (كما كان المصريّون قد تعوّدوا ذلك الحكمَ). وليستِ البراعةُ في السِياسة أن تُعْطِيَ الناسَ ما يحتاجون إليه أو ما يَنْفَعُهم، بل أن تَعِدَهم بما يُرضِيهِمْ لفظُه ويوافقُ خيالَهُمْ العابر!

- أمّا السلوقيّونَ فقدْ ضَعفُوا لاتّساعِ رُقْعَةِ مُلْكِهِمْ وَعَجْزِهِم عن حُكْمِها وصُنْعِ الإدارةِ الصالحةِ لها. هذا بالإضافةِ إلى أنّهم كانوا غُرَباء في أرضٍ مجهولة. ثمّ إنّهم أرادوا أن يَفرِضوا حضارةً غَرْبية وثقافية غَرْبية على بلادٍ لم تكن أقلَّ حضارةً وثقافةً من بلادِ اليونانِ نفسِها. وإذا نحن أتيْنا إلى الجانب العمليِّ من الموضوع رأيْنا أن الثقافةَ اليونانية التي أراد السلوقيّون أن يَفْرِضوها على الآسيويّين قد تبدّلَتْ هي نفسُها واكتسبتِ اسماً جديداً: التفكيرَ الهِلّانيَّ مكانَ التفكيرِ اليونانيّ. ومع أن اللفظَ «هلانيّ» لفظٌ يونانيٌّ، فإنّ مادّةَ الثقافةِ الجديدةِ كانتْ لُبّاً مَشْرقيّاً في غِشاءٍ رقيقٍ من الجَدَلِ اليونانيّ. وخصائصُ هذهِ الثقافةِ الجديدةِ لا مجالَ لِبَسْطِها في هذا المُوجَزِ الصغير.

- وأمّا المَقْدُونيّون فكان من حَقِهِم أن يكونوا أقوياءَ لأنّهم كانوا يوناناً مَقْدونيّين يَحْكُمون بلداً عَرَفوه وألِفوه ثمّ كان بلداً ضيِّقَ الرُقعة تسهُلُ السَّيْطرةُ عليه. يُضاف إلى ذلك أنّ القائدَ أنطيغونسَ كان أقدرَ خلفاءِ الاسكندر. غيرَ أنّ انطيغونس قدِ انطلق مِنَ افتراضٍ خاطيء: لقد ظنّ فيماأرى - كما يظُنُّ نفرٌ كثيرون من المشتغلين بالتاريخ والذين لا يَعْرِفون ابنَ خلدون - أنّ الأسماء تنطبقُ دائماً على مُسَمَّياتِها، وأن بلادَ اليونان يسكُنُها شعبٌ يونانيٌّ. والواقع

أن بلادَ اليونانِ، مِنْ جزيرة إقريطش (كريت، كريد) إلى جُزُرِ البحرِ الأيوني (بحر إيجه) إلى شِبهِ جزيرةِ المُورة (الجانب الجنوبي من شِبْهِ جزيرةِ البَلْقان) إلى مَقْدونية شَمالاً فَإلى تَراقيَةَ شرقاً تضمُّ شعوباً لا عِدادَ لأُصولِها. يُضاف إلى ذلك كلِّه أنّ مِئاتِ الجُزرِ اليونانيةِ المختلفةِ اختلافاً كبيراً في أحْجامِها وفي بُعْدِ بعضِها عن بعضٍ ثمّ مئاتِ البِقاعِ على الأرضِ الأصلية (في شِبه جزيرة البَلْقان) مَفصولاً بعضُها عن بعضٍ بالجِبالِ الشاهقةِ أوِ الروابي الناهضةِ تُحيلُ الشعبَ الواحدَ - إذا كانَ ثمّةَ شعبٌ واحدٌ - طوائفَ مختلفةً متنافرةً.

من أجلِ ذلك كلِّه لا نستغربُ - ولا يجوزُ لأحدٍ أن يستغربَ - إذا كان اليونانُ لم يستطيعوا أنْ يُنْشئوا حُكْماً سياسياً، من الناحية العَمَلية، في البلادِ التي نَزَلوا فيها بعدَ حملة الاسكندر. أنا لا أُجادِلُ أحداً في أن اليونانَ بلغوا في الجانب النظريّ من التفكير السياسيّ ذِروةَ العَبْقَريّةِ الفلسفيةِ والجَدَلِ المنطقيّ، ولكنّني لا أحاولُ هنا أيضاً تقويمَ الحكمِ اليونانيّ والإدارة اليونانية، ذلك لأنّ الناسَ عادةً يختلفون في ماهيّة الحُكْمِ الصالحِ وماهية الإدارة الرشيدةِ، فكِتابنا هذا في أصولِ التاريخِ لا في فُروعه. وإذا كان اضطرارٌ إلى عددٍ من الفروع فإنّه إضطرارٌ إلى الإتيان بأمثلةٍ على القواعد.

ومَعَ كثرةِ الإضطراب في هذا العصر ومَعَ كثرة التنازُع والضَعف، فإنّ الدُوَلَ التي خَلَفَتْ إمبراطوريّةَ الإسكندرِ قد عاشتْ مُدّةً طويلةً (إذا نحن قِسْنا حياتَها بأحْوالِها في التنازُعِ والضَعْف، فقد عاشتِ الدولةُ المقدونية قرناً كاملاً، وعاشتِ الدولة السلوقيةُ وهِيَ تَتَقلّصُ تدريجاً نحوَ قرنَيْن ونصف قرنٍ من الزمن وعاشتْ دولةُ البطالسة قرنين ونصف قرن ثمّ زالت. إنّ هذه الدولَ لم

تبقَ هذه المُدَدَ لأنّها كانتْ هي تنطوي على عواملِ الحياة، بل لأنّه لم يكنْ في زمانِها خَصْمٌ قويٌّ يستطيعُ الاستيلاء عليها. فلمّا ظَهَرَ الرومان على مسرحِ التاريخ تبدّلتِ الحالُ فجَرَى المنطقُ مَجْراه المألوف.

طريق الشورى وطريق الاستبداد
عند الإغريق (الروم) الوثنيّين
وعند العرب المسلمين

كلّ جماعةٍ ـ كثُر عددُ أفرادها أو قلّ ـ مهما تكُنْ طبيعةُ أحوالِها أو طبيعةُ عملِها، محتاجةٌ إلى وازعٍ أو إلى مبدأ أو نظامٍ أو قانون أو عُرْفٍ، يُضْبَطُ به سلوكُها الظاهرُ. وبما أنّ هذا الوازعَ قوّةٌ خرساء لا تتكلّم وقاصرةٌ لا تستطيعُ أن تَحْمِلَ الناسَ بنفسها على أن يُطيعوها فيعملوا بما تَقْتضيه منهم، لم يكُنْ بُدٌّ من أن يكونَ لها متكلّمٌ باسمها ناطقٌ عنها وعاملٌ عليها يُنَفِّذُ في أفرادِ الجماعة ما يُوجبه ذلك الوازع عليهم.

وعملُ هذه القوّة، أو عمل ذلك الوازع، أن يَزَعَ (أيْ يمنَعَ) بعضَ أفرادِ الجماعةِ من الاعتداء على بعضٍ وأن يُنَظِّمَ سلوكَ هذه الجماعة في الحياة حتّى تستطيعَ هذه الجماعةُ أن تتعاوَنَ على تحصيلِ قُوتِها الضَّروريِّ وحاجاتِها الكَمالية وعلى أن تُدافِعَ عن نفسِها في وجه الأحداث الغاشمة أو الخُصوم المُعْتدين.

يقول ابن خلدون:

«إنّ البَشَرَ لا [تَتِمّ] حياتُهم و[لا يَطْمَئِنّ] وَجودُهم إلاّ باجتماعهم وتعاوُنِهِمْ على تحصيل قُوتِهم وضَروريّاتهم. وإذا اجتمعوا دَعَتِ الضَرورةُ إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ثمّ مَدَّ كلُّ واحدٍ منهم يَدَهُ إلى حاجتهِ ليأخُذَها من

صاحبه ـ لِمَا في الطبيعةِ الحَيَوانية من الظُلم وعُدوان بعضٍ (البشر) على بعضٍ ـ ويُمانعه الآخرُ عنها بمقتضى الغَضَب والأَنفَةِ ومُقتضى القُوّة البَشَرية، فيقَعُ التنازُعُ المُفْضي إلى المقاتلة، وهي تُفْضي إلى الهَرْج وسفْكِ الدماء وإذهاب النُفوس المُفْضي إلى انقطاع النَسْل... فاستحالَ بقاء (الناس) فَوْضى بلا حاكمٍ يَزَع بعضَهُمْ عن بعضٍ، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازعِ وَهُوَ الحاكمُ عليهم، وهو بُمقتضى الطبيعة البشرية المَلِكُ القاهِرَ المُتَحَكّم».

والمَلِكُ هنا ليس صاحبَ التاج والعَرْشِ فقطْ، بل هو المالكُ لأمورِ الجماعة سواءٌ أكان اسْمُهُ مَلِكاً أو رئيساً أو زعيماً أو والياً أو وَجيهاً أو قائداً أو مُستبدّاً. إنّ أسماء المالكين تختلفُ ولكنّ عَمَلَهُم كلّه واحدٌ: ضَبْطُ أمورِ الناسِ لتمكين الناسِ مِنَ التعاونِ على أسباب الحياة وعلى الدفاع عن النفس والمُقْتَنَيَاتِ وعن البلد والوطن.

إنّ شكلَ الحُكمِ الموصوفَ في الأسطرِ التي مرّتْ يُشْبِهُ أن يكونَ هو الاستبدادَ أو ما يُعْرَفُ في اللغات الأجنبيّة بلفظ «الدكتاتوريّة». والاستبدادُ نوعٌ من الحكم قديمٌ جدّاً، ولعلّه أقدمُ أشكالِ الحكم، ولعلّه هو وَحْدَهُ مبدأُ أشكال الحكم كلِّها أو مبدأُ الحكم بإطلاقٍ. أليس الحُكمُ هَيْمَنَةَ قِلّةٍ على كَثْرةٍ أو هيمنةَ فردٍ على جماعةٍ؟

وهذا الفصلُ قِسمانِ:

ـ قِسمٌ هو استعراضٌ بمثابة مُقدّمةٍ لِتبيانِ مدرَكِ الاستبدادِ أو الدكتاتوريّةِ في عددٍ من أدوارِ التاريخ القديم.

ـ ثمّ قِسمٌ في سُلوكِ نفرٍ من الحكّام يُشْبِهُ أن يكونوا مُستبدّينَ أو دكتاتورينَ حقّق بعضُهم ما كان يَقْصِدُه مِنَ استبداده بالحكم وخاب بعضُهُمُ الآخرُ في ذلك.

إنّ لفظةَ «ديكتاتور» لا تَدُلُّ في أصلِ معناها على ما نَعْني بها اليومَ، فلقد كانتْ في الدولة الرومانيّة مثلاً وَصْفاً جميلاً كريماً مُحْتَرَماً. فلا ضَيْرَ من استعراضِ معنى هذه الكلمةِ ومن فَهْمِ حقيقةِ هذا المَنْصِبِ الذي كانتْ هذه الكلمةُ تَدُلُّ عليه.

المدرَكُ الملموحُ في هذه اللفظة أنّ شخصاً واحداً يستبدُّ بالسُلطةِ في بلدٍ تمرّ به أزْمَةٌ من الأَزَمَاتِ - أزمةٌ عسكريةٌ أوْ سياسيةٌ أو اقتصادية أو اجْتماعيةٌ مَدَنِيةٌ - بِرضَا قومِهِ (إذ يُقَدّمُه قومُه على أنْفُسِهِم ثِقَةً بقُدرته وحَزْمِهِ وعدلِه) أو بِرُغْمِهِم (إذ يرى أن بلادَه بحاجةٍ، في أزْمةٍ من أزَماتِها، إلى حاكمٍ حازمٍ لا يُضيعُ وقتاً في التوفيق بين الآراء المُتضاربةِ فيتقدّمُ هو بما له من القُوّة العسكرية إلى الاستبداد بالحُكم).

تَقَهْقرتِ المَلَكِيّةُ في بلادِ الإغريق (قُدماء اليونان) في القرنَيْن العاشرَ والتاسع قبلَ الميلاد وكَرِهَ الناسُ الحُكمَ الأرستواقراطيَّ (حُكمَ النُخْبة الفُضلى في المَقدرةِ والأخلاق) لاعتقادِ أولئك الناسِ أن مغانِمَ البلادِ وجاهَها تذهبُ إلى هذه النُخْبَةِ الممتازة وأنّهم هم قد أصبحوا مظلومينَ في تلك الدولة. في تلك الحال نشأ مَيْلٌ في بلادِ الإغريق، منذُ القرنِ التاسعِ قبلَ الميلاد، إلى قيامِ أفرادٍ يستولُونَ على السُلطة باسم «المظلومين» كي يُنْصِفوا المجموعَ الضعيفَ من القِلّة القوّية، فنشأ الحُكّام المعروفون في التاريخ السياسيّ لبلادِ اليونان باسم «تُورانّوس». ولم تكنْ كَلِمةُ تورانّوس تَعْني في ذلك الحين أكثرَ ممّا كان يَعْنية عَرَبُ الجاهلية بقولهم: شيخٌ (وجمعُها شيوخ) وسيّد (وجمعها سادَةٌ) وكبيرٌ (وجمعها كُبَراء) للدَلالةِ على رجلٍ مُتقدّمٍ في السنّ ناضجٍ حكيمٍ حازمٍ وعلى قَدْرٍ مِنَ الاختبار ومِنَ الثروة أيضاً يُقَدّمه قومُه «رئيساً» على أنْفُسِهِمْ أو «يَسُودُ» هو قومَهُ بما له من الخصائص والصفات التي تُؤهِّلُهُ لذلك. ونحن

نستطيعُ أن نُسَمّيَ مثلَ هذا الرجلِ مَلِكاً أو رئيساً أو زعيماً، لا في جاهليّةِ اليونان وجاهليةِ العربِ فَحَسْبُ بل في كلّ زمانٍ ومكان. إنّ التسميةَ وَحْدَها لا تدُلُّ في الأشخاص على شيء، ولكنَّ سلوكَ الرجلِ (في الحُكم مثلاً) هو الذي يجعَلُ الرجلَ عادلاً أو ظالماً، حازماً أو ليِّناً، قويّاً أو ضعيفاً، نافعاً أو مُسيئاً، أميناً أو خائناً.

وعلى كلّ حالٍ فإنّ كَلِمَةَ «تورانّوس» كانتْ في ذلك الحين بينَ اليونان كلمةً مُحَبَّبَةً إلى الناس في الحياة السياسية. ثمّ نشأ من أولئك الحُكّام نَفَرٌ ظلموا وعَسَفوا فلَحِقَ بهم معنى الاستبداد، وصِرْنا نُسَمّي كلّ تورانّوسٍ «مُستبداً»، ثمّ سمَّيْنا هذا الشكلَ من الحكم «الحُكمَ الاستبداديَّ»، ومن الحقّ أن يسمّى «الغَشْمَ» (الظُلم الشديد) لأنّ الغاشِمَ أو الغَشومَ هو الذي يَظْلِمُ في سبيلِ مصلحتِه هُوَ من غير أن ينظُرَ إلى ما ينفَعُ الناسَ أو إلى ما يُحَقُّ لهم من العدل. ومَعَ هذا كلّه فإنّ نفراً من هؤلاء الغاشمين كانوا من المُصلحين أو من الذين خدموا الحضارةَ والثقافة خَدَماتٍ جليلةً حتّى أن «عصر الغَشْم» في أثينا كان ذِروةَ ما بلغتْ إليه الحَضارةُ في العُمران والفنّ وفي التشريع أيضاً في تاريخ اليونان كلّه.

وبما أنّ التورانّوس كان يأتي إلى الحكم لِيُنْقِذَ من مِحْنةٍ أو ليُعالجَ أزْمَةً طارئةً فإنّه كان يبقى في الحُكم مُدّةً قصيرةً معيّنة: نحوَ عامٍ واحدٍ. وقد وجدْنا صولونَ الحكيمَ الذي دَوّنَ لليونان أوّلَ مجموعٍ لقوانينهم وأصلحَ كثيراً من وجوه تلك القوانين لخيرِ الفلاّحين والعامّةِ ولخير الأمّة اليونانية قد تَرَكَ مَنْصِبه حالاً بعد انتهاءِ مُدّتِهِ (نحو ٥٩٤ ق. م.) ثم غادرَ اليونانَ كلّها بِضْعَ سِنينَ حتّى يُتيح لأهلِ أثينا أن يتدبّروا القوانينَ التي دوّنها لهم بِمَعْزِلٍ عن كلّ تأثيرٍ شخصي أو ضَغْط سياسيّ.

ومع أن بيسيسطراطوس كان غاشماً حقيقياً لأنّه استبدّ بحُكم أثينا عَنْوةً مُستعيناً بجيشٍ غريبٍ من المُرتزِقة ثمّ مكّنَ لنفسِهِ في الحكم ثلاثةَ عَشَرَ عاماً (٥٤٠ ـ ٥٢٧ ق. م.) ومَهّدَ سبيلَ الاستبداد بعدَه لابْنَيْه، فإنّه قد قام بعَدَدٍ من أوْجُهِ الإصلاح الاجتماعيّ فازدهرت الصِناعةُ والتجارة في أيّامه ازدهاراً لم يَسْبِقْ له مثيلٌ في تاريخ أثينا. وبنى بسيسطراطوس لأثينا أُسطولاً كبيراً استطاع به أن يستولي على مَضيق هِلّسْبُونْتَ (بحر هِيلانة) أو مضيق الدَرْدَنيل الذي يَصِلُ بينَ البحرِ الأبيض المُتوسّط وبحر مَرْمَرَةَ (المتّصل بالبحر الأسود من طريق مضيق البُوسْفور)، فأصبحَ بذلك لأثينا سيطرةٌ على البحر الأسود مِمّا جعل لأثينا في ما بعدُ دوراً مُهمّاً في التاريخ. ونقل بسيسطراطوس إلى مدينةِ أثينا «عِيدَ ذيونوسوس» (عيدَ الربيع) الذي كان من قبلُ عيداً رِيفيّاً قَرَوِيّاً، فكان لذلك أثرٌ كبيرٌ في نشأة المسرح اليونانيّ.

ومن أشهرِ حُكّام أثينا برقليس الذي استبدّ بالحكم جيلاً كاملاً من الدهر ٤٦٠ ـ ٤٢٧ ق. م.). وَمَع أنّ برقليس لم يكُن مُخْلِصاً في مظاهر الديموقراطية التي أراد أن يُضفِيَها على حُكمه بالاهتمام بأمور الفلاّحين وبصالح الجُمهور من الأثينيّين، فإنّ أثينا بلغتْ في أيّامه ذِروةً من ذُرى الحضارةِ والثقافة، في العُمران والأدب والفنّ؛ لم تَعرِفْها أثينا في حِقبةٍ من حِقَبِ تاريخها.

أمّا المَثَلُ الأعلى في الحكم الفرديّ فكان في روما في عصر الجمهورية.

ويقابِلُ مَنصِبَ التورانّوس في أثينا مَنْصِبُ الدكتاتور في روما.

مُنذُ عامِ ٥٠٠ ق. م. كان في روما نظامٌ من الحُكم يجوزُ أن يُدعى

جُمهوريّاً، ذلك لأنّ جُمهورَ الرومان كان يستطيعُ أن يُدلِيَ بصوتِهِ في انتخاب قُنْصُلين (رئيسَيْن لتلك الجُمهوريّة)، ولكنْ من غير أن يكونَ لأحدٍ من جمهور الرومان حقٌّ بأن يكون قُنصُلاً. وكان في الجمهوريّة الرومانية مجلسُ شيوخٍ يُساعد القُنْصُلَيْن في الحكم. وكان القُنصلانِ يُنْتَخَبانِ لِمدّة عامٍ واحدٍ، فإذا مرّ العام أخْلَيَا مكانَهما لقُنصلين جديدين. ولكن بما أن القُنصلين كانا دائماً من النبلاء الأغنياء، فإنّ العوامَّ الفقراء لم يكونوا، في مَعْظَمِ الأحيانِ، راضِينَ بهذا الحُكم الجمهوريّ.

وحدث في روما وَحْدَها ما كان قد حدثَ في مُعْظَمِ المدن اليونانيّة من «التفرّد بالحكم» يقومُ به الفردُ بعدَ الفرد في الأزماتِ. وكان المُتفرّدُ بالحكم في روما يسمّى «دِكتاتوراً».

كان المقصودَ من انتخاب دكتاتورٍ أنّ الشُورى تقتضي اختلافَ الآراء.

ثم إن الشورى من بعض وجوهها مُحاولةٌ للتوفيق بينَ الآراء المختلفةِ. هذه المحاولةُ تحتاجُ إلى وقتٍ طويل أو قصير. وإذا كانتِ الأُمَمُ في أزمة أو في حالٍ طارئةٍ أو خَطَرٍ مُداهم فإنّ الوقتَ يُصبحُ خَصْماً جديداً. **ولم يكنِ الوقتُ في حالٍ من الأحوالِ، ولا في زمنٍ من الأزمانِ نصيراً للضعيف!** فالعقلُ يقضي إذَنْ بأن يتفرّدَ شَخْصٌ واحدٌ في الحكم حتّى يَصْدُرَ في الأزماتِ المُطلّةِ عن رأيٍ واحدٍ، عن رأيِهِ هو، وإن كان رأيُه هو أقلَّ صواباً من آراء النَفَر الكثيرين؛ ولكنّه هو يجب أن يكون مخلصاً وعادلاً وحازماً.

هذا الدكتاتورُ (بالمعنى الروماني) كان يتمتّع عادةً بعَدَدٍ من الصِفات أولاها المقدرةُ العسكرية،وكان يُنْتَخَبُ لمدّة سِتّةِ أشهرٍ (نِصْفِ المدّةِ التي للقنصل في رِئاسة الجمهورية). وكانتْ تُفوّض إليه كلُّ الأمور إلاّ القضاء، كما

كانتْ سُلطته قاصرةً على إيطالية وَحْدَها، ولم تكنْ تتناوَل المستعمرات الرومانية ولا الأراضيَ التي تحكُمها روما خارجَ إيطالية.

فَمِنَ الدِكتاتورينَ في روما ماريوسُ وقد كان في أوّلِ أمره فلاّحاً بسيطاً. وحاولَ ماريوسُ أن يَصِلَ إلى عددٍ من مناصب الدولة ثمّ انْتُخِبَ تربيوناً (مُمَثِّلاً للشعب). وبعدَ مُدّةٍ انْتُخِبَ لتَولّي القيادةِ في الجيش تحتَ إمرةِ متلّوسَ القائد العامّ فذهب إلى إفْريقِيَةَ ليشتركَ في الحرب الدائرة بينَ روما ويوغورتا مَلِك نوميدية (المغربِ الأوسط، الجزائر اليومَ) وأن ينتصر بعدَ أنِ استمرّتِ الحربُ في إفريقية ستّ سَنَواتٍ من غيرِ أن يَميلَ النصرُ فيها إلى جانبٍ من الجانبين. واعتزّ العامّةُ بالمُمَثِّلِ الذي كانوا قدِ اختاروه فانتخبوه قُنصُلاً (قبلَ أن يعودَ من ميدانِ المعركة الإفريقية إلى روما).

وكانت قبائلُ من البرابرةِ الجرمان تُحاول النُفوذَ إلى قلبِ إيطاليةَ فهَزَمَتْ في أثناء ذلك عدداً من الحَمَلاتِ الرومانيةِ هزيمةً مُنْكَرَةً. رأى الشعبُ الآنَ أن يُعيدَ انتخابَ ماريوسَ قنصلاً وأن يُرْسِلَه إلى قتال البرابرة الجرمان. انتصر ماريوس على البرابرة الجرمان انتصاراً باهراً مرّةً بعدَ مرّةٍ وأنقذ رُوما من خَطَرِهم.

ولم يكنْ ماريوسُ جُنديّاً قديراً فقطْ، بل كان أيضاً مُنَظِّماً بَعيدَ النظر، فقد فتحَ أبوابَ الجيشِ أمامَ جميع الرومانيّين بعدَ أن كانتِ الخِدمة في الجيش قاصرةً على المواطنين الميسورين. ثمّ أنّ ماريوسَ أدخلَ على نظامِ الجيش عدداً مِنَ الاصلاحات أصبحَ الجيشُ بها جيشاً مُحْتَرِفاً ولكن أحسَنَ كِفايَةً ممّا كان من قبلُ وأكثرَ عدداً. ومَعَ أن ماريوس كان يريدُ من هذه الاصلاحات أن يُصبحَ الجيشُ مُتّكَأً له، فإنَ هذا الجيشَ قد كان نافعاً أيضاً للوطن.

غير أنّ ماريوس (١٥٧-٨٦ق.م.) لم يكن سياسيّاً مُحَنَّكاً، مَعَ أن الأيّامَ كانتْ قد عَرَكَتْه في ميادينِ السياسة وميادين الحرب، بل ظَلَّ «مُزارِعاً رومانيّاً جِلْفاً» مُتطرّفاً في سلوكِه السياسيّ، فَغِيظَ منه أُناسُ الطبقة الأرستوقراطيّة من غير أن يَرْضى عنه رجالُ الحزب الشَعْبي الذين كانوا قد حملوه إلى مَنْصِبِ قُنصلٍ سِتَّ مرّاتٍ. واعتزلَ ماريوسُ الحياةَ السياسية (عام ١٠٠ ق.م.) مذموماً مدحوراً. ثم عاش في عزلته هذه بِضْعَ عَشْرَةَ سنةً.

غَرِقَتْ روما بعدَ ماريوس سِنِينَ في الفَوْضى والدَم. وأخيراً رأى مجلس الشيوخ أن يختار سُولّا (وهو جنديّ بارعٌ من جنود ماريوس) قنصلاً ثمّ يُعَيِّنَهُ على الأثر قائداً لحملةٍ على آسية الصغرى (من بلاد اليونان). لم يَرْضَ زُعماء الشعب عن هذا التعيينِ واستَقرّ في نُفوسِهم أن القائدَ الذي كان قدِ انتصَرَ في المعارك في إفريقية يمكن أن ينتصرَ في معاركِ آسية الصُغرى، فسَنّوا قانوناً جعلوا ماريوسَ من جديد قائداً للحملةِ على آسية الصغرى. غير أنّ سولاّ الذي كان مشغولاً بإقرار الأمن في عدد من المدن الإيطالية في أطرافِ البلاد عادَ الآنَ إلى روما ودَخَلها عَنْوةً واستولى على السُلطة فيها. ولم يُسَبِّبْ اختيارُ ماريوس للمرّة السابعة قنصلاً منافساً للقنصل سولاّ مشكلةً ما، ذلك لأنّهُ تُوُفّيَ وشيكا، بعدَ بِضعَةِ أيامٍ من اختيارِه قُنصلاً (٨٦ق.م.).

انتصرَ سولاّ في آسِيَةَ الصُغرى ولكنّه لم يَحُلَّ مُشكِلَةَ آسيَةَ الصغرى - آسيةُ الصُغرى التي أرادتْ أن تستفيدَ من الفوضى العاصفة في روما فتنتزعَ شيئاً من الاستقلال - ولا هو حلّ أيضاً مشكلةَ المُدن الايطالية ولا مشكلة روما نفسِها. فما كان سولاّ يَصِلُ إلى أبوابِ روما، وهو راجعٌ منتصراً من آسِيَةَ الصغرى، حتّى وجد جيوشاً من رِجال الشعبِ يقاوِمونه فقاتل تلك الجيوشَ

واحداً بعدَ واحدٍ وانتصرَ عليها كلِّها ثمّ دخل روما عَنْوةً مرّةً ثانيةً ونادى بنفسه دِكتاتوراً (٨٢ ق. م.).

ومَعَ أن سولاّ نَزَعَ السُلطةَ من أيدي جميعِ القُوى الشعبية وردّها إلى مجلس الشيوخ ـ ولم يكن، في ما انكشفتْ عنه السياسةُ فيما بعدُ، حكيماً ـ فإنّه كان حكيماً جدّاً في أنه اعتزَلَ الحُكمَ (٧٩ ق. م.) بعد أنِ انتهى من وَضْعِ القوانينِ التي قَصَدَ أن يَضعَها لروما وللرومانيّين.

وقِصّة يوليوسَ قَيْصَرَ في مَجيئِهِ إلى الحُكم والمُناداةِ بنفسه دِكتاتوراً قِصّةٌ طويلةٌ ولكن يُمْكِنُ تلخيصُها بما يلي:

أدركَ يوليوسُ قَيصرُ الأحوالَ السيّئَة التي كانت روما تتخبّط فيها والأخطارَ الخارجيّة التي كانت مُطِلّةً على روما من الغرب خاصّةً، في غالِيَةَ (فرنسةَ الحاليةِ) فاستغلّ ذلك كلَّه في سبيلِ وصولهِ إلى مآرِبهِ من الحُكم. ثمّ أدركَ أنْ لا بدَّ من وسيلةٍ تُعين على الوصول إلى الأهدافِ وأنّ هذه الوسيلةَ يجب أن تكون مألوفة عند الناسِ الذين يسعى إلى حكمهم فضمّ نفسه إلى بومبيوسَ الذي كان سِياسيّاً ناجحاً وقائداً بارعاً فتح المشرقَ باسم روما ومدّ سُلطانَها على بلادٍ غنيّةٍ وذاتِ مجدٍ قديم.

وأدرك يوليوسُ قيصرُ، أنْ لا بُدَّ، قبلَ الوصول إلى الحكم، من النُفوذِ إلى قلوب جُمهور الناس، فوعد الناسَ ـ كما كان ماريوس قد وعدهم من قبلُ ـ بأنْ يُوزّعَ عليهم أراضِيَ من أملاكِ الدولة. ثمّ أدرك أن المُغامراتِ السياسيّةَ تحتاج إلى مالٍ فاعتمد، بالاتّفاق مَعَ بومبيوس، على ثَريٍّ رومانيّ اسمُه كراسّوس. حينئذٍ نشأت مؤامرةٌ مَثْلوثةٌ (فيها ثلاثةُ أشخاصٍ: بومبيوسُ

ويوليوس قيصر وكراسّوس). وقد كانوا جميعاً يُعْلِنون هدَفاً واحداً ثمّ كان كلُّ واحدٍ منهم يُبْطِنُ غايةً في نفسه.

وقدِ اقتضى التفكير في نجاح المؤامرة أنْ يُصْبِحَ يوليوسُ قيصرُ قُنصلاً حتّى يُمْكِنَ الحصولُ على شيئينِ كان بومبيوس يريدُهما (موافقةِ مجلسِ الشيوخ على أعمالِ بومبيوس في آسِيَةَ الصُغرى وعدِّها عملاً وطنياً ثمّ سنّ قوانينَ لتوزيعِ أراضٍ على الجنود ـ جنود بومبيوس). وكان مجلسُ الشيوخ قد ردّ رَغبةَ بومبيوسَ في ذلك طَوالَ عامينِ كاملين.

في عام ٥٩ ق. م. نجح أركانُ المؤامرة المثلوثة في أن يحملوا مجلسَ الشيوخ على تعيينِ يوليوسَ قيصرَ قُنصلاً. في العام التالي (٥٨ ق. م.) استطاع يوليوس قيصرُ أن يَحْمِلَ مجلسَ الشيوخ على أن يُعيّنه حاكماً على غالِيَة. (يفتَحُها ويكونُ حاكماً عليها). ونجح يوليوس قيصر في حملته على غالية نجاحاً وراء أملِهِ فضمّ بها إلى الإمبراطورية الرومانية أراضِيَ جديدةً في غربيّ أوروبّةَ (في فرنسةَ وبلجيكة وفي جَنوبيّ إنكلترة). ثمّ عاد إلى روما فاتحاً عظيماً فوقَ كلِّ فاتحٍ سَبَقَه. وكتب يوليوسُ قيصرُ قِصّةَ فتوحه في غالِيَة في كتاب هو اليومَ ـ برُغم البساطة في سَرْدِ أحداثِه والسُهولة في أُسلوبه ـ نموذجٌ رائعٌ من النثر في تاريخ الأدب اللاتيني.

على هذه القِمّة الشامخة من القوّة والجاهِ أدرك يوليوسُ قيصَر أن الوصول إلى السُلطة العليا في الدولة لا يضمَنُهُ تأليفُ الأحزاب الشعبية ولا استجداء الأصوات من الناخبين، وإنّما الذي يضمَنُهُ جيشٌ قويٌّ يحقّقُ أغراضَ قائدهِ في القضاء على المنافسين، ولو كان هؤلاء المنافسون اليومَ هم أحلافَ الأمس.

حَزَمَ يوليوسُ قيصرُ أمرَه على أن يتخطّى ـ بالعصبيّة التي أصبحتْ له من

جيشه ثمّ من جاهِه عند الناس ـ جميعَ العَقَبات، ولو مشى على جُثثِ أصدقاء الأمس، فسار على رأس جيشِه إلى روما وحارب بومبيوسَ ومجلسَ الشيوخ وهزم بجيشِه جُيوشَهُما فنجا خصومُه من الشيوخ وصديقه القديم بومبيوس بأنفسهم إلى بلاد اليونان، ثم دخل هو إلى روما ظافراً فانتخبه الشعب قُنصلاً. ثمّ نادى هو بنفسه حامياً لروما.

وعلم يوليوسُ قيصرُ أن في إسبانيةَ أشياعاً لبومبيوسَ فأسرع إلى إسبانية وقضى فيها على أشياع بومبيوس، عام ٤٩ ق. م. وعلم بومبيوس والشيوخ الهاربون إلى اليونان بغَيْبة يوليوسَ قيصَر في إسبانيةَ فحاولوا أن يَلُمّوا صفوفهم ويَرْجعوا إلى إيطالية لعلّهم يستردّون روما من قبضة يوليوسَ قيصرَ. ووصل الخبرُ بذلك إلى يوليوس قيصر، وهو بعدُ في إسبانية، فلم يَرْجِعْ إلى إيطالية للدفاع عن روما، بل أسرع إلى بلاد اليونان نفسِها وباغتَ خصومَه فيها ـ بعدَ أن قَطَعَ ألفينِ وخَمْسِمائَةِ كيلومترٍ قبلَ أن يستطيعَ خصومُه أن ينتقلوا من اليونان إلى إيطالية والمسافةُ بين شاطِئَيْهِما المُتقابلَين لا تبلُغُ مِائَةَ كيلومترٍ. نازلَ يوليوسُ قيصر في اليونان بومبيوسَ ومن مَعَه من أعضاء مجلس الشيوخ في معركة فرسالا (من مقاطعة شمالية) في الجانب الشرقيّ من بلاد اليونان، عام ٤٨ ق. م. وفرّق جموعَهم فهرب بومبيوس إلى مِصْـرَ حيثُ اغتيل وشيكاً.

ولحق يوليوس قيصر بخصمه بومبيوسَ (قبلَ أن يعلم باغتياله) إلى مصر، ولكنّ كليوباطرةَ الجميلةَ مَلِكَةَ مِصْرَ شَغَلَتْهُ في الإسكندرية ثمانية أشهر تأنَسُ به ويأنَسُ بها. وفي صيف عام ٤٧ ق. م. استأنف فتوحه في إفْريقيَةَ غَرْباً فاستولى على قرطاجةَ ومستعمراتِها على الساحل الجَنوبي من البحر الأبيض المتوسّط ثمّ استولى على إسبانية أيضاً، في ربيع عام ٤٥ ق. م.

لقد كان يوليوسُ قيصرُ ، بالإضافةِ إلى براعته العسكرية ، سياسيّاً حكيماً حليماً فلم ينتقمْ من أعدائه بعدَ أن اصبح ذا مَقْدِرة على كلِّ شيء، ولم يُلْغِ الجُمهوريَة، مَعَ أن الحُكم الجمهوريَّ في روما كان قد أصبح منذُ زمنٍ بعيدٍ اسماً بلا مُسَمًّى، غيرَ أنه نادى بنفسه دِكتاتوراً مَدى الحياة وجَمَعَ في يَدَيْهِ جميعَ السُلُطاتِ في الدولة.

ومع أن يوليوسَ قيصرَ كان يُخطِّط لإصلاحاتٍ واسعةٍ في الإمبراطورية ـ في جميع وجوه الحياة ـ فإنّ الزمنَ لم يتّسعْ إلّا للقيام بأمورٍ يسيرةٍ (بالإضافةِ إلى ما كان يَقْصِدُ أن يقومَ به) منها إصلاحُ الإدارة في المدن الإيطالية وإصلاحُ التقويم. ولا شكّ في أنّه كان يعتزمُ القيامَ بأعمالٍ كثيرةٍ في سبيلِ الزيادة في وجاهتِه هو في الدرجة الأولى. ومَعَ أنّه لم يُلْغِ مجلس الشيوخ فإنه حلّه ثمّ أعاد تأليفه وزادَ في عدد أعضائه ثمّ ملأه بأصدقائه وأشياعه وحَشَرَ فيه أفراداً مِنْ كلِّ طَبَقةٍ من طَبَقات المجتمع وطوائفَ من العبيد ومن الغرباء الأجانب أيضاً، فأصبحَ مجلسُ الشيوخ، بعدَ هذا كلِّه، آلةً طيِّعَةً في يديه.

وبعدَ أن ضمّ يوليوسُ قيصرُ مُعْظَمَ الغَرْب إلى الإمبراطورية الرومانية تراءى في خياله أن يفتَحَ الشرقَ كلَّه أيضاً، فوقَ ما كان الاسكندرُ المقدونيُّ قد فعلَ قبلَ قرنَيْنِ من الزمن أو يزيدان.

وغلا الحَسَدُ والحِقْدُ في صدور نفرٍ من أصدقاء يوليوسَ قيصرَ نَعُدُّ من هؤلاء بروتوسَ وكاسيوس، فتآمروا على قتله اعتقاداً أنّه كانَ طموحاً وأنّه أتلف مَدْرَكَ الشُورى العاقلة في مجلسِ الشيوخ وأنّه قضى على الحُكم الجمهوريّ واستبد هو وحدَه بالحُكم. وفي الخامِسَ عَشَرَ من آذارَ (مارس) من عام ٤٤ ق. م. طَعَنَهُ المتآمرون بالخناجر، وفيهم صديقُه القديمُ بروتوس.

ونحن لا نُنْكِرُ أنّ رجلَ السياسة يعمل قبلَ كلّ شيء لِخدمَة نفسهِ وأنه لا يقومُ بعملٍ إلّا إذا كان له منه منفعةٌ كبيرةٌ أو صغيرةٌ، ظاهرةٌ أو خَفِيّة، ولكنْ يجب أن نُدْرِكَ أيضاً أن الذين تآمروا على يوليوسَ قيصرَ ثمّ قتلوه إنّما فعلو ذلك حبّاً في جرّ النفع إلى أنفُسِهم. لقد ظنّوا أنّه إذا خلا مَنْصِبُ الحُكم بموتِ يوليوسَ قيصرَ فإنّه يخلو لهم هم. ولكنّ هذا المَنْصِبَ لم يَخْلُ لهم. ثمّ غرِقَتِ الإمبراطوريةُ بعدَ ذلك بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً في نزاعٍ شديدٍ. إن قتل شخصٍ لا يَحُلُّ مشكلةً، بل ربما زادَ المشكلةَ الراهنةَ تعقيداً؛ وربما أثار مشاكلَ جديدةً.

وسواء علينا أكانَ المتآمرون على يوليوسَ قيصرَ مُخلصين في مَقْصِدهم أو غيرَ مخلصين، مُصيبين أو مُخطئين، فإنّ هنالك حقيقةً من حقائقِ التاريخ لا جدالَ فيها، وهي أنّ مَجيءَ رجلٍ أوْ ذهابَ رجلٍ قد يُبَدِّلُ عدداً من معالم التاريخ، ولكن لا يُبدِّلُ مجرى التاريخ. وأبْيَنُ من ذلك ـ في مجرى التاريخ ـ أنّ مقتلَ رجلٍ لا يذهَبُ في العادة بمبدأ أو لا يُبْطِلُ حركةً إجتماعية. ولو أنّ مبدأءغاب من الحياة الرسمية للناس، فإنّه رُبّما نَزَل في قلوبهم ثمّ ثارَ منها إلى الحياة العامّة مرّةً بعدَ مرّة. لنأخذْ أمْثِلَةً من تاريخ الإسلام: إنّ مقتلَ عُمَرَ بن الخطّاب ـ على يدِ أبي لؤلؤةَ الفارسيّ ـ لم يُنْقِذِ المجوسيّةَ في فارسَ، وإنّ مقتلَ عُثمانَ بن عفّانَ الأمويّ لم يُقْعِدْ بني أُمَيّةَ عن طلب الخلافة، وإنّ مقتلَ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ـ على يدِ عبدِ الرحمن بن مُلْجَم ـ لم يُثَبِّتْ حَرَكَةَ الخوارجِ في المجتمعِ الإسلامي طويلاً، ولا هوفَتَّ في عَضُدِ بني هاشمٍ إلّا قليلاً.

إنّ التاريخَ يُبَدِّلُ مجراه ـ في أزْمِنَةٍ مُتباعدةٍ أو مُتقاربة ـ ولكن بِحَسْبِ قواعدَ اجتماعيةٍ تعمَلُ عَمَلَها في الحياة، ولو كانتْ تلك القواعدُ غائبةً عن

عيونِ قِلّةٍ من الناس أو كَثْرة منهم. ورُبّما كَمَنَ أثرُ تلك القواعدِ مُدّة ثمّ بَرزَ فجأةً في التاريخ الإنساني. أنّ العربَ لم يخرُجوا من الأندلس، سَنَة ٨٧٨هـ (١٤٩٢م) يومَ دَفَعَ الاسبانُ بقاياهم عنها بتلك الطريقةِ الفَظّة الهَمَجيّة التي رَوَاها التاريخ لنا. ولكنّ خروجَ العرب من الأندلس بدأ يومَ بدأ العربُ يتنازعون أمرَهم بَيْنَهم، في عام ٤٠٠ للهجرة (١٠١٠م)، قبلَ أن يُغادِرَ الأندلسَ أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عليٍّ آخِرُ ملوكِ غَرْناطةَ بِخَمْسمائةِ عامٍ. ولمّا بكى أبو عبدِ الله هذا وَهُوَ يُغادِرُ قَصْرَهُ قالتْ له أُمُّه: «ابْكِ مِثْلَ النِساء مُلْكاً لم تُحافِظْ عليه مِثْلَ الرجال». ثمّ إنّ أبا عبدِ الله هذا لم يكُن المَسؤولَ وحدَه عن خُروجِ العرب من الأندلس، بل شرِكَهُ في التَبِعَةِ عَشَراتُ الملوك الذين جاءوا قبلَه ومِئاتُ الرؤساء الذين سبقوه وألوفُ الناسِ الذي عاشوا في ذلك النزاعِ القديمِ وَعَشَراتُ ألوفِهم ومِئاتُ ألوفِهم...

* * *

إذا نحنُ رَجَعْنا البصرَ في الأمثلة السابقة بانَتْ لنا الحقائقُ التالية:

- إنّ المستبد أو الدكتاتور ينتقلُ من الجيش إلى الحُكم، لأنّ الجيشَ هو موطنُ القوّة في الدولة، وبغيرِ قوّةٍ (أو عصبيةٍ كما يقولُ ابنُ خَلْدونٍ) لا يستطيعُ أحدٌ أن يَصِلَ إلى الحكم.
- إنّه يَصِلُ من طريقٍ غير شرعيّ (أو، على الأصحّ، غيرِ مألوفٍ في الجماعة التي قام ذلك المستبدُّ أو الدكتاتور فيها). و«الطريق الشرعيّ» هنا هو الطريقُ الذي شَرَعَتْه (اتّفقَتْ على العملِ به) جماعةٌ من الجماعات.
- إذا نجح المستبدّ أو الدكتاتور بعدَ الوصول إلى الحكم سواءٌ أقَهَرَ الناسَ بالقوّة ثم حقّقَ أهدافاً داخليّةً أو تَغَلَّبَ على عدوٍّ خارجيّ أو سواءٌ أسترضى

النَّاسَ بالتقرُّبِ إليهم بما يُفيدهم أو لا يُفيدهم - فإنَّ «إسم المستبدّ أو الدكتاتور» يرتفع عنه حينَئِذٍ. وربّما ارتفع عنه أيضاً اسمُ الاستبدادِ أو الدكتاتورية مرّةً واحدة.

- المستبدّ أو الدكتاتور هو غير المُتَغَلِّب. إنّ المتغلّبَ يأتي من غير الدولة التي يستبدُّ بحُكمها: إنّه مَلِكٌ في أُمّةٍ تغلَّبَ على أمّةٍ أخرى أو على جُزْءٍ من أمّةٍ أخرى. أمّا المستبدّ أو الدكتاتور فينهَضُ في الأمّةِ التي يَنْتزِعُ الحكمَ فيها من القائمين بهِ فِعلاً.

إذا كان عمل هذا المستبدِّ أوِ الدكتاتور صالحاً - في فتحٍ أو تشريعٍ أو إصلاحٍ أو في إنشاء حضارةٍ أو ازدهارٍ اقتصاديٍّ في الأمّة، فإنّنا نحنُ أيضاً نرفَعُ عنه لفظَ الاستبداد أوِ الدكتاتورية، لأنّ المُلْكَ (بمعناه اللُّغويِّ والفلسفيّ) هو الحُكْمُ الصالح، وهو عِنْدَ أرسطو «الحُكْمُ الذي يُتيح أكبرَ قَدْرٍ من الخَير لأكبرِ عددٍ من الناس»، إنّ المُلْكَ عند ابن خَلدونٍ «لمن يَسْتَعْبِدُ الرعيّةَ ويَجْبي الأموالَ (يجمَعُ الضرائبَ) ويحمي الثُّغورَ (يُدافع عن حُدود الوطن) ويبعَثُ البُعوثَ (يُعلن الحربَ ويَعْقِدُ السلم) **ولا تكونُ فوقَ يده يدٌ قاهرة**». فليس هناك فرقٌ، إذَنْ، بينَ المُلْكِ بمعنى الحُكمِ الصحيحِ وبينَ الاستبدادِ أوِ الدكتاتورية بالمعنى الذي كانَ لَهُما في التاريخ القديم، وإن كان نَفَرٌ من المُستبدّين أو الدِكتاتورينَ قدِ انحرفوا عن ذلك المعنى المقصودِ في أصلِ الوَضْعِ اللُّغَويّ والفلسفيّ.

أوّلُ المُستبدّين في التاريخ الإسلامي - بالمعنى اليونانيّ الأوّل - كانَ معاويةَ بنَ أبي سُفيانَ. بدأ معاويةُ والياً على الشام في أيّام عُمَرَ بن الخطّاب ثمّ طَمِحَ إلى الحُكم فأخذ يُعِدُّ العُدّة لذلك بإنشاء جيشٍ خاصٍّ بالشامّ ويُرتّبُ أمورَ الدولة على طريقةٍ تضمن له النجاحَ في ما أضمر في نفسِهِ بوسائلَ تَقْبَلُها

الأخلاقُ حيناً وبوسائلَ لا تَقْبلُ بها الأخلاقُ حيناً آخر. ولمّا سَنَحتْ له الفُرْصةُ في خِلافةِ الإمام عليٍّ كرّمَ الله وجهَهُ انتهزَ تلكَ الفُرصةَ بالدَهاء وبالحرب وبالاسترضاء وبالقَهْر حتّى خَلَصَ له الأمرُ كلُّه في سَنَةِ ٤١ هـ (٦٦١ م)، فانتهتْ دولةُ الشُورى (خلافةُ الخلفاء الراشدين: أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمان وعليٍّ الذين جاءوا إلى الحكم بمُبايعة الأمّة لهم مُبايعةً تَحْمِلُ معنى الحُكمِ الجُمهوريّ الحديث) وقامتِ الدولةُ الأُمَويّة (مُلْكُ بني أُميّةَ، مُلْكُ أسرةٍ واحدةٍ ينتقلُ فيها الحكمُ من رجلٍ إلى ابنهِ أو أخيهِ أو ابنِ عمّهِ، يرضى بذلك قِلّةٌ من المُسلمين ويكرهُهُ كَثْرةٌ كبيرة منهم).

وأمّا مروانُ بنُ الحكمِ فكان مُتغلّباً «تغلّب» على عَددٍ مِنَ المنافسين مِنْ بني أُميّةَ ومن غيرِ بني أُميّةَ ثمّ نقلَ الحُكمَ من الفَرْعِ الأُمويّ السُفيانيّ (فرعُ مُعاويَةَ بنِ أبي سُفيانَ) إلى الفرعِ الأُمويّ المَرْوانيّ (فرعِهِ هو)، سَنَةَ ٦٤ هـ (٦٨٤ م).

ولو أنّي أحْبَبْتُ أن أعُدَّ جميعَ المُستبدّين وجميعَ المُتغلّبين - بهذا المعنى أو بذاك - لَعَدَدتُ جميعَ الحُكّام من العَرَب ومِن غير العرب. وأحبّ ألا يُفاجأ أحدٌ بما أذكُرُه من أسماء الحكّام الذين كانوا مُستبدّين، لأنّ الخِلافَ بينَنا ينشأ مِنَ الاختلاف في «تعريف» مَدْرَكِ الاستبداد في الحياةِ السياسية. إنّ عوامَّ الناس وذَوي الحاجاتِ الآنيّةِ منهم يُسَمُّونَ كلَّ من لا يُعْجِبهم أو لا ينفِّذُ لهم رَغَباتِهم تسميةَ الاستبداد. وهذا الكتاب ليس لهؤلاء ولا لأولئك!

وما دُمْتَ قد بدأتُ في الكلام على الحُكْمِ في الإسلامِ فإنّني أُحِبُّ أنْ أضْرِبَ مِنَ الإسلامِ عَدَداً من الأمثلةِ على موضوعِ هذا الفصل.

وأبدأ بالقُرآنِ الكريم فإنّه خيرُ ما يَبْدأ به المسلمُ في كلِّ أمرٍ.

تَرِدُ كلمةُ الشورى في القرآن الكريم مرّتين:

- في السورة الثانية والأربعين (سُورة الشُورى، الآية ٣٨).

«والذينَ اسْتجابوا لِرَبِّهِمْ وأقاموا الصَلاةَ، وأمْرُهُمْ شُورَى بينَهم ومِمّا رَزَقْناهم يُنْفِقون».

- في السورة الثالثةِ (سورة آل عِمرانَ، الآية ١٥٨):

«فَبِما رحمةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ. ولو كُنتَ فَظًّا غليظَ القلبِ لاَنْفَضّوا من حَوْلِكَ. فاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لهم وشاوِرْهُمْ في الأمر. فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على الله. إنّ اللهَ يُحِبُّ المُتوكّلين».

للصِيغِ المُخْتلفةِ المُشْتقّةِ من الجِذْرِ «شَـوَرَ» في القـامـوس (٢: ٦٥): «شارَ، أشار، استشار، الشَوْر، المَشور، الشُورة، الشُورى، الشارة الخ» مَعانٍ مختلفةٌ أكثرُها يدُلُّ على التَخَيُّر ومعرفةِ الأمور. وفي «القاموس»: واستشارَهُ طَلَبَ منه المَشورةَ... وشوّر إليه أوْمأ، كأشارَ... وَهِيَ الشُورى...». وفي المعجم الوسيط (ص ٥٠١): «شاوَرَهُ في الأمر: طَلَبَ رأيَه فيه. قال تعالى: وشاوِرْهُمْ في الأمر».

إنّ مَوْضِعَ الشاهدِ في الآيةِ الثانية. وقد راجعتُ تفسيرَ هذه الآيةِ الثانية في «جامعِ البيانِ» للطَبريّ[1] و«مَجْمَعِ البيانِ» للطَبْرسي[2] و«مفاتيح الغَيْب» للفخر الرازي[3]، وكلّها مُجْمِعَةٌ على أن المُشاورة (الشُورى، الاستشارة) مفيدةٌ لِمَعرِفَةِ الآراءِ المُختلفة وللتَنَبُّه إلى الأصوبِ مِنَ الآراء ولِتَطْييب قلوب الناس الذين يكونونَ حَولَ الحاكم فإنّ ذلك يبعثُ في نفوسِهِم ثِقَةً بأنْفُسِهِمْ.

(١) جامع البيان (المشهور بتفسير الطبري)، مصر (دار المعارف) ٧: ٣٤٣-٣٤٦.
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن للفضل بن الحسن الطبرسي، بيروت (دار مكتبة الحياة) ١٣٨٠ هـ = ١٩٦١م، ٣: ٢٤٥.
(٣) مفاتيح الغيب لفخر الدين محمّد بن عمر الرازي ٣: ٨١-..

ولكنْ يَجِبُ في فَهْمِ هذه الآية أن نعلَمَ أنها نزلَتْ بعدَ مَعْرَكة أُحُدٍ التي هُزِمَ فيها المُسلمون (سَنَةَ ٣ هـ = ٦٢٥م) وأنّ قولَه تعالى «وشاوِرْهُمْ في الأمر»، أي في أمر المعركة، فإنّ أولئك الذين انْهَزموا في تلك المَعْركة، إذا وَجَدوا رسولَ الله يَعْفو عَنْهم (عن عِصْيانِهِم أمْرَهُ في ترتيبِ المعركة) ويَسْتَغْفِرُ لهم (يطلُبُ من الله أن يتجاوزَ عمّا أسْلفوا من الخَطأ) استعداداً لِمُتابعة القتالِ قريباً عادَتْ إلَيْهم ثِقَتُهم بأنْفُسِهم».

ونأتي الآن إلى السُؤال: «لِنَفْرِضْ أنّ الرسولَ استشارَ أصحابَه في أمرٍ ثمّ لم يَكُنِ الرأيُ الذي قالتْ به الكَثْرةُ منهم موافقاً للصواب، فماذا يعمَلُ الرسول»؟

إنّ الجوابَ يأتي في الآية نَفْسِها: «فإذا عَزَمْتَ فتوكَّلْ على الله».

يستعرضُ الطبريُّ آراء الرُواة ثمّ يُبدي رأيَه (تفسير الطبري ٧: ٣٤٦) فيقولُ: «فإذا صحّ عَزْمُكَ بِتَثْبِيتِنا إياكَ وتَسْدِيدِنالك فيما نابَكَ وحَزَبَكَ[1] مِنْ أمرِ دينِكَ ودُنياكَ فامْضِ لما أمَرْناكَ به على أما أمرناكَ به، **وافَقَ ذلك آراءَ أصحابِكَ وما أشاروا بهِ عليكَ أو خالَفَها**».

وأوضح من ذلك رأيُ الفَخْرِ الرازي (مفاتيح الغيب ٣: ٨٣) فإنّ الرازيَّ لا يُوجِبُ العَمَلَ بالمَشورةِ ولو كانتِ المشورة صحيحةً. إنّه يقول: «إذا حَصَلَ الرأيُ المُتأكّدُ بالمشورة فلا يَجِبُ أن يَقَعَ الاعتمادُ عَلَيْهِ، بل يَجِبُ أن يكونَ الاعتمادُ على إعانة الله وتسديدِهِ».

ليس معنى هذا أنّ الشُورى باطلةٌ لا فائدةَ منها، ولا معناه أيضاً أنّي أنا أكرَهُ الشُورى، ولكنّ المقصودَ أنّ الشورى أمرٌ محمودٌ إذا وافقَ الصوابَ. أمّا

(١) ناب: أصاب، نزل (بالإنسان) نازلة أو مصيبة. حزب فلاناً الأمر: اشتدّ عليه.

إذا كان رأيُ الكثرةِ غيرَ موافقٍ للصواب فإنّ الرجُلَ المسؤولَ في الحُكْمِ هو الذي يستطيعُ أن يقبَلَ ما أُشيرَ به عليه أو أن يُهْمِلَهُ. وبعدئذٍ يتحمّلُ نتيجةَ عَمَلِه.

هنالك أمرانِ متلازمانِ: التَبِعةُ والعَمَلُ. إنّ الذي يُشيرُ يُلقي رأياً ثمّ لا يتحمّلُ تَبِعَةَ إنفاذِه، يقولُ كَلِمته ثمّ يمضي في سبيلِه ويبقى الرجُلُ الذي يَحمِلُ تَبِعَةَ التنفيذِ مُعَرَّضاً لكلّ الفُجاءات. فليسَ من الحقّ أن تكونَ الشورى مُلزِمَةً إلاّ إذا حَمَلَ المُستشارُ نِصفَ تَبِعَةِ التنفيذ، وإلاّ فإنّ للذي عليه التنفيذُ أن يقبَلَ المَشورةَ أو يُهْمِلَها.

وفي التاريخ شواهدُ كثيرةٌ من هذا البابِ أقدمُها في تاريخِ الإسلامِ استشارةُ أبي بكرٍ في شأنِ حروبِ الرِدّة.

لمّا ارتدَّ العربُ ومنعوا الزكاة[1] جَمَعَ أبو بكرٍ الصحابةَ واستشارهم في ذلك. فكان رأيُ عَمَرَ بنِ الخطّاب وجَماعةٍ كثيرةٍ من الصحابة ألاّ يُرْسِلَ أبو بكرٍ الجيوشَ لِقتالِ المرتدّين، بل يَجِبُ أن يُرْسِلَ الجُنودَ إلى فتحِ الشام والعِراق، كما رأى هؤلاء أنْ يتألّفَ أبو بكرٍ هؤلاءِ المُرتدّينَ بشيءٍ من السياسة لِيَسْتَعينَ بهم - إلى جانبِ جيوشِ الفتح - في قتالِ الأعداء من الروم والفُرس[2]. وكان رأيُ أبي بكرٍ القتالَ فقال كَلِمتَه المشهورةَ: «واللهِ، لو

(١) بعد وفاة رسول الله عصت قبائل العرب ومنعوا إرسال الزكاة إلى المدينة: في أيّام الرسول كانت مبالغ الزكاة تأتي من الأقطار المختلفة إلى المدينة فيعود الرسول فيرسل إلى كلّ قطر ما يحتاج إليه. فلمّا توفيّ الرسول أرادت الأقطار أن تستوفي حاجتها من الزكاة ثمّ ترسل ما فضل عن حاجتها إلى المدينة. ولكنّ أبا بكر أصر على أن يظلّ الأمر جارياً على ما كان عليه في عهد الرسول.

(٢) لم أعثر الآن على هذه الواقعة (جمع أبي بكر الصحابةَ واستشارتهم في شأن قتال أهل الردّة) في مصدر بين يدي فأخذت ذلك من «الصدّيق أبو بكر» بقلم محمّد حسين هيكل (القاهرة: مطبعة مصر) ١٣٦١ هـ، ص ١٠٤. راجع أيضاً تاريخ ابن الأثير (بيروت) ٢: ٣٤٢-٣٤٣.

مَنَعوني عِقالاً[1] كانوا يُؤدّونه إلى رسولِ اللهِ لقاتلتُهُمْ عليه[2]».

إنّ أبا بكرٍ كان في مَنْصِبٍ يُوجِبُ عليه تَبِعَةً، والتَبِعَةُ تُوجِبُ العملَ، وللعملِ نتائجُ قريبةٌ وبعيدةٌ يسيرةٌ أو على خَطَرٍ فلا يجوزُ أن يكونَ رأيُ المَشيرين بالرأي كلاماً كرأي الذي عليه أن يتحمّلَ تَبِعَةَ العمل. ومضى أبو بكر في رأيه، وكان رأيُه صواباً. وقد كان مِنْ مُخالفيه عُمَرُ بنُ الخطّاب، ولا أزيدُك معرفةً بعُمَرَ بنِ الخطّاب. لقد كان في ذلك درسٌ مفيدٌ لعُمَرَ بنِ الخطّاب.

لمّا طُعِنَ عُمَرُ بنُ الخطّاب وخافَ أن يُعاجِلَهُ الموتُ قَبْلَ أن يُرَتِّبَ الخِلافةَ لجأ إلى عمل «ألقى التَبِعَةَ فيه على المُطالبين بالخلافة». سَمّى سِتّةً من المُسلمين كانوا يطمَحون إلى الخِلافة هم عليُّ بنُ أبي طالبٍ وعُثمانُ بنُ عفّانَ وعبدُ الرحمن بن عَوْفٍ والزُبير بن العَوّام وطَلْحَة بن عُبيدِ الله وسعدُ بنُ أبي وقّاصٍ ثمّ جَعَلَ مَعَهم ابنَه عبدَ الله (على ألاّ يكونَ له شيءٌ من الأمر) وجَعَلَ معه نفراً من الجُندِ وأمره أن يَحْبِسَ هؤلاء في بَيْتٍ حتّى يختاروا واحداً من أنْفُسِهِمْ للخلافة. فإذا انقضتْ ثلاثةُ أيّامٍ من غير أن يتّفقوا على واحدٍ منهم فَلْيَضْرِبْ رِقابَهم جميعاً وَلْيَتْرُكِ الأمورَ شُورى بينَ المُسلمين يختارون مَنْ يشاءون. لا يجوزُ لأحدٍ أن يطلُبَ مَغْنَماً لنفسه من غير أن يَحْمِلَ تَبِعَةً يلحَقُهُ منها شرُّها كما يمكن أن يلحقَه منها خيرُها!

ونَنْحَدِرُ في التاريخ إلى أيّامِ صلاحِ الدين الأيوبي.

كان صلاحُ الدين جُنديّاً في جيشِ عمِّه شِيركُوهَ فجاء مَعَ عمِّه إلى مِصْرَ

(١) العقال مقدار زكاة عام واحد من الغنم والإبل (أو الزكاة عن رأس واحد من قطيع تجب عليه الزكاة)، ولا صلة لكلمة عقال (هنا) برباط الرأس أو برباط قوائم الحيوان.

(٢) يروى هذا القول: «والله، لو منعوني...» بألفاظ مختلفة اختلافاً يسيراً (راجع القاموس ٤: ١٩).

(سنة ٥٥٩ هـ = ١١٦٤م) وعُمْرُهُ سبعٌ وعشرون سَنَةً فقام بأعمالٍ من البطولة الخارقة. ثمّ تُوُفِّيَ شيركوه (٥٦٤ هـ) فَخَلَفَهُ صلاح الدين.

ونظر صلاحُ الدين في أمورِ المُسلمين فإذا الصليبيّون قد اسْتَوْلَوْا على السواحلِ الشاميّةِ كلِّها وعلى قِسمٍ كبيرٍ من شَماليِّ الشام، والمسلمون أذِلّاء في أيدي الصليبيّين. ثمّ تجرّأ الصليبيّون فَنزلوا في الدلتا وقصدوا المَسيرَ إلى القاهرة. ورأى صلاحُ الدين أن ما نَزَلَ ببلادِ الإسلام لم يكن لأنّ الإفرنجَ الصليبيّين كانوا أقوياءَ فقط، بل لأنّ المسلمين أنفسَهم كانوا ضِعافاً. وكانت البلادُ الإسلاميةُ مُقَسّمَةً إمارات صغيرةً، والعراقُ والشامُ ومِصْرُ تَعصِفُ بها الأهواء السِياسيّة وتتلاعب بها الأُسَرُ الصَغيرةُ. وكان في مِصْرَ وفي بلادِ الشام مَنْ يَمُدُّ يده إلى الإفرنجِ الصليبيّين يَوَدُّ مُحالَفَتَهُم على صلاحِ الدين الذي كان يُحاولُ جاهداً إنقاذ المُسلمين والإسلامَ من مِحْنةٍ شديدة: كان شاوَرُ بن مُجيرٍ وزيرُ العاضِدِ الفاطميِّ في مِصْرَ يُكاتِبُ الصليبيّين للتعاوُنِ مَعَهُم على مُقاومةِ شِيركوه وابنِ أخيهِ صلاحِ الدين.

وذَكَر أَسَدُ رُسْتمَ[1] وفؤادُ أفرام البستاني[2] في كتابِهِما «تاريخ لُبنان

---

(١) أسد رستم (١٨٩٧ - ١٩٦٥م) كان أستاذاً للتاريخ الشرقي في الجامعة الأميركية في بيروت (١٩٢٣ - ١٩٤٣م) ثـمّ أصبـح مستشار للشؤون الشرقية في السفارة الأميركية في بيروت. له تآليف كثيرة في تاريخ الشرق الأوسط الحديث. في عام ١٩٣٨ بعد فصل سنجق الإسكندرونة عن سورية (في أثناء الانتداب الفرنسي على سورية) وإلحاقه بتركية طلبت الحكومة السورية من أسد رستم أن يضع دراسة في عروبة الإسكندرونة فوضع تلك الدراسة. غضب أميل إدّه (رئيس الجمهورية اللبنانيّة والموالي للإفرنسيين) وطلب من أسد رستم أن يضع «تاريخ لبنان» لتدريسه في المرحلة الإبتدائية. وقد قال لي الدكتور أسد رستم إنّه اضطرّ إلى وضع هذا الكتاب بالاشتراك مع فؤاد أفرام البستاني تجنّباً للمشاكل السياسيّة التي كان بالإمكان أن تعترض الدكتور أسد رستم في معاشه ومكانته. وذكر لي الدكتور رستم أنّه كان يعدّ فصولاً ثمّ يطرأ عليها تبديل في أثناء الطبع (في المطبعة الكاثوليكية في بيروت).

(٢) فؤاد أفرام البستاني أحد مؤلّفي كتاب تاريخ لبنان الموجز ثمّ رئيس الجامعة اللبنانية سابقاً. له عدد من الكتب والنشرات والمقالات فيها تنقير عن العوامل الانعزالية في الوطن اللبنانيّ.

المُوجز[1]» لطلبة الشهادة الابتدائية - وهو الكتاب المقرّر تدريسه في المدارس الحكوميّة واعتمادُه في الامتحانات الرسمية بمُوجب الاتّفاق المعقودِ بينَ وزارة التربية الوطنية والمُؤلّفَيْنِ بتاريخ ١٩/٣/١٩٣٧ (بيروت - المطبعة الكاثوليكية ١٩٤٠، ص ٦١).

«أمّا أهالي البَتْرون وجُبيلَ فلم يكتفوا بتقديمِ الهدايا (إلى الإفرنج الصليبيّين) والذخائر، بل ألّفوا فِرقةً مِنَ الأدِلّاء سارتْ في طليعةِ الجُيوشِ وفرقةً أُخرى حَمَلَتِ السلاحَ واشتركتْ في المَعارك اشتراكاً فِعليّاً. وقد بالَغَ بعضٌ في عَدَدِ رجال هذه الفِرقةِ فبَلَغوا بهم ثلاثين ألفاً من المَوارنة[2]، كما أجمعَ الفرنجةُ على الإعجاب بمهارتهم في رَمْيِ النبال، على قول جاك دي فيتري[3]. ولم يَكْتفِ الموارنةُ بمُساعدة الصليبيّين في هذه البلادِ (في لُبنانَ)، بل اجتازوا البحرَإلى قُبرُصَ، عندما دعاهم غي دي لوزينيان[4]، حولَ سَنَةِ ١١٩٢م (٥٨٨ هـ)، فَلَبَّوْا نداءه. فلم يَلْبثوا أن تكاثروا في الجزيرةِ فاحتلّوا اثْنَتَيْن وسَبْعينَ قريةً، في قول بعض المؤرّخين. وظلّوا ذَوي قوّةٍ وبطشٍ حتّى إذا نزل قُبْرُصَ القدّيسُ لويس، في الزَحْفة الصليبية السابعة، سار خمسةُ آلافٍ منهم في جُملته على مِصْر سنة ١٢٤٨م (٦٤٦ هـ) فقَضَوْا جميعهُم إلّا مائةً واثْنَيْنِ رَجعوا إلى جزيرتِهِم. ولا يزالُ الموارنةُ في قُبْرُصَ منذُ ذلك العهدِ إلى يَوْمِنا هذا».

---

(١) صدر من هذا الكتاب طبعة عام ١٩٥٧ (ولعلّه لا يزال يطبع).

(٢) الموارنة فرقة من النصارى الكاثوليك على الطقس السرياني. وهم إحدى الطوائف في الجمهوريّة اللبنانية.

(٣) Jacques de Vitry (نحو ١١٧٠ - ١٢٤٠م) قسّيس واعظ في عكا مؤرّخ فرنسي أصبح أسقفياً (١٢١٤م) في أثناء الحروب الصليبية ثمّ أصبح كاردينالاً (١٢٢٩م).

(٤) غي دي لوزينيان Gui de lusignan من الصليبيّين، كان ملكاً في القدس (١١٨٦ - ١١٩٢م) ثمّ في قبرس (١١٩٢ - ١١٩٤م). أسره صلاح الدين في معركة حطين، ٥٨٣ هـ (١١٨٧م). خرج من الأسر بفدية في العام التالي.

وكان راشدُ الدين سِنانُ بنُ سَلمانَ مُقَدَّمُ الإسماعيليةِ قدِ استولى على عددٍ من الحصون في الشام(في قَدْموس وبانياس وغيرهما) فجَرَتْ بينَه وبينَ صلاح الدين وقائعُ. وحاول سِنانٌ قتلَ صلاحِ الدين مرّتين (راجع تاريخ ابن الأثير، بيروت، ١١ : ٤١٩، ٤٣٦) مرّةً بتحريضٍ مِنْ آخَرينَ ومرّةً من عند نفسِه.

أدرك صلاحُ الدين أنْ لا أملَ بالانتصار على العدوّ الخارجي قبلَ التخلّص من الأعداء الداخليّين، وأنْ لا سبيلَ إلى لقاء الإفرنجَ الصليبيّين لِقاء حاسماً بجَبْهة إسلامية مُفَكّكة. فقضى صلاحُ الدين على الإمارات الصغيرة المتنازعة كما قضى على الخِلافة الفاطمية في مِصْرَ (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) تلك الخِلافةِ التي كان مُعْظَمُ رِجالها النافذين من غيرِ المُسلمين ومن غير العرب.

وبينما كان صلاحُ الدين الأيوبيُّ يُمَهّدُ السبيلَ لضمّ جُهودِ المسلمين واستردادِ البلاد الإسلاميةِ التي كان الإفرنجُ الصليبيّون قدِ اسْتَوْلَوْا عليها ظَهَرَ في الأُفق خَطَرٌ جديدٌ كان من قَبْلُ كامناً خافياً، فإنّ الحشّاشين، وهم شِيعةٌ من الإسماعيلية الباطنية يَنزلون في جبالِ عَكّارٍ (النصيرية) في الجبال المقسّمة بين الجُمهوريّة السوريّة والجمهورية اللبنانيّة اليومَ) - حاولوا اغتيال صلاحَ الدين مرّتين، فسارَ صلاحُ الدين في المُحرّم من سَنَةَ ٥٧٢ (تمّوز - يوليه ١١٧٦ م) إلى بلدِ الإسماعيلية فخرّبه ثمّ حاصَرَ قلعةَمصياف، فطَلَبَ راشدُ الدين سِنانٌ زعيمُ الإسماعيليّين الحشاشين مِنْ صلاحِ الدين صُلحاً على ألّا يقوم رجالُه فيما بعدُ بعملٍ عدائي. فمَنّ عليه صلاحُ الدين بما طلب.

بعد هذا التوحيدِ السياسي والعسكري للبلاد في العِراق والشام ومِصْرَ بدأ صلاحُ الدين باستردادِ المُدُنِ والبُلدان من الإفرنج الصليبيّين بسُرْعة ويُسرٍ. فبيْنَ أواخرِ ربيعٍ الثاني وأواخرِ رَجَبَ من سَنَةَ ٥٨٣ (من أوائل

تمّوز - يوليه إلى أوائلِ تِشرينَ الأوّل - أكتوبر من عامِ ١١٨٧ م) - أي في مَدَى ثلاثةِ أشهُرٍ فقط - استردّ صلاحُ الدين طبريّة ثمّ خاض معركةَ حِطّينَ واستردّ بعدَها عكّاء والناصرةَ وقيساريّة وحيفا وصَفّورية والفُولة ويافا ثمّ استردَ تِبْنينَ وصَيْداء وبَيْروت وجُبيلَ وعَسقلانَ والرملة وغَزّة وبيتَ لحمٍ وغيرَها. وكان استردادُ صلاحِ الدين للقدسِ في يوم المِعْراج (٢٧ من رَجَب ٥٨٣ = ١١٨٧/١٠/٣).

لم يكن من الحِكمة أن يُداريَ صلاحُ الدين أولئك الحكّامَ المتفرقّين الصِغار والمتنازعين الكِبار. من أجل ذلك لم يُدارِهِمْ بلِ استبدّ برأيِهِ الصواب. وليس إرغامُ الناس على الصواب في العِلم وعلى جرّهم إلى مَنافِعهم بالسلاسل استبداداً. ولمّا قال جمالُ الدين الأفْغانيُّ: «لا ينهَضُ الشرقُ إلّا بمستبدٍّ عادل» كان على صوابٍ. إنّ الحَزْمَ في قولنا «سبعةٌ في سبعةٍ خمسونَ إلّا واحداً» ليس استبداداً) بل هو الشُورى الصحيحةُ.

الإمبراطوريّة الرومانيّة وأثرها في اللغات الرومانسيّة

إنّ الصفة «رومانية» نسبة إلى مدينة روما (رومية).

تقعُ مدينةُ روما في منتصَفِ الجانب الغربيّ في شِبهِ جزيرةِ إيطاليةَ، على الضِفّةِ الشَماليةِ من نهر التِبْر، وعلى مقرُبَةٍ من الساحل. والسهلُ الذي تقومُ فيه مدينةُ روما في حوض نهر التِبْر عُرِفَ باسم «لاتيوم». ومن هنا جاءتِ الصِفةُ «لاتين ـ لاتينيةً» نَعْتاً لسكّان روما ثمّ لِلُغةِ سُكّانِ روما خاصّة.

ومنذ زمنٍ متقدّمٍ كان قدِ انتقلَ إلى اللاتينِ الرومانِ (سكّانِ مدينة روما) أشياءُ من الحضارة اليونانية في الحياة واللغة والتفكير، بعواملَ مختلفةٍ. أمّا في الجانبِ السياسي فكانتْ روما، إلى أعقاب القرن السادس قبلَ الميلاد (إلى نحو ٥٠٠ ق. م)، تخضَعُ لقبائل من الأَتروسكان كانوا جيراناً لها، وكانت منازلُهم في الأصل في شَماليّ إيطالية. ومِنَ الامتزاج بينَ حضارةِ الأَتْرُسكانيّين الـذين سَيطَروا على رومـا نحـو قـرنَيْن ونصفِ قـرنٍ من الـزمن (٧٥٠ ـ ٥٠٠ ق. م.) والحضارةِ اليونانية التي تسرّبت سِلمياً إلى أجزاء من شِبه جزيرة إيطالية نشأتْ الحضارةُ الرومانية. ومنذُ عامِ ٦٠٠ ق. م. بدأ الأثرُ البالغُ للثقافة اليونانية في حياةِ أهلِ روما.

كان الحُكم الأتروسكانيّ في روما مَلَكياً. ففي عام ٥٠٠ ق. م. ثارَ

الملأ من الرومانيّين على حُكّامهم فأخرجوهم من البَلَد ثمّ أنشأوا هم أنفُسُهم جُمهوريّةً مشيخيـةً قِوامها الملأ أو الشيوخ (كِبارُ القوم). ولم يستطعْ أحدٌ من هؤلاء المَلأ أن يستبدَّ بالمُلك دون رفاقه. فوقع اختيارُهم كلّهم حينذاك على أن يختاروا اثْنَيْن من الملأ للحُكم، وسُمِيّ كلُّ واحدٍ من هذين «قُنْصلاً» (ناصحاً، مُستشاراً، حكيماً). ولكنّ هذين القنصلين لم يكونا قادرَيْن على القيام بجميعِ أعمال الدولة. فأنشأ الرومانيّون عدداً من المناصب المختلفة، للجِباية وللإدارة وللقضاء ولِلرَقابة. غير أن المُسْتَغْرَبَ في هذا النظام الجديدِ الذي كان في ظاهره جُمهورياً أنّه قَصَرَ المناصبَ كلَّها من القنصلَيْن إلى القُضاة على الملأ، على الشيوخ، فكانتِ الحياةُ الرومانية جانبَيْن مُنْفَصِلَيْن: الشيوخَ الذين يتمتّعون بكلّ سلطةٍ في الدولة ثمّ جمهورَ المواطنينَ الذين لا سلطةَ سياسيةً أو إداريةَ لهم. ومَعَ أن الشيوخ ـ لِحكمتهم ولكَثْرَة تجاربهم ـ كانوا خَليقين بالسُلطة التي جُمِعَتْ في أيديهم، فإنّ المواطنين كانوا يشعُرونَ إزاء ذلك كلِّه بوطأةِ الاستبداد. ثمّ عَظُمَتْ سُلطةُ هؤلاء الشيوخ فأصبحوا أقوى من القُنْصُلَيْن نَفْسَيْهما.

* * *

وأخذت روما الآنَ تَبْني إمبراطوريّة.

واجتمعَ عَزْمُ القنصلين وحِكمةُ أعضاء «مَجْلِسِ الشيوخِ» على الفَتْح. ومنذ ذلك الحين (٥٠٠ ق. م.) بدأتْ روما تتبسّطُ في الأرض. وفي نحو عام ٢٧٥ ق. م. امتدّ سُلطانُ روما في إيطالية نفسِها من نهر أرنوس في الشَمال إلى الطرفِ الأقصى من شِبهِ الجزيرة في الجنوب. وَوَقَفَ الرومان الآنَ يرمُون ببَصَرِهِمُ إلى شَمالي إيطالية ومنها إلى ما وراءَ إيطاليةَ شَمالاً وغرباً، ثمّ إلى الشرقِ حيثُ كانتِ الدولُ التي خَلَفَتْ إمبراطوريّةَ الإسكندر غارقةً في نزاعٍ عسكريٍ وسياسيٍ وتجاريٍّ، ثمّ إلى الجَنوب الغربي حيث تَربِض

قَرْطاجةُ[1]، والنظرُ الثاقبُ يرى في قرطاجة خَصْماً قويّاً عنيداً.

كانتْ قرطاجةُ منذ الزمن الأقدمِ تسيطرُ على التجارة في البحرِ الأبيض المتوسّط وفي خارج البحر الأبيض المتوسّط (في المحيط الأطلسي جَنوباً، على الشواطيء الغربية من قارّة إفريقية ثمّ شَمالاً على الشواطيء الغربية من قارّةِ أوروبّة).

وعزم القُنصلانِ ومجلسُ الشيوخ على التخلّص أوّلاً من قَرطاجة.

بدأتِ الحربُ بينَ روما وقَرطاجَة، عامَ ٢٦٤ ق. م. ثمّ استمرّت سِجالاً.

في عام ٢٦٤ ق. م. نَزَلَ الجيشُ الرومانيّ على الساحل الإفريقي في محاولة لمُباغتة قَرطاجة، ولكنّ الجيشَ الرومانيَّ هُزِمَ هزيمةً مُنْكَرَةً على البرّ، ثمّ قَضَتِ العواصفُ والأسطول القَرطاجيّ على الأسطول الرومانيّ، فجعل الأسطولُ القرطاجيّ يُغيرُ على السواحل الإيطاليّة حتّى كادت تلك السواحلُ تتجرّد من مَعالِمِها ومن ثَرَواتِها.

هبّت روما مَن جديدٍ تجمعُ التبرّعاتِ من المواطنين، لأنّ خزائنَ الدولة كانتْ قد فَرِغَتْ، ثمّ بَنَتْ أُسْطولاً هزم الأسطولَ القَرطاجي، في عام ٢٤١ ق. م. وانتزعت روما جزيرةَ سِقِلّيَةَ وعدداً من الجُزَيِّراتِ الإيطالية من سُلطان قَرطاجة وفرضت على قَرطاجةَ غَرامةً كبيرة.

ثـم اضطربتِ الأحوالُ الداخلية في شِبهِ جزيرة إيطالية وهاجم البرابرةُ الغُوليّون (الكَلتيّون) شَماليَّ إيطالية. فانتهزَ حَنّبَعْلُ الفُرصة واحتلّ اسبانيَةَ ثمّ قَطَعَ جبال البرانسِ إلى غالِيَةَ (فرنسة اليوم) ثمّ قَطَعَ جبال الألبِ إلى إيطالية.

(١) مشهد لمدينة قديمة تقع اليوم شمال مدينة تونس.

وبرُغْمِ المَشاقِّ الطبيعية، من وُعورة الجبال وشِدّة البردِ التي لم يكنِ القَرْطاجيّون قد تعوّدوا مِثلَها، ولا كانتِ الفِيَلةُ التي في الجيش القَرطاجي تُطيقها، استطاعَ حنّبَعْلُ أن يَتَجنَّبَ المرورَ بالحصون الرومانية التي كانت تحمي الدروب (الممرّات في الجبال) وأن يُخادع الجيشَ الروماني ثمّ يَلْقى الجيشَ الروماني في قانيا (قانا)، في جنوبيّ إيطالية.

حاول حنّبَعْلُ المسيرَ على روما ولكنّه خاب لأنّ النَجَداتِ التي أُرْسِلت إليه من **قَرطاجة أبادها** الرومانُ. ثمّ إنّ القائد الروماني سكيبيو خالَفَ حنّبَعْلَ ونَزَلَ على الساحلِ الإفريقي ثمّ سار على **قرطاجة نفسها**. وفي نحو عام ٢٠٣ ق. م. كان قد هَزَمَ القرطاجيّين في مَعْركتَيْن. فاضطُر القرطاجيّون إلى استدعاء حنّبَعْلَ. والتقى القائدان في زاما، عام ٢٠١ ق. م. فانهزم حنّ بعلُ والقرطاجيّون وفَرَضَتْ روما على قرطاجةَ غَرامةً باهظة جدّاً (نحو أحَدَ عَشَرَ مِليونَ دولار). وظلّت روما ترهَبُ قرطاجة، برُغْمِ أن قرطاجةَ قد أصبحت ضعيفةً جدّاً. وفي عام ١٤٦ ق. م. قضت روما على قرطاجة وهَدَمَتها هدماً كاملاً فخلا الجوّ في العالم الحضاريّ القديمِ لروما.

ثمّ التفت الرومان إلى المشرق وراء شِبهِ جزيرةِ إيطالية.

سار الرومان للاستيلاء على مَقْدونيَةَ فقاومهم فيليب الخامس مَلِكُ مقدونية (٢٢١ - ٢١٧ ق. م.) فانهزم ولم يستطعِ الاستعانة بحليفهِ أنطيوخوس الثالث السلوقي (٢٢٣ - ١٨٣ ق. م.) الذي كان مشغولاً بالاستيلاء على جانبٍ من أملاك البطالسة في سورية. ثمّ إنّ المُدُنَ اليونانية لم تُنْجدْهُ للمنافسة التي بينَها وبينَه فقد كانتْ تلك المدنُ تأبى أن تُقِرَّ له بملكٍ واسعٍ وبالاستيلاء على مُدُنِها المستقلّة. وفي عام ٢١٥ ق. م. عَقَدَ فيليبُ حِلفاً بينه وبين حنّبَعْلَ الذي كانَ قدِ انسحبَ من قَرطاجة بعدَ معْرَكَةِ زاما. وقاتل فيليب الرومانَ -

مُستعيناً بخِبرة حنّبَعْل ـ مدّة، ثمّ انهزم في معركة كونوسكوفالي (رأس الكلب) في عام ١٩٧ ق. م. وخضعت مقدونية مُكْرَهَةً لِروما.

ولمّا انهزم فيليبُ الخامس في مقدونية وَجَدَ أنطيوخوسُ الثالثُ السلوقيُّ نفسَه وجهاً لوجهٍ أمامَ الجيش الرومانيّ فقاتله في آسية الصغرى ولكنّه انهزَم مرّتين، عام ١٩١ وعام ١٨٩ ق. م. فانطوتْ مملكتُهُ في السُلطان الرومانيّ.

أمّا البطالسةُ في مصر فقد كان بينَهم وبينَ روما شيء من المودّة، كما كانت مِصرُ بعيدةً عن روما. ولكنّ البطالسة كانوا أيضاً بعيدي النظر ـ وكان اهتمامهُم الأوّلُ في الملك ثقافيّاً حضاريّاً، لا عسكريّاً سياسيّاً ـ فاختاروا، من تِلقاء أنْفُسِهِمْ بعدَ جيلٍ من الدهر، أن يُعْلنوا خضوعهم للرومان (عام ١٦٨ ق. م).

إنّ خضوعَ مملكةِ مقدونية ومملكة سوريةَ ومملكة البطالسةِ لسُلطانِ روما كان بمعاهداتٍ أو بما يُشبه ذلك. من أجل ذلك ظلّ الاضطرابُ والخِلاف في هاته الممالك يثيران للرومان مشاكلَ كثيرةً. فرأى الرومان أن يأخذوا الأمر بالعَزْم. ففي عام ١٤٦ ق. م. لمّا قرّرَ الرومانُ تهديمَ قَرطاجةَ في إفريقية هدموا كورنْثا في (شرق أثينا) وأحْرقوها تخويفاً للمقاطعات التي لم تُرِدْ أنْ تخضعَ لروما خضوعاً تامّاً هادئاً.

وشُغِلَتْ روما عن توسيع إمبراطوريّتها وتثبيتِ سُلطانها مدّةً من الزمن بالنِزاع الداخليّ بين المتنافسين على الحكم ثمّ بالاستبداد الذي جعل المواطنين يَنْفِرون من الشيوخ، حتّى أصبحتِ «الجمهورية الرومانية» اسماً على غير مسمّى. وضَعُفَتْ روما حتّى أصبحَ القراصنةُ يعترضون سُفُنَها الآتيةَ من آسيةَ وإفريقية، وربّما نَزَلوا على الساحل وخَطفوا نفراً من كِبارها ومُوظّفيها على مقرُبَةٍ من روما نفسِها.

واختار الرومانيّون، عامَ ٧٠ ق. م. قُنصلاً هو بومبيوسُ لأنّه وَعَدَهُمْ بالقضاء على القراصِنَةِ. وبَرَّ بومبيوسُ بوعدِه فأضافَ الرومانيّون إليه القيادةَ العُليا للأسطول في البحر الأبيض المتوسّط.

أدرك بومبيوسُ أن الحالَ الناشئةَ بينَ روما من جانبٍ ومملكة سورية مثلاً من جانبٍ آخرَ ليستْ حالاً مألوفةً من السَّيْطَرَةِ السياسيةِ أو العسكرية. فانطلق في فتوحٍ جديدةٍ. استولى على أرمينية وقضى على بقايا مملكةِ سورية ثمّ اخترق باديةَ الشامِ إلى نهرِ الفُرات ونهر دِجلة حتّى وَطِيء شرقيَّ فارس.

وبَرَزَ في الحياةِ السياسية جُنديٌّ شابٌّ هو يوليوسُ قيصرُ فانحاز إلى جانب بومبيوسَ وناصره في الظاهر على الشيوخِ الذين كانوا يُخالفونه في كثيرٍ من آرائه في وُجوهِ الإصلاح ولكنّه أضمرَ الاستفادةَ من وَجاهته. واستطاعَ يوليوسُ قيصرُ ـ بمؤازرة بومبيوسَ ـ أن يحصُلَ على تَسْمِيَتِهِ «حاكماً على غالِيَةَ» إذا استطاعَ أن يفتَحَها)* ـ فيما يلي شيء من الإعادة (ص ٨٤).

انتخبَ الرومانيّون يوليوسَ قيصرَ قنصلاً لعامٍ واحدٍ، عام ٥٩ ق. م. وفي مطلعِ العامِ التالي أصبحَ حاكماً على غالِيَةَ. ثمّ إنّ يوليوسَ قيصرَ استطاعَ في مَدى ثمانيةِ أعوامٍ (٥٨ ـ ٥٠ ق. م.) أن يمُدَّ الإمبراطوريّةَ الرومانيةَ شَمالاً وغرباً إلى ضِفاف نهر الراينِ في جرمانيةَ (ألمانية) وإلى غالِيَةَ (فرنسة اليوم) وإسبانيَةَ وإلى ضِفاف نهرِ التايمس في جَنوبيّ الجزيرةِ البريطانية.

إنّ يوليوسَ قيصرَ قدْ أصبحَ الآن في ذِروةٍ من القوّة فدَلّته سَليقتهُ السِياسية على أنْ ينقلبَ على حليف الأمسِ بومبيوسَ وأن يستوليَ على روما بالقوّة. ورأى بومبيوسُ ورؤوسُ الشيوخِ وعددٌ كبيرٌ من الأشراف أنْ لا قِبَلَ لهم بمُقاومة يوليوسَ قيصرَ وجيشه المُحْتَرِف المنظّم «فهاجروا» من إيطالية

وانتقلوا إلى اليونان. ودخل يوليوسُ قيصرُ إلى روما وانتخبه الرومانيّون قُنصلاً.

أراد يوليوسُ قيصرُ أن يُضيِّعَ على خصومِهِ فُرصةَ تنظيمِ صُفوفِهِمْ، فَلَحِقَ بهم إلى بلادِ اليونان. ومَعَ أن جيشَهُ كانَ صغيراً جدّاً بالإضافة إلى جيش خصومِهِ، فإنّه استطاع أن يَلْتَقِيَ بهم في مَعْرَكَةِ فرسالوسَ (في ثراقية) ويَهْزِمَهُمْ.

بعدَ الهزيمةِ في فرسالوس فرّ بومبيوسُ إلى مِصْرَ حيثُ اغْتيل. ثم تابَعَ يوليوسُ قيصرُ فتوحَه فاستولى على بلادِ شرقيّ البحرِ الأبيض كلِّها ووصل إلى مِصْرَ فأسَرَتْهُ كليوباطرةُ آخِرُ البطالسةِ الملوكِ هنالك بجمالها فتزوّجها، أو قيل إنّ الأمرَ كان كذلك، وبَقِيَ إلى جانبها نحوَ تسعةِ أشهرٍ ثمّ تابَعَ الفتحَ وراء مِصْرَ حتّى استولى على مُعْظَمِ شواطىء البحرِ الأبيضِ، في ربيعِ عام ٤٥ ق. م.

وكان يوليوسُ قيصرُ في روما يَضَعُ خُطّةً لاستئناف الفتحِ في المشرق للاستيلاء على بلادِ فارسَ حينَ فاجأهُ رفاقُ الأمسِ وطَعنوه فخرّ قتيلاً (١٥/٣/٤٤ق. م.).

بعدَ مقتلِ يوليوسَ قيصرَ اقتسمَ الحكمَ على الإمبراطورية الرومانية ثلاثةُ نفرٍ مركوسُ أنطونيوسُ وغايوسُ أكتافيوسُ (حفيدُ أخي يوليوسَ قيصرَ) وليبيدوس. ولكن سَرعانَ ما اختلفوا ثمّ وقعتِ المعاركُ بينَهم فخرج ليبيدوس من الجماعة مطروداً وانْحصَرَتِ المنافسةُ بين أنطونيوسَ وأكتافيوسَ فاستولى أولُهما على شرقيّ الإمبراطوريّة وثانيهما على غَرْبيّها. وانتقلَ أنطونيوسَ إلى الاسكندريةِ ليعيشَ إلى جانب كليوباطرةَ عشيقاً. ثمّ نَشِبَ القتالُ بينَ أكتافيوس وأنطونيوسَ فانهزمَ أنطونيوسُ ثمّ انتحرَ، وخلا الجوُّ في الإمبراطوريّة لأكتافيوس.

وظلّتِ الإمبراطوريّة الرومانية تنمو قليلاً أو تتقلّصُ قليلاً إلى مطلع القرن الرابع للميلاد (٢٢٠ ق. هـ.) ثمّ انْقَسَمَتْ. في هذهِ الأثناء كان البرابرةُ الجرمان والهُون قد بدأوا يَهْبِطون أوروبّةَ وينتشرون فيها شرقاً وغرباً وشَمالاً وجَنوباً يَهْدِمون مَعالِمَ الحضارةِ ويبدّلون وجهَ الحياةِ القديمة ثم استمرّوا بعدَ ذلك مدّةً طويلة.

وكان الامبراطور ثيودوسيوسُ الكبيرُ (٣٧٩-٣٩٥م) آخِرَ الملوك الذين حكموا الإمبراطوريةَ الرومانية مجموعةً مُوَحّدةً. ولكنّ ثيودوسيوسَ نفسه أوصى بأنْ تُقْسَمَ الإمبراطوريّةُ بعدَه بين ابْنَيْهِ: يحكُمُ أركاديوسُ مشرقَ الإمبراطورية (شرقَ خطٍّ يمُرُّ من خليجِ سَرْتَ في إفريقية، غَرْبَ بنغازي في ليبيااليوم، ثمّ يستمرُّ شَمالاً حتّى يقطعَ البحرَ غربَ شِبهِ جزيرةِ البَلقان) ويحكُمُ أونوريوسُ مغربَ الإمبراطوريّة. ثمّ استمرّ الأمرُ على ذلك فعُرِفَ القِسْمُ الشرقيُّ باسم «الإمبراطورية الرومانية الشرقية» (أو الإمبراطورية البيزنطية، نِسبةً إلى العاصمة بيزَنطَيوم أو القسطنطينية - أو مملكة الروم، وهُو اسمُها في كُتُبِ المؤرّخين المسلمين)، كما عُرِفَ القسمُ الغربيُّ منها باسم «الإمبراطورية الرومانية الغربية»، وكانتْ عاصمته روما.

هذه الإمبراطوريةُ الواسعةُ الضَخْمةُ التي بُنِيَتْ في ألفِ عامٍ جعلتْ تَتَساقطُ وشيكاً، فما كاد يوليوسُ قيصرُ يرجِعُ من أطرافِ الإمبراطورية (في بَريطانية وفرنسة وإسبانية) حتّى بَدأتْ هنالك الثوراتُ على الحُكْمِ الرومانيّ. وقد حَرَصَ الرومانُ على أن يُعيدوا سُلْطَتَهُم إلى فرنسةَ مرّةً بعدَ مرّةٍ. وهنالك أقطارٌ (في إنكلترة وإسبانية وفرنسة) لا نَستطيعُ أن نَعُدَّها أجزاء من الإمبراطوريةِ الرومانيةِ إلاّ في فَتَراتٍ قصيرةٍ جدّاً. وعلى كلٍّ، فإنّنا نَستطيعُ أنْ نقولَ إنّ الإمبراطوريةَ الرومانيةَ المُصَغّرة (لا الإمبراطوريةَ يومَ كانتْ مُؤَقّتاً في

أوسعِ مَداها) قد نَعِمَتْ في نَحْوِ قرنَيْنِ من الزمن بسِلْمٍ لم يكُنْ عامّاً في جميع المناطق. ثمّ ما كاد القرنُ الثاني للميلاد يبدأ حتّى كان البرابرةُ الجرمانُ قد نَفَذوا من ثَغَراتٍ في الجِدار الذي أقامَتْهُ الإمبراطوريةُ الرومانيةُ لِرَدِّ جُموع هذه القبائل البربريّة. ومنذ مَطْلَعِ القَرْنِ الخامسِ للميلاد كانت الإمبراطوريةُ الرومانيةُ الغربيةُ قد بدأت تتضاءلُ حتّى أصبحتْ قاصرةً على شِبهِ جزيرةِ إيطالية. وفي العامِ ٤٧٦ م. زالتْ تلك الإمبراطوريةُ مرّةً واحدة.

ومَع هذا كلّه فقد تَركَتِ الإمبراطوريّةُ الرومانية، من الجانب الحَضاري في حياتها، آثاراً لا تزالُ إلى الآنِ واضحةً بارزةً. لَنْ أتكلّم هنا على ما خَلّفه الرومان من الطُرُق السُلطانيةِ المُعَبّدةِ والقناطرِ التي تَحْمِلُ الماء من الجبال إلى المُدُنِ، ولا على النِظام العَسْكري ونظامِ الإدارة، ولا على الخَطابة والقانون، ولكنّني سأقصُرُ كلامي على أمرينِ اثنينِ: اللغاتِ الرومانسية والدين أقصُّ تاريخَهما على وجهٍ يُخالف، في عددٍ من جوانبِه، بعضَ ما ألِفَهُ نفرٌ من العامّة ونفرٌ آخرون يتعرّضون أحياناً لهذين الموضوعين. ولكنْ لا بدَّ من ملاحظةٍ عامّةٍ قبلَ ذلك:

لا يجوز أن نفهَمَ من قولنا «الإمبراطوريةُ الرومانية» ما نفهمُه حينما نذكُرُ «الدولةَ الإسلامية»، بل ما نفهَمُه من قولنا «الإمبراطوريةُ البريطانية». لم تكن الإمبراطوريةُ الرومانيةُ وَحْدةً جُغرافيةً أو وَحْدةً سياسية دانتْ بالدين الرومانيّ أو تكلّمتِ اللغةَ اللاتينيةَ ـ لغةَ الرومانِ الرسميةَ ـ ولا بلاداً عَمَرَها (سَكَنَها) الرومانُ وأقاموا فيها معالِمَ ثقافتِهِمْ، ولكنّها كانت كالإمبراطوريةِ البريطانية الحديثة ـ تلك التي ما كانتِ الشمسُ تَغيبُ عنها ـ حامياتٍ عسكريةً متفرّقةً وإداراتٍ للحكم مُسَيْطِرَةً في قواعدِ البلاد. إنّ سوريةَ التي كانتْ وِلايةً رومانيةً ثمّ رُفِعَتْ إلى مرتَبَةِ «كولونيا» فأصبحتْ تتمتّعُ بالحقوق الرومانية كاملةً ـ أو

كالكاملة! ـ كما يتمتّع بها أبناء روما أنفُسُهم لم تكنْ رومانيةً في شيء آخر: كانتْ لا تزالُ أعرابيةً[1] حيثُ كانتْ أعرابيةً، وآراميّةً حيثُ كانت آراميّةً، ثمّ وَثَنِيّةً شرقيةً أو نَصْرانية أصِيلةً. وإذا نحن اسْتَثْنَيْنا عدداً من القِلاع (القُصور المحصّنة) في بَعْلَبَكَّ وتدمُرَ وبُصرى ثمّ عدداً من الطرق وعدداً من الجسور وعدداً من القناطر (لجرّ المياه) لم نشعُرْ بعدَ ذلك ـ بعدَ أنْ زال الحكمُ الرومانيُّ ـ أن الرومان قد عَرَفوا هذه البلادَ أو أنّ هذه البلادَ قد عَرَفَتْهُمْ. ولكنّ هذا الحكمَ السياسيَّ الذي زال عن سوريَةَ الأعرابية قد تَرَكَ آثاراً اجتماعيةً وثقافيةً في نفوسِ الأجيال المتعاقبة لا تلحَظُهُ العينُ عادةً، ذلك لأنّ هذه الآثارَ الرومانيةَ «الأجنبية» قد اختلطتْ بالآثار الأعرابية أو الآرامية «الوطنية» فوطّنها الناسُ في نفوسِهِمْ. أنّ النُظُمَ السياسيةَ، مَعَ الأسفِ، تُشْبِهُ الأمراضَ. إنّ المرض يُلِمُّ بالجسم حيناً ثمّ يبرأ الجسمُ منه (أو هكذا يقولُ الناسُ). ولكنّ كلَّ مرضٍ ـ حتّى الزُكامَ الخفيفَ ـ يترُكُ في الجسمِ رواسبَ تُزْعِجُ الجسمَ بين الحينِ والحينِ، حتّى بعدَ أن ينسى الإنسان أنّه كان قد مَرِضَ يوماً ما!.

في أمثالِنا العاميّة: «بالزُور أو باليُور» (بالباطلِ أو بالحقّ: أي سأفعلُ ما أريدُ على كلّ حالٍ؛ سآخذُ ما أقْصِدُ أخْذَهُ بكلّ وجهٍ مُمْكِنٍ، سواءٌ أكان لي فيه حقٌّ أو لم يكُنْ). وكلمةُ «يور» في هذا المثلِ العربيّ العاميّ هي كلمةُ يورا (Jura) اللاتينيةُ الفصيحةُ الدالّة على «الشرع (القانون) الرومانيّ»!

إنّ العهودَ السياسية تزولُ وتُنسى تماماً، ولكنّ آثارَها الاجتماعية والثقافية تثبُتُ برُغمِ أنّنا نجهَدُ في نِسْيانِها. وإذا استحال علينا نِسيانُها حَمَلَنا غُرورُنا القوميُّ على أنْ نُسَمّيَها أسماء وطنيةً.

(١) أعرابية من حيث العرق أو الجنس ـ وذلك ما يقال فيه «سامية» خطأ، وآرامية من حيث اللغة. ثمّ يبدو أن اللغة العربية كانت محكيّة ومنتشرة في سورية، وإلاّ فكيف كان النابغة الذبيانيّ وحسّان بن ثابت يمدحان الغساسنة في الجاهلية؟

هذه الإمبراطوريّةُ الرومانيّةُ التي تَقَوّضتْ في خُمْس المُدّةِ التي بُنِيَتْ فيها - أو في أقلَّ مِنَ الخُمُس - قد تركَتْ في حياةِ العالم آثاراً واضحةَ المعالمِ أو غيرَ واضحةِ المعالم. وسأقتصر هنا على الكلام على اللغات الرومانسية ثم على الإصلاح الديني في أوروبة المسيحية.

اللغات الرومانسية:

اللغاتُ الرومانسيّة هي اللغاتُ التي نشأتْ من التأثُّر باللغةِ اللاتينية: اللُّغةِ القديمةِ لمدينةِ روما - أو من اللُّغة الرسمية للرومان على الأصحّ - كثيراً أو قليلاً، وهي: الإيطاليةُ والإسبانية والبُرتغالية والفَرَنسية ثمّ الرُومانية لغة أهل رومانية في الحوض الأدنى لنهر الطونة - الدانوب - شَمالَ شِبهِ جزيرةِ البَلقان من شَرقيّ أوروبّة). ثمّ إنّنا نرى آثارَ اللغة اللاتينية في كثيرٍ من اللغات[1] (في الكلمات العاديّة وفي المصطلحات العلمية).

كيف نشأتِ اللغاتُ الرومانسية؟

لعلَّ الناشئين في دِراسةِ التاريخِ أو في دراسة فِقْهِ اللّغةِ - وقد سَمِعوا أشياءَ من مَجْدِ اللغة اللاتينية أو من شُهْرتها - يظُنّون أن هذه اللغةَ كانتْ لغةَ جميعِ الرومانِ ثمّ يَسْبقُ إلى أذهانِهم أنّ الرومانَ هم سُكّانُ شِبهِ الجزيرة الإيطالية، وأنّ اللُّغاتِ الرومانسيةِ التي عَدَدْناها قبلَ بِضْعَةِ أسطُرٍ هنّ بنات

(١) في الإنكليزية والألمانية (وهما لغتان غير لاتينيّتين) أسماء كثيرة من اللاتينية كانت معانيها ومداركها مفقودة في تينك اللغتين. وهنالك عدد كبير من المصطلحات العلمية والفنيّة في جميع اللغات مشتقّة أو منحوتة من ألفاظ اللغة اللاتينية (واليونانية أيضاً).

شقيقاتٌ شَرْعيّاتٌ لِلُّغَةِ اللاتينية. فعلى الذين يظُنّون هذا الظَنَّ - «وإنّ الظنَّ لا يُغني من الحَقِّ شَيْئاً[1]» - أن يَتَدبّروا المَقْطع التالي:

لمّا بدأ الرومانُ (حُكّامُ مدينةِ روما) بإنشاء إمبراطوريّتِهِمْ كانَ جيرانُهُمْ في إيطالية أعراقاً[2] مختلفةً يتكلّمون لُغاتٍ متباينةً: من هؤلاء اللِيغوريّون (في الشَمال الغَربيّ على الساحلِ بينَ إيطالية وفرنسةَ، وقد أخْضَعَهُمُ الرومان في القرنِ الثاني قبلَ الميلاد). ومنهم الكلتيّون (وهم مجموعٌ من الشُعوب التي كانتْ في الألفِ الثاني قبلَ الميلاد في شَماليّ ألمانيَةَ الحاليةِ ثمّ انحدرتْ جَنوباً وتفرّقتْ في البلاد. والكلتيّون يكْثُرون في الشَمالِ الأقصى من إيطالية على الجانِبيْن الشرقيّ والغَربيّ ثم في الجَنوب الغَربيّ من فرنسةَ والشَمالِ الغَربيّ من إسبانِيَةَ وفي شَماليّ إنكلترةَ وفي شَماليّ إرلنـدةَ). ومنهم **الأتْرُسْكيّون** (وهم شعبٌ لم يَفْصِلْ علماء الأنسابِ في أصلِهِ بعدُ، يُظَنُّ أنّه آسِيَويٌّ اسْتقرَّ حيناً في آسِيَةَ الصُغرى ثمّ انتقل إلى شِبهِ جزيرةِ إيطاليةَ. ولقد نَشِبَت بين الأتْرُسكيّين والرومان معاركُ عنيفةٌ، ولم يستطعِ الرومانُ أن يُخضعوا الأترسكيّين إلّا في مُنْتصفِ القرنِ الثالثِ للميلاد). ومنهم **الراتيون** «وهم سكّان المناطق الوسطى من جبال الألْبِ، ويُقابلُها اليومَ جبالُ التيرول وغريزون. وقدِ استولى عليها أغسطوس قيصر (٦٣ ق. م ٠ - ١٤م) وخليفتُه طيباريوس (ت ٣٧ م). وبما أنّ هذه المِنطقةَ كانتْ ثغوراً[3] (مِنطقة حدودٍ) فقد كانتِ المراكزُ الرئيسيةُ فيها مسالحَ (نقاطاً عسكرية على الحدود فقط).

ثمّ منهُمُ **الإيطاليّون** الذين خلعوا اسْمَهُمْ على شِبهِ الجزيرة كلِّها (وهم

(١) القرآن الكريم ١٠: ٣٦، سورة يونس.
(٢) الأعراق جمع عرق (بكسر العين): جنس بشري (أصفر، أسمر، أسود، جرماني، يوناني الخ).
(٣) الثغر هو المكان الذي يخشى منه هجوم العدوّ (في البرّ والبحر).

مجموعٌ من الشعوب القديمة نَزَلوا في وَسَطِ شِبهِ الجزيرة). ومنهم **اليونان** وكانوا جَوالِيَ نَزَلَتْ في جَنُوبيّ شِبهِ جزيرةِ إيطاليةِ منذُ أزمنةٍ قديمة بعواملَ مختلفةٍ[1]. ومنهم الفِينيسيّون أو الفنادِقَةُ أو البنادقةِ في الشَمالِ الشرقيّ من شِبهِ الجزيرة، وقد جاء أسلافُهُمْ في الألفِ الثاني قبلَ الميلاد ـ قبلَ الرومانِ ـ والراجحُ أن أصلَهُمْ من الصقالبة (أي السلاف). من أجل ذلك كانتِ المِنْطَقةُ الشَّماليةُ الشرقيةُ من شِبهِ الجزيرةِ مُتنازَعَةً بين إيطاليةَ وبينَ البَلْقانِ. ولقدِ انتقلتْ هذه المِنْطَقةُ بعدَ الحربِ العالميةِ الأولى إلى يوغوسلافية ثمّ استعادَتْها إيطالية. وفي الحربِ العالميةِ الثانية احتلّتْ يوغوسلافيةُ هذه المِنطقةَ من جديدٍ ثمّ عادت إيطالية فاستردّتها. وفي هذه المِنطقةِ أيضاً عُنصرٌ جِرمانيٌّ واضحُ الأثر. ولهؤلاء الفِينيسيّين أقاربُ نَزَلوا في الجَنوبِ الشرقيّ من شِبه جزيرة إيطالية، وهم اليابيغيّون ـ وقد جاءوا في زمنٍ قديمٍ مِنَ السواحلِ الغَرْبيةِ لشِبه جزيرة البلقان ـ والمسابيّون وهم يونانٌ نَزَلوا مَعَ اليابغيّين في مكانٍ واحدٍ. ولم يتغلّبِ الرومانُ على هؤلاء وأقاربِهِمْ إلّا في أواخرِ القرنِ الثالثِ قبـلَ الميلاد.

وفي شِبه جزيرةِ إيطالية **قرطاجيّون** نَزَلوا على سواحلِ شِبه الجزيرة، في الجَنوبِ في الأكثرِ وفي نُقاطٍ أُخرى متفرّقةٍ (وهؤلاء كَنْعانيّون أعرابيون، ولكن، بما أنّهم قليلو العَدَدِ فقد ضاعوا، مَعَ الأيامِ، في جيرانِهِمْ ـ بما كان لهم من الحَضارة والثقافة والعادات واللُّغة ـ بلا ضجّةٍ). وهنالك **الساردِيّون** (وهم مجموعٌ من أقوامٍ يسكُنون جزيرةَ ساردانيةَ التابعةَ لإيطالية سياسيّاً، وهم يتكلّمونَ عدداً من اللَّهجات تَرْجِعُ إلى لُغةٍ مستقلّةٍ). ثمّ هنالك في هذا البابِ **الكورسيّون**، سُكّان جزيرةِ كورسيقة التابعةِ سياسياً لفرنسةَ (أصلُ سُكّانِها من

(١) بالهجرة العاديّة أو للهرب من الاضطهاد السياسي كما فعل فيثاغوراس (ت ٥٠٣ ق. م) حينما ترك موطنه في جزيرة ساموس (اليونان) وجاء إلى قروطونية (جنوبيّ إيطالية) وأسّس فيها نادياً فلسفياً ومدرسة.

الكَلْتيّين ومن الليغوريّين). وبعدَ ذلك جاء إليها الأَتْرُسْكيّون والسَرْقوسيّون أهلُ سَرَقوسَةَ في جزيـرةِ سِقِلّيَةَ). ثمّ حَكَم الـرومانُ سِقِلّيـة قرنـاً كامـلاً (٣٦٠ ـ ١٦٢ ق. م) وحكمها بعدَهُمُ الرومُ (البيزنطيّون). وغَزاها العَرَبُ مِراراً ونَزَلوا على سواحِلِها فاضْطُرَّ سُكّانُها إلى أن يَنْسَحبوا من تلك السواحل ويلجأوا إلى وَسَط الجزيرة مُدّةً طويلةً فكَثُرَ اختلاطُ بعضِهِمْ ببعضٍ. وهنالك في شِبهِ جزيرةِ إيطاليةَ أقوامٌ آخرونَ أيضاً.

هذا المزيجُ العجيبُ من الأعراقِ الجنسية في شِبْه جزيرة إيطالية خَلَقَ في هذه الشبهِ الجزيرةِ مزيجاً أعجبَ من اللُّغاتِ ولَهَجاتِها. وإنّه لمن الصَعْبِ جدّاً أن نَضَعَ هذه اللُّغاتِ بلَهَجاتِها طبقاتٍ في جدولٍ واحدٍ، لأنّ تقاربَ هذه اللُّغات واللَّهَجاتِ في جوانبَ ثمّ تباعُدَ بَعْضِها عن بعضٍ في جوانبَ أُخرى يفسَحُ المجالَ لوضع جَداولَ لها كثيرةٍ مختلفة الأسس. ويبدو أنّ السَّرْدَ التاليَ يُمْكِنُ أن يكونَ عَمَليّاً واضحاً.

أ ـ مجموعٌ من اللَهَجات الشَماليّة: خمْسُ لَهَجاتٍ يَغْلِبُ عليها العنصرُ الغالي الكلتي.

ب ـ اللَهَجات التُوسكانية[1]: أربعُ لَهَجات هُنّ أقربُ اللَهَجات الى اللاتينية.

جـ ـ لَهَجات الوَسَط والجَنوب: أربعُ لَهَجات.

د ـ لَهَجاتٌ رومانية[2] أُخرى: خمسُ لَهَجات، غيرَ أنّها برُغْمِ رُجوعِها إلى أصلٍ لاتينيّ فإنّها لا تتّصل باللُّغاتِ الإيطالية على الحَصْر، بل بلُغاتٍ

(١) توسكانا منطقة غربية قريبة من الشمال في إيطالية، ومن مدنها: فلورنسة وليفورنو وبيزا.
(٢) اللغات الرومانية هناهي اللغات التي ترجع إلى أصل لاتيني وكانت محكيّة في إيطالية وفرنسة وإسبانية الخ، قبل أن تنشأ اللغات الإيطالية والإفرنسية والإسبانية الحالية.

رومانية[١] أُخرى. في هذا المجموع: البُروفنسالية ـ الرومانسية الفَرَنجيّة ـ الرومنشيّة أو اللّدينية أو الراتو رومانية (وهي في الحقيقة مجموعُ لَهَجات تبعُدُ كثيراً عن أخَواتِها في هذا المجموع. والمتكلّمون بها مُوزّعون في الأصل بينَ فرنسة وسويسرة والنمسة وإيطالية) ـ السَرْديّة (لُغةُ جزيرةِ سارِدانية، غربَ إيطالية) ـ اللهجة الرومانية[٢] لغة سكّانِ شِبهِ جزيرةِ إسترية، في أقصى الشَمالِ الغربيّ من يوغوسلافيا اليومَ، وَهيَ قريبةٌ من لغة أهل رومانية الذين هم في حَوْضِ نهر الطُونَةِ أو نهر الدانوب، وقد تأثّرتْ كثيراً باللغة الصَقْلبية: السَلافية).

هـ ـ لُغاتٌ غيرُ رومانيه (غير رومانسية): الألمانية ـ السُلوفانية ـ الصِرْبية الكرواتية ـ الألبانية ـ اليونانية (والمتكلّمون بهذه اللغات قِلّة).

إنّ ثمّت أسباباً كثيرةً جعلتِ اللغاتِ واللَهَجاتِ في شِبه جزيرة إيطالية كثيرةً ثمّ عَمِلَتْ على استمرارِها، ولكنْ لا حاجةَ بنا إلى تَعْداد هذه الأسبابِ هنا لأنّ موضوعَنا هنا يدُور على نشأةِ اللُغات الرومانسية بتأثير اللُغة اللاتينية، فإنّ الاتجاهَ في هذا الكتابِ إنّما هو نحوَ التأكيدِ الدالّ على زوالِ الأثرِ العَسكريّ والأثر السياسيّ من حياةِ الناسِ مَعَ الأيّام ورُسوخِ الأثرِ الحَضاريّ.

اللغة الإيطالية الحديثة.

نبدأ باللُّغة الإيطالية الحديثةِ لأنّها أقربُ اللغات الرومانسية إلى اللغة اللاتينية من حيثُ البِيئةُ الجغرافيةُ ومن حيثُ الألفاظُ.

لقد تقلّبتِ الحياةُ باللُّغة اللاتينية تقلُّباً كبيراً. إنّ اللُّغة التي كان يتكَلّمُها

(١ و٢) إن اللفظة «رومانية» تكتب في اللغات الفرنجية بتهجئات مختلفة إختلافاً يسيراً. والتمييز بينها هنا يتضح قليلاً من وصفها في المتن.

يـوليوسُ قَيْصَـرُ (ت ٤٤ ق. م.) وتِـرْبُـهُ شَيْشـرونُ الخـطيبُ المشهـورُ (ت ٤٣ ق. م.) لم تكنِ اللغةَ التي تكلّمها الرومانُ الأوّلون. وكذلك كانتِ اللاتينية في العصورِ الوسطى غيرَ اللاتينية التي شاهدت يوليوسَ قيصرَ وشَيشَرونَ. ولمّا جاء دانتي (ت ١٣٢١ م = ٨٢٤ هـ) كانتِ اللغةُ اللاتينيةُ التي يتكلّمها الناسُ غيرَ اللغةِ التي كان نفرٌ من مُوَظّفي الدولةِ لا يزالونَ يَعْرفونها مَعرفةً آلِيَّةً ديوانية قاصرةً على التعابيرِ التي كان أولئك الموظّفون يملأون بها سِجلّاتِ الدولة أو يُصْدِرون بها أحكامَ القضاء. ثم إنّ القضاةَ كانوا مُضطرّين، إذا هم جاءوا إلى التحقيق في قَضيّةٍ، إلى أن يكتُبوا الجُمَلَ المألوفةَ بلُغَتِهمُ اللاتينية المَشوّهةِ وأن يُدوّنوا أقوالَ المُتّهمين والشُهودِ بلغةِ أولئكَ المتّهمينَ والشهود، تلك اللُّغةِ التي كانتْ تشويهاً من لغةِ القُضاة. من أجل ذلك لم يكُنْ لِسكّانِ إيطالية لغةٌ يستطيعون التعبيرَ بها تعبيراً عامّاً يفهَمُه الناسُ جميعاً. فَخطَرَ لدانتي أن يَضَعَ لقومه لغةً عامّةً يتفاهمون بها ويُعبّرون بها عن حاجاتِ حياتِهم وعن آرائهم وعواطفهم. وأحبَّ دانتي أن يجمَع خصائصَ هذه اللغةِ التي أرادَ أن يَضَعَها لقومه، في ما يتعلّق بمُفْرداتها وتراكيبها وتعابيرها، من لُغاتِ جميعِ المقاطعات. ولكنّ جميعَ المقاطعاتِ لم تكُنْ تتكلّمُ لغةً واحدةً. ثمّ إنّ لفظَ الكَلِمَةِ الواحدةِ في المنطقة الواحدةِ لم يكُنْ، في كثيرٍ من الأحيان، واحداً! واختارَ دانتي أن يتّخذَ لَهْجَةَ أهلِ فلورنسةَ[١] ـ وهي إحدى لَهَجاتِ اللغةِ التُوسْكانية ـ أساساً لِلُغتِهِ الجديدةِ وأن يُطَعِّمها بخصائصَ من اللُغاتِ واللَهَجات الأخرى قَدْرَ الإمكانِ. ولكنْ غَلَبَتْ على دانتي مُعْظَمُ خصائصِ لهجةِ أهلِ فلورنسةَ إن لم نقل جَميعُ خصائصِ لَهْجَتِهِمْ!.

(١) فلورنسة: تبعد نحو ٢٥٠ كيلو متراً عن روما شمالاً، وكانت فيها ولادة دانتي.

أمّا في فرنسةَ فالأمرُ أشدُّ تعقيداً:

في فرنسةَ عَشَراتٌ من اللَهَجاتِ تتجمّع أصنافاً وطَبَقاتٍ. ومَعَ أنّ كلَّ مجموعٍ من هذه اللَهَجات في صِنفٍ أو في طَبَقةٍ يتّسمُ بخصائصَ مُعيّنةٍ معلومةٍ - فيستطيعُ المُثقّفُ من أهلِ صِنفٍ أو طبقةٍ أن يفهَمَ، في بعض الأحيان، عن رجُلٍ من أهل لهجةٍ أُخرى (وإن كان لا يستطيعُ التعبيرَ بها) - فإنّ ثَمّتَ في فرنسةَ إلى اليومِ «ألْسِنَةً» لا يُمْكِنُ أن تُعَدَّ في اللَهَجات، بل هي لُغاتٌ قائمةٌ بنَفْسِها أو قريبةٌ من أن تكونَ قائمةً بنفسها كالألمانية والفَلَمنكية واللّورنيّة والنورمندية والبَريطونية والإيطالية والغَسْقونية والبُشْكَنْسية والكاتالانية. وفي هذه اللغاتِ وتلك اللَهَجاتِ كلِّها فروقٌ تجري على ألْسُنِ العَوامّ في مخاطباتهم تَعْياً على الحَصْر[1]. فاللغة التي نُسَمّيها نحن فرنسيةً ونَجِدُها في الكُتُبِ المُتَداولَةِ بين أيدينا ليستِ اللُّغَةَ القوميةَ في فرنسةَ، بل اللغةُ الرسميةُ. وفي فرنسةَ كُتُبٌ ومجلّاتٌ وجرائدُ تصدُرُ بغيرِ هذهِ اللغةِ الرسمية.

ويُحِبُّ نَفَرٌ مِنَ الناسِ أن يجعَلوا سويسرَةَ مَثَلاً مضروباً في تعدُّدِ اللغات:

تقومُ سويسرةُ في مِنْطقةٍ جَبَليةٍ شديدةِ الارتفاع كثيرةِ التضاريسِ ممّا يُفَرّقُ بين سُكّانها في المَنازل والمَعيشة. (وشاءتِ السياسةُ أن تكونَ سويسرةُ

(١) في ما يلي سرد شبة مفصّل للهجات المحليّة في فرنسة غايته إبراز صورة لتعدّد تلك اللهجات (وأسماؤها التالية نسبة إلى المقاطعات التي يتكلّمها أهل تلك المقاطعات):
أوّلاً - الفرنسية الشمالية: النورمانية - الإنكليّة النورمندية - البيكاردية - الولّونية - الشامبنية - اللورنيّة - الفرنكونتيّة - البورغنيّة - البيريشونيّة - السنتوجيّة - البواتيفية - الانجفية - والغالوتيّة.
ثانياً - لغة جزيرة فرنسة (المنطقة التي حول باريس): الفرنسيانية (أصل اللغة الأدبية الرسمية في فرنسة).
ثالثاً - الفرنسية الجنوبية الشرقية: الفرنسية البروفنسالية (التي تمثّل التطوّر نحو البروفنسالية لغة الشعر في جنوبيّ فرنسة في العصور الوسطى) - الليونية - الدوفينية - الفودية - النوشاتالية - الفالازية - السافياردية - الكاتالونية الفرنسية - والراتورمانية.

هذه دولةً ضَيّقةَ الرُقعةِ مستقلّةً عن الدول المُحيطةِبها. من أجْلِ ذلك اجتمعَ في هذه الرقعةِ الضيّقةِ عددٌ من اللغات وعددٌ أكبرُ من اللَهَجات. وقد كان في سويسرةَ ثلاثُ لُغاتٍ رسميةٌ: الألمانيةُ والفرنسيةُ والإيطالية. وفي عام ١٩٣٤م أُضيفَتْ اللُّغةُ الرومَنْشية أو اللدينية إلى تلك اللغاتِ الثلاثِ الرسميةِ. من أجل ذلك ليسَ لسويسرةَ لغةٌ قوميةٌ.

ويحسُنُ أيضاً أن نَضْرِبَ بلجيكةَ مَثَلاً:

في بلجيكة أيضاً عددٌ من اللغات وعدد من اللَهَجات. ولكنّ في بلجيكة لُغَتَيْنِ رسميّتين: الفرنسية (في الجَنوبِ المُتاخِمِ لفرنسة) ثمّ الفلمنكيّة (في الشَمال المتاخم لهولندة. والفلمنكة لُغَيّةٌ من الهولندية التي هي بدَوْرِها لُغَيّةٌ من الألمانية). وإنّ شعباً مقسوماً بين لُغتين لا يُمْكِن أن يكونَ مجموعَ الهوى. من أجل ذلك يكثُرُ القتالُ في بلجيكا في الشوارع بين أهل تَيْنِكَ اللغتين لأنّهم في الحقيقةِ يُمثّلون دينَيْنِ (فالمتكلّمون باللغة الفرنسية كاثوليكٌ. والمتكلّمون بالفلمنكية بروتستانت) ثم ثقافتين بطبيعةِ الحال.

فَمِنْ كلِّ ما تقدّمَ نستطيعُ أن نقولَ إنّ ما نَعْرِفُهُ نحن عادةً باسم اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية ثمّ باسمِ اللغاتِ الانكليزية والألمانية والروسية أيضاً ليستْ لُغاتٍ قوميّةً يتكلّمها الفرنسيون والإيطاليون والإسبانيّون والإنكليز والألمان والروس، على اختلافِ مناطِقِهِم في الوَحَداتِ السياسية التي يَعيشون فيها، بل هي لُغاتٌ رسميةٌ لتلك الوَحَداتِ السياسيةِ مفروضةٌ في الدولةِ وفي نظامِ التعليم الحكومي.

فإلى أيِّ حدٍّ نستطيعُ أن نقولَ إنّ اللغةَ الفرنسية، مثلاً، لغةٌ رومانسيّة تَرْجِعُ إلى اللغة اللاتينية؟

للغة ثلاثةُ مُقوّماتٍ أساسيّةٌ:

١ ـ الكلماتُ المُفرَدَةُ (الثروة اللغوية: كَثْرة الكَلمات وتعبيرها عن أكبرِ عددٍ ممكن من المعاني مَعَ الدّقة في ذلك).

٢ ـ الأداء (القيمةُ الصوتية: أحكامُ اللفظ للكَلِمات المُفْرَدَة) ـ الموسيقى اللفظية.

٣ ـ التركيبُ (الصَّرْف: صِيَغُ الكلمات)، والنحو (تقلُّبُ الكَلِماتِ في حالاتِ الإعراب بحَسْبِ مكانها في الجُملة).

فإذا نحن دَرَسنا هذه المقوّماتِ بالاضافةِ إلى اللغة الفرنسية، كان في اللغة الفرنسيّة:

الكلمات المفردة:

لاتينيّة ـ جرمانية ـ كلتيّة ـ يونانية ـ ثمّ إسبانية، انكليزية، عربية الخ.

الأداء:

أصواتٌ لاتينية ـ أصوات غير لاتينية ـ مُدودٌ لاتينيّة ـ مدود غير لاتينيّة.

التركيب:

صِيَغُ الكلماتِ لاتينية ـ الجُموع غيرُ لاتينية ـ نَسَقُ الجملة غير لاتيني (النسق اللاتيني غير مستقيم ضرورة، والنسق الفرنسي مستقيم كالجُملة الإسمية العربية) ـ سقوط الإعراب (في اللاتينية إعراب بالأحرف).

من أجل ذلك نرى أن صِلَة اللغة الفرنسية باللغة اللاتينية أقلُّ كثيراً ممّا

يظُنُّ الناسُ، وخصوصاً إذا عَلِمنا أنّ التركيبَ (وهو في الفرنسية غيره في اللغة اللاتينية) أهمُّ المقوّماتِ في كلِّ لغةٍ. أمّا الكلماتِ المُفْرَدَةَ (وهي في الفرنسية كثيرة الصلة بالكلمات اللاتينية) فإنها أقلُّ تلك المُقوّماتِ شأناً. ثمّ يحسُنُ أن نعلَمَ أنّ كثيراً من قواعِد اللغة الفرنسية (كنظامِ تصريفِ الأفعال، مثلاً) من عَمَلِ العُلماء في الأجيال المتأخّرة. ثمّ إنّ هذا كلّه متعلّقٌ باللغة الرسمية في فرنسةَ قليلُ الصِلة بباقي اللُغات ولَهجاتها في فرنسة!

من أجلِ هذا نَجِدُ أهلَ الجَنوب الأقصى في فرنسة، وهم يتكلّمون لُغاتٍ كَلْتيةً في الأكثر، لا يَفْهمون لغةَ أهلِ الشَمال أو الشرق الذين يتكلّمون لُغاتٍ جرمانية، بينَما أولئك (أيْ أهلُ جَنوبيّ فرنسة) يفهمون لُغاتِ أهلَ شَماليّ إسبانيةَ ولُغاتِ أهلِ غربيّ إيطالية. ثمّ لا ريبَ في أنّ ابنَ الشرق الفرنسي أو ابن الجَنوب الفرنسيّ أو ابنَ الشَمال الفرنسي أو ابنَ الغرب الفرنسي يتعلّمُ اللُغة الفرنسيةَ الرسميةَ (لغةَ أهلِ باريسَ) بِمِثلِ الصُعوبةِ التي نتعلّمُ بها نحنُ تلك اللُغةَ، أو قريباً من ذلك. وأنا واثقٌ من أنّ في لُبنانَ أفراداً يُؤدّونَ لفظَ اللُغة الفرنسية ويُعبّرون بها عن آرائهم وعواطِفِهم على وَجْهٍ أفضلَ كثيراً ممّا يفعَلُ جانبٌ كبيرٌ من سُكّان فرنسة في جَنوبيّها أو شرقيّها أو شَماليّها أو غربيّها. وهنالك مثل هؤلاء الأفراد في الجزائر وفي غير الجزائر أيضاً.

نشأة الآداب الرومانسيّة

نشأة الآداب الرومانسية كانت إلى زمنٍ قريبٍ، إلى مُنتهى القرنِ التاسعَ عَشَرَ للميلاد، مَثارَ جَدَلٍ كبيرٍ(*) ظنّ كثيرٌ من الباحثين الغربيّين أنّ الآدابَ الرومانسيّة يجب أن تكونَ قد نشأتْ من الأدب اللاتيني لأنّنا نقولُ: إنّ اللغاتِ الرومانسية قد تحدّرتْ من اللغة اللاتينية.

ولكنّ تَرْدادَ البصر في الآدابِ الرومانسيّة المختلفةِ (الفرنسيةِ والإيطالية والإسبانية والبُرتغالية) ثمّ في الألمانية والإنكليزيّة (وهما لغتانِ جرمانيّتان) أقنعَ الباحثين بأن الصِلةَ بين الآدابِ الرومانسية والأدب اللاتيني الفصيح مفقودةٌ أو غيرُ واضحة. من أجل ذلك أرادَ نفرٌ من الباحثين أن يشتقّوا الآدابَ الرومانسية من أدبٍ لاتينيٍّ عامّيٍ، ولكنّ هذا الرأيَ أيضاً لم يستقمْ ولا ثبتَ على مِحَكّ النظر العاقل. ثمّ بحث نفرٌ غيرُ هؤلاء وغيرُ أولئك في الأغاني الدينية والأغاني العاميّة فلم يَجدوا بين تلك الأغاني كُلِّها وتلك الآدابِ الرومانسية صِلةً. إنّ الخَصائص المعنَويّةَ والخصائص اللفظيّة التي تتبدّى في الآداب الرومانسية لا نرى مِثْلَها في الأدبِ اللاتيني الفصيح أو في القولِ اللاتيني العاميّ أو في الأغاني الدينية الرصينة أو الأغاني الشعبية المَرِحَةِ حيناً والفاسقةِ حيناً آخرَ.

ثمّ نشأت النظريّة العربيّة

والواقع أنّ النظريّة العربية قديمة جداً. لَعل(*) أوّلَ مَنْ أشارَ إليها الراهب اليسوعيُّ خوان آندرس(*) في العَشْرِ الأخيرةِ من القرن الثامنَ عَشَرَ(*). ثمّ جاء العالم الإسبانيّ المستشرق ريبيرا إي طرّاغو(*) فكان من أكبر أنصارِ النظرية العربية في نشأةِ شعرِ الشعراء التروبادور، فقد قال(*): «أنّ الغموض الذي ما زال يُحيط بالمصدر الذي تَرْجِعُ إليه تلك الأشكالُ (من التوشيح) للشعر الغِنائي في العالم المُتَحَضِّر(*) قد كَشَفَه لنا الشعرُ الأندلسيُّ - كما قَيَّضَ لنا أن نَعْرِفَه - في ديوانِ ابنِ قُزمانٍ».

ومن الحقّ أن نقولَ مَعَ القائلين(*) بأن الشعراء التروبادور بعدَ أن فَتَحَتْ لهمُ الموشّحاتُ الأندلسيّة والأزجالُ العربية أُفُقاً واسعاً من الشعرِ الجديدِ قد عطَفوا إلى أحوالٍ اجتماعيةٍ فأخذوا منها أيضاً. ومن غيرِ الإنصافِ والواقعِ أن

يُقالَ إنّ إنساناً أو قوماً أخذوا وَجْهاً من أوجهِ الحضارة أو الثقافةِ أو الأدب الخالص من مصدرٍ واحد. إنّ الأسبابَ تتشابكُ وإنّ المصادرَ تتقاربُ ثمّ تتّجهُ كُلُّها نحو نتيجةٍ ما تلبَثُ أنْ تتفرّعَ هي أيضاً في طرائقَ متعدّدةٍ مختلفة.

من أجلِ ذلك كلّه رأينا الشعرَ البرفنساليَّ ينشأ فجأةً في العصور الوسطى في جَنوبيّ فرنسةَ ثمّ تتّصلُ آثارُه بشُعراءَ في بلادٍ مختلفةٍ متجاورةٍ وغير متجاورة. ومن أجلِ ذلك وَجَدْنا شعرَ الشعراء التروبادور (في اللهجة البروفنسالية) يكادُ يكونُ مُحاكاةً حرفيةً للموشّحاتِ الأندلسية في ترتيب الأشطُر والقوافي وفي الفنون والأغراض والمعاني وفي النَفَس الشعريّ. ثمّ يبدو أنّ أحدَ المَنْبَعَيْن العظيمين اللذين اغترفَ منهما الشعراء التروبادور الأوّلون في البروفنسالية خاصّة وفي الإسبانية والبُرتغالية والإيطالية كان أزجالَ أبي بكرٍ محمّدِ بنِ عيسى بنِ عبدِ الملك المشهور باسم ابن قُزمانٍ (ت ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م). ومن البروفنسالية على الأخصّ انتقلَ الأثرُ العربيّ إلى الشعر الألماني الأوّل(*) وإلى الشعر الانكليزيّ الأوّل أيضاً.

والذي يَبْدو أنّ الأثَرَ الأوّلَ في نشأة شعرِ الشعراء التروبادور يجب أن يُطْلَبَ في الموشّحاتِ الأندلسية، فإنّ أنصارَ النظريّةِ العربية يُجْمِعون في الاستشهاد على صِحّة رأيهم - وهم في ذلك على حقّ - بالمُوازنة بينَ مُوشّحةٍ مشهورةٍ لأبي بكرٍ الأبيضِ (أو ابن الأبيض) المُتوفّى سَنَةَ ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م)[1] وقصيدةٍ من قصائدِ ماركابرونَ[2] من أوائلِ الشعراء التروبادورِ

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمّد الأبيض المتوفيّ ٥٤٤ هـ (وفيات الأعيان، بيروت ٤ : ٤٣٧).

(٢) ماركابرون بن ماركابرون (أو ماركابرون بن أبيه) كان مجهول النسب ألقي طفلاً على باب أحد الأغنياء فاعتني به ذلك الغنيّ وربّاه. وبلغ مركابرون أشدّه في نحو سنة ١١٤٠م (٥٣٥ هـ) وأصبح شاعراً جوالاً مشهوراً (تروبادور). وكان ماركابرون عدوّاً لدودا للمرأة، وهذا نادر جدّاً بين الشعراء التروبادور (ولعل هذا راجع إلى أنّ أمّه كانت قد تخلّت عنه عقب ولادته فنشأ مجهول النسب في زمن كان لا يزال في أوروبّة يقدّس الشرف والفروسية).

(وترى المُوشّحةَ والقصيدةَ في ما يلي - لاحِظْ أطوالَ الأشطُرِ وترتيبَها في القِطعتين):

١ - ما لذّ لي شِرْبُ راحِ [١]	1 — Al! com'es encalabalada
٢ - على بِساطِ الأقاح	2 — La fals' a razo daurada
؟ - لولا هضيمُ الوشاح	3 — Deman totas vrai triada;
٤ - إذا أسا في الصباح	4 — Va! ben es fols qui S'i fia
٥ - أو في الأصيلْ	5 — De sos datz
٦ - أضحى يقولْ	6 — C'a Plombatz,
٧ - ٨ ما للشمولْ	7 — 8 Vos gardatz
٩ - لَطَمْتُ خدّي	9 — Qu'enganatz
١٠ - هبّتْ فمالْ	10 — N'a assatz
١١ - غُصْنُ اعتدالْ	11 — So sapchatz
١٢ - ضَمّهُ بُردي	12 — E mes en la bia

ويحسُنُ أن نلاحظَ أنّ الموشّحةَ العربيةَ والقصيدةَ البروفنسالية تتألّفان من سَبعةِ أبيات (مقاطع)[٢] ينتهي كلُ بيتٍ منها بقُفْلٍ أو قَفْلةٍ (لازمةٍ أو راجعةٍ)[٣]. وهذا يوافقَ قولَ ابنِ خَلدونٍ[٤]. والشَبَهُ بين هاتينِ القِطعتين

(١) لم أشرح معاني الأبيات الغريبة ولا حاولت تفسير النصّ البرفنسالي لأنّ المقصود هنا الشكل الشعري لإدراك الشبه بين الأصل العربي والتقليد البروفنسالي.
(٢) يقول ابن خلدون المقدمة، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١١٣٨): وأكثر ما تنتهي (القصيدة الموشّحة) عندهم إلى سبعة أبيات (مقاطع).
(٣) عدد من الأشطر يتكرّر في آخر كلّ بيت (مقطع) من الموشّحة.
(٤) مقدمة ابن خلدون ١١٣٧ - ١١٣٨. راجع تخالف القوافي ونسقها وتكرارها في الموشّحة العربية والقصيدة البرفنسالية.

(العربيةِ البروفنسالية) ثمّ بين عددٍ كبيرٍ من الموشّحات والقصائدِ البروفنسالية قريبٌ جدّاً.[١]

وبعدَ أن استقرّ رأيُ مؤرّخي الحضارةِ الأوروبيّين على أنّ الشعرَ الأوروبيّ نشأ من الشِعر العربي (ومن الموشّحاتِ الأندَلسية والأزجالِ المَشْرقية والأندلسية) يقومُ نفَرٌ[٢] من العرب لَيَزْعُمُوا أنّ الموشّحاتِ الأندلسيـة نشأتْ متأثّرةً بالأغاني العاميّةِ التي كانتْ لسُكّان اسبانيةَ الأصليّين.

من أجل ذلك اخْتَرْتُ أنْ آتيَ هنا بنصٍ على شيءٍ من الطول فيه وصفٌ للبيئة الفرنسية وللحياةِ الاجتماعية فيها ولحال المرأةِ ولِمُستوى الأدب في ذلك الزمن الذي نشأ فيه شعرُ الشعراء التروبادور أوّلِ الشعر الذي قام على أرضِ فرنسةَ - قبلَ أن يتكلّم أهلُ فرنسة لُغَتَهُمْ التي نَألَفُها لهمُ الآن. هذا النّص الشاملُ الواضحُ يُغني عنِ الإكثار من النصوص الجُزئية المختلفة.

قال صاحبُ النّص (ص ٢٩ - ٣١، ٣٦):[٣]

«إنّ التُراثَ الرائعَ للثقافةِ اليونانيةِ اللاتينيةِ قد أغْفى في إبّانِ اجتياح

(١) Hispano-Arabic Poetry and its Relation with the Old Provençal Troubadours, by A. R. Nykl (Baltimore 1946), ch. VII (pp. 371-411).
(٢) راجع مثلاً «الأدب العربي في آثار أعلامه «لخليل تقيّ الدين وفؤاد أفرام البستاني وواصف البارودي (ت١٢/١٠/١٨٦٢) فقد قالوا (٢ : ٢٣٣) «وقد تأثّر شعراء الأندلس بطرق منشدي الشعر الاشباني الأصل، فمالوا إليه في شعرهم العربي ونظموا أبياتهم ومقاطعتهم موافقة لأصول التلحين والغناء. وكذلك قال بطرس البستاني (ت١٥/٦/١٩٦٩) في كتابه «أباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث» (بيروت ١٩٣٧، ص ٨٢): «فاتّفاق منظومات التروبادور والموشّحات في أكثر النواحي يحملنا على الاعتقاد أنّ العرب تأثّروا بالأدب الإسباني الفرنسي، كما تأثّر الإسبان والفرنسيون بالأدب العربي. فأخذ العرب فكرة التحرّر من نظام الأوزان في أغانيهم...» أنا لا ألوم هؤلاء لأنّهم يخوضون في ميدان ليس لهم فيه حصان ولا فرس!.
(٣) Voir La **Poésie Française:** Troubadours et Trouvères, Par France Igly (ed. Marabout; Pierre Seghers, Paris, PP. 29ss).

البرابرة (للقارّة الأوروبيّة)[1]. في أثناء هذه الحِقْبة الطويلة التي امْتدّتْ من القرنِ الرابعِ إلى القرنِ العاشر (للميلاد)[2] كانتِ الحياةُ الفكرية هامدةً أو كالهامدة . . .

ولكنْ ما إنْ أطلّ القرنُ الحادي عشر حتّى بدأ عهدٌ مِنَ الأزدهارِ والسلام النِسْبيّين، ورأينا منذ ذلك الحين أماراتٍ[3] كثيرة تبشّرُ بنهضةٍ للفنون والآداب. بذلك أعلنَتِ البشائرُ بازدهارٍ فكريٍّ شديدِ اللّمَعان.

«ففي جَنوبيّ فرنسةَ . . . في بَلاطاتِ القصور، أخذتِ السيّداتُ وأخذَ السادةُ (معهُنّ) ينغمسون جميعاً في رَفاهية مِنَ العيش. ولقد نشأ من ذلك السلوكِ الاجتماعيِّ الرفيعِ أدبٌ ما لَبِثَ أنِ استقرَّ. ثمّ إنّ الجميعَ أخذوا يتنافسون في النعيمِ وفي الأناقة وفي الإسراف في كلّ شيء. وراقَ، بعدَ هذا، لكلّ فردٍ أشياءُ مِنَ الافتنان في الآراء مسوقةً في غِشاء من سِحْرِ السَّجْع[4]. وأخذَ كلُّ فردٍ يُنَمّي في نفسه حِسَّ الجمالِ ويتفنّنُ في اسْتِحْداثِ تعابيرِ الكِياسةِ للإتْيانِ بِصُوَرِ المديحِ الخليقةِ بمولاتِه (سيّدته، محبوبته[5])

(١) البرابرة جموع من شعوب مختلفة كانت لا تزال على الهمجيّة انساحت في أوروبّة في القرنين الرابع والخامس للميلاد (الرابع والثالث قبل الهجرة)، ولكنّ طلائع من هؤلاء البرابرة بدأت تنفذ إلى أوروبّة منذ القرن الأوّل للميلاد (السادس قبل الهجرة). إنّ انسياح هؤلاء البرابرة في أوروبّة والغارات التي قاموا بها على بلدان الإمبراطوريّة الرومانية قد قضى على معالم الحضارة التي نشأت في العصور القديمة على أيدي اليونان والرومان.

(٢) من القرن الثالث قبل الهجرة إلى القرن الرابع للهجرة).

(٣) أمارات : علامات. في القرن الحادي عشر للميلاد (الخامس للهجرة) بدأ احتكاك أوروبّة بالعالم الإسلامي (في الأندلس وصقلّية ثمّ بعد ذلك في الشام، في أثناء الحروب الصليبية) احتكاكاً عاقلاً وأخذت الحضارة العربية الإسلامية تمسّ العقل الأوروبي.

(٤) السجع فواصل في أواخر الجمل القصيرة (في الأغلب) تشبه القوافي في أواخر أبيات القصيدة.

(٥) إنّ الولاء للمرأة (مناداة المرأة في الشعر والتقرّب إليها حيناً ثمّ التذلّل لها حيناً آخر أخذه الشعراء التروبادور من الشعراء العرب. يقول الشاعر العبّاسيّ أبو العتاهية (ت ٢١١ هـ = ٨٢٦ م) مثلاً :

ألا ما «لسيّدتي»، ما لها: تُدِلّ فأحْمِلَ إدلالها؟

وبثقافته. وكذلك من الظَرْفِ أن يَبْدُوَ كلُّ رَجُلٍ في صورة المُحِبّ وأنْ يُقالَ فيه إنّه مُحِبّ، وكان الحبُّ قد أصبح لَهْواً تَفْرِضُه العادةُ الاجتماعية ويُهذّبه الخَيالُ المُثقّف بِحَسْبِ العُرْفِ في الكِياسة وفي المُخالقة. وبذلك انتشرَ جَوٌّ من العاطفة بعضُه عُرْفيٌّ تقليديٌّ وبعضُه وُجدانيٌّ صادقٌ أُتيحَ له فيما بعدُ أن يُدعى باسمِ فرنسيٍّ صميم هو الحبُّ الأنيس. و(بأثرِ ذلك) وُلِدَ ذلك الكلامُ الحُلْوُ الجميل ثمّ كان لُغَةً لِفرنسة.

«والمرأةُ التي كان المجتمعُ قد نَزَلَ بها إلى حالٍ من التخلّف المُطلق بدأتِ الآنَ تخرُجُ من الظلام لِتقومَ بِقِسْطٍ في الحياة يشتدُّ بُروزاً يوماً بعدَ يوم. لقد نَجَحَتِ المرأةُ في أن تَفْرِضَ قواعدَ الكِياسةِ على ذلك المجتمعِ الراقي ثمّ نَزَلَتْ فيما بعدُ في المَكانةِ الأرفعِ منه.

وها هي ذي مُعْجزة تجري في عالَمِنا: إنّ أرضَ الأزهارِ والأثمار أصبحت أيضاً أرضاً للشُّعراء: لقد نَبَتَ الشُعراء في كلّ بُقعةٍ وأخذوا يَتَقلّبونَ في نعيمِ الحبِّ وشَقائِه فإذا بأشعارِهِمْ تنكشفُ فجأةً عن ثَروةٍ من المعاني وعن ظِلالٍ من التعبير في لَهْجَتِهِمُ العامّيّة: إنّ هذا الشعرَ الأنيسَ الذي كان رسولاً أميناً للحُبِّ الأنيسِ قد أَبْصَرَ النورَ، وها هم أولاء التروبادور[1] مُؤسّسوه وسادَتُه البارعون فيه. إنّ تَفَتُّحَ هذا الشعرِ الغنائيِ ظاهرةٌ من أروعِ الظواهرِ في تاريخِ الآدابِ كلِّها.

(١) بين الباحثين في تاريخ الأدب الغربيّين خلاف في اشتقاق هذه الكلمة : تروبادور. إنّ معظمهم يشتقّها من المصدر اللاتيني : «تروباري Trobare ومعنى تروباري : وجد بمعنى لقي (بعد بحث، أو ملقى أرضاً، أو وقع على شيء ضائع). ولا تتّصل هذه الكلمة بمعنى من تلك المعاني الماديّة. ولكن في اللغة العربية لكلمة «وجد» فوق المعاني المادّية معانيَ معنوية (أحبّ، أبغض، أحسّ). ويوصف بعض الشعر العربي بأنّه شعر وجداني (فيه عاطفة). ولا ريب في أنّ الذين سمّوا شعراء التربادور هذا الإسم الغريب المعني في اللغة اللاتينية قد أخذوا اللفظ اللاتيني ثمّ حمّلوه معنى عربياً كان معروفاً عند العرب في وصف جانب من الشعر (شعر وجداني) ووصف نفر من الشعراء (شعراء وجدانيّون).

فَمِنْ أينَ جاء هذا النَمطُ من التفكير والتعبير، وتلك الظِلالُ من العواطفِ الجديدةِ التي نشرتْ ذلك الجوَّ الأنيسَ الذي بَرَزَ فجأةً في القرنِ الثاني عَشَرَ للميلادِ؟

«يبدو أنّ هذا الشعرَ الأنيسَ يَرْجعُ أُصولُه إلى الشعراء من عرب الأندلس. إنّ الحُجّاجَ والقوّالين (الشعراء الدوّارين) والمعاركَ الحربية، كلُّ هذه وكلُّ أولئك كانوا عَوْناً على انتشارِ هذا النَمَطِ الجديدِ من التعبير.

«والمعروفُ أن غِليامَ صاحبَ بواتيه[1] كان قد اشتركَ في حَمْلةٍ (عسكرية) على الأندلس. ثمّ إنّه كان قد تزوّجَ، في عامِ ١٠٩٤(*)، أرملةَ مَلِكِ أراغونَ التي كانت ابنةَ قُومِسِ طلّوزة[2].

«في القرن الحادي عَشَرَ للميلاد[3] كان في الأندلسِ شعرٌ من الغَزَلِ المُبْكَر. وكان الحَكَمُ الأوّلُ[4] خليفةً في قُرْطُبَةَ، وقدْ كشفَ لنا في أشعارِه عنِ النُبْلِ الذي يَتَجلّى في الخُضوعِ للمحبوب لما قال:

إنّما يحسُنُ التذلُّلُ بالحُرّ إذا كانَ في الهوى مَمْلوكا

«إنّ هذا الحبَّ الجديدَ قد أغْرى غليامَ صاحبَ بواتيه، فكان غليامُ هذا الشاعرَ الأوّلَ الذي جَعَلَ ذلك الشعرَ معروفاً في فرنسة».

(١) غليام التاسع (١٠٧١ ـ ١١٢٧م = ٤٦٥ ـ ٥٢١ هـ) قومس بواتيه ودوق أكويتانية وغاسكونية (منذ ١٠٨٦م) من أقدم الشعراء الذين نظموا في اللغة المحكية في جنوب فرنسة، بقي لنا من آثاره إحدى عشرة قصيدة بعضها في الهزل وبعضها في الغزل الأنيس.

(٢) أراغون = أرغونة (مقاطعة في اسبانية) في الشمال على سفح جبال البرانس، أصبحت مملكة نصرانية صغيرة فكان أوّل ملوكها رميرو الأوّل (١٠٣٥ ـ ١٠٦٣م) ثمّ شانجة الأوّل رميريز (١٠٦٣ ـ ١٠٩٤م). ولم يضح لي كيف تزوّج غليام التاسع، عام ١٠٨٦م، أرملة أحد ملوك أرغونة!.

(٣) القرن الحادي عشر للميلاد (٣٩١ ـ ٤٩٤ هـ).

(٤) الحكم الأوّل أو الحكم الربضي (١٥٤ ـ ٢٠٦ هـ) بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، كان ثالث الأمراء المتوارثين في الأندلس من أشدّ الملوك عزيمة. وقد اشتهر بالأدب فكان خطيباً وشاعراً.

فليس علينا ـ في سبيل إنصافِ حضارتنا وتُراثِنا أن نُعيدَ النظرَ في أحْداثِ تاريخنا ورواياتِ أحداثِ تاريخنا فحَسْبُ، بلْ علينا أيضاً أن نُعيدَ النظرَ في عددٍ كبيرٍ من الأحداثِ الغَرْبية (بالغين المعجمة) الأجنبيةِ التي تَمَسّ تاريخَنا من قُرْبٍ أو من بُعْدٍ. إنّ كثيرين من العرب ومن غيرِ العرب ـ لمّا ضَعُفَ الوازعُ الخُلُقيُّ في نُفوسِهم ـ مَضَوْا يُحرّفونَ في أحداثِ التاريخ ويُبَدّلون حتّى أصبحَ التاريخُ على أقلامِ هؤلاء جميعاً لا يكادُ يُمَثّلُ تَطوُّرَ الحضارةِ الإنسانيةِ (وهذا هُو التاريخُ على الحقيقة)، بلْ أصبح يُمَثّلُ نَزَعاتِ أفرادٍ سياسيّين وجماعاتٍ سياسيّةٍ لِيَرْفَعَ كلٌّ من شأنه بهذينِ التحريفِ والتبديل.

السنّة والشيعة

يحسُن أن يبدأ هذا الفصل بالمدرك اللغويّ لهاتين الكَلِمتين، وسأبدأ بالكتاب الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيْهِ ولا من خلفِه: بالقرآن الكريم.

السُنّة والسُنن:

يَرِدُ لفظُ السنّة في القرآن الكريم بمعنى الطريقة والعادة أو «المَنْهَج الذي تسلُكه الجماعات المختلفة في هذه الأرض». ولا ريبَ في أن الله تعالى هو الذي وضع هذه السُنَنَ فَلَزِمَتْ هذه السننُ عبادَهُ لأنّها قواعدُ اجتماعيةٌ تقربُ ـ لأثرِها في الناس واستمرارِها عليهم ـ من أن تكونَ قوانينَ طبيعيّةً. فمن ذلك كلّه قولُه تعالى في القرآن الكريم:

﴿ ما كان على النبيّ من حَرَجٍ فيما فَرَضَ الله له: سُنّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبلُ. وكان أمرُ الله قَدَراً مقدوراً... سُنّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبلُ. ولن تَجِدَ لسُنّة الله تبديلاً ﴾(٣٣: ٣٨، ٦٢، الأحزاب).

﴿ فهل ينظُرون إلّا سُنّةَ الأوّلين: ولن تَجِدَ لسُنّةِ الله تبديلاً، ولن تَجِدَ لسُنّة الله تحويلاً ﴾(٣٥: ٤٣، فاطر).

﴿ قد خَلَتْ من قَبْلِكم سُنَنٌ، فسِيروا في الأرض وانظُروا كيف كانت عاقبةُ المُكَذّبين (٣: ١٣٦، آل عمران ﴾. ﴿ يريدُ الله لِيُبَيّنَ لكم ويَهْدِيَكُم سُنَنَ الذين من قبلِكُمْ ويتوبَ عليكم. واللهُ عليمٌ حكيم ﴾ (٤: ٢٦، النساء).

الشيعة (جمعها شيع وأشياع):

لِكَلِمَة «شيعةٍ» في القرآن الكريم تَنَوُّعٌ في المعاني أكثر من التنوع الذي نَجِدُه فيه لِكَلِمة «سُنّة». إنها تأتي في معناها العامّ (فريقٍ من الناس)، كما تأتي مخصوصةً بمعنىً اجتماعيٍّ ومعنىً سياسيٍّ ومعنىً دينيّ أيضاً.

﴿ ولقد أرسَلْنا قَبْلَكَ في شِيَعِ الأولين ﴾ (١٥: ١٠، الحجر).

﴿ ودخل المدينةَ على حينِ غَفْلةٍ من أهلِها فوجدَ فيها رَجُلَيْن يقتَتِلان: هذا من شيعتِهِ وهذا من عَدُوّه. فاسْتغاثه الذي مِنْ شِيعته على الذي من عَدُوّه ﴾... (٢٨: ١٥، القصص).

﴿ إنّ فِرْعونَ عَلا في الأرض وجعَلَ أهلَها شِيَعاً: يَسْتَضْعِفُ طائفةً منهم يُذَبّحُ أبناءهم ويَسْتَحْيِي نِساءهم. إنّه كان من المُفْسِدين ﴾ (٢٨: ٤، القصص). قُلْ: هو القادرُ على أن يَبْعَثَ عليكم عذاباً من فوقكم ومن تحتِ أرْجُلِكم أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ. أنظُرْ كيف نُصَرّفُ الآياتِ لقومٍ يفقهون ﴾ (٦: ٥٦، الأنعام).

﴿ إنّ الذين فرّقوا دِينَهم وكانوا شِيَعاً لَسْتَ منهم في شيء. إنّما أمْرُهُم إلى الله، ثمّ يُنَبّئُهُم بما كانوا يفعلون (٦: ١٥٩، الأنعام)... ولا تكونوا من المُشركين: مِن الذين فرّقوا دِينَهم وكانوا شِيَعاً، كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيهِمْ فَرِحون ﴾ (٣٠: ٣٠-٣٢، الروم).

﴿ وحيلَ(١) بينَهم وبينَ ما يشتَهون، كما فُعِلَ بأشياعِهِمْ مِنْ قبلُ. إنّهم كانوا في شَكٍّ مُريب﴾ (٣٤: ٥٤، سبأ). ولقد أهْلَكْنا أشْياعَكم فهل من مُدَّكِرٍ(٢)﴾ (٥٤: ٥١، القمر).

في القاموس:

تلك كانتِ المعاركُ اللغويّةُ التي عبّرتْ عنها هاتانِ الكَلِمَتان (سُنّة وشِيعة) قَبْلَ أنْ تُوجد تانِكَ الحَرَكتانِ في تاريخ الإسلام. فَلْنَرْجِعْ قليلاً إلى القاموس.

السُنّة (بالضمّ وتشديد النون) في القاموس (٤: ٢٣٧): الوجهُ أو دائرته والصورةُ والجَبْهة ثمّ السيرة والطبيعة. و«سُنّة الله» حُكْمُه وأمره ونَهْيه. وسُنّة الأوّلين (في القرآن الكريم) مُعاينةُ العذاب. والسُنّة أيضاً الطريقةُ والنَهْج والوِجهة. ثمّ إنّ السُنّة هي ما رُوِيَ عن رسول الله من قَوْلٍ أو عمل أو تَقْرير من العِبادات والمُعاملات (راجع تاج العروس ٩: ٢٤٤، ومدّ القاموس ٤: ١٤٣٦).

وقد رأى الشريفُ الجُرْجاني -وهو عليُّ بنُ محمّدٍ الحُسيني (ت ٨١٦هـ ١٤٢٣م)- أنْ يجمَعَ هذه المداركَ في سِياقٍ واحدٍ فقال (التعريفات ١٢٧-١٢٨):

«السُنّة في اللغة: الطريقةُ، مَرْضيّةً كانت أو غيرَ مَرْضِية. وفي الشريعة هي الطريقةُ المَسْلوكةُ في الدين من غير افتراضٍ ولا وُجوب. فالسُنّة ما واظبَ

(١) حال فلان بين الشخصين: فصل بينهما (منع أحدهما أن يتّصل بالآخر).
(٢) مدّكر = مذدكر: الذي يتذكّر.

النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم عليها مع التَرْكِ أحياناً. فإن كانتِ المواظبة المذكورة على سبيل العبادة فسُنَنُ الهُدى، وإنْ كانت على سبيل العادة فسُنَنُ الزوائد(١). فسُنّة الهُدى ما تكونُ إقامتُها تكميلاً للدين، وهي التي تتعلّقُ بتَرْكِها كَراهةٌ أو إساءة. وسُنّة الزوائدِ وهي التي أخْذُها هُدىً أي إقامتُها حَسَنَةٌ ولا يتعلّق بتَرْكِها كَراهةٌ أو إساءة، كَسَيْرِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في قِيامه وقُعُوده ولِباسه وأكله(٢)» وفي «كشّاف اصطلاحات الفنون» للتهانويّ (ت ١١٨٥هـ = ١٧٧١م) تفصيلٌ لهذه المدارك مَعَ أمثلةٍ كثيرة (٣: ٧٠٣-٧٠٧).

في القاموس (٣: ٤٧): «شِيعةُ الرجلِ أتباعهُ وأنصاره، والفُرقة على حِدَة. ويَقَعُ على الواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث. وقد غَلَبَ على مَنْ يَتَوَلّى عَلِيّاً وأهلَ بيتهِ حتّى أصبحَ اسْماً لهم خاصّاً وجمعُه أشياعٌ وشِيَع». وفي تاج العروس (٥: ٤٠٥) أيضاً: «كلُّ قومٍ اجتمعوا على أمرٍ فَهُمْ شِيعة. وكذلك الذين يَتْبَعُ بعضُهم بعضاً، وإنْ لم يكونوا كلُّهم على اتّفاقٍ. وهمُ الأولياء، والفرقةُ من الناس على حِدَةٍ، وكلُّ من عاوَنَ إنساناً أو تَحَزَّبَ له فهو له شيعة.

وفي تعريفات الجُرجاني (ص ١٣٥): «الشِيعة هم الذين شايَعوا عَلِيّاً رَضِيَ اللهُ عنه وقالوا إنّه الأمامُ بعدَ رسولِ الله واعتقدوا أن الإمامة لا تخرُجُ عنه وعن أولادِه». وأمّا التَهانويُّ (٣: ٧٦٤) فجَعَلَ الشِيعة فُرقةً من كِبار الفِرق الإسلامية، وهُمُ الذين شايعوا عَلِيّاً وقالوا إنّه الإمام بعدَ رسولِ الله صلّى الله

(١) إذا أدّى الرسول صلّى الله عليه وسلّم عملاً من أعمال العبادة بإطّراد (باستمرار، لم يترك القيام به قط) فهذا العمل يصبح على المسلم واجباً (سنّة مؤكّدة، كصلاة العيد مثلاً). أمّا إذا كان مثل هذا العمل في حياة الرسول اليومية (كطريقة أكله أو مشيه) فيحسن بالمسلم أن يقتدي بها، ولكنّ العمل بها لا يلزم المسلم.
(٢) تقليد رسول الله في أعماله اليومية الاجتماعية.

عليه وسلّم بالنّص الجَليّ أوِ الخَفيّ[١] وأنّهُم اعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرُجُ عنه وعن أولاده. وإن خَرجَتْ فَبظُلمٍ أو بِتَقِيَةٍ منه[٢] أو من أَوْلاده، وهُم اثْنَتانِ وعشرون فُرقة[٣]. . .

بَقِيَ هنالك تَعْريفٌ لا بُدَّ مِنَ الإشارةِ إليه.

حينما يُشار إلى «السُّنّة» لا يجوزُ أن نقولَ: السُنّة أو أهْلُ السُنّة فقطْ (فإنّ الذين نُشير إلَيْهِمْ بقولنا «شِيعةٌ» هم أيضاً يَتَّبِعـون سُنّةَ رَسول الله صلّى الله عليه وسلّم)؛ بل يَجِبُ أن نقولَ: «أهلُ السُنّة والجَماعة». والجماعة هنا مُرادِفَةٌ للكَثْرة (أو الأكثرية، كما نقولُ في التعبير السياسيّ المعاصر). أمّا الشيعة فلقد لَزِمَهُمْ هذا الأسمُ ـ في التاريخ ـ لِتَشَيُّعِهِمْ لعليّ بن أبي طالبٍ ولآلِ بيته، ولأنّهم بَقُوا، في المُجْتَمَعِ الإسلاميّ، أقلَّ عَدَداً. فالتَسْمِيةُ: «سُنّة وشيعة» كانتْ على الحقيقة، وفي مبدأ الأمر، تَسْمِيَةً سِياسيةً: كَثْرةً وقِلّةً (أو أكْثرية وأقلّيّة). **أمّا في المَدرك الحَضاري ـ ثمّ في المدرك الفِقْهي ـ كما سنرى قريباً ـ فلا نستطيع أن نُسَمِّيَ الفريقين أكثريّةً أو أقليةً. ففي الشِعر وفي الخَطابة وفي العِلم والفِكر وفي الفنون المختلفة كالبناء والزُخْرُفِ لا نستطيعُ أن نتكلّمَ على كَثْرةٍ وقِلّةٍ.** إنّ قُصورَ إيرانَ لا تَقِلُّ رَوْعَةً عن قُصورِ الأندَلُسِ. ثمّ إنَّ كُثَيِّرَ

---

(١) النصّ الجلي: الظاهر (الذي يدلّ على معناه المقصود) والنصّ الخفيّ: الغامض (الذي لا يعرف معناه إلا بتأويل).

(٢) التقيّة: التظاهر بخلاف الإعتقاد (خوفاً من ضرر جسيم).

(٣) الفرق بين الفرق ١٤، ١٨، ١٩، ٢٢، ٣٤ وفيها تضارب في عدد الفرق وفي نسبة بعض الفرق في الشيعة إلى بعض: يجمع الإمامية مع الرافضة (١٤، ١٨ راجع ٢٢، ٣٤) ثمّ يجعل الزيدية من الرافضة ويجعل الإمامية مفارقة للزيدية (ص ١٩) ثمّ يقول (ص ١٨ السطر ١٠): «فأما فرق الزيدية وفرق الإمامية فمعدودون في فرق الأمّة». والرافضة فرقة من الزيدية (أتباع زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب) امتحنوا زيد بن عليّ فرأوه يتولىّ أبا بكر وعمر فرفضوه فسمّوا رافضة (تاج العروس ـ الكويت ٨: ١٦٠، راجع القاموس ١: ٢٩٨). وبهذا النظر لا يعدّ الإمامية من الرافضة.

عزّةَ والطِرمّاح والفَرَزْدَق لم يكونوا في الشعر دونَ عُمَرَ بن أبي ربيعةَ وجرير وعُبَيْدِ الله بن قَيْسِ الرُقَيّات في العصر الأموي. وكذلك لم يكُنْ أبو تمّامٍ والمُتنبيّ (فيما قيل) وأبو فراسٍ (على القطع) دون أبي نواسٍ ومُسْلِمِ بنِ الوليدِ والبُحْتَريِّ، في العصر العباسي.

ولكنّ السياسة تَجْري في التاريخ مجاريَ مُختلفةً.

تطوّر هذا الخلاف:

مرّ هذا الخلافُ بين أهل السُنّةِ والجماعةِ من جانبٍ والشيعة من جانبٍ آخر في عددٍ من الأطوار التاريخيّة.

الطورُ الأوّل: الطور السياسيّ

لمّا تُوُفّيَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم، كانَ من المُنْتَظَر ومن المعقول أن يخْلِفَهُ أحدٌ في «سُلطتِه السِياسية» بينَ المُسلمين. وفي كلّ زَمَنٍ وفي كلّ أمّةٍ وجماعةٍ طُموحٌ فَرْدِيّ أو طموح قَوْمِيّ إلى تَوَلّي الحُكْم. والمشهورُ في التاريخ عندَنا (راجع، مثلاً، الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ بيروت ٣: ٣٢٥ وما بعد) أن المسلمين اختلفوا بعد موت الرسول في اختيار خليفة له:

ـ جماعةٌ من الأنصارِ (أهل المدينة) أرادوا أن يُبايعوا لِزَعيمِهِم سعدِبن عُبادة.

ـ وقال آخرونَ من الأنصار: لا نُبايع إلاّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ.

ـ وأرادَ جَماعةٌ أن يُبايعوا أبا بكرٍ. فقال أبو سُفيان (زعيمُ بني أُمَيَّةَ ـ أهلِ مكّة): يا آلَ عبدِ مَنافٍ (يا بني قُريش): فيمَ أبو بكرٍ من أمورِكم؟ ما بالُ

هذا الأمرِ (الحُكم، الخِلافة) في أقلِّ حيٍّ من قُريش؟ وأرادَ أبوسُفْيان ـ أن تكونَ المُبايعة لِعَليٍّ بنِ أبي طالبٍ أو للعَبَّاسِ بنِ عبدِ المُطّلب (والعبّاسُ عمُّ الرسول).

كلّ هذا والرسولُ بَعْدُ مُسَجىً لم يُدْفَنْ.

إنّ هذا الذي حَدَثَ بعدَ وفاةِ رسول الله ـ فيما يتعلّق بالطُموح إلى الحُكم ـ يحدُثُ مثلُه في العادةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وفي كلِّ جماعة.

وطالَ النِزاعُ وخِيفتِ الفِتْنةُ فالقتالُ. قال ابنُ الأثير (٣: ٣٢٥ ـ ٣٢٦):

لمّا اجتمعَ الناس على بَيْعةِ أبي بكرٍ أقبلَ أبوسُفيانَ وهو يقول: إنّي لأرى عَجاجةً (غُباراً ودُخاناً) لا يُطْفِئُها إلاّ دَمٌ. يا آلَ عبدِ مَنافٍ، فيمَ أبو بكر من أموركم؟ أين المُسْتَضْعفانِ؟ أينَ الأذَلاّنِ عليٌّ والعبّاسُ؟ ما بالُ هذا الأمرَ في أقلِّ حيٍّ من قريش؟ ثمّ قال (أبو سفيان) لِعَليٍّ (بن أبي طالب): ابسُطْ يَدَكَ أُبايِعْكَ. فوالله، لئن شِئْتَ لأَمْلأنَّها عليهم خَيْلاً ورَجْلاً. فأبى عليٌّ عليه السلام ثمّ زَجَرَ أبا سُفيانَ وقال له: والله، إنك ما أردتَّ بهذا إلاّ الفِتْنة. وإنّك، والله، طالَما بَغَيْتَ للإسلامِ شرّاً. لا حاجةَ لنا في نَصيحَتِك.

في مثلِ هذه المواقفِ الحَرِجة يضعُفُ عملُ الجَماعات لِتَشَعُّب الآراء وتبرُزُ الحاجةُ إلى العملِ الحازم من الفرد بعدَ الفرد. لقد أدْرَكَ عُمَرُ بنُ الخطّاب حقيقةَ الموقف ورأى فيه وجهين: الانتظارَ حتّى تتّفِقَ الجماعاتُ الكثيرةُ على رأيٍ واحد (وفي هذه الأثناء يمكن أن تَعْرِضَ مفاجآتٌ كثيرة منها الاقتتال) أو الإسراعَ باختيارِ رجلٍ حَسْماً للنزاعِ المُطِلّ ولو لم يكن يُمثّلِ الرَغْبَةَ العامّة)!!.

واختارَ عُمَرُ بنُ الخطّاب الوجهَ الثاني. غير أنه حَرَصَ أيضاً على أن

يكون الرجلُ المُختارُ ذا صفاتٍ لا تُثير عِداء في أحد. من أجل ذلك اختار أن تكون المُبايعةُ لأبي بكرٍ عبدِ الله بنِ أبي قُحافةَ:

* إنّه كان أوّلَ المُسلمين من الرجال (بعدَ خديجةَ زوجِ الرسول وعليِّ بنِ أبي طالب ابنِ عمّهِ، وكان عليٌّ في ذلك الحين يوم جاء الإسلام في نحوِ الثالثةَ عَشْرَةَ من العُمُر ويعيشُ في بيتِ الرسول).

* إنّه كان مُتقدِّماً في السنّ (قد جاوزَ الستين من عُمُره).

* كان **الرسولُ** قد اتّخذه رفيقاً ووزيراً (مُستشاراً) ثمّ سَمّاه «الصِدّيق» لأنّه كان يَثِقُ بكلّ شيء **يقولُه الرسولُ**، حينما بدا لِبَعْضِ الناسِ أن يتوقّفوا في مثلِ ذلك (في حديث الإسراء مثلاً).

* كان أبو بكرٍ رجُلًا عالماً بالأنساب عارفاً بالناس ومعروفاً بالأمانة والإخلاص. وكانتْ له، من أجلِ ذلك كلّه، وجاهةٌ ومكانة.

* ولم يكنْ لأبي بكرٍ ـ وذلك مُهِمٌّ جداً في حَلِّ المشاكلِ السياسية ـ أعداء.

ولم يكنِ الإمامُ عليٌّ في الصِدق والعِلم والأمانة والوَجاهة والمكانة دونَ ذلك. ولكنْ يبدو أنّ عُمَرَ بنَ الخطّاب قد نَظَرَ إلى قَضيّةِ الخلافةِ يومَذاك من جوانبَ هي:

ـ كان عليٌّ يومَذاك في نحوِ الثالثةِ والثلاثين من العُمُر.

ـ كان عليٌّ يرى أن حقّه في الخلافة راجعٌ إلى قرابتهِ من رسولِ الله (إذ هو ابنُ عمِّ الرسولِ وزَوْجُ فاطمةَ بنتِ الرسول). وهنا موضعٌ لملاحظتين:

أُولى تَيْنِك الملاحظتين:

إنّ الشيعةَ يَرْوُونَ الأحاديثَ عنْ رسولِ الله من طريقِ آلِ البيتِ وحدَهم.

أمّا أهلُ السنّةِ والجماعة فَيَرْوُونَ الأحاديث عن رسولِ الله من طريقِ جميعِ المسلمين، سواء أكان هؤلاء مِن آل البيت (من الذين يَرْجِعُون بأنسابهم إلى عليّ بن أبي طالبٍ ونسلِ عليٍّ من فاطمةَ) أو إلى غير آلِ البيت. وللمسلمين مُصْطَلَحٌ في تِبْيَانِ مراتبِ الأحاديث في الصِحة وقواعدُ ليس هذا المكانُ مكاناً لتفصيلها والفصل فيها. ولا شكّ في أن بينَ الشيعة وأهل السّنة والجماعة شيء من الخلاف في ذلك. غيرَ أن الكلامَ على حديث غديرِ خُمّ (بالضمّ) يتعلّق بموضوعنا.

خُمٌّ غديرٌ (شُعْبةٌ من ماء تنفصل من شُعبةٍ أكبرَ) بالجُحْفة (بالضمّ) على ثلاثةِ أميالٍ من مكّةَ (القاموس ٤ : ١٠٩). ولابن خلّكان تعريفٌ ليوم غدير خُمّ قال فيه (وفيات الأعيان ٥ : ٢٣٠ - ٢٣١): . . . قُلْتُ: وهذه اللَّيْلَةُ هِيَ لَيْلَةُ عيدِ الغدير، أعْني ليلةَ الثامنَ عَشَرَ من ذي الحِجّة، وهُوَ غديرُ خُمّ - بضَمّ الخاء وتشديدِ الميم - . ورأيتُ جماعةً كثيرةً يسألون عن هذه الليلةِ متى كانتْ من ذي الحِجّة؟ وهذا المكانُ بين مكّةَ والمدينة، وفيه غديرُ ماء، ويُقال: إنّه غَيْضَةٌ (موضعٌ يكثُرُ فيه الشجرُ) هناك. ولمّا رَجَعَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من مكّة، شرّفها الله، عام حِجّة الوَداع (سنة ١٠ هـ) ووصل إلى هذا المكان وآخى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: عليّ منّي كهارون من موسى. اللهمّ والِ مَنْ والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذُلْ من خذله.

وليس في رواية «حديث خُمّ» هذا خلافٌ، ولكنّ الخلافَ في حَمْلِه على ظاهره من أنّه تِبيانٌ لمكانةِ عليّ بن أبي طالب من رسول الله أو في تأويلِه وبأنّه دليلٌ على إيصاء الرسول لعليّ بالخلافة. قال حَسَنُ الأمينُ (دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ٣ : ١٤٨): «والشيعةُ يعتبرون (يعدّون) هذا الحديثَ الذي يُسمّونه «حديث الغدير» (أنّه) نَصّ من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على استخلافِ عليٍّ عليه السلام بعدَه. وقدِ اتّخذوا من يومِ ١٨ ذي

الحِجّة من كلِّ عامٍ عيداً يحتفلون بذِكراه ويُسمّونه عيدَ الغدير».

والملاحظة الثانية:

نشأ في الإسلام نَظريّاتٌ دُستوريةٌ تتعلّقُ بالخِلافة يهمّنا منها الآن ثلاثٌ (لأنّها أسبقُ من غيرها في الزمن) ولعلّها كلَّها قد وُجِدَتْ عَمَليّاً في مَدى عَصْرِ الخلفاء الراشدين.

النظرية الأولى: النظرية الشيعية:

هذه النظريةُ أقدمُ النظريّات لأنّها بَرَزَتْ يومَ وفاةِ الرسول عندَ الاختلاف في تقديم رجلٍ للخلافة، ويبدو أن عليّاً (كرّمَ الله وجهَه) كان يرى هذا الرأيَ (تولّي الخلافة بِسَبَبٍ من القَرابة) يومَ احتاجَ المسلمون إلى خليفة. ويشرَحُ ابنُ خلدونٍ (المقدّمة، ص١٩٦ وما بعد/٣٤٨ وما بعد) فيقول:

اعلمْ أن «الشيعة لغة» هُمُ الصحبُ والأتباع، ويُطلَقُ في عُرْفِ الفُقهاء والمُتكلّمين[1] من الخَلَف والسَلَف على أتباعِ عليٍّ وبَنيه رَضِيَ الله عنهم. ومذهبُهُم جميعاً مُتّفقين عليه أنّ الإمامةَ ليستْ من المصالح العامّة التي تُفَوَّضُ إلى نَظَرِ الأمّة (ثم) يَتَعَيَّنُ القائمُ بها بتَعْيينهم، بلْ هي رُكْنُ الدين وقاعدةُ الإسلام ولا يجوزُ لِنَبيٍّ إغفالُه[2] ولا تَفْويضه إلى الأمّة، بل يجبُ عليه تَعْيينُ الإمامِ لهم، ويكونُ (الإمامُ) معصوماً من الكبائر والصغائر، وأنّ عليّاً رَضيَ الله عنه هو الذي عَيّنَهُ (رسولُ الله) صَلَواتُ الله وسلامه عليه بنُصوص ينقُلونها . . . وتَنْقَسِمُ هذه النصوصُ عند (الشيعة) إلى جَليّ وخَفيّ. فالجَليّ مثلُ قولِهِ (أي قولِ رسولِ الله): «مَنْ كُنْتُ مولاه فعليٌّ مولاه». (ثمّ)

(١) المتكلّمون هم الذين يبحثون في أصول الدين ويحاولون أن يفسّروا العقائد الإيمانية بالعقل.
(٢) لا يجوز إغفال هذا الركن (وإهماله عند النظر في صحّة الإيمان).

قالوا: «ولم تطّرد[1] هذه الولاية إلّا في عليّ». ولهذا قال عُمَرُ (بن الخطاب): «أصبحتَ (يا عليّ) مولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ». ومنها (من الأدلّة الجَليّة) قولُ رسولِ الله: «أقضاكُم عليٌّ» - ولا مَعْنى للإمامة (أي الخِلافة) إلّا القضاء بأحكامِ الله، وهُوَ المُراد بأُولي الأمرِ الواجبةِ طاعتُهم بقوله: (بقولِ الله تعالى): «أطِيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمرِ منكم[2]»، والمُراد (هنا) الحُكْمُ والقضاء. ولهذا كان حكماً في قضيّة الإمامة يومَ السَقيفة دونَ غيره[3].

ومنها: من الأدلّةِ الجَلية أيضاً قولُه: (قولُ رسولِ الله): «مَنْ يُبايِعُني على رُوحِه وهُوَ وصيّ[4] ووَلِيُّ هذا الأمرِ من بَعْدي»؟ فلم يُبايِعْهُ إلّا عليّ.

ومِنَ الخَفيّ (من الأدلة الخَفيّةِ التي تحتاجُ إلى تأويل) عندَهم بَعْثُ النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم عليّاً لِقراءةِ سورةِ «براءةَ» في المَوْسم[5] حينَ أُنزِلتْ، فإنّه (إنّ رسولَ الله) بَعَثَ بها أوّلاً أبا بكرٍ. ثمّ أُوحِيَ إليه «لِيُبَلِّغْهُ رجُلٌ منك أو مِنْ قومك»، فَبَعَثَ عليّاً لِيكونَ القاريءَ المُبَلِّغَ. قالوا: وهذا يدُلّ على تقديمِ عليٍّ (في الخِلافة). وأيضاً فلم يُعْرَفْ أنّه (أن رسولَ الله) قَدّمَ أحَداً على عليّ[6]. وأمّا أبو بكرٍ وعُمَرُ فقدّم عليهما في غَزاتين[7]: أُسامةَ بنَ زَيْدٍ

(١) أطّرد الأمر: استمرّ على نسقٍ واحد (يمكن أن تكون الولاية لفلان على أمر دون أمر. أمّا ولاية علي ابن أبي طالب فعامّة في كلّ شيء.

(٢) القران الكريم: ٤: ٥٩، سورة النساء.

(٣) حكمًا (في طبعة المطبعة الأدبية) بضمّ فسكون، (وفي طبعة دار الكتاب اللبناني) بفتح ففتح.
- الملموح أن عليّاً كان يوم السقيفة حكمًا (بفتح ففتح) بين الطامحين إلى الخلافة وأنه بايع أبا بكر في ذلك اليوم في رواية من الروايات.

(٤) في الطبعتين: وصيّ ووليّ هذا الأمر من بعدي (لا يستقيم في الإعراب: إذ هنا مضافان إلى مضاف إليه واحد) ويستقيم الإعراب إذا قيل: وصيّي ووليّ هذا الأمر. . .

(٥) سورة براءة هي التاسعة في المصحف. الموسم: زمن الحجّ. (الأيّام العشرة الأولى من شهر ذي الحجّة: آخر الأشهر في السنة القمرية).

(٦) في الجملة نقص: . . . قدّم أحداً على عليّ (في أي الأمور؟). . . الملموح في الغزوات؟ . .

(٧) غزاة (ليست في القاموس) وفي المعجم الوسيط (٢: ٦٥٨) الغزاة الغزو، وهو عمل سنة (بجرّ سنة). والمقصود بالغزاة في النص: الغزوة.

مرّةً وعَمْرَو بنَ العاص مرّة أخرى. وهذه كلُّها أدلّةٌ شاهدةٌ بتَعْيين[1] عليٍّ للخلافة دونَ غيره. فمنها (من هذه الأحاديث عن الرسول) ما هو معروفٌ عندَ الجميع ومنها ما هو (معروفٌ أيضاً ولكنْ) بعيدٌ عن تأويلهم.

ثمّ منهم (مِنَ الشيعة الإمامية) مَنْ يرى أن هذه النصوصَ تدُلّ على تَعْيين عليّ وتَشْخيصه. وكذلك تَنْتَقِلُ (الخِلافةُ) منه إلى مَنْ بعدَه (مِنْ نسلِه). وهؤلاء هُمُ الإماميّة. وهم يَتبرّأون مِنَ الشَيْخين (أبي بكرٍ وعُمَرَ)، إذ لم يُقدّموا عليّاً ويُبايعوه بمُقتضى هذه النصوصِ ويُغْمِضون في إمامتهما[2]. ولا يُلْتَفَتُ إلى نقلِ القَدْحِ فيهما من غُلاتهم، فَهُوَ مردودٌ عِندَنا (عندَ أهلِ السنّة والجماعة) وعندَهم (عندَ الشيعة الإمامية). ومنهم (من الشيعة) من يقولُ: إنّ هذه الأدلّةَ إنّما اقْتَضَتْ تعيينَ عليٍّ بالوصفِ لا بالشخص، والناسُ (عندَ هذا الفريق هم) مُقصّرون (إذْ لم يَضَعُوا الوصفَ مَوْضِعَه، و(لكنهم) لا يَتَبرّأون مِنَ الشَيْخين ولا يُغْمِضون في إمامَتِهما مَعَ قولهم بأنّ عليّاً أفضلُ، ولكنهّم يُجَوّزون إمامةَ المَفْضولِ مَعَ وُجودِ الأفضل.

النظريّة الثانية: نظريّة أهل السنة والجماعة:

يحسُنُ أن نَقْسِمَ هذه النظريةَ، مِنْ حيث الزمنُ، طَوْرَيْن:

الطورَ السابقَ الذي بدأ يومَ السَقيفة (يومَ اجتماعِ المُسْلمين لتقديمِ رجُلٍ يخلُفُ رسولَ الله في المَنْصِب السياسيّ (لا الديني). ولا شكّ في أنّ هذا الطورَ قد نَشَأ (عند أهل السنّة والجماعة) من أمورٍ. من هذه الأمور أنّ أحاديثَ رسولِ الله (المَرْويّة من طُرُقهم، وفي ذلك الزمنِ الباكر: يومَ وَفاةِ

(١) في طبعة دار الكتاب اللبناني: بتعيّن (ومؤدّى المعنيين واحد).

(٢) كذا: في الطبعتين. إقرأ: إذ لم يقدّما (أي الشيخان: أبو بكر وعمر) عليّاً ويبايعاه. . . ويغمضون (أي الشيعة). يغمضون (يحطّون من قدر) إمامتها (خلافتهما = خلافة أبي بكر وعمر).

الرسول) لم تكُنْ تَنُصّ على أمرِ الخلافة. ثمّ إنّهم أخذوا بمبدأ الشورى، وهو مبدأ قديمٌ في الإسلام، جاء في السورة الثانية والأربعين في المُصْحف، وَهِيَ سورةٌ مكّيّة، فقد جاء في آيتِها الثامنةِ والثلاثين: «والذينَ استجابوا لِرَبّهِم وأقاموا الصّلاة، **وأمرُهُم شورى بيْنَهم**. وممّا رَزَقْناهم يُنفقون». ويبدو أن هذا المبدأ كان، مُنذُ ذلك الحين المتقدّمِ في تاريخ الإسلام، مبدأً أساسيّاً في الحياة الإسلامية حتّى أصبحتْ كَلِمة «شُورى» الواردةُ في هذه السورةِ اسماً للسورةِ كلِّها: «سُورةَ الشورى».

ثمّ إذا نَحْنُ دَرسنا تفاصيلَ الأحداثِ يومَ السقيفة (راجع، مثلاً، ابن الأثير ٢: ٣٢٥-٣٣٢) أدركْنا أن الذي حَدَثَ فيها يحدُثُ مِثلُه في كلّ مرّة تحتاجُ جماعةٌ سياسيةٌ إلى تقديم رجُلٍ للرئاسة. لقد كان الذين أصبح اسمُهُمْ، فيما بعدُ، أهلَ السنّة والجماعة يُدْركون أنّهمُ الكَثْرةُ فأرادوا أن يكونَ لَهُمُ الأمرُ من هذا الجانبِ الدُستوريّ فأصبحوا يطلُبون الأمرَ بالإنتخاب، كما نقولُ نحن اليومَ. ونحن لا نزالُ حتى اليومَ، إذا كُنّا في الكَثْرة (الأكثرية) دَعَوْنا إلى الأخْذِ بمبدأ الانتخابِ الحُرّ. أما إذا كُنّا في القِلّة (الأقلّيّة)، فإنّنا حينئذٍ نُطالب بعددٍ من الشروط التي تَجْعَل «امتيازاً» لنا في حِفْظِ الحقوق المكتَسَبةِ من جانبٍ أو من آخَرَ.

ثمّ هُنالك دَوْرٌ لاحقٌ نشأتْ فيه شروطٌ لتولّي الخلافة، وَهِيَ الشروطُ الخمسةُ التي اتّفقَ أهلُ السنّة والجماعة على أربعةٍ منها ثمّ اختلفوا في الشرطِ الخامس. أمّا الشروط الأربعةُ فَهِيَ العِلمُ والعدلُ والكِفاية وسلامةُ الحَواسّ والأعضاء. وأمّا الشرط الخامسُ المُخْتَلَفُ فيه فَهُوَ النَسَبُ القُرَشيّ. ولا أرى أن أتبسّط هنا في شَرْحِ هذه الشروطِ لأنّها مُتأخّرةٌ في النشأة، ثمّ هي مقطوعةُ الصِلة بالنزاعِ السياسي الذي ثارَ يومَ السقيفة.

النظريّة الثالثة: نظريّة الخوارج:

وبينما كان الشِيعةُ وأهلُ السنة والجماعة يُوجبونَ نَصْبَ خليفةٍ ولكن يختلفون في سبيلِ وصولِ الخليفةِ إلى مَنْصِبه، كانَ الخوارجُ لا يُوجبونَ نَصْبَ خليفةٍ، إذ رأوْا أنّ الخليفة إنّما يُنْصَبُ لإمضاء أمور الجماعة (فإذا اتفقتِ الجماعةُ على تسييرِ أمورِها، لم يبق هنالك حاجة إلى نصب رجل مخصوص لذلك).

* * *

ونعودُ إلى حديثِ السقيفة ونتساءلُ:

لماذا كان عُمَرُ بنُ الخطّاب يبذُلُ كلَّ هذه الجهود؟

لا شكّ في أنّه كان يمثّلُ جانباً من الذين كانوا يُريدون أن يكونَ لهم رأي في الخِلافة: مثلَ آلِ هاشمٍ الذين كانوا يُريدون عليَّ بنَ أبي طالبٍ للخلافة وكجماعة من أهل المدينةِ كانوا يريدون سَعْدَ بنَ عُبادةَ للخلافة.

ثمّ زادَ عليهم عُمرُ بنُ الخطّاب في وجوهٍ:

كان يريدُ أن يَحْسِمَ أمراً يُنْذِرُ تَطاوُلُه بشرٍّ مُستطيرٍ من القتال على الحُكْم. ثمّ إنّه كان في الذين لا يَرَوْنَ أن الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم أوْصى بالخِلافة لأحَدٍ. ثمّ كان هو يرى أن أبا بكرٍ، بالإضافة إلى صِفاتهِ الكثيرةِ المحمودة (راجع، فوق ص ١٣٣) كانَ يُمثّلُ كثرةً من الناس (في المدينة على الأقلّ). وفوقَ ذلك فإنّ عُمَرَ بنَ الخطّاب كان لا يزالُ في صفاته هو تلك النجدةُ الحميدةُ التي كانتْ في الجاهلية، والتي عَبّرَ عنها طَرَفَةُ بنُ العَبْدِ في مُعَلّقته:

إذا القومُ قالوا: مَنْ فتىً؟ خِلْتَ أنني   عُنيتُ. فلمْ أكْسَلْ ولم أتَبَلَّدِ.

ولمّا دعا عمَرُ بنُ الخطّاب، في مسجدِ الرسولِ في المدينة، إلى مُبايعةِ أبي بكر بالخلافة، بايعَ الناسُ. ونحنُ لا نستطيعُ أن نقول - من الناحيةِ التاريخية - إلّا أن الناسَ قد بايَعوا لأبي بكرٍ يومَ السَقيفة.

وسلَكَ الناسُ في مُبايعةِ أبي بكرٍ ثلاثةَ مَسالِكَ معروفةً مألوفةً في الحياة السياسية في كلّ مكان:

- إنّ قسماً من الناس يُلَبُّون الدَعْوة السياسية طوعاً وابتداء.

- إنّ قسماً آخرَ من الناس ينتظرون، حتّى إذا رأوْا أنّ جماعةً كبيرةً قد استجابتْ لدعوةٍ استجابوا هم أيضاً لها.

- ثمّ إنّ قسماً ثالثاً من الناس يَظَلّون مُتَوَقّفين لا يَسْتَجيبُون (مدةً قصيرةً أو مدّةً طويلةً أو لا يستجيبون أبداً).

ومثلُ ذلك حدثَ بعدَ مُبايعةِ أبي بكرٍ: أنّ عليّاً كرّم الله وجهَهُ - في جماعة من بني هاشمٍ - ثم الزُبيرَ بنَ العَوّام (ابنَ عمّةِ الرسول) لم يبايعوا - في حديثٍ طويلٍ - إلّا بعدَ سِتّةِ أشهرٍ (بعدَ وفاةِ فاطمةَ، رضي الله عنها). وقيل إنّ هؤلاء جميعاً قد بايعوا في اليومِ الذي بُويعَ فيه أبو بكرٍ في مسجدِ الرسول. إنّ مثلَ هذا الخِلافِ في الآراء معروفٌ في عالَمِ السياسة في كلّ قُطْرٍ وعصرٍ، فلا مجالَ لِحَمْلِ تقدُّم جماعاتٍ من المسلمين إلى بَيْعة أبي بكرٍ ولا تأخّرِ جماعاتٍ عن ذلك قليلاً أو كثيراً على غيرِ المَحْمَلِ المألوفِ في مثلِ تلك الأحوال.

وكذلك لم تُبايعْ قبائلُ كثيرةٌ في شَرْقيّ شِبهِ جزيرةِ العرب وجَنوبيّها فحارَبَهُم أبو بكرٍ سَنَتَيْنِ مُتواليَتَيْن حتّى رَدّهم إلى الطاعة (غيرَ أنّ تفصيلَ تلك

الحربِ التي عُرِفَتْ بحُروب الرِدّة وتعليلَها خارجٌ عن نِطاق هذا الفصل). إلّا أنه لا بُدّ من القول بأنّ حُروبَ الرِدّة كانتْ - من وجهٍ من وُجوهها - حَرْباً على السُلطة المركزية في المدينة فقد قالَ الحُطَيْئَةُ الشاعر، وكانَ مُعاصراً لتلك الحرب:

أطَعْنا رسولَ اللهِ إذ كانَ بَيْنَنا؛   فيا لَعِبادِ الله، ما لأبي بكرِ؟
أيُورِثُها بَكْراً، إذا ماتَ، بعدَه؟   وتلك، لَعَمْرُ الله، قاصمةُ الظهر.

الطور الثاني: الطور الحربي

لقد قضى أبو بكرٍ على حروبِ الرِدّة، ولكنّه لم يَقْضِ على الحرب في سبيلِ الخِلافة. غيرَ أن تلك الحربَ نامتْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً - في خِلافةِ أبي بكرٍ وعُمَرَ - لأنّ أبا بكرٍ وعمرَ كانا من الحزم بحيثُ لم تَنْشَبْ مثلُ تلك الحرب.

ثمّ إنّ أبا لُؤلُؤةَ الفارسيَّ - غُلامَ المُغيرةِ بن شُعْبَةَ - طَعَنَ عمرَ بنَ الخطّاب غِيلةً. فكان:

أوّلَ ما فكّرَ فيه عُمَرُ أنْ يحفَظَ وَحْدَةَ المسلمين من التفرّق. ولم يُمْكِنْ أنْ يعهَدَ عمر إلى أحدٍ بالخلافة كما كان أبو بكر قد عَهِدَ إليه بها. ورأى عمرُ أن أقربَ الناس إلى أن يكونَ أحدُهم خليفةً سِتّةُ نَفَرٍ كانوا يَطْمحون إلى الخلافة أو يُحَدّثون أنْفُسَهم بها. هؤلاء هم: عليُّ بنُ أبي طالبٍ (رأسُ بني هاشم) وعُثمانُ بنُ عفّانَ (كبيرُ البيت الأمويّ) والزُبيرُ بنُ العَوّام (ابْنُ عمّةِ الرسول) وطلحةُ بنُ عُبيدِ الله وعبدُ الرحمن بنُ عَوفٍ (وهما مِن كِبار الصحابة ومن الأجوادِ الكُرماء المشهورين) وسعدُ بن أبي وَقّاصٍ (فاتحُ العِراقِ وفارسَ). وهؤلاء السِتّةُ من العَشْرة المُبَشّرين بالجنّة.

أمر عُمَرُ بنُ الخطّاب أنْ يجتمعَ هؤلاء النفرُ السِتةُ بعدَ مَوْته في «شُورى» وأن يختاروا من بينِهم واحداً للخِلافة. وجعلَ عُمَرُ ابنَه عبدَ الله رقيباً عليهم في

عددٍ من الجُند وأمرهُ ـ إذا هم لم يختاروا واحداً منهم في مَدى ثلاثةِ أيام ـ أن يَقْتُلَهم جميعاً وأنْ يترُكَ الأمرَ شورى للمسلمين يُوَلّون على أنْفُسِهِمُ من شاءوا (إنّ على من يتولّى أمراً أو يطلُبه أنْ يتحمّل تَبِعةَ ذلك الأمر).

لم يكنْ بالإمكانِ أن يُجْمِعَ هؤلاء النفرُ السِتّةُ على عليّ بن أبي طالبٍ، فإنّ ثلاثةً منهم هم عُثمانُ وطلحةُ والزُبيرُ كانوا يُريدون الخِلافة لأنفُسِهم. كان عثمان كبيرَ بني أميّةَ وكان بنو أميّة يَحْرِصون على نَقْلِ الخِلافة إليهم (وذلك حَدَثَ فيما بعد) وكان طلحةُ والزُبيرُ يُريدانِها لِنفْسَيْهما ـ وقد حاربا بعدَ ذلك عليّاً عليها. واختار المجتمعون عُثمانَ بنَ عفانَ للخِلافة. وبعدَ عُثمانَ أجمعَ المسلمون على عليٍّ خليفة. ولم يأتِ خليفةٌ ـ من قَبْلُ ولا مِنْ بعدُ ـ بمثلِ الكَثْرة العَدَديّة التي جاء بها الإمامُ عليٌّ إلى الخِلافة. لقد بايَعَتْهُ وفودٌ من البلادِ الإسلامية اتّفق أنها كانت يومَذاك (يومَ مَقْتَلِ عُثمانَ) في المدينة.

ثمّ كانتْ مَعْرَكةُ الجَمَل (٣٦ هـ = أواخر ٦٥٦م) بينَ الإمام عليٍّ من جانبٍ وطلحةَ والزُبير ـ ومَعَهُما عائشةُ زَوْجُ الرسول ـ من جانبٍ آخرَ. ثمّ كانت مَعْرَكة صِفّين (٣٧هـ = ٦٥٨م) بين أمير المؤمنين عليّ بنِ أبي طالبٍ ووالي الشامِ معاويةَ بن أبي سفيانَ (زعيم أميّةَ في زمنه). ثمّ كانت مأساة كربلاء، فقتل الحسين بن علي في أيام يزيد بن معاوية سنة ٦١هـ (٦٨٠م) ثم كانت بعدَ ذلكَ أيضاً معاركُ كثيرةٌ بينَ آلِ عليٍّ والأمويّينَ، كما كانتْ بعد هذه المعاركِ معاركُ بينَ آلِ عليٍّ والعبّاسيّين. ومَعَ أن هذه المَعاركَ كُلَّها لم يكُنْ له صِلَةٌ بأهلِ السنّة والجماعة من جانبٍ والشيعةِ من جانبٍ آخرَ (على الصعيد المذهبي الفقهيّ)، فإنّها كانتْ ـ على الصعيدِ العاطفي ـ تحزُ في النفوس. لقد كانتْ تلك المعاركُ بأسبابها ونتائجها وبأحْداثها معاركَ سياسيّةً، كما كان النصرُ فيها

سِجالاً. ثمّ كانتْ للشيعةِ دُوَلٌ استطالَ عددٌ منها في التاريخ في المَشْرِق والمَغْرب، ولا أظنُّ أنّه قد مرّتْ حقبةٌ في التاريخ لم يكنْ فيها دولةٌ شيعية، فمن هذه الدُول، مثلاً، دولةُ الأدارسةِ في المَغْرِب (١٧٢ ـ ٣١٣هـ) ودولةُ الأئمةِ الزيدية في اليمن (٢٤٦هـ وما بعد) ودولةُ العلويّين بطَبَرَسْتانَ (٢٥٠ ـ ٤٢٥ هـ) ودولة بني حَمْدانَ في حَلَبَ (٣١٧ ـ ٤٠٦ هـ) ودولة بني بُوَيْهِ (٣٢٠ ـ ٤٥٠ هـ) ودولةُ الصُلَيحيّين باليمن (٤٢٩ ـ ٤٩٢ هـ) ودولة السادة العلويّين باليمن ٤٥٠ ـ ٦٥٠ هـ) ودولة الجلائريّين بفارس (٧٣٦ ـ ٨٣٠ هـ) ودولة السادة الحسينيين بما زندران (٧٦٠ ـ ١٠١٠ هـ) والدولة الصَفَويّة بإيران (٩٠٧ ـ ١١٦٦ هـ) والدولة الفهلوية: رضا شاه وابنه (١٣٤٣ ـ ١٣٩٨ هـ) والجمهوريّة الإسلامية في إيران (١٣٩٨ هـ).

هذا، ولم أعدّ الدويلاتِ الصغيرةَ أو القليلةَ البقاء، ولا عَدَدتُ الدُوَلَ الإسماعيلية كالدولة الفاطمية (بدأت في المغرب ٢٩٦ هـ) والقرامطة في البحرين والباطنية في آلموت (فارس) والشام، وكانت نهاية دولتهم بعدَ ٦٦٠ هـ (لأنّ هؤلاء إسماعيلية متطرّفون وأنا لم أعد إلّا الإمامية والزيدية فقط). وكذلك لم أُعِدَّ العلويّين الذين لم يتمذهبوا بالمذهب الجعفري الإمامي كأشراف مكة والمدينة وأشراف مَرّاكُش.

ولقد سَرَدتُ كلّ هذه الدول حتّى أقولَ إنّ هذا النزاعَ كان سِياسيّاً محضاً وكان الظفرُ في كلّ مَعْرَكةٍ أو حَرَكةٍ بجانب العَصبية القويّة، مرّةً إلى هذا الجانب ومرّةً إلى ذلك الجانب. ولعلّ أفضلَ ما يَسْتَشْهِدُ به المؤرّخُ (هنا: في عَمَلِ العصبية) قولُ ابنِ خَلْدونٍ (ت ٨٠٨هـ = ١٤٠٦م) في مأساة كربلاء.

قال ابنُ خلدونِ (المقدّمة، ص ٢١٦ ـ ٢١٧/٣٨٢ ـ ٣٨٤):

«وأما الحُسينُ فإنّه لمّا ظَهَرَ فِسقُ يزيدَ عندَ الكافّةِ من أهلِ عصره، بَعَثَتْ شِيعةُ أهلِ البيتِ بالكوفة للحُسين أنْ يأتِيَهُمْ فيقوموا بأمره. فرأى الحُسينُ أنّ الخروجَ على يزيدَ مُتَعَيِّنٌ (واجبٌ ظاهرٌ) من أجلِ فِسْقِه، لا سيّما مَنْ له القُدرةُ على ذلك؛ وظَنَّها (الحُسين) من نفسه بأهْلِيَّتِه وشَوْكته (قُوَّته). فأمّا الأهليّةُ فكانتْ كما ظنّ وزيادةً. وأمّا الشَّوْكة فَغَلِطَ ـ يَرْحَمُهُ اللهُ ـ فيها (ذلك)لأنّ عَصَبيّةَ مُضَرَ كانتْ في قُرَيشٍ، وعُصبيّة قريشٍ عبدِ مَنافَ، وعصبيةَ عبدِ مَنافٍ إنّما كانتْ في بني أُمَيَّةَ، تَعْرِفُ لهم قُرَيشٌ وسائرُ الناس ولا يُنْكِرونَه. . . فقدْ تَبَيَّنَ لكَ غَلَطُ الحُسين، **إلاّ أنّه في أمرِدُنيويٍّ لا يَضُرُّه الغَلَطُ فيه. وأمّا الحُكمُ الشرعيُّ فلم يَغْلَطْ فيه**، لأنّه مَنوطٌ بظنّه؛ وظنُّه كان القدرةَ على ذلك. **فلا يجوزُ قِتالُ الحُسين مَعَ يزيدَ ولا لِيَزيدَ** (لا يجوزُ لأحدٍ أن يَقِفَ إلى جانب يزيدَ لِيُقاتِلَ الحُسينَ، ولا يجوزُ ليزيدَ أن يُقاتِلَ الحسينَ)، بل هِيَ من فِعلاته (فِعْلاتِ يَزيدَ) المُؤَكِّدَةِ لِفِسْقِه. والحُسين فيها شهيدٌ مُثابٌ، وهو على حقٍ واجتهادٍ. . . وقد غَلِطَ القاضي أبو بكر بن العربيّ المالكيّ في هذا فقال في كِتابه الذي سمّاه «بالعواصم والقواصم» ما مَعناهُ أنّ الحُسينَ قُتِلَ بشَرْعِ جَدّه؛ وهو غَلَطٌ حَمَلَتْهُ عليه الغفلةُ عن اشتراطِ الإمامِ العادل. **ومَنْ أعْدَلُ مِنَ الحُسينِ في زمانه في إمامته وَعَدالته في قِتالِ أهلِ الآراء؟**

الطور الثالث: الطور الفقهي

نشأ في الإسلام أصحاب اجتهاد في تيسير العمل بالأحكام الشرعية على الناس في أماكنهم المختلفة، في المعاملات في الأكثر وفي العبادات في الأقلّ. فإذا نحن نظرنا في المذاهب الفقهية عندَ أهل السنّة والجماعة وفي المذهب الجَعْفريّ عند الشيعة لم نجد بينَها اختلافاً كبيراً، بل لم نَجِدْ ـ في

كثيرٍ من الأحيان ـ بين المذهب الجعفريّ ومذاهب السنّة أكثرَ مِمّا نَجِدُ في العادة بين مَذْهَبَيْن من مذاهبِ أهلِ السنّة والجماعة. وأريدُ أن أتناول بِضعةَ أمثلةٍ بقَدْرِ ما يسمح علمي بتلك المذاهب.

صلاة الجمعة:

صلاة الجُمُعة رَكْعتانِ تُصَلَّيانِ جماعةً بَدَلَ صلاةِ الظُهر، وتُقامان عادةً في المِصْر (البلدةِ الكبيرة: عاصمةِ الدولةِ أو عاصمةِ المقاطعة) في المَسْجد الجامع. ويكونُ مَعَ هاتين الـركْعتين خُطبتان للإمام (الخليفة) أو لِمَنْ ينتدبه الإمامُ. ويُشْتَرَطُ في إقامة صلاةِ الجُمُعة أن يجتمعَ لها عددٌ من أهل البلد أو من المُقيمين في البلد إقامةً طويلة. والغايةُ من صلاة الجُمُعَة أن تكون مؤتمراً أُسبوعيّاً يتداولُ فيه المُصلّون أمورَ بَلَدِهم وأمورَ سائرِ البلادِ الإسلامية بالقَـدْر المُستطاع.

ـ وأهلُ السُنّة والجَماعة يُقيمون الجُمُعة إلى اليوم مَعَ أنها فَقَدَتْ شَرْطَ «الإمام» (الخليفة المنصوب) فليس في العالم الإسلاميّ اليومَ خليفةٌ بمعناهُ العامّ ولا حاكمٌ يقوم مَقامَ الخليفةِ. **ولكنّ أهلَ السُنّة والجماعة لا يزالون يَرَوْنَ، على كلّ حالٍ، أنّ صلاةَ الجُمُعة تُؤدّي خِدمةً اجتماعيةً للمسلمين. وتلك الخِدمة اليومَ قاصرةٌ جدّاً بلا ريب.**

ـ أمّا الشيعة فقد تَرَكوا صلاةَ الجُمُعة بعدَ مأساةِ كربلاء لِفُقْدان «الإمام العادل». وقد قالَ جَماعة من الشيعة إنّ الجُمُعة تقام ـ مَعَ فُقْدانِ الإمامِ العادل ـ إذا كان في الزمانِ والمكانِ فقيهٌ عَدْلٌ (عادلٌ)، كما قال جماعة من الأحناف إنّ الجُمُعة تسقُطُ (وتُصَلّى الظهرُ) إذا لم يكن في الزمن والمكان إمامٌ (خليفةٌ) أو نائبٌ للإمام.

الإفطار في المرض والسفر :

في القرآن الكريم : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا، كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِيامُ كما كُتِبَ على الذين من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تتّقون : أياماً مَعْدوداتٍ . فَمَنْ كان منكم مريضاً أو على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَرَ ﴾ (٢ : ١٨٤ - ١٨٥) . والمفهوم هنا بالمرضِ المرضُ الشديدُ وبالسفرِ السفرُ الشاقّ . ولقد وَضَعَ فقهاء أهلِ السنّة والجماعة وفقهاء الشِيعة للمرضِ الشديدِ وللسفر الشاق شُروطاً .

- أمّا أهلُ السنّة والجماعة فعدّوا الإفطار في السفر «رُخْصةً» (تسهيلاً) على المريض أو المسافر . فإذا وَجَدَ أحدُهُما قُدرةً في نفسِه أو راحةً في سفره صامَ .

- أمّا عندَ الشِيعة فلا يجوزُ الصوم في المرض (لأن الآية الكريمةَ أمرٌ بالإفطار في حالة المرض وفي حالة السفر) . وتقديرُ المرضِ وحالتِه (عندَ الشيعة وعندَ أهلِ السُنّة والجماعة) راجعٌ إلى تقدير الشخص نفسِه . فإذا وَجَدَ المريضانِ أنّ الصوم سيضرّ بهما أفْطَرا . وإذا لم يَشْعُر الشخصانِ أنّ بهما مرضاً أو لم يَغْلِبْ ذلك على ظَنِّهِما لم يَجُزْ لهما أن يُفْطِرا .

الصلاة على الشهيد :

الشهيدُ، في الإسلام، هو المسلمُ الذي يذهب إلى الجهاد في سبيل إعلاءِ كَلِمَة الله ثمّ يُقتَلُ في مَعْركةٍ إيماناً واحتساباً (راضياً مطمئن النفس) ومُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرٍ . هذا الشهيدُ لا يُغَسَّلُ ولا يُكَفَّنُ ولا يُصَلّىٰ عليه (لأن الدَمَ في ثيابِه وعلى جسمه «شهادةٌ» له) .

- أمّا في المذاهبِ الشافعيةِ والمالكية والحَنْبلية (من مذاهبِ أهلِ السُنة

والجماعة) فلا يصلّى على الشهيد . وأما في المذهبِ الجَعْفري (عند الشيعةِ الإماميةِ) ثمّ في المذهب الحَنَفي (من مذاهب أهلِ السُنّةِ والجماعة) فإنه يُصلّى عليه كغيره من الأموات .

في الإرث :

إذا كان للمَيْتِ صَبِيٌّ فلا ينشأُ خِلاف - بينَ الشِيعة وأهلِ السُنّة والجماعة - فيما يتعلّق بقِسمة التركَة . أمّا إذا لم يكنْ له صبيٌّ أو لم يكن له نَسْلٌ قطُّ أو كان له ابنةٌ واحدةٌ أو بنتانِ أو أكثر ، فإنّ الخِلاف يبرُز حينئذٍ بينَ أهلِ المذهبِ الجَعفريّ وأهلِ المذاهب السُنيّة .

لِنَأْخُذ مَثَلاً واحداً خاصّاً حتى نَستَطيعَ أن نَعْرِضَ المُشكلةَ عَرْضاً واضحاً : إذا تُوُفِّيَ رجلٌ وتَرَكَ بِنْتاً واحدةً أو بِنْتَيْن أو أكثر، فإنّ جميعَ التركَة (في المذهب الجعفريّ) تذهَبُ (بعدَ استيفاء أنْصِبَةِ أصحاب الفُروض : الأبَوَيْن والزَوْج) إلى البنتِ الواحدةِ أو البِنْتين أوِ البنات الكثيرات .

أمّا في مذاهب أهل السنّة فإنّ البنتَ الواحدة تحوزُ نِصفَ التَركة ؛ وأمّا البنتانِ فتحوزان ثُلُثَي التَركة . وكذلك البناتُ فوقَ الاثنين (ثلاثاً أو أربعاً أو أكثَر) فإنهنّ يَحُزْنَ ثُلُثَيِ التَركة فقط . ثمّ يذهب المتبقّي من التَركة إلى العَصَبَةِ (الأقارب من جهة الأب) ثمَّ إلى ذَوي الأرحام (الأقارب من جهةِ الأم كالخالِ أو من جهةِ الأبِ في غير الذكور كابن الأُخت) على تفصيلٍ معروفٍ في مكانه .

والخلاف في هذه القَضيّة (تَحجُبُ البنتُ من غير أخٍ مَعَها الإرثَ عن إخْوَةِ الأب أو الأعمام ، كما يَرى المذهبُ الجعفريّ ، أو لا تَحْجبهم كما ترى المذاهب السنيّة) راجعٌ إلى الاجتهادِ في معنى «الولد» (راجع القرآن الكريم

٤ : ١١ - ١٢، سورة النساء): أُيْطْلَقُ «الولد» على الصَبي والبنتِ معاً (كما يُفْهَمُ مِنَ اجتهادِ أهلِ السنّةِ والجماعة) أو على «الصبيّ» وحْدَهُ (كما يُفْهَمَ مِنَ اجتهادِ الشيعة).

هذا الخلافُ في الاجتهاد أدّى إلى الخِلافِ في قانونِ التوريثِ عند الجماعتين.

الولاية والعصمة:

مرّ معنا الكلامُ على الـولاية فيما يتعلّقُ بالخِلافة. أمّا هنا فإنّ الكلامَ على الوَلاية يتعلّقُ بلَفْظِ الشهادتين: «أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ، وأشهدُ أنّ محمّداً رسولُ الله». هذا اللفظ وَحْدَهُ هو اللفظ الشرعي عند أهلِ السُنّة والجماعة. أمّا عند الشِيعة فاللفظ هو: «أشْهدُ أن لا إلَهَ إلّا اللهُ، وأن محمّداً رسولُ الله، وأنّ عليّاً بالحقّ وَلِيُّ الله» (والفقرة الأخيرة عندهم مستحبة)[1].

وكذلك يرى أهلُ السنّة والجماعة أنْ لا عِصمةَ للبشر. وجرى الاختلاف في نِسْبَةِ العِصمة إلى الأنبياء والملائكة (راجع التهانوي ٤ : ١٠٤٧ - ١٠٤٨). أمّا عند الشيعة فإنّ رسول الله وابنته فاطمةَ والأئمّة الاثْنَيْ عَشَرَ معصومون كلُّهم. ومعنى العِصمة هنا «الكمال في الصِفات والسُلوك». إنّ المعصوم لا يصدُرُ منه ذنبٌ، كبيراً كان ذلك الذنبُ أو صغيراً، ولا يصدُرُ منه تبليغٌ ولا قولٌ على غيرِ

(١) لعل تلك الإضافة «وإن علياً بالحق ولي الله» كانت ردّ فعل على ما كان الأمويّون الأولون قد أمروا به من سب علي (كرم الله وجهه) إثر خطبة الجمعة حتى أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بمنع هذا السبّ وجعل مكانه قراءة الآية الكريمة: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان. .» الآية. ولا تزال هذه الآية تقرأ في آخر خطبة الجمعة إلى يومنا هذا. - ومعنى السبّ أو اللعن (هنا): الطعن في استحقاق عليّ للخلافة.

وجهِ الحقّ. ويرى جماعاتٌ من المسلمين أن الأنبياء والملائكةَ أيضاً يجري عليهم أشياءُ من السَهْو أو النِسيانِ أو الخطأ (بلا قصدٍ) ومن الجهلِ بالأمور التي لا تدخُلُ عادةً في اختصاص فردٍ من الأفراد.

هذانِ خِلافانِ في الوَلاية (بالمعنى المقصودِ هنا) وفي العِصمة (المتعلّقة بالأنبياء وبالملائكةِ) لا حاجةَ إلى التبسُّطِ فيهما هنا لأنهما خِلافانِ انقطعا بارتفاعِ النُبُوّة (بعدَ محمدٍ رسولِ الله خاتَمِ النَبِيّين وبوقوفِ الإمامة (عند الشيعة) بغِيابِ الإمامِ الثاني عَشَرَ محمّدٍ المَهْديّ المُنْتَظَرِ الذي غابَ سَنَةَ ٢٧٥ للهجرة (٨٨٨م).

خرافة العبّاسة أخت الرشيد

قال أبو جعفرٍ محمّدُ بنُ جَريرٍ الطبريّ (ت ٣١٠ ه=٩٢٣م).

(تاريخ الرسل والملوك ـ ليدن ٣: ٦٧٦ـ٦٧٧):

وقد حدّثني أحمدُ بن زهير ـ أحسَبه عن عمّه زاهرِ بن حرب ـ أن سبب هلاك جعفرٍ والبرامكة أن الرشيد كان لا يَصْبِر عن[1] جعفرٍ وعن أخته عَباسَة بنتِ المَهديّ، وكان يُحْضِرُهما إذا جلس للشُرب[2]، وذلك بعد أن أعلم جعفراً قِلّة صبره عنه وعنها. وقال لجعفرٍ: أُزَوِّجُكَها لِيَحِلَّ لك النظر إليها إذا أحْضَرْتُها مجلسي. وتقدّم إليه ألاّ يَمَسَّها ولا يكونَ منه شيء مما يكونُ للرجل إلى زَوْجته. فزوّجَها منه على ذلك. فكان يُحْضِرُهما مَجْلِسَه إذا جلس للشرب. ثمّ يقومُ[3] عن مجلسه فيثملان من الشراب ـ وهما شابان ـ فيقوم إليها جعفر فيُجامعها. فحملت منه وولدت غلاماً، فخافت على نفسها من الرشيد إنْ عَلِمَ بذلك. فوجّهت بالمولود معَ حواضنَ له من مماليكها إلى مكة.

فلم يَزَلِ الأمر مستوراً عن هارونَ حتى وقع بينَ عبّاسة وبينَ بعض

(١) لا يصير عن الاجتماع بجعفر. . .
(٢) لشرب الخمر.
(٣) ينهض ويغادر المجلس.

جواريها شرّ فأنْهَتْ أمْرَها وأمرَ الصبي إلى الرشيد وأخبرته بمكانه ومَعَ مَنْ هو مِنْ جواريها وما مَعَه من الحُليِّ الذي كانت زيّنَتْه به أُمُّه. فلمّا حجّ هارون هذه الحِجّة[1] أرسل إلى الموضع ـ الذي كانتِ الجارية أخبرتْه أن الصبيّ به ـ مَنْ يأتيه بالصبي وبمن مَعَه من حواضنه. فلما أُحْضِروا سأل اللواتيَ مَعَهنّ الصبي. فأخْبَرْنَه بمِثل القِصة التي أخبرَتْه بها الرافعةُ[2] على عبّاسة. فأراد ـ فيما زُعِمَ ـ قتلَ الصبي ثم تَحَوَّب[3] من ذلك.

ـ قال أبو الحسنِ عليُّ بنُ الحسين المسعوديُّ (ت ٣٤٦هـ=٩٥٦م).

(مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ باريس ٦: ٦: ٣٨٧ـ٣٩٤):

. . . قال الرشيد لجعفر بن يحيى: ويْحَكَ، يا جعفرُ، إنه ليس في الأرض طَلْعةٌ[4] أنا بها آنَسُ وإليها أمْيَلُ وبها أشدُّ استمتاعاً وأُنْساً مني برُؤيتك. وإنّ لعباسةَ أُختي مِني مَوْقِعاً ليس بدون ذلك[5]. وقد نظرتُ في أمري مَعَكما فوجدتُني لا أصْبِرُ عنك ولا عنها[6]، ورأيتُني ضائعَ الحظّ ناقصَ السرور منك يومَ أكون مَعَها. وكذلك حكمي منها يوم أكونُ مَعَك دونها. وقد رأيت شيئاً يجمع لي السرورَ وتتكاثف لي به اللّذة والأُنس. فقال: وفّقك الله، يا أميرَ المؤمنين، وعزم لك على الرُّشد في أمورك كلّها. فقال (الرشيد): قد زَوَّجْتُكَها تزويجاً يَحِلّ لك به مُراوَحَتُها[7] والنظرُ إليها والاجتماعُ وإيّاها في

(١) من سنة ١٧٧ هـ = ٧٩٣م).
(٢) الرافعة على عبّاسة: الجارية التي رفعت الخبر إلى الرشيد (أخبرت الرشيد بالخبر).
(٣) تحوّب: تحرّج (خاف) = وجد في ذلك حوباً (بالضمّ: ذنباً) أو حرجاً (بفتح ففتح: ضيقاً أو ذنباً).
(٤) الطلعة (بالفتح): الوجه.
(٥) ليس بدون (أقل من) ذلك. موقعها (في قلبي): محبّتي لها كموقعك من قلبي.
(٦) راجع الحاشية ذات الرقم ١.
(٧) راوح فلان فلاناً: ذهب إليه في الصباح والمساء.

مجلس أنا مَعَكما فيه، لا سوى ذلك. فزوّجه بعد امتناع من جعفرٍ في ذلك، وأَشْهَدَ له من حَضَرَه من خَدَمِهِ وخاصةِ مواليه، وأخذ عليه عهدَ الله ومِيثاقه وغليظَ أيْمانه أنّه لا يُجالسها ولا يخلو معها ولا يُظِلّه سقفُ بيتٍ إلاّ وهارُون ثالثُهما. فحلف له جعفرٌ على ذلك وَرَضِيَ به وألزمه نفسَه. وكانوا يجتمعون على هذه الحال، وجعفرٌ في ذلك كلّه صارفٌ بَصَرَه عنها مُزْوَرٌّ بوجهه هيبةٌ للرشيد ووفاء بعهده وأيْمانه على قَدْرِ ما وافقه الرشيد عليه.

فكتبتِ (العبّاسة) إليه (أي: إلى جعفرٍ) في ذلك. فردّ رسولَها وشتمه وتهدّده. فأعادتْ. فأعادَ جعفرٌ لمثل ذلك[1]. فلمّا استحكم يأسُها منه قَصَدتْ لأمّه -ولم تكن بالحازمة ولا الجَزْلة[2]- فاستمالتها بالهدايا والألطاف[3] ونفيس الجواهر وكثير الأموال وما أشْبَهَ ذلك من ألطاف الملوك، حتّى إذا علمتِ (العبّاسة) أنّها (أي: أمّ جعفرٍ) لها في الطاعة كالأمَة[4] وفي النصيحة والإشفاق كالأم، ألْقَتْ إليها طَرَفاً[5] من الأمر الذي تريده وأعلمتها ما لها في ذلك من حميدِ العاقبة وما لابنها من الفخر بمصاهرتها أميرَ المؤمنين. (ثمّ) أوْهَمَتْها أن هذا الأمر إذا وقع كان به أمانُها وأمانُ ولدها من زَوال النِعمة وسقوط المرتبة. فاستجابتْ لها أمّ جعفر ووعدتها إعمالَ الحيلة في ذلك، وأنّها ستُلطف[6] لها حتّى تجمع بينهما.

فأقبلتْ (أمّ جعفر) على جعفر يوماً فقالتْ له: يا بُنَيَّ، قد وُصِفَتْ لي وصيفةٌ في بعض القصور من تربية الملوك قد بلغتْ من الأدب والمعرفة

(١) فأعاد: (إقرأ: فعاد) جعفر لمثل ذلك: ردّ رسول العبّاسة وشتمه...
(٢) الجزل: ذو الرأي الجيّد المصيب.
(٣) الألطاف جمع لطف (بفتح ففتح): الشيء النفيس من طعام وشراب وغيرهما.
(٤) الأمة: الجارية، الخادمة، المطيعة.
(٥) طرفاً: جانباً، قليلاً.
(٦) ألطف في القول: تكلّم كلاماً لطيفاً (أشار إلى غايته إشارة رقيقة).

والظَرفُ والحلاوة مَعَ الجمال الرائع والقدّ البارع والخِصال المحمودة ما لم يُرَ مِثْلُه. وقد عزمتُ على شرائها لك، وقد قَرُبَ الأمر بيني وبين مالِكِها. فاستقبلَ جعفرٌ كلامَها بالقَبول، وعلّقت بذلك قلبه[1]، وتطلّعت إليه نفسه. وجعلتْ (أمُّه) تُمْهله حتّى اشتدّ شوقُه وقويت شهوتُه[2]، وهُوَ في ذلك مُلِحٌّ عليها بالتحريك والاقتضاء. فلمّا عَلِمت أنّه قد عَجَزَ عن الصبر واشتدّ به القلق، قالتْ له: أنا مُهْدِيَتُها[3] إليكَ ليلةَ كذا. وبعثت إلى العبّاسة فأعلمتها بذلك. فتأهبت (العبّاسة) بمِثْلِ ما تتأهّب به مِثْلُها[4]، وصارتْ إليها في تلك الليلة.

فانصرف جعفرٌ في تلك الليلة من عند الرشيد، وقد بَقِيَ في نفسِه من الشراب فَضلةٌ لِما قد عزم عليه. فدخل منزله وسأل عن الجارية، فخُبِّر بمكانها. فأُدْخِلَتِ (العبّاسة) على فتىً سكرانَ لم يكنْ بصورتها عالماً ولا بخِلْقتها عارفاً. فقام إليها فواقعها. فلمّا قضى حاجته منها، قالت له: كيف رأيتَ حِيَلَ بنات الملوك؟ قال: وأيُّ بناتِ الملوك تَعْنِينَ؟ -وهُوَ يرى أنّها من بعضِ بناتِ الروم- فقالتْ له: أنا مولاتُك العبّاسةُ بنتُ المَهْدِيّ. فوثب فَزِعاً قد زال عنه سُكرُه ورجَعَ إليه عقلُه، فأقبلَ على أُمّه فقال: لقد بِعْتِني بالثمن الخسيس وحَمَلْتِني على المركب الوَعْر[5]. فانظري إلى ما تؤول إليه حالي[6].

وانصرفتِ العبّاسة مشتملةً على حَمْلٍ[7] ثمّ وَلَدتْ له غُلاماً فوكّلتْ به

(١) جعلت قلبه يتعلّق بها (بالعبّاسة).
(٢) في الأصل: شوهته.
(٣) أهدى المرأة إلى الرجل: زفّها إليه (أرسلها لتكون له زوجاً).
(٤) استعدّت العباسة كما تستعد كل امرأة لليلة عرسها.
(٥) الوعر: الخشن، الصعب.
(٦) تؤول (ترجع) إليه حالي: ما سيكون من أمري، ما يكون نتيجة ذلك.
(٧) حمل: جنين (في الرحم).

خادماً من خَدَمِها يقال له رياشٌ وحاضنةً لها تُسمّى بَرّة. فلمّا خافَتْ ظُهورَ الخبرِ وانتشارَه وَجّهتِ الصبيَّ إلى مكّةَ مَعَ الخادمين وأمرتهما بتربيته.

وكانتْ زُبيدة... زَوْجُ الرشيدِ مِنَ الرشيدِ بالمنزلةِ التي لا يَتَقَدّمُها أحدٌ من نُظرائها. وكان يَحْيى بنُ خالدٍ (وزيرُ الرشيد ووالدُ جعفرِ البرمكيّ) يتفقدُ أمرَ حُرَمِ[1] الرشيد ويمنَعُهنّ من خِدْمَةِ الخَدَمِ[2]. فشكتْ ذلك زُبيدةُ إلى الرشيد. فقال ليحيى: ما بالُ (زبيدة) تشكوك؟ فقال (يحيى): يا أميرَ المؤمنين، أمُتَّهَمٌ أنا في حُرَمِكَ وتدبيرِ قَصْرِك عندك؟ فقال (الرشيد): لا، والله. قال (يحيى): فلا تَقْبَلْ قولَها فِيّ. قال الرشيد: فلستُ أُعاوِدُكَ[3].

فازدادَ يحيى (لزبيدةَ) منعاً وعليها غِلظة. وكان يأمُرُ بإقفال أبوابِ الحُرَمِ بالليل ويمضي بالمفاتيح إلى منزله.

فبلغ ذلك من (زبيدة) كلَّ مبلغ. فدخلتْ ذاتَ يومٍ على الرشيد فقالتْ: يا أميرَ المؤمنين، ما يَحْمِلُ يحيى على ما لا يزال يفعَلُه بي من مَنْعِه إيّايَ من خَدَمي ووَضْعِه إيّاي في غيرِ موضعي؟ فقال لها الرشيد: يحيى عندي غيرُ مُتّهمٍ في حُرَمي. فقالت: لو كان كذلك لَحَفِظَ ابْنَه ممّا ارتَكَبَه. قال (الرشيد): ما ذلك؟ فخَبَّرَتْه (زُبيدةُ) بالخبرِ وقَصّتْ عليه قِصّةَ العبّاسةِ وجعفر.

فَسُقِطَ في يَدَي[4] (الرشيد) وقال (لزبيدة): هلْ لك على ذلك من دليلٍ أو شاهد؟ قالت: وأيُّ دليل أدلُّ من الولد. قال: وأين الولدُ؟ قالت: قد كان ها هنا، فلمّا خافتِ (العبّاسة) ظهورَ أمرها وجّهته إلى مَكّة. قال الرشيد:

(١) الحرمة: المرأة، الزوجة.
(٢) يمنعهنّ من خدمة الخدم: لا يسمح للخدم (العاديّين) أو يقضوا شيئاً من حاجاتهنّ.
(٣) لست أعاودك: لن أعود إلى مثل هذه المسألة (العتاب).
(٤) سقط في يده: حار، لم يدر ما يجب أن يفعل.

أفَيَعْلَمُ ذلك أحدٌ غيرُكِ؟ قالت: ما في قصرِك جاريةٌ إلّا وقد عَلِمَتْ به.

فأمسكَ (الرشيد) عن ذلك، وطَوى عليه كَشْحاً[1] (ثمّ) أظهرَ أنّه يُريد الحَجّ. فخرج هو وجعفرُ (البرمكيّ). وعَلِمَتِ العبّاسةُ بذلك) فكتبتْ إلى الخادمِ والحاضنة أن يخرُجا بالصبيّ إلى اليمن. فلمّا وَصلَ الرشيدُ إلى مكةَ وَكَّلَ من يَثِقُ به بالفَحْص عن أمرِ الصبيّ والداية[2] والخادم. فوجد (الرشيد) الأمرَ صحيحاً...

- قال عزُّ الدين أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمّدِ بن الأثير (ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ م)

(الكامل في التاريخ ٦: ١٧٥):

إنّ (هرون) الرشيد كان لا يَصْبِرُ عن جعفرٍ وعن أُخته عباسةَ بنت المَهْديّ. وكان يُحْضِرُهما إذا جلس للشُرب، فقال لجعفر: أُزَوِّجُكَها لِيَحِلَّ لك النظرُ اليها ولا تَقْرَبُها، فإنّي لا أُطيقُ الصبر عنها. فأجابه (جعفرٌ) إلى ذلك، فزوّجها منه. وكانا يَحْضُرانِ معَه ثمّ يقوم عنهما - وهما شابّان - فجامعها جعفرٌ فحَمَلَتْ منه فوَلَدتْ له غُلاماً. فخافت الرشيدَ فسيّرته مَعَ حواضنَ له إلى مَكة وأعطَتْه الجواهرَ والنَفَقاتِ. ثم إنّ عباسة وَقَعَ بينَها وبينَ بعضِ جواريها شرٌّ فأنْهتِ (الجاريةُ) أمرَ العباسة وأمر الصبي إلى الرشيد...

- قال أبو جعفرٍ محمّدُ بن عليّ بن طَباطَبا العَلَويُّ المعروف بابن الطِقْطَقى (ت ٧٠٩ = ١٣٠٩ م).

(الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية - المطبعة الرحمانية

(١) الكشح: ما بين الكتف والفخذ. طوى عن (فلان) كشحاً: ستر مقصده عن الناس.
(٢) الداية هي الدأية: (بالهمزة) الحاضنة (مربيّة الطفل) غير الأمّ.

بمصر ١٣٤٠ هـ، ص ١٥٥ - بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م، ص ٢٠٩):

. . . إنّ الرشيد ما كان يَصْبِرُ عن أُختِهِ عبّاسةَ ولا عن جعفر بن يحيى. فقال (لجعفر): أُزَوِّجُكَها حتّى يَحِلّ لك النظرُ إليها، ثمّ لا تَقْرَبْها. فكانا يجتمعان - وهما شابّان - ثمّ يقومُ الرشيد عنهما ويَخْلُوانِ بأنفسِهما. فجامعها جعفرٌ فحَبِلَتْ منه ووَلَدَتْ ولدين. وكَتَمَتْ (عبّاسةُ) الأمرَ في ذلك حتّى عَلِمَ الرشيد. . .

- قال وليُّ الدينِ أبو زيدٍ عبدُ الرحمنِ بنُ خلدونٍ (ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ م).

(المقدّمة - بيروت، المطبعة الأدبية ١٩٠٠، ص ١٥ = بيروت (دار الكتاب اللبناني) ١٩٦١ م، ص ٢٢ - ٢٣):

ومِنَ الحِكايات المَدْخولة[1] للمؤرّخين ما يَنْقُلونه كافّةً. . . من قِصّة العبّاسة أُختِ (الرشيد) مَعَ جعفر بن يحيى بن خالدٍ مولاه، وأنّه لِكَلَفِهِ بمكانِهما من مُعاقرتِه إيّاهما الخمرَ[2] أذِنَ لهما في عقد النِكاح دون الخَلْوة حِرْصاً على اجتماعِهما في مجلسه، وأن العبّاسةَ تَحَيَّلَتْ على (جعفر) في التماس الخَلْوة به لِمَا شَغَفَها[3] من حُبّه حتّى واقعها - زَعَموا في حالةِ السُّكر - فَحَمَلَتْ وَوُشِيَ بذلك للرشيدِ فاسْتُغْضِبَ[4].

وهَيْهاتِ[5] ذلك من مَنْصِب العبّاسة في دِينها وأَبَوَيْها وجَلالها: وأنّها

(١) المدخولة: التي دخلها الفساد، التي ليست صحيحة.
(٢) عاقر فلان الخمر: دام على شربها.
(٣) شغفها حبّه: وصل حبّه إلى شغاف (غلاف) قلبها، عظمت محبتها له واشتدّت.
(٤) استغضب (ليست في القاموس): (اشتدّ غضبه).
(٥) هيهات (بفتح التاء وكسرها): ما أبعد (ذلك).

بنتُ عبدِ الله بن عبّاسٍ[1]، ليسَ بينَها وبينَه إلّا أربعةُ رجالٍ هم أشرافُ الدين وعُظماء المِلّة من بعدِه. والعبّاسةُ بنت محمّدٍ المَهديّ بن عبدِ الله بن أبي جعفرٍ المنصور بن محمّدٍ السّجادِ بن عليٍّ أبي الخُلفاء بن عبدِ الله تَرْجُمانِ القُرآن بن العبّاس عمِّ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم: ابنةُ خليفةٍ أُختُ خليفةٍ[2] محفوفةٌ بالمُلك العزيزِ والخِلافة النَبويّة وصُحبة الرسولِ وعُمومَتِه وإمامةِ المِلّة ونور الوَحْي ومَهْبِطِ الملائكة، قريبةُ عهدٍ ببَداوة العُروبيّة وسَذاجة الدين البعيدةِ عَنْ عوائدِ الترف ومراتع الفواحش. فأينَ يُطْلَبُ الصَّوْنُ والعَفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين تُوجَدُ الطهارةُ والذكاء[3] إذا فُقِدا من بيتها؟ أو كيف تُلْحِمُ نسبَها بجعفرِ بنِ يحيى وتُدَنِّسُ شَرَفَها العربيَّ بمَوْلىً من موالي العجم؟ . . .

فيما تقدّم أربعةُ نصوصٍ في سرد قِصّة العبّاسة أختِ الرشيد مَعَ جعفرٍ البرمكيّ. هذه النصوصُ مأخوذة من أربعةِ عصورٍ متباعدة: من الطَبَري (في القرنِ الثالث للهجرة والتاسع للميلاد[4]) - ومن المسعودي (القرن الرابع للهجرة) - ومن ابن الأثير (القرن السادس للهجرة) - ومن ابن الطِقطِقى (القرن السابع للهجرة). ثمّ يأتي ابنُ خلدونٍ (القرن الثامن للهجرة) بدفاعه المشهور.

(١) عبد الله بن عبّاس ابن عم النبيّ من كبار الصحابة ومن الذين عرفوا أحوال نزول القرآن وأصابوا في تفسيره.
(٢) ابنة خليفة (محمّد المهدي بن أبي جعفر المنصور) أخت خليفة (الهادي بن المهدي ثمّ هرون الرشيد ابن المهدي).
(٣) الزكاء: الطهارة، النقاء، العفّة.
(٤) الطبري متأخر عن عصر هذه القصّة الخرافية. ولكنّ الطبري يرويها عن رواة متقدمين.

قيمة هذه النصوص:

١ - إن الطبريَّ يُوردُ في تاريخه كلَّ ما يبلُغه من الأحداثِ منسوبةً إلى رُواتِها من غيرِ أن يحقّق فيها، بل يترُك ذلك للمؤرّخ يأخذُ ما شاء ويَدَعُ ما شاء. وهذا ما يسمّى باسم «مجموع»، فعَمَلُ الطبري في التاريخ عمل الجَمّاعة (بتشديد الميم). والمهمّ عند الطبري راوي الأحداث التاريخية (هذا بخلافِ عمل الطبريّ في تفسيره حيث يناقشُ الرواياتِ ويُرَجّح بعضَها على بعض).

٢ - أمّا ابنُ الأثير فيعتمدُ المؤرّخين السابقين (والطَبَريُّ في رأسهم). غير أنّهُ يُجرّدُ الرواياتِ التاريخية من أسانيدها (سلاسلِ الرُواة) ثمّ يُوردُ الأحداثَ من غيرِ تطويل ولا تَكْرارٍ. ومعَ أن ابن الأثير قد بنى كتابه على السِنين (كالطبري) غير أنّه في كثيرٍ من الأحيان يجمَعُ بعضَ الأحداث إلى بعض حتّى يجعَلَ منها سَرْداً واحداً متعانقاً قَدْرَ الإمكان.

٣ - والمسعوديُّ كان دائماً مُولَعاً بالغرائب، ففي كُتبه أخبارٌ من أواسط آسية وشرقيّ إفريقية لا نَجدُ مِثْلَها عند غيره من المؤرّخين العرب ومن المؤرّخين غيرِ العرب ثم من أخبار الهند مثلاً ما لا نجد الآن مثلَه إلّا عنده[1]. ولا شكّ في أن المسعوديَّ قد عُنِي هنا بتفاصيلَ تهمُّ عَوامَّ الناس أكثرَ ممّا عُنِيَ بالتعاقب المَنْطقي لتفاصيل السردِ. وسنرى ذلك واضحاً حينما نأتي إلى نقد هذه «الرواية التي تدور حول العبّاسة وجعفر».

٤ - وابن الطِقطِقى مؤرّخٌ يأخذُ باللمَحات. وهو يعتقد شيئاً لا يأخذُ به المؤرّخون الاثْباتُ عادةً: إنّ ابنَ الطِقطِقى ربّما اختار من أيامِ خليفةٍ

(١) نحن نجد مثل ذلك عند أبي الريحان البيروني (ت ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م)، ولكنّ المسعودي أقدم عهداً.

حادثةً واحدةً فجعَلَها مُمَثِّلَةً للمدّةِ التي قضاها ذلك الخليفة في الحكم. من أجل ذلك نعتقد نحن أن كتاب ابن الطِقطِقي كتاب مكمّلٌ لجوانبَ من السرد التاريخي، ولكنّه ليس مصدراً أو مَرْجعاً يَصِحّ الاعتماد عليه وحدَه في استخراجِ صورةٍ صحيحةٍ كاملةٍ لعصرٍ من العصور أو لمُدّةٍ من مُدَدِ الخلفاء والملوك.

في النقد:

بعد استعراضِ المصادر والتثبّت من النصوص يجري النظرُ في تلك النصوصَ على أساسين وَضَعَهُما ابنُ خَلْدونٍ: ما كان مقبولاً في العَقْل وما هو مُشاهَدٌ في الاجتماع الإنساني. ولا شكّ في أن المُشاهد في الاجتماعِ الإنساني (عَمَلِيّاً) مُقَدَّمٌ على ما يكون مقبولاً في العقل (نَظَرِيّاً).

أولاً - في النقد الخارجيّ:

١ - يُخبرنا ابنَ قُتيبة في كتاب «المعارف» (ليدن، ص١٩٣؛) أنّ محمّد بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس كانت عنده العبّاسة بنت المهدي) فمات عنها[1] (ت ١٧٦هـ) فتزوّجها إبراهيمُ بنُ صالحٍ (بن علي بن عبد الله بن عبّاس[2])، ذَكَرَ ذلك أيضاً أبو جعفرٍ مُحَمّدُ بنُ حبيب (ت٢٤٥هـ) في كتابه «المُحَبَّر» (ص٦١) في أصهار المَهدي، ولم يذْكُرْ جعفراً البرمكيَّ هنا، ولا هو ذَكَرَ أنّ العبّاسة وَلَدَتْ أولاداً.

(١) سنة ١٧٦ هـ(؟).

(٢) كان زوجاها هذان من بني هاشم في الفرع العبّاسي.

ولقد تَلَقَّفَ هذه الخرافةَ نفرٌ من القُصّاص العرب والإفرنج، يَكْفي أن نُشيرَ إلى جرجي زيدان وحدَه (ت ١٩١٤) في روايته «العبّاسة أخت الرشيد[١]».

واتّفق أن أبا نُواسٍ هجا البَرامكةَ وهجا جعفراً البرمكيَّ نفسَه ثم هجا العبّاسةَ، وقال إنّ الزَواجَ بها يُؤدي إلى موت الأزواجِ (ديوان أبي نواس، طبعة اسكندر آصاف، مصر ١٨٩٨ م، ص ١٧٤):

ألا قُـلْ لأمينِ الله وابنِ القـادةِ السـاسَـهْ:
إذا مـا نـاكِثٌ سـرَّكَ أن تُفْقِـدَهُ راسَه[٢]،
فـلا تَقْتُلْهُ بـالسيفِ وزَوِّجْـه بعَبّاسـه.

وسنأتي إلى الكلام على عُمرِ العبّاسة بعدَ قليل.

إنّ قول أبي نُواسٍ: « ألا قُلْ لامينِ الله . . . » إشارة إلى الخليفةِ مُحمّدٍ الأمين، على القَطْع.

إنّ أبا نواسٍ لمّا مَدَحَ هَرونَ الرشيدَ سَمّاه أبا الأمناء (الديوان ٥٩، ٦٣):

إلى أبي الأمناء هرونَ الذي يَحْيا بصَوْبِ سَمائِه الحَيَوانُ[٣].
تبارَكَ من ساسَ الأمورَ بِعِلْمهِ وفَضّلَ هاروناً على الخُلفاء.

---

(١) يحسن أن يرجع الباحثون إلى مقال واف نشره المستشرق بوفا:
L. Bouvat, Les Barmécides après les historiens arabes et persans (Revue du Monde Muslman, 6e. Année: septembre Volume XX).
لقد استعرض المستشرق بوفا المصادر، ولكن عمله ذلك، وهو مهمّ جدّاً في بابه، لا يدخل في نطاق تجديد التاريخ الذي نعالجه في هذا الفصل. وقد أشار طبعاً إلى المؤلفات التي عالجت خرافة العبّاسية من الناحية التاريخية ومن الناحية الروائية.

(٢) الناكث: الذي يريد الخروج من طاعة الخليفة.

(٣) صوب السماء (سقوط المطر).

نَعيشُ بخيرٍ ما انْطَوَيْنا على التقى وما ساسَ دُنيانا أبو الأمناء.

ثمّ لمّا جاء محمّدٌ الأمين بن هارون الرشيد إلى الخلافة (١٩٣ هـ = ٨٠٩ م) مدحه أبو نواس أيضاً وسمّاه «أمينَ الله» (ديوان ص ١٠٦، ١٠٧، ١١٤ مرتين). ولأبي نواسٍ هجاء في اسماعيلَ بن صَبيحٍ (في أيام الأمين) وَرَدَ فيه التعبير «أمينُ الله» مرّتين (الديوان ص ١٧٠، ١٧١). ثمّ تُوُفّيَ الأمينُ (أو قُتِل)، سَنَةَ ١٩٨ هـ (٨١٣ م) فقال أبو نواسٍ (الديوان ١٢٩):

ألا يـا أمينَ الله، مَنْ للنَـدى وعِصْمةِ الضَعْفى وفَكّ الأسيرْ[١]
خَلَّفْتَنـا بعـدَكَ نبكي على دُنياكَ والـدِّين بـدمعٍ غـزيرْ.
يـا وَحْشَتَـا بعـدَكَ، مـاذا بنـا أَحَلَّ من ضَنْكٍ صروفُ الدهور؟[٢]
لا خيـرَ لـلأحيـاء في عَيْشِهِمْ بَعْدَكَ، والزُلفى لأهـلِ القُبورْ[٣]

من هذا كله يبدو بوضوح أن العبّاسة ظلتْ حَيّةً إلى ما بعدَ مجيء محمّدٍ الأمينِ بن هرونَ الرشيدِ (بعد نكبةِ البرامكة بسَبْعِ سَنواتٍ على الأقلّ). فهي ـ بشهادة أبي نواسٍ ـ ودواوينُ الشعرِ مصادرُ مساعدةٌ بَريئةٌ ولا تزويرَ فيها ـ لم تُقْتَلْ كما تذكرُ الخُرافة.

٢ ـ عمر العبّاسة:

لم استطعِ التوصّلَ إلى السَنةِ التي وُلِدَتْ فيها العبّاسة من المصادر التي بين يَدَيّ. ولكنّ العبّاسة كانتِ امرأةً بَرْزَةً يَمْدَحُها الشعراء في أيامِ

---

(١) عصمة: ملجأ، حماية. الضعفى جمع ضعيف (القاموس ٣: ١٦٥).

(٢) الضنك: الضيق. ـ صرف الدهور (أحداث الدهر) أحلّت (أنزلت) بنا من ضنك (من أنواع الضيق).

(٣) لم يبق فائدة من قصد الأحياء بعدك (لأنهم بخلاء). بقيت الزلفى: التقرّب (بالمديح) لأهل القبور (للموتى: لك).

أبيها المَهْدي الذي جاءإلى الخِلافة سَنَةَ ١٥٨ هـ (٧٧٦م) ثمّ توفيّ سَنَةَ ١٦٩ هـ (٧٨٥م) ـ قبلَ نَكْبة البرامكة بعِشرينَ سَنَةً. (راجع الأغاني، بولاق ٢٠ : ٣٢ ـ ٣٣). وقبلَ أن يُتَوفَّى المَهْدِيُّ كانتِ العبّاسة قد تَزَوَّجَتْ مرّتين على الأقلِ (وقيل ثَلاثَ مرّاتٍ) فإنّ ابنَ حبيبٍ يذكُرُ (المحبّر ٦١) أنّ محمّدَ بنَ سُليمانَ وإبراهيمَ بنَ صالحٍ (زَوْجَي العبّاسةِ) كانا من أصهارِ المَهْديّ.فإذا نحن قبِلْنا أن يكون مَوْلِدُ جعفرٍ[1] سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧م)، فيكونَ جعفرٌ يومَ وفاةِ المَهديّ، في التاسعةَ عَشْرَةَ من عُمُره. وبما أن قِصةَ العبّاسةِ وجعفرٍ تُرْوى في أثناء وزارةِ جعفرٍ فيجب أن تكونَ تلك القِصةُ بَعْدَ أن تولّى جعفرٌ الوزارة للرشيدِ سَنَةَ ١٧٧ هـ (٧٩٣م)، والعبّاسةُ يومذاك في زَواجِها الثالثِ أو الثاني على الأقلّ. وعلى هذا يجب أن تكونَ مُتقدّمةً في السِنّ جدّاً. أضِفْ إلى ذلك أن مسلمَ بنَ الوليدِ صريعَ الغواني مَدَحَ هرون الرشيدَ فَقَرَنَ باسْمِه اسمَ أُخْتِه العبّاسةِ، فقال (ديوان مسلم بن الوليد ـ ليدن ٢١٣ ـ ٢١٤).

هـارونُ بـدرٌ لِبني هاشمٍ، وأختُ هـارونَ لهم شَمْسُ[2]

يـا أختَ هارونَ، أبـوكِ الـذي يقصُرُ عنه القـولُ والحَدْسُ.[3]

فلا مجالَ أبداً لـقـولِ المؤرّخين إنّ جعفراً والعبّاسة كانا شابّين: لم يكن جعفرٌ في ذلك الحين شابّاً ولا كانتِ العبّاسةُ مُعْصِراً[4]. إنّ مسلمَ بنَ الوليدِ لم يتّصلْ بالرشيدِ إلاّ نَحْوَ سَنَةِ ١٨٥ هـ (٨٠١م)، وجعفرٌ يومذاك رجلٌ ناضجٌ في الخامسةِ والثلاثين من العُمُر، فلا يمكنُ أن يَرْتَكِبَ

(١) راجع ابن الأثير (بيروت) ٦: ١٧٩: «وكان قتل جعفر (سنة ١٧٨ للهجرة).... وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة».

(٢) أخت هرون: العبّاسة.

(٣) الحدس: الظنّ.

(٤) أعصرت المرأة: بلغت شبابها.

تلك الخطيئةَ التي تُنْسَبُ إليه. ثمّ إنّ مسلمَ بن الوليد لا يمكن أن يَقْرِنَ اسمَ العبّاسةِ باسم أخيها ـ وهو خليفة ـ في قصيدةٍ للمديح إذا كانت العبّاسة شابّةً وليس لها مكانةٌ تُسَوغُ ذِكْرَها في مثل تلك المناسبة. فالعبّاسة، إذن، كان يجبُ أن تكونَ في ذلك الحين امرأةً واسعةَ الشهرة عاليةَ المكانةِ بالغةَ النفوذ (وليستْ شابّةً، على كلّ حال).

كنّا رأينا أن ابنَ حبيب وابنَ قُتيبةَ قد ذَكَرا زَوْجين للعبّاسة (في فصل أصهار المَهْديّ عند ابن حبيب مثلاً ـ المحبّر ٦١) ولم يذكر للعبّاسة أولاداً. ومنهم من جَعَل للعبّاسة صَبيّاً واحداً، ومنهم من جعل لها صَبيّين اثْنَيْن (ومنهم من قال: ثلاثةُ صِبْيةٍ). ثمّ ليس في المصادر التي بينَ يديّ اسمٌ لابنٍ للعبّاسة أو لابْنَيْها، وإن كان بعضُهم قد ذكر أن اسمَ الصبي كان نور الدين[1]. وهذا اسمٌ لم يُعْرَفْ مثلُه (بدر الدين، شمس الدين، عزّ الدين، الخ) إلاّ في زمن متأخّرٍ (في الحروب الصليبية؟).

وما دامَ هرونُ الرشيدُ قد شَرَطَ على جعفرٍ والعبّاسة ألاّ يتماسّا، فكيفَ كان هرونُ الرشيدُ نفسُه يترُكُهما في أعقاب مجالسِ الشراب ثمّ يستمرّانِ هُما في الخَلْوة بأنفسِهما؟ وكيفَ جازَ هذا التناقضُ في الرواية على المؤرّخين الأربعة.

وكذلك كيف يجوز في الواقع الإنساني أن يبقى هرون الرشيد كلَّ تلك المُدّةِ لم يَعْرِفْ بما كان يجري بين جعفرٍ والعبّاسة ولا يتطرّق إلى نفسِه شكٌّ في خَلْوَتِهما؟

هذه وجوه ضَعْفٍ في تلك الرواية تَعُمُّ النصوص الأربعة. وفيما يلي وجوهٌ تَخُصّ واحداً دون واحد منها:

(١) ابن مزعوم لجعفر والعبّاسة (ليس بين يديّ الآن المرجع له).

أ ـ في النصوص الثلاثة الأولى أن خلوةَ جعفرٍ والعبّاسة نُتجَ منها صبيٌّ واحدٌ. وأمّا عند ابن الطِقطقي، فقد نُتجَ منها وَلَدانِ.

ب ـ ذكر الطبريُّ وابنُ الأثير أن العبّاسة وَجّهت بالصبيّ إلى مكّة، سَتْراً على نفسِها، وهنالك رأى هارونُ الصبيَّ. أمّا ابنُ الطِقطقي فلم يذكر أن الصبي غادر بغداد. وأمّا المسعوديُّ فَذَكَرَ أن العبّاسة، لمّا عَلِمَت بعزم الرشيدِ على الحجّ، أشارت بنقل الولدين إلى اليمن. فلم يستطع هرونُ الرشيدُ، إذَن، أن يرى الصبيّ أوِ الصبيّين في مكة.

جـ ـ لقد علم الرشيد بأمر العبّاسة (عند الطبري وابن الأثير) من أحدى جواري العبّاسية. أمّا ابن الطِقطِقي فلم ينصّ على شخص في نقل الخبر إلى الرشيد. وأمّا المسعوديُّ فجعل زبيدة (زوجةَ هارونَ الرشيدِ) تنقُلُ الخبر إلى زَوْجِها هرون.

د ـ وفي رواية المسعوديّ مآخِذُ كثيرةٌ، إذ يبدو أن المسعوديَّ قدِ احتفلَ بالناحيةِ القصصية من الموضوع، فكان التناقضُ في السَرْدِ عنده كثيراً، من ذلك أن المسعوديَّ ألّفَ من الحكاية مَسْرحيةً: جعفرٌ كان مُتعَفّفاً، والعبّاسةُ كانت تُلحّ عليه في الخلوة. عبّاسةُ لجأتْ إلى أمّ جعفرٍ في تدبير تلك الخلوة. أمُّ جعفرٍ تُماطل ابنَها في الخلوة بالعروس الجديدة. ولم يكن جعفر (في مسرحية المسعودي) يعرفُ مَن كانت تلك العروس، حتّى «اشتدّ شَوْقُه وقويَتْ شَهْوتُه» (كأنّ جعفراً لم يَعْرِفُ النساء من قبلُ). وأبعدُ من ذلك كلّه في الوهم عند المسعوديّ قولُه: «فأُدْخِلَت (العبّاسة) على فتىً سكرانَ لم يكنْ بصورَتِها عالماً ولا بِخِلْقَتِها عارفاً».

هنا مأخذانِ: أحدُهما كيفَ يمكن أن ينصرفَ رجلٌ من مجلسِ شرابٍ سكرانَ (لا يعي) ثم يَقْصِدُ إلى بيتِه (وهو يَعِي أنّه سيجتمعُ بامرأةٍ أعدّت له). وثاني ذينك الأمرين ـ وأبعدُ في الوَهْم أيضاً ـ أنّ رجلاً تزوج امرأةً وعاشَ في صُحْبَتِها مدةً طويلةً (في مجالسِ الشراب) وفي مُراوَحتِها (مُرافَقَتها في الذهاب والإياب) ثمّ يدخُلُ عليها ويكونُ منه ومنها أقصى ما يمكن أن يكونَ من المَعْرفة بينَ رجلٍ وامرأةٍ ويظلّ غير عالم بصورتها ولا عارفٍ بخلقتها؟

ثمّ كيف يجوز من المسعوديّ أن يقولَ إنّ يحيى بن خالد (والدَ جعفرٍ) كان يُغْلِقُ الأبوابَ على حُرَمِ الرشيدِ (على نسائه، وفيهنّ زبُيدة) ويأخذُ مفاتيحَ بيوتهنّ (كأنّ هرونَ الرشيدَ أيضاً لا يستطيعُ أن يُعاشرَ امرأته زبيدة) ثمّ يقول (بكل سَذاجةٍ) إن زُبيدةَ دَخَلَتْ ذاتَ يومٍ على الرشيد وأخبرتْه القِصّة...

ويقول المسعوديُّ أيضاً: أنّ يحيى بنَ خالدٍ كان يُقْفِلُ أبوابَ بيوتِ نساء الرشيد ليلاً كيلا يَتّصِلْنَ بالخَدَم (ويكونَ منهنّ ما كانَ بينَ جعفرٍ والعبّاسة). ولكن ما دامَ يحيى يُطْلِقُ عن أبواب تلك البيوت في النهار، فما الذي يمكن أن يمنعَ أولئك النساء في النهار ما كانَ يحيى يخافُ أن يَفْعَلْنَهُ في الليل؟.

* * *

بعدئذ نأتي إلى نصّ ابنِ خلدونٍ في الدفاع عن هرونَ الرشيدِ وعن أخته العبّاسة. وفي دفاع ابنِ خلدونٍ جانبان: جانبُ الشكّ في الرواية التي جاءت عند المؤرّخين ثمّ جانب التفنيد لها. أمّا جانبُ الشكّ فيها بحَسْب رواية المؤرّخين فقد بيّنا، في السطور التي سبقت، أنّ هذه الحكاية لا يمكن أن تثبتَ على مِحَكّ النظر بالوصف الذي جاء به أولئك المؤرّخون الأربعة والذين اتّفق لنا أنْ نوردَ النصوص من كتبهم.

أمّا ردُّ تلك الرواية ابتداءً، أي استبعادُ شربِ الخمر والوقوعِ في الفاحشة عن شخص لأنّه ابنُ فلانٍ أو صاحبُ مَنْصِبٍ معلوم فشيء خطأ في النظر إلى أحداث التاريخ الإنساني. غير أنّ ابنَ خلدونٍ مُصيبٌ في إنكاره أن تكون «قِصةُ جعفرٍ والعبّاسة» (مهما يكنْ نصيبُها من الصّحة) سببَ نكبةِ البرامكة أو سبباً من أسبابِ نكبةِ البرامكة. إنّ أسبابَ تلك النكبةِ كثيرةٌ، وسندرسها في فصلٍ تالٍ لهذا الفصل.

ثانياً ـ في النقد الداخلي:

١ ـ كيف يجوزُ في العقلِ وفي المُشاهَدَ في الاجتماع الإنساني أن يَعْقِدَ أميرُ المؤمنين مجالسَ الخمر وأن يُحْضِرَ فيها أُختاً لـه، (بقطع النظر عن أنه يجوزُ في حقّه أن يشرَبَ الخمرَ أو لا يجوزُ ذلك).

٢ ـ إذا كانتِ العبّاسةُ قد تزوجتْ مرّتين أو ثلاثاً ثمّ ظلت (في الراجح) على عصمة رجلٍ[1]، فكيف يمكن أن يَعْقِدَ أحدٌ ـ دَعْكَ من أمير المؤمنينَ خليفةِ المسلمينَ ـ عَقْداً على عَقْدٍ؟ أمّا إذا قيل إن العبّاسة كانتْ في ذلك الحين (بعدَزَواجِهاالثالثِ أوالثاني) خاليةً (بلا زوجٍ: أرملةً بعدَ زَواجِها الأوّلِ أو مُطلقة بعدَزَواجِهاالثاني)، فإنّها لا تكون في مثلِ السنّ ولا في مثلِ الحال (في الشباب) مِمّا يُجيز أنْ تَنْشأ حولَها تلك القصّة.

٣ ـ في النصوصِ الأربعةِ أنّ هرونَ الرشيدَ عَقَدَ لجعفرٍ البرمكي على أختهِ العبّاسةِ نِكاحاً وشَرَط عليهما ألاّ يَتَماسّا. فكيفَ غاب عن أصحابِ هذه النصوص ـ وفيهمُ الطبريُّ، وهو صاحبُ مذهب من المذاهب الفقهية في

(١) تكون المرأة، في عصمة رجل أو على عصمته إذا كانت زوجته شرعاً ولا يجوز أن تكون في هذه الأثناء لغيره.

الإسلام[1] ـ أنَ العَقْدَ صحيحٌ وأن الشَرطَ فاسدٌ (أو باطل، على الأصح)، وأنّ جعفراً والعبّاسةَ كانا قد أصبحا بهذا العَقْدِ زَوْجَيْن شَرْعاً؟ ثمّ كيف يجوزُ في حقِ هرونَ الرشيدِ أن يجهَلَ ذلك أو أن يَغْفُلَ عنه أو أن يفعلَ ذلك على علمٍ منه؟

مِمّا تَقدّمَ يبدو لنا:

ـ أنّ العبّاسةَ أختَ الرشيدِ ظلّتْ حيةً بعدَ نكبةِ البرامكة (سنة ١٨٧ هـ) وبعدَ وفاةِ هرونَ الرشيد (١٩٣ هـ).

ـ أن تَقَدُّمَ جعفرٍ في السنّ (إلى نحو الخامسة والثلاثين من العُمُر) وزيادة العبّاسةِ عليه في السِنّ أيضاً (في زَواجِها للمرّة الثانيةِ على الأقلِ واقترابها من الخَمْسين، في الأغلب) يُحِيلُ (مِمّا هو مقبولٌ في العقل ومُشاهَدٌ في الاجتماع الإنساني أيضاً) أنْ تنشأ بَيْنَهما تلك المُغامرةُ التي حاكها نفرٌ من القصّاصين حَوْلَهُما. ولكنْ يبقى هنالكَ الاستغرابُ الذي لم يَبْدُ إلاّ مِن ابن خلدونٍ (وإن كان ابنُ خَلْدونٍ قد أبدَى ذلك الاستغراب من طريق الجِدال).

ـ أن مثلَ هذا العَقْدِ في الزَواج لا يجوزُ بنفسِه ثمّ لا يجوز على الفُقهاء وعلى أميرِ المؤمنين.

ـ ثمّ إنّ نكبة البرامكَة قد تناولتْ مُعْظَمَ البرامكةِ ومَواليهم وأنصارهم مع مُصادرةِ أموالِ البرامكة أجمعينَ (وأموالِ مواليهم وأنصارهم) ممّن قُتلوا في تلك النَكْبَة أو عُفِي عنهم. من أجل ذلك كُلِّه لا يمكنُ أن يكونَ للعبّاسة بنت المَهْدِيّ (وأختِ هرونَ الرشيدِ) صِلَةٌ بنكبة البرامكةِ لأن القِصّة المَرْوِيّة في ذلك لا يمكن أن تكونَ قد وَقَعَتْ.

(١) كان الطبري فقيهاً، وكان له مذهب ثمّ باد (انقرض): بطل العمل به.

نكبة البرامكة
وأسبابها المعلومة

لقد أصاب ابنُ خلدونٍ (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م) لمّا رأى أن أحداثَ التاريخ لا تندفع في مجاريها بسببٍ واحد، بل لا بدَّ في كلّ حَدَثٍ من أحداث التاريخ من عددٍ من الأسباب تختلف قِلّةً وكثرة ثمّ يختلفُ بعضُها من بعضٍ في أثرِه في الأحداث المختلفة[1].

ولم تشذَّ نكبةُ البرامكة عن تلك القاعدة الحكيمة.

إنّ المؤرّخين والقصّاصين على السواء قد أكثروا من الربط بين نَكْبة البرامكة وقِصّة العبّاسة أُختِ الرشيد مَعَ جعفرٍ البرمكيّ (وقد مضى تفصيل هذه القِصّة في الصفحات السابقة). وبما أن هذه القِصّة لم تكنْ صحيحةً بحَسْبِ الروايات التي وردتْ في الكتب، فإنّها تبطُلُ بذلك أن تكونَ سبباً من أسباب نكبةِ البرامكة أو سبباً لغير نكبةِ البرامكة من أحداث التاريخ.

ولم يُجْمِعِ المؤرّخون على سببٍ كان الفاعلَ في تلك النكبة، وإن كان أولئك المؤرّخون قد أدْلَوْا بأسبابٍ مختلفة لا يستطيع أحدٌ أن يقول أيُّها وحدَه

---

(١) راجع مقدّمة ابن خلدون (بيروت، المطبعة الأدبية ١٩٠٠ م) ص ٩ وما بعد/دار الكتاب اللبناني ١٩٦١ ص١٢ وما بعد).

كان السببَ الصحيح. ولكن إذا استطاع الدارسُ أن يجمَعَ بعضَ هذه الأسباب إلى بعضٍ وأن يُؤلّفَ بينَها وبينَ تلك النكبةِ الهائلة أمكنَهُ أن يرى في مجموعِ تلك الأسباب ما يُسَوِّغُ (أو يبرّر) أن يَحْمِلَ الدارسَ على الاعتقاد بأن مثل تلك الأسبابِ - إذا هي اجتمعت، صحّتْ أن تكون دافعاً لِهرونَ الرشيدِ إلى أن يصنَعَ ما صَنَع.

البرامكة

البرامكة أُسرةٌ فارسيةٌ من مدينة بَلْخٍ (في الأفغان اليوم) كان رأسُها، يومَ فَتَحَ العرب بلخ، «بَرْمَكاً» من مَجوسِ بلخ، وكان يخدُمُ النوبَهار - وهُوَ معبدٌ كان للمجوس بمدينة بلخ تُوقَدُ فيه النيران - واشتهر برمكُ المذكُور وبنوه بسَدانته. وكان برمكُ عظيمَ المِقدار عندَهم. ولم نعلم هلْ أسلَم أمْ لا (وفيات الأعيان ٦ : ٢١٩). أمّا خالدُ بنُ برمكَ فقد وُلِدَ سَنَةَ ٩٠ للهجرة (٧٠٩ م) - في أيام الدولة الأمويّة - ويبدو أنّه نشأ على الإسلام حتّى بلغ في الفَصاحة مرتبةً سامية، كما يبدو أنّه كان في خِدمةِ الدعوة العباسية.

فلماً ظَفِرَ بنو العبّاس بالخِلافة (سنة ١٣٢ هـ = آخر ٧٤٩ م) اتخذ أوّلُهم أبو العبّاس السفّاحُ وزيرين على التوالي هما أبو سَلَمَةَ الخلاّلُ ثم أبو جَهْمِ بنُ عَطيّة. ثم إنّ السفّاحَ استوزرَ خالد بن برمكَ في سنة ١٣٣ هـ. وتُوُفّي السفّاحُ سَنَةَ ١٣٦ هـ وخَلَفَه أخوه أبو جعفر المنصورُ فاستبقى خالدَ بنَ برمكَ في الوَزارة إلى جُمادي الثانيةِ من سَنَةِ ١٣٨ (خريف ٧٥٥ م). وغَبَرَتْ مُدّةٌ طويلة (١٣٨ - ١٧٠ هـ) لم يتولَّ أحدٌ مِنَ البرامكة وزارةً، ولكنهّم كانوا يتولّوْنَ الأعمال (دواوين الحكومة وولاية المقاطعات)، وكانت مكانتهم ونفوذُهم في أثناء ذلك كله أبداً في ارتفاع.

فلمّا جاء هَرونُ الرشيدُ إلى الخِلافة، سَنَةَ ١٧٠ هـ (وعُمْرُه واحدةٌ

وعشرون سَنَة) ـ وكان قد تربّى في كَفالة يَحيى بن خالدٍ البرمكي، حتّى إنه كان يناديه: يا أَبَتِ ـ جَعَلَ يحيى هذا وزيراً له، فازدادت وَجاهةُ البرامكة ومكانتُهم ازدياداً عظيماً. ولعلّ وَزارةَ يَحْيى الرسميةَ لم تَطُلْ كثيراً. والسببُ فيما أظُنّ ـ في الأغلب ـ أن يحيى كان يكبر هَرونَ بثلاثين سَنَة، فرأى هَرونُ الرشيدُ (من باب الإجلال لِسِنّ يحيى وحُبّاً باتخاذ وزير يُقاربهُ في السِنّ من غير أنْ يُسيء إلى يَحيى) أنْ يتّخذَ الفَضلَ بنَ يَحْيى بن خالدٍ (١٤٧ ـ ١٩٣ هـ)، وهرونُ يكبُرُهُ بنحو ثلاثِ سَنواتٍ، وزيراً.

ولكن في سَنَةِ ١٧٧ هـ (٧٩٣م) آثرَ هَرونُ الرشيدُ أنْ يأتيَ إلى الوَزارة بجعفرِ بنِ يحيى المولود سَنَةَ ١٥٠ للهجرة مكانَ أخيهِ الفَضْل.

وبعدَ نحو عَشْرِ سَنَواتٍ (١٨٧هـ = ٨٠٣م) نَكَبَ هَرونُ الرشيدُ آلَ بَرْمَكَ نكبةً ذهبتْ مثلاً في التاريخ. فما كانتْ أسبابُ تلك النكبة؟

كَثُرَ اختلافُ المؤرّخين في السبب الذي حَمَلَ هَرونَ الرشيدَ على الفَتْكِ بالبرامكة. وقد سَمَّوْا بضعةَ عَشَرَ سَبَباً لا نرى واحداً منها ـ إذا هُوَ استقلّ بنفسه ـ مُسَوّغاً لتلك الفَتْكةِ القاسيةِ الشَنْعاء. ولكنّنا لو جَمَعْنا بعضَ هذه الأسبابِ إلى بعضٍ لتآلَفَ منها كُلّها مجموعةٌ يُمكِنُ أن تدفَعَ كلَّ رئيسِ دولةٍ إلى أن يفعَلَ ما فَعَلَهُ هَرونُ الرشيدُ.

١ ـ خرافة العبّاسةِ أختِ الرشيد:

لقد مرّ الكلام مفصّلاً على خُرافةِ الاتصال بينَ جعفرٍ البرمكي والعبّاسةِ أختِ الرشيدِ (راجع الفصل السابق). فإذا كانتِ تلك الروايةُ خُرافةً من أساسها، فمن الجديرِ ألاّ يأخذَ أحدٌ بها في نكبةِ البرامكةِ أو في غير نكبةِ البرامكة.

٢ ـ قصة يحيى بن عبدِ الله العَلَويّ الطالبي:

قال الطبريُّ (٣: ٦٦٩ ـ ٦٧٠):

وذكَرَ أبو محمّدٍ اليزيديّ ـ وكان، فيما قِيل، من أعلمِ الناسِ بأخبارِ القومِ (البرامكة) ـ قال: من قال إنّ الرشيدَ قتل جَعفرَ بنَ يحيى بغير سببِ يحيى بنِ عبدِ الله بن حسنٍ (بن الحسنِ بن عليّ بن أبي طالب) فلا تُصَدِّقْهُ. وذلك أن الرشيدَ دَفَعَ يَحْيى (بن عبدِ الله) إلى جعفرٍ (البرمكي لِيَحْبِسَه) فَحَبَسَهُ «مُدّةً ثمّ أَطْلَقَ سَراحَه. وبَلَغَ الخبرُ إلى هَرونَ الرشيدِ، بعدَ زمنٍ، فدعا جعفراً وسأله عن يحيى بنِ عبد الله، فقال له جعفرٌ: أطلقْتُه (إذ) عَلِمْتُ أنّه لا حياةَ (أو لا فائدةَ) بِهِ ولا مكروهَ عنده».

تظاهر الرشيد بالرضا. ولكن ما كاد جعفرٌ يبتعد عنه حتّى أتبعه الرشيدُ ببصرهِ وهو يقول: «قتلني اللهُ إن لم أقتُلْكَ». ثمّ إن الرشيد قبض على يحيى بنِ عبدِ الله من جديدٍ وقتله.

٣ ـ العصبية العربية:

لمّا قامتِ الدولةُ العبّاسية على أكتاف الفرس كان من المنتظر أن يَضْربَ الفُرسُ من أمورها بحظٍّ وافرٍ وأن يَحِلّوا مَحلَّ العرب في الدواوين والأعمال (في الولايات). وهذا هو الذي حدث. إنّ ابنَ خلدونٍ يُخبرنا في مقدّمته (المطبعة الأدبية ١٦ = دار الكتاب اللبناني ٢٤) أنّ البرامكة وحدَهم «عَمَروا مراتبَ الدولة وخُطَطها بالرؤساء من وُلْدِهم وصنائعهم[1] ـ واحتازوها عمّن

(١) الصنيعة: كلّ ما عمله الإنسان من خيرٍ أو إحسان، الإنسان الذي يستميله إنسان آخر بالإحسان إليه (فيصبح الأوّل صنيعة للثاني).

سِواهم - من وِزارةٍ وكِتابةٍ وقِيادةٍ وحِجابة وسَيْفٍ وقلم(١). وقال إنّه كان بدارِ الرشيدِ من وُلْدِ يحيى بنِ خالدٍ خمسةٌ وعشرون رئيساً من بين صاحبِ سيفٍ وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودَفَعوهم عنها بالراح(٢)».

نَقَم العربُ من الفرس أن يستَوْلُوا دونَهم على أمورِ الخِلافة، فالتَفّوا حولَ رجلٍ عربيِّ النسب (فيما قيل) يدعى الفضلَ بنَ الربيع (وقد كان والدُه الربيعُ بنُ يونسَ وزيراً للمنصور). ثمّ أخذ الفضلُ بنُ الربيع وأتباعُه يتربّصون الدوائرَ بالفُرس عامّة وبالبرامكة خاصّة. وقيل إنّ الفضلَ بنَ الربيعِ هو الذي وشى الى الرشيد بأمر يحيي بن عبد الله (راجع السبب السابق).

٤ - العصبية الفارسيّة (من وراء السياسة العلوية):

حملَ الناسُ إلى الرشيد أن إطلاقَ سَراحِ يحيى بن عبد الله لم يكن رحمةً من جعفرٍ البرمكيّ برجل هَرِمٍ. ولكن ذلك العملَ كان مُنطوياً على سياسةٍ يَتّبعُها البرامكةُ نحوَ آلِ البيت (خصوم العبّاسيّون في طلب الخلافة). فقد قالَ ابنُ خَلْدونٍ (المقدّمة ٢٤/١٦) أن البرامكة «أفاضوا في رجالِ الشيعةِ وعظماء القَرابةِ (من آلِ البيت؟) العطاء وطوّقوهُم المِنَن، وكَسَبوا من بيوتاتِ الأشرافِ (العَلَويّين) المُعْدِمَ وفكّوا العاني(٣)...» وكذلك نُقِلَ إلى الرشيد أنّ البرامكةَ قد شجّعوا موسى بنَ يحيى بن خالدٍ البرمكيّ على الخروج على طاعة بغدادَ والاستبدادِ بخُراسان (راجع ابن الأثير ٦ : ١٧٧). ويُقال إنّه وَقَعَ في يدِ

(١) خطّة السيف: المنصب الحربي (العسكري)، خطّة القلم: المنصب الإداري.
الراح جمع راحة: باطن الكفّ. المنكب (بفتح فسكون فكسر): أعلى الذراع عند اتصالها بالكتف. - زاحموا أهل الدولة الخ: أخرجوهم منها (من المناصب) بالقوّة وحلّوا فيها محلّهم.
(٣) المعدم: الفقير. العاني: الأسير.

عليّ بن عيسى بن ماهانَ (وكان من قوّادِ هرونَ الرشيدِ) كتابٌ من يحيى بن خالدٍ إلى يحيى بن عبدِ الله (راجع الرقم ٢) فيه طَرَفٌ من خبر الخروج على طاعة بغداد. ومن المنتظر أن يكونَ هذا الكتابُ قد أُرسِلَ إلى الرشيد. ومن المنتظر أيضاً أن يَنْقِمَ الرشيدُ من البرامكة عَمَلَهم هذا.

٥ - إتّهامُ البرامكةِ في دينهم:

كان الإلحاد (الطعنُ في الدين وإنكار الألوهية) والزندقةُ (القولُ بدوامِ الدهرِ والتهكّم بفروضِ الدين) تهمتين سياسيّتين رائجَتَيْن في العصر العبّاسي. وقد كلن كثيرون يُتَّهمون بإحدى تَيْنِكَ التُهمتين أو بهما كِلْتيهما، حقاً أو باطلاً، ومثلُ ذلك اتّفق في أمر البرامكة. قال الطبري (٣: ٦٦٨، ٦٨١): إنّ محمّدَ بنَ اللّيث(١) رَفَعَ رِسالةً إلى الرشيد يَعِظُه فيها ويقولُ له: إنّ يحيى بنَ خالدٍ لا يُغني عنك من الله شيئاً، وقد جَعَلْتَهُ فيما بينك وبينَ الله. فكيفَ أنتَ إذا وَقَفْتَ بينَ يَدَيِ (الله) فسألَكَ عمّا عَمِلتَ في عبادِه وبلادِه، فقُلت له: يا ربّ، إنّي اسْتَكْفَيْتُ يحيى أمورَ عِبادِك(٢). أتَراكَ تحتجّ بحُجّة يَرْضى الله بها... ثمّ إنّ هرونَ الرشيدَ سأل يَحْيى بنَ خالدٍ عن محمّد بن الليث هذا، فقال يحيى: يا أميرَ المؤمنين، هذا رجلٌ مُتّهمٌ على الإسلام فأمرَ هرونُ الرشيدُ بحبسِ محمّدِ بنِ الليث. وبعدَ أمَدٍ - وكان قلبُ الرشيدِ قد تغيّر على البرامكة - ذَكَرَ محمّدَ بنَ الليث فاستدعاه وسأله عن شأنه ثم قال له: «يا محمّدُ، أتُحِبُّني؟ فقالَ محمّدُ: لا، واللهِ، يا أميرَ المؤمنين... وَضَعْتَ في

(١) قاضي مصر(؟).
(٢) استكفى فلان فلاناً أمراً: جعل الأمر كلّه إلى الشخص الثاني وصرف الشخص الأوّل نظره عن ذلك الأمر.

رِجلي الأكبالَ وحُلْتَ[1] بيني وبينَ العِيالِ بلا ذنب أتيتُ ولا حَدَثٍ أحْدثتُ سوى قولِ حاسدٍ يَكيدُ الإسلامَ وأهله ويُحِبّ الإلحّاد وأهلَه . . . » .

٦ ـ التدخّل في أمور الرشيد الخاصّة :

إن هرونَ الرشيدَ قد جَعَل يحيى بنَ خالدٍ قَيِّماً على دارِ النساء فاستبدّ يحيى بذلك حتّى إن زبيدةَ (زوجَ هرونَ الرشيدِ) نفسَها شَكَتْ ذلك إلى هرونَ نفسِه . ومعَ أن الحَزْمَ في مثلِ هذه الأمورِ مشكورٌ، فإنّ تجاوُزَ الحدّ فيه إلى جَعْلِ الخدمِ عُيوناً على الخليفة ليس أمراً مقبولاً .

قال الطبري (٣ : ٦٧٣ ـ ٦٧٤) : «وذَكَرَ زيدُ بنُ عليّ بن حُسين بن زيدٍ أنّ إبراهيمَ بنَ المَهْديّ حدّثه أن جَعفرَ بنَ يحيى قال له يوماً ـ وكان جعفرُ بن يحيى صاحِبَهُ عندَ الرشيدِ، وهُوَ الذي قَرّبه منه ـ : إنّي قدِ اسْتَرَبْتُ بأمر هذا الرجل[2]، يَعْني الرشيدَ . . . وإنّي أردتُ أنْ اعتبرَ ذلك بغيري[3]، فكنتَ أنتَ . فارْمُقْ[4] ذلك في يومِكَ هذا وأعْلِمْني ما ترى منه . قال (إبراهيم بن المهدي) ففَعَلْتُ ذلك في يومي (هنا تأتي تفاصيلُ الخُطّة التي اتّبعها ابراهيم ابن المهدي) . ثمّ قال جعفرٌ البرمكيّ لابراهيمَ بنِ المَهديّ : ما عندَك؟ قال إبراهيم : رأيتُ الرجلَ (أي هَرونَ الرشيدَ يَهزل إذا (أنتَ) جَددتَ ويَجِدُّ إذا هزَلت . فقال (جعفرٌ) : كذا هُوَ عندي» .

---

(١) الكبل (بالفتح) : القيد (من حديد أو نحوه) . حال (اعترض) بيني وبين العيال (الأهل الذي تجب على الرجل إعالتهم) : منعتني من الاهتمام بأهلي .

(٢) استراب فلان بفلان (القاموس ١ : ٧٧) وجد فيه ريبة (تهمة، ظنّ فيه سوءاً) .

(٣) أردتَ أن أعتبر ذلك بغيري : أن أرى العبرة في غيري (أن أجرب في أمر رجلاً آخر فإذا خاب وقع العقاب عليه لا عليّ) .

(٤) رمق فلان فلاناً : نظر إليه وتابعه ببصره وراقبه .

٧ ـ إدلال البرامكة على الرشيد :

الإدلال هو الإفراط في الجُرأة على معاملةِ الناس معاملةً قائمةً على «رَفْعِ الكُلفة» واستغلال الصداقة أو النفوذ فوق ما تسمَحُ به قواعدُ السياسة أو قواعد الصداقة .

يكفي أن أُوردَ هنا حكايةً واحدةً من إدلال البرامكة على الرشيد ومِنَ استهتارِهم أيضاً في مُعاملته . قال ابن الطِقْطِقي في كتابه «الفخري» (مصر ١٥٣ = بيروت ٢٠٦) :

جاء عبدُ الملكِ بنُ صالحٍ العبّاسيُّ يوماً إلى جعفر بن يحيى وقال له : جِئْتُ إليك، أصْلَحَكَ اللهُ، في ثلاثِ حوائجَ أريدُ أن تُخاطِب الخليفةَ فيها : أوّلها أنّ عليّ دَيْناً مبلغُهُ ألفُ ألفِ (مليون) دِرْهمٍ أريدُ قضاءهُ؛ وثانيهما أُريدُ وِلايةً لابني يشرُفُ بها قدرُهُ؛ وثالثها أريدُ أنْ تُزَوِّجَ وَلَدي بابنةِ الخليفة فإنّها بنتُ عمّه وهُوَ كُفْء لها . فقال له جعفرُ بنُ يحيى : قد قضى اللهُ هذه الحوائجَ الثلاثَ . أمّا المالُ ففي هذه الساعة يُحْمَلُ إلى منزلك؛ وأمّا الولايةُ فقد وَلّيْتُ ابنكَ مِصْرَ؛ وأمّا الزَواجُ فقد زَوّجته فلانةً ابنةَ مولانا أمير المؤمنين على صَداقٍ مبلغُهُ كذا وكذا . فانصرفْ في أمانِ الله . فراحَ عبدُ المَلِكِ (بن صالح العبّاسي) إلى منزله فرأى أنّ المالَ قد سَبَقَه . ولمّا كان من الغَدِ حضرَ جعفرٌ عند الرشيد وعرّفه ما جرى، وأنّه قد وَلّى (فلانَ بنَ عبدِ الملك بن صالح) مِصْرَ وزوّجه ابنَةَ (هرونَ الرشيد) . فَعَجِبَ هرونُ الرشيدُ من ذلك وأمضى (وافق على) العَقْدَ والوِلاية . فما خَرَجَ جعفرٌ من دار الرشيد حتّى كَتَبَ الرشيدُ (لابنِ عبدِ الملك بن صالح) التقليدَ (بولاية) مِصْرَ وأحْضَرَ القُضاةَ والشُهودَ وعَقَدَ العَقْدَ .

وكَثُرَ إدلالُ البرامكة على الرشيد حتّى كَثُرَ دُخولُهم عليه بلا إذنٍ ـ في

كلَّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهار - حتّى سِيء هرونُ الرشيدُ بذلك وأبدى استياءه من ذلك سرّاً وعلانيةً (راجع الطبري ٣: ٦٦٧-٦٦٨؛ راجع أيضاً ابن الأثير ٦: ١٧٧).

٨ - استهتار البرامكة بالرشيد:

قيل: أسرّ الرشيدُ ذاتَ يومٍ حديثاً إلى نديمٍ له ذي حَظْوةٍ عنده اسمُهُ زُرارةُ بنُ محمّدٍ العربيُّ. وخرج زُرارةُ ذلك اليومَ من عند الرشيد فتلقّاه جعفرٌ (ربّما على عادتِه في مثل تلك الأحوال) وأرادَ أن يَعْرِف منه ذلك. فلم يَبُحْ زُرارةُ بشيء. ولمّا وَصلَ الخبرُ بذلك إلى الرشيدِ غَضِبَ الرشيد. ولم يكن أحدٌ من البرامكة - أو مُعْظَمُهم - يُبالي غضبَ الرشيد في مثلِ تلك الأمور. ويُقال إنّ البرامكةَ أنفُسَهم دَسّوا إلى الرشيد من غنّى في حَضْرَتِه بَيْتَيْ عُمَرَ ابنِ أبي ربيعةَ:

لَيْتَ هنداً أنْجَزَتْنا ما تَعِدْ ... وشَفَتْ أنْفُسَنا مِمّا تَجِدْ[1]،

واسْتَبَدَّتْ مرّةً واحدةً، ... إنّما العاجزُ مَنْ لا يَسْتَبِدّ.

ويرى ابنُ خَلْدونٍ (المقدّمة (ص ٢٦/١٧) أن أعداء البرامكةِ دَسّوا إليه ذلك المُغنّيَ حتّى يَكْشِفوا له عن شيء ممّا يفعَلُ البرامكةُ. فلمّا سَمِعَ الرشيد من المُغنّي هذينِ البيتين قال: إي، واللهِ، إنّي عاجزٌ.

(١) وعد (في لغة أهل الحجاز): هدّد. وجد يجد موجدة (بكسر الجيم): غضب (المقصود: هند تهدّدنا بأنواع من العذاب فتقلق نفوسنا. فليتها تنفذ أمراً من تلك الأمور حتّى تطمئن نفوسنا ونعلم مقدار قدرتها على إيذائنا).

٩ - استبدادُ البرامكة بأمورِ الدولة:

قال ابنُ خَلْدُونٍ (المقدّمة ١٤، ابتداء من السطر الأخير/٢٤): «وإنّما نَكَبَ البرامكةَ ما كان مِنَ استبدادِهم على الدولة... فغَلَبوا (الرشيدَ) على أمره وشاركوه في سُلطانه. فلم يكن له مَعَهُم تصرّفٌ في أمورِ مُلكه». وذكر ابنُ الأثير (٦: ١٠٧، راجع ١٤٥): أن الرشيدَ «استوزرَ (سَنَةَ ١٧٠ هـ = ١٨٧ م) يحيى بنَ خالدٍ وقال له: قد قلّدتُكَ أمرَ الرعيّةِ فاحكُمْ فيها بما ترى. واعْزِلْ من رأيتَ، واسْتَعْمِلْ (عيّنْ) مَنْ رأيتَ. ودفَعَ إليه خاتَمَهُ... وفي سَنَةِ ١٧٨ هـ = ٧٩٤ م) فوّضَ الرشيدُ أمرَ دَوْلَتِهِ إلى يحيى بن خالدٍ البرمكي».

وكان البرامكةُ قد أقاموا قُصورَهم في بَغْدادَ بالشمّاسيةِ، مُقابلَ قصر الخُلْدِ (بَلاطِ هرونَ الرشيدِ) ليس بينَ القصرين سِوى عَرْضِ نهر دِجْلةَ. فنظَرَ الرشيدُ (يوماً من نافذته) فرأى اعتراكَ الخيولِ وازدحامَ الناسِ على باب يحيى بن خالدٍ فقال: جَزَى اللهُ يحيى خيراً. تَصدّى للأمور وأراحَني من الكَدّ ووفّر أوقاتيَ على اللّذة... ثمّ (نظر ذلك المشهدَ مرّةً ثانية) فقال: اسْتَبَدَّ يحيى بالأمور دوني. فالخِلافة على الحقيقةِ له، وليس لي منها ألّا اسْمُها» (الفخري ١٥٥/٢٠٨).

١٠ - استبداد البرامكة بأموال الدولة:

كان اسمُ البرامكةِ مُرادِفاً للجود، فقد كانوا يُنْفِقُونَ الأموالَ (من بيتِ المال، طبعاً) بإسرافٍ حتّى دخل الحِقْدُ عليهم إلى قلب هرونَ الرشيدِ من أجل ذلك. وقد أنكرَ عَلَيْهِم ابنُ خَلْدونٍ (المقدّمة ١٥-١٦ ٢٤،٢٥) «احتجافَهم» (إقرأ: احتجانَهم: جَمْعَهم ثم ضَمَّهُم الأشياء إلى أنفسِهم) أموالَ الجِباية حتّى كان الرشيدُ يطلُبُ القليلَ من المال فلا يَصِلُ إليه... وتخطّتْ

إليهم من أقصى التُخومِ هدايا الملوكِ وتُحَفُ الأمراء، وسُيِّرتْ إلى خزائنهم، في سَبيلِ التزلُّفِ والاستمالة، أموالُ الجباية. ولعلّ ابنَ خَلْدونٍ كان يُشير في ذلك إلى الحادثةِ التالية (الطبري ٣: ١٣٣٢-١٣٣٤):

«قال الواثقُ (ابنُ المُعتصمِ بنِ الرشيدِ ذاتَ يومٍ سَنَةَ ٢٢٩ هـ = ٨٤٣-٨٤٤م) لجُلسائهِ: «مَنْ منكم يعلَمُ السببَ الذي وَثَبَ به جَدّي على البرامكة فأزالَ نِعْمَتَهم؟» فروى عَزّونُ (بنُ عبدِ العزيز الأنصاري) أنّ الرشيدَ أرادَ شِراء جاريةٍ فطَلَبَ سيّدُها بها مائةَ ألفِ دينار. فَرَضِيَ الرشيدُ بذلك وكتب إلى وزيره أن يدفعَ الثمن. فأرسل يحيى يقولُ له إنّ المال غيرُ حاصلٍ - إذِ استكثرَ يحيى أن يدفعَ (من بيت المال) مائةَ ألفِ دينارٍ ثمناً لجاريةٍ، وخاف أن تكثُرَ جُرأةُ الخليفة على طلبِ مثلِ هذا المبلغِ في مثلِ هذا الأمر. غَضِبَ الرشيدُ وقال: أليسَ في بيتِ مالي مائةُ ألفِ دينارٍ؟ لا بُدَّ منها.

فجَعَلَ يحيى الدنانيرَ دَراهِمَ (نحوَ مليونٍ ونصفِ مليونِ قِطعةٍ) ثم وَضَعَها في جانبٍ من المُتَوضّأ. فلمّا نَزَلَ الرشيدُ في فجر اليومِ التالي لِيتوضّأ لِصَلاةِ الصُبحِ، رأى أكْوامَ الدراهم. فسأل يحيى عنها. فقال له يحيى: هذه ثمنُ الجارية. فاسْتكثرَ الرشيدُ ذلك المالَ وأهملَ شِراء الجارية ثمّ أمر بِرَدِّ المبلغ إلى بيت المال، ولكنّه أمرَ أيضاً بأنْ يُحفظ ذلك المبلغُ له وباسمه. وبعدَ مُدّةٍ طَلَبَ الرشيدُ جانباً من ذلك المبلغِ فوجدَ أنّ البرامكةَ قد أنفقوا ذلك المبلغ هم أنفُسُهُمْ.

وفي تاريخ الطبري أيضاً أنّ جعفرَ بنَ يحيى ابتنى داراً فأنفق عليها عِشرينَ ألفَ ألفٍ (والألفُ مكرّرةٌ مرّتين: عشرينَ مِليون درهم) فلمّا قيل له: لَعلَّ الرشيدَ يُسيئهُ مِثلُ هذا الإسرافِ، قال جعفرٌ: إنّ الرشيدَ يعلَمُ أنّه قد أعطاني أكثرَ من ذلك (راجع ٣: ٦٧٣). وليسَ مِنَ الضروريّ أنْ استَكْثِرَ هنا

من الرِواياتِ المتعلّقة بالثَرَواتِ التي جَمَعها البرامكةُ، فذلك معروفٌ مشهور.

١١ - محاولة خَلْعِ الرشيد:

إنّ الأسبابَ التي مرّتْ كلُّها يمكن أن يَحتالَ المرء لها (يمكن أن يَجدَ لها مُسَوِّغاً) كيلا ترقى إلى موقفٍ باتٍّ يقتضي القضاء على البرامكة. أمّا هذا السببُ فلا. إنّ هذه التهمةَ وحدَها كافيةٌ لأنْ تُدخل الخوف على نفس الرشيد.

قال الطبريّ (٣: ٦٧٥، راجع ابن الأثير ٦: ١٧٧):

إنّ عليَّ بنَ عيسى بن ماهانَ اتّهَمَ (موسى بنَ يحيى بن خالدٍ) عند الرشيدِ في أمرِ خُراسانَ وأعلمَه (أيْ أعلَمَ الرشيدَ) طاعةَ أهلِها له ومَحَبَّتَهم إياه وأنّه يُكاتبهم ويعمَلُ على الانسلال إليهم والوثوب به مَعَهم. **فوَقَرَ[1] ذلك في نفس الرشيدِ عليه وأوْحَشَهُ منه**. وكان موسى أحدَ الفُرسان الشُجعان. فلمّا قَدَحَ عليُّ بنُ عيسى (بن ماهان) فيه أسْرَعَ ذلك في الرشيدِ[2] وعَمِلَ فيه القليل منه (أي أنّ شيئاً قليلاً من هذهِ التُهمة أفزعَ الرشيدَ كثيراً). ثمّ رَكِبَ موسى (بن يحيى بنِ خالدٍ) دَيْنٌ واختفى من غُرَمائه. **فتوَهّمَ الرشيدُ أنّه سارَ إلى خُراسانَ، كما قيل له. فلمّا صار (الرشيدُ) إلى الحِيرة، في هذهِ الحجّةِ (١٨٦ هـ = أواخر ٨٠٣م)، وافاه موسى من بَغْدادَ فحَبَسَهُ الرشيد**...

١٢ - الوشاة:

قال ابنُ خلدونٍ (المقدّمة ١٦/٢٥) عندَ الكلامِ على ما بلغ البرامكة

(١) الوثوب: الثورة. وقر يقر (بكسر القاف) الشيء في نفس فلان: ثبت (أدخل على نفسه شيئاً من الشكّ والظنّ السيّء).
(٢) أسرع ذلك في الرشيد: صدّقه الرشيد بسرعة.

إليه من الثروة ومن المكانة والوجاهة: «حتّى أسِفَوا (أغضبوا) البطانة وأحْقدوا الخاصّةَ وأغَصّوا أهلَ الولاية فكُشِفَتْ لهم وُجوهُ المنافسة والحسد، ودَبّت إلى مِهادِهِمُ الوثير من الدولَة عقاربُ السِعاية حتّى لقد كان بنو قَحْطَبَةَ - أخوالُ جَعفرٍ - من أعظم الساعِينَ عليهم لم تَعْطِفْهُمْ - لِمَا وَقَرَ في نفوسِهم من الحسد - عواطفُ (الرَحِمِ) ولا وَزَعَتْهم أواصرُ القَرابة».

١٣ - سبب مجهول:

يبدو أنّ السببَ الصحيحَ الواحدَ - إذا كان في أحداثِ التاريخ حادثٌ له سببٌ صحيحٌ واحدٌ - كان سبباً يَعْرِفُه البرامكةُ ولم يُصرّحوا به، كما كان هرونُ الرشيدُ يَعْرِفه ثمّ لم يشأ أن يُصرِّحَ به لمّا سُئِلَ عنه.

أ - لمّا حجّ يحيى بنُ خالدٍ (سَنَةَ ١٨٦ هـ) تعلّقَ بأستارِ الكعبةِ وجعل يُرَدِّدُ الدُعاءَ ويقول: اللّهُمَّ، ذنوبي إليك جَمّةٌ عظيمةٌ لا يُحْصيها غيرُك **ولا يَعْرِفُها سِواكَ**. اللّهُمَّ، إنْ كُنْتَ (تريدُ أنْ) تُعاقِبَني فاجعَلْ عُقوبتي في الدنيا، وإن أحاطَ ذلك بسمعي وبصري **ومالي وَوَلَدي** حتّى تبلُغَ رِضاكَ. ولا تجعَلْ عُقوبتي في الآخرة (الطبري ٣: ٦٧٤، راجع ٦٧٥).

وقد رأينا يحيى بنَ خالدٍ البرمكيّ لا يَطْمَئِنُّ إلى صِلةِ ابْنَيْهِ الفضلِ وجعفرٍ بالرشيد. ففي تاريخِ الطبريّ (٣: ٦٧٦): وكانَ الرشيدُ قد عَتَبَ على الفَضْلِ بنِ يحيى، وثَقُلَ مكانُه عليه لِتَرْكِهِ الشُربَ مَعَه. فكان الفضلُ يقول: إنّي لو عَلِمْتُ أن الماء يَنْقُصُ من مُروءتي شيئاً ما شربته.

وكان جعفرٌ يدخُلُ في مُنادمة الرشيدِ حتّى كان أبوه (يحيى) يَنْهاه عن مُنادَمَتِهِ ويأمُره بتَركْ الأُنس مَعَه. فيترك (جعفرٌ) أمرَ أبيه ويدخُلُ مَعَهُ (مع الرشيدِ) فيما يدعوه (الرشيدُ) إليه. وكتب يحيى إلى جعفرٍ، حينَ أعْيَتْهُ فيه الحيلةُ: إنّي (اقرأ: إذا) أهْمَلْتُكَ لَيَعْثُرُ (إقرأ: لَيَعْثُرَنّ) الزمانُ بك عثرةً تَعْرِفُ بها أمرَك، وإن كُنتُ لأَخْشى أن تكونَ التي لا شوى لها[1]. وقد كان يحيى (قد) قال للرشيدِ: يا أميرَ المؤمنين، أنا - والله - أكره مُداخلةَ جعفرٍ مَعَكَ. ولستُ آمَنُ أنْ تَرْجِعَ العاقبةُ في ذلك عليَّ منك. فلو أعْقَبْتَه (اقرأ: أعْفَيْتَه) واقتصرتَ به على ما يَتَوَلّاهُ من جسيمِ أعمالك كان ذلك واقِعاً بمُوافقتي وآمَنَ لَكَ عَلَيَّ...

ب - ولمّا أرادَ الرشيدُ أن يقتلَ جعفراً استدعى السِّنديَّ بنَ شاهكَ الحَرَشيّ[2]: وقال له: «قد بَعَثْتُ إليك في أمرٍ لو عَلِمَ به زِرُّ قميصي لرميتُ به في (نهرِ) الفراتِ» (الطبري ٣: ٦٨٢).

وأبعدُ من ذلك في الأسباب المجهولة أن مسروراً الكبيرَ الخادمَ (غلامَ هرونَ الرشيدِ) لمّا ذهب لقتل جعفرٍ، قال له جعفرٌ (الطبري ٣: ٦٨٥): دَعْني أذْهَبْ إلى الرشيدِ لِتَقَعَ عينُهُ عليَّ. فنَقَلَ مسرورٌ الكبيرُ إلى الرشيد رَغبةَ جعفرٍ، فقال الرشيدُ لمسرورٍ: **«لا، لأنّه (أي لأنّ جعفراً) يعلَمُ إنْ وَقَعَتْ عيني عليه لم أقْتُلْهُ».**

* * *

---

(١) الشوى (بالفتح): الأمر الهينّ ورذال (بضمّ الزاي: حقير) المال (القاموس ٤: ٣٥). والملموح في قوله: «لا شوى لها» (سوء لا نجاه منه أو لا علاج له).

(٢) كذا في الأصل. والحرشي نسبة إلى حرش (؟) عرف بها نفر من الرجال (تاج العروس - الكويت ١٧: ١٤٠ - ١٤١. ولعلّ المقصود هنا الحرسيّ (بالسين المهملة): أحد حرس السلطان (الحرس الخاصّ بالملك أو الحاكم).

ملاحظات

سردتُ، فيما سبق، عدداً من الرواياتِ الواردةِ في أسبابِ نكبةِ البرامكة في أربعةٍ من مصادرِ التاريخ المتباعدة في الزمن خمسةَ قرونٍ:

١ - إن عدداً من هذه الرواياتِ قد بَقِيَ في الذاكرةِ الإنسانية من الطبري (ت ٣١٠ هـ) إلى ابنِ خلدونٍ (ت ٨٠٨ هـ).

٢ - إنّ مُعْظَمَ هذه الأسبابِ كان يدورُ على السُلطة السياسية (النفوذِ في مراتبِ الحكم) وعلى القوّة الاقتصادية (طُرُقِ الوصولِ إلى الثروة ثمّ طرقِ إنفاق الأموال) في سبيل اكتساب الأنصار للاحتفاظ بالسُلطة السياسية.

٣ - لعلّ في الرواياتِ التي سبقت مبالغاتٍ كثيرةً (في مبالغِ المالِ وفي وجوهِ الاستبداد) أو في طريقة سَرْدِ هذه الروايات. ولكنْ لا شكَّ في أنّ كلّ سببٍ من هذه الأسباب مقبولٌ في العقلِ وفي الواقعِ الاجتماعي ويجوزُ أن يكونَ سبباً في سقوطِ النُظمِ السياسية (والأسرةُ البرمكية كانت نظاماً سياسيّاً قويّاً).

٤ - غير أنّه من المستبعد في تعليلِ التاريخ - أو من النادر - أنْ تسقُطَ دولةٌ أو أن يَقَعَ حَدَثٌ تاريخيّ بسببٍ واحد. ولكنّنا إذا نظرنا في كلّ هذه الأسباب مجموعةً - مهما يَكُنْ ضَعْفُ كلّ سببٍ منها وحدَه - فإنّ مجموعَ هذه الأسبابِ يمكن أن تحدُثَ به حادثةٌ تاريخية مثلُ نكبةِ البرامكة.

٥ - وإذا نحن نظرنا في اتّساع تلك النكبةِ التي ذهب فيها عددٌ كبير من البرامكة وأشياعِهم (قيل ألفٌ ومائتانِ) وصُودِرَتْ أموالُهم مالَ بنا الاعتقادُ إلى أن تكون تلك النكبةُ نتيجةً لنزاعٍ بين عَصَبِيَّتَيْن تغلّبتْ إحداهما على الأخرى. وقدِ اتّفق يومذاك أن تتغلّب عصبيّةُ الرشيدِ التي كانتْ عصبية

الدولةِ العبّاسيّة العربية. وقد رَفَدَتْ تلك العصبيةَ روافدُ كثيرةٌ دينيةٌ وشخصيةٌ ونفسية.

٦ - يبقى هُنالك عددٌ من الألغاز منها «قتلُ مسرورٍ الخادمِ الذي قَتَلَ جعفراً»، مَعَ أنّنا قد تعوّدْنا أن نرى مثلَ ذلك في القتل السياسي. في عام ١٩٥١م ذَهَبَ رياضُ الصلح رئيسُ الوزارةِ في الجمهوريّة اللبنانية إلى زيارة المَلِكِ عبدِ الله عاهلِ الأُرْدُنِّ لسببٍ لا نَعْرفه، ثمّ لم نَعْرِفْ ما دار بينهما. ولكنّ الذي حدث أن وَقَعَ مقتلُ رياضِ الصُلح قبلَ أن يُغادِرَ الأُردُنَّ ثم قُتِلَ المَلِكُ عبدُالله وقُتِلَ أيضاً قاتلُ الملكِ عبدِالله. ومثلُ ذلك حدث في عام ١٩٦٣م لمّا قُتِلَ جون فيتز جيرالد كَنيدي رئيسُ جمهوريةِ الولايات المتّحدة وكان كاثوليكيّاً - ولم يتّفقْ أن جاء قبلَه رئيسُ جمهوريةٍ للولايات المتّحدة غيرُ بروتستانتيّ من الكنيسةِ المشيخيّة - ثمّ قُتِلَ قاتلُه وقاتلُ قاتِله فيما قيل. ولعل ذَيْنِكَ الحادثين الذينِ جَرَيَا على هذه الصورة لم يكونا الوحيدَيْن في التاريخ.

وربّما كان ما يظنّه الناسُ حلّاً لمثل هذا اللُغز «لُغزاً أشدَّ استعصاء على الحلّ» قرأت اليومَ (الجُمُعةَ ١٥/٨/١٩٨٠) في الصحف المحليّة ما يُظَنُّ حَلّاً لِلُغزِ مقتلِ الرئيس الأميركيّ جون ف. كنيدي أُوردُه فيما يلي بنَصّه من جريدة «السفير» (ص ١)؛ وتَجِدُ هذا النصَّ في جريدة «النهار» أيضاً (ص ١ و١٠) - والمفروضُ أن يكونَ هذا النص قد ظَهَرَ في صُحُفٍ كثيرةٍ أيضاً عِندنا (في بيروت) وعند غيرنا. والنصّ في جريدة («السفير») هو التالي:

بعد ١٧ عاماً على دفنه
إعادة نبش جثة قاتل كنيدي
بسبب الاعتقاد بأنها لعميل سوفياتي

دالاس - ١٤ - ي ب. قررت السلطات الأميركية إعادة نبش جثة لي هارفي أوزوالد، وهو الرجل الذي اغتال الرئيس الأميركي الأسبق جون كنيدي، بعد ١٧ عاماً على دفنه، وذلك للتأكد مما إذا كانت جثة أوزوالد الحقيقي، أو جثة عميل سوفياتي انتحل شخصيته!

وقد أكدت مارينا زوجة أوزوالد، السوفياتية الأصل، النبأ وقالت إنها وقعت الأوراق الخاصة بالسماح للسلطات بنبش الجثة لأن موافقتها مطلوبة في مثل هذه الحالة حسب قوانين ولاية تكساس وسيجري تشريح خاص للجثة التي دفنت في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٣.

ويقف وراء إعادة فتح ملف أوزوالد الكاتب والمحامي البريطاني ميكائيل أدويس الذي يتابع القضية عن كثب منذ ١٦ عاماً.

ويعتقد أدويس أن لي أوزوالد الحقيقي اختفى في الاتحاد السوفياتي بعد زيارته له في العام ١٩٥٩ وأن الذي عاد إلى الولايات المتحدة في العام ١٩٦٢ كان عميلاً سوفياتياً معروفاً في دوائر الاستخبارات باسم «النائم».

ويقول مدعي عام دالاس، جيري بيتمان الذي ساعد أدويس في الحصول على إذن من المحكمة بفتح قبر أوزوالد أنه ليس باستطاعته التعليق على المسألة نظراً لحساسيتها البالغة». ويضيف «لقد عملنا بجهد لعامين واكثر حول هذه القضية».

ويقول أدويس أن مكتب التحقيق الفيدرالي قارن بصمات أوزوالد بعد

توقيفه ببصماته الموجودة في ملف البحرية الأميركية حيث أدى خدمته العسكرية، وأن السوفيات ربما سربوا بصمات أخرى إلى هذا الملف أو أن مكتب التحقيقات الفيدرالي «تغاضى» عن الفرق في البصمات لضرورات الأمن القومي.

وجدير بالذكر أن أوزوالد قتل بعد حوالي أربعة أشهر من اعتقاله على يد جاك روبي الذي توفي بسبب إصابته بالسرطان وطويت بذلك ملفات القضية علنياً على الأقل.

والنصّ في جريدة «النهار» مختلفٌ قليلاً (فهو أوْفَى من حيثُ التفاصيلُ الضروريةُ - ولقد اخترتُ أن أوردَ النصَ من جريدة «النهار» أيضاً (مَعَ أن النصّين مأخوذانِ من وَكالةِ يونايتد برس (في جريدة السفير: ي ب اختصاراً). وغايتي من ذلك:

- تبيانُ اختلافِ الأخبار مَعَ مرور الزمن وباختلاف الرُواة أيضاً.
- تبيانُ الاختلاف في تأويلِ الأخبار (بحَسْبِ اختلافِ الغايات من نشرها).
- الدلالةُ على أن الأسبابَ الفاعلة في الأخبار (مقاصدَ الجهاتِ الكامنة وراء الأحداث التي تتعلّق بها تلك الأخبارُ) تكونُ مختلفةً جِداً من الأسباب الظاهرة (التي تُنْشر أو تُذْكَرُ لِيَقرأها جماهيرُ الناس).

وفيما يلي النص من جريدة النهار (ويبدو فيه شيء من الإيجاز):

رفات قاتل الرئيس كينيدي قد يكون لجاسوس سوفياتي

كشفت أمس وكالة يونايتد برس أن قبر لي هارفي أوزوالد قاتل الرئيس الراحل جون كينيدي في دالاس (تكساس) سيفتح تمهيداً لفحص الرفات الذي فيه وتحديد صاحبه الحقيقي. وأضافت أن زوجة أوزوالد الروسية

الأصل وقّعت الوثائق الضروريّة لتنفيذ هذا العمل الذي سيتمّ في إشراف السلطة القضائية في الولاية.

وأوضحت الوكالة أن هذا التطوّر جاء نتيجة التحقيقات التي قام بها الكاتب والمدّعي العام البريطاني السيد مايكل أيدوز الذي لاحق قضية اغتيال الرئيس كينيدي طوال ١٦ عاماً. وقد أصرّ أيدوز في استمرار أن الرفات الذي في قبر أوزوالد هو في الواقع لجاسوس سوفياتي كان يعرف باسم «النائم» في أوساط الاستخبارات وانتحل شخصية أوزوالد على أثر وصول أوزوالد إلى الاتّحاد السوفياتي في ١٥ تشرين الأوّل ١٩٥٩. ويضيف أن الجاسوس السوفياتي دخل الولايات المتّحدة في العام ١٩٦٢ فيما اختفى أوزوالد الحقيقي في الاتّحاد السوفياتي.

وسبق لمحاكم تكساس أن ردّت طلباً قدّمه أيدوز لفتح قبر أوزوالد، إلّا أنها وافقت على طلب مماثل قدّمته أرملته.

وكان رئيسُ الأطبّاء الشرعيّين في دالاس (قد) صرّح في مؤتمر صحافي عقده في ١٩ تشرين الأول ١٩٧٩ أن القبر يجب أن يفتح لأنّ علماء الطبّ يستطيعون أن يؤكّدوا ما إذا كان يضمّ رفات أوزوالد أو شخص غيره (انتهى النّص).

وبعد: فلماذا قُتِلَ الرئيسُ الأميركي جون كنيدي؟ ومن الذي استفاد من مقتله؟ وما مكانُ العميل السوفياتي في هذه القضيّة؟ ولماذا دُفِنَ العميلُ السوفياتيّ في الولايات المتّحدة على أنّه أوزوالد الأميركيّ؟ وهل كانتِ الاستخبارات الأميركية تَعْرِفُ ذلك أو تجهلُه؟...

إنّ هذه الأسئلة تدلّ على أن الأحداثَ السياسية تخضَعُ لعواملَ مختلفةٍ

متشابكة، وعلى أنّ الأحداث التاريخيةَ تحتاجُ إلى تأمّلٍ وتحقيقٍ وتدقيقٍ. غيرَ أن الحقائقَ الثابتةَ تظهَرُ - إذا هي ظَهَرت - بعدَ آمادٍ طِوالٍ. من أجل ذلك كانتِ الحاجةُ دائماً إلى تجديدِ التاريخ (أي إلى إعادةِ النظر في مجرى الحوادثِ وعَرْضِها على مَحَكِّ النظر بالإضافة إلى أسبابها ونتائجها مّما يُوافقُ العَقل أو يُشاهَدُ في الاجتماع الإنساني، كما يقول ابنُ خلدون).

ليس من الضروريّ أن نبحَثَ عن سببٍ مُعيّنٍ في مثل هذه الأحوال. إنّ مثلَ هذا الحادثِ إنّما هو نتيجةٌ مُمْكِنة لنزاعٍ بين عصبيّتين. أمّا جميعُ الأسباب المُقْتَرَحَةِ أو المَرْويّة فلم تكُنْ سوى محاولةٍ لفهمِ ذلك الحادثِ فهماً ينطبق على الأحوالِ السائدة في عصرِ الحادثِ أو في عصر الباحث عن سببٍ لذلك الحادث. وإنّ الباحثَ عن سببٍ واحدٍ لنكبةِ البرامكة كالباحثِ عن سببٍ واحدٍ للثورة الفرنسية، مثلاً.

فمن أجلِ ذلك كلّه نستطيعُ أن نقولَ: إنّ نكبةَ البرامكةِ كانت تدبيراً سياسيّاً عاديّاً من مِثْلِ تلك النَّكَبات السياسية التي رأيناها في التاريخ من التَنازُعِ على الحُكْم ومن الحَسَد المَنْتوج من التَمَتُّع بأموال الدولة ومن المنافسة في الوَجاهة الاجتماعية. وفي مِثْلِ هذه الأحوال لا يحتاجُ الدارسُ لأحداثِ التاريخ أن يبحَثَ طويلاً عن أسبابِ ظاهرةٍ مَعْقولةٍ أو خَفِيّةٍ غير معقولة.

ثمّ إن التنظيمَ الذي نُفِّذَتْ به هذه النَّكْبةُ والتفكيرَ الطويلَ الذي سَبَقَها يُحيلانِ أن تكونَ تلك النكبةُ فورةً آنيّةً أو نَقْمَةً شَخْصية.

الإصلاح الديني في أوروبّة

في العصورِ القديمةِ وفي العصورِ الوسطى كانت أوروبّةُ هي الجانبَ الجنوبيَّ منها وحدَه ـ والجانبَ الجنوبيّ الشرقيّ منها على الأخصّ. أمّا شماليُّ أوروبّةَ خاصةً فكان ـ بما فيه من البردِ الشديد ـ مُسْتَقرّاً للبرابرة الجرمان، تلك القبائلِ الهَمَجيّةِ التي كانتْ تتحرّك من مكانٍ إلى آخرَ تُحاولُ أن تَصِلَ إلى البقاع الدافئة من القارة الأوروبيّة. غيرَ أنّ حُكّامَ الإمبراطورية الرومانية كانوا يَجْهَدون في دَفْعِ تلك القبائلِ عن حدودِهم كيلا تَتَهدّمَ الحضارةُ الراهنة يومذاك. إلّا أن الحَذَرَ لا يُغني مِنَ القَدَر!

ولقد كانَ الاهتمامُ الأوّلُ للأمبراطورية الرومانية أنْ تُقيمَ مَسالِحَها (المراكز العسكرية) على حدودها الطبيعية ـ على الأنهار الكبرى خاصّة ـ على نهر الطونة أو الدانوب (في جانبها الشَماليّ) وعلى نهر الراين (على جانبها البعيدِ في الغرب). ومَعَ اتّساعِ الاحتلال الرومانيّ وتشعبّ اللغة اللاتينية لَهَجاتٍ (بتأثير اختلاطِ الجنودِ الرومانيّين بأهلِ البلاد المحتلّة) كانتْ تنتشرُ الحضارةُ الرومانيّة (في وجوه الحياة الاجتماعية) ثم يَتْبَعُ انتشارَ الحضارة رسوخُ الثقافة (المدارك العقلية والمعارف الإنسانية)، ثمّ تَتَبدّلُ طرقُ التفكيرِ على مقتضى ذلك.

وبدأتِ المناطقُ الأوروبيّةُ تفترقُ، بالاحتلال الرومانيّ وبتشعبّ اللُغة اللاتينية لَهَجات مختلفةً، ثقافيّاً ودينياً.

وزالَ الاحتلالُ الرومانيُّ عن البِقاعِ الأوروبيّة المختلفةِ وانحسَرَ ظِلّ الحضارةِ الرومانية عن وَجْهِ الأرض في أواسطِ أوروبّة وغربيّها وجَنوبيّها ونَسِيَ الناسُ العاديُّون ما كان من أمرِ الرومان ومن شأن اللغةِ اللاتينية؛ ولكنَّ حِسَّ الحضارةِ الرومانية وفَيْءَ اللُغة اللاتينية ظَلّا في تُراب البلاد الأوروبيّة وجَوّها. غيرَ أنّ ظَلامَ العصورِ الوسطى كان مُخَيِّماً على البلاد وأهلِها كأنّ تلك البلادَ لم تَعْرِفْ في حياتِها الطويلةِ طَعْمَ الحضارة ولا هبّتْ على أرجائها رياحُ الثقافة. والأممُ كالأفرادِ تمرَضُ وتبرأ وتفتقرُ وتَغْنى وتطمَحُ وتقنع. ورَحِمَ اللهُ أبا تمّامٍ إذ يقول:

وإذا تأمّلْتَ البِلادَ رأيتَها ... تُثْري كما تُثري الرجالُ وتُعْدِمُ[1]!

في أواخرِ القرنِ الأوّلِ للهجرة (أوائلِ القرنِ الثامن للميلاد) خطا العربُ والإسلامُ على الأرض الأوروبيّة في الأَنْدَلُسِ خُطُواتٍ رحيمة وحَمَلَ العربُ والإسلامُ إلى أوروبّةَ النائمةِ عواملَ الإيقاظ. ثمّ قَطَعَ العربُ بالإسلام جبالَ البرانسِ تلك الجبالَ التي لم يجسُرْ أحدٌ بعدَ حَنّبَعْلَ، قبلَ ألفِ عامٍ، على أن يقطعها، فاستيقظَتْ أوروبّةُ السياسيةُ بالهِزّةِ الإسلامية.

وبعدَ قرنينِ نَزَلَ العربُ على البرّ الطويل (على الأرضِ الأوروبيّة في إيطاليةَ) ووصلتْ جيوشُ العرب إلى أبوابِ روما، وأخَذَ الأغالبةُ أمراء تونُس جزيةً مِنَ البابا يوحنّا الثاني عامينِ متواليين. ثمّ بعدَ نحو خمسةِ قرونٍ أخرى فَتَحَ الأتراكُ العُثمانيّون جميعَ الجانب الشرقيّ الجَنوبيّ من قارّة أوروبّة:

(١) تثرى: تغنى (تصبح غنية). تعدم: تفتقر.

استَوْلَوْا على شِبهِ جزيرةِ البَلقانِ، ودخل السُلطان محمّدٌ الثاني (الفاتح) مدينةَ القُسطنطينيّةِ عاصمةَ الإمبراطوريةِ الرومانية الشرقية (البيزنطية) فزالتْ تلك الإمبراطوريةُ من الوجود، ثمّ وصلَتْ خيولُ العُثمانيّين إلى أسوارِ فيِنّا.

في هذه الأثناء كان الإسلامُ ينتشرُ في كلّ مكانٍ: في شِبهِ جزيرةِ إيبِرية (إسبانيةَ والبُرتغال) وفي صِقِلّيَةَ وفي اليونانِ وبُلغاريةَ ورومانيةَ وبلادِ الصِرب وألْبانية وفي بولونية الصقلبية، (السلافية) وكان أوسعَ من انتشارِ الإسلام نفسِه انتشارُ الثقافةِ العربية مِنَ العلمِ والفلسفة حتّى قال روجر بايكون (ت ١٢٩٤ م = ٦٩٣ هـ) في إنكلترة، في طَرَفِ أوروبّة الغربيّ: عَجِبْتَ لِمَنْ يُحاوِلُ درسَ الفلسفة وهو لا يَعْرِفُ اللغة العربية! وكانتِ النعمة الكبرى التي أفاضها الإسلامُ على أوروبّةَ تلك العلومَ التي نَقَلَها الإسلامُ إلى أوروبّةَ الحديثةِ من الشرق القديم بعدَ أن زاد في بَعْضِها زياداتٍ جعَلَتها من ابتكارِ المُسلمين كالجبرِ والكيمياء والفلك وعلم الضوء وسِواها من علوم التعاليم (العلوم الرياضيّة والعلوم الطبيعية). وكان أعظمَ ما حَمَلَ الإسلامُ إلى أوروبّةَ المسيحيةِ من علوم الفلسفة علمُ الكلام[1] **ذلك العلمُ الذي يقومُ** في أحدِ وَجْهَيْهِ على أن العقلَ حَكَمٌ في جميعِ الأمور، حتّى في تلك التي لم تَجْرِ العادةُ في تحكيمه فيها كالنفس والآخرةِ والنُبُوّةِ وصِفات الله. وتلك نافذةٌ على الحياة كانت في النَصْرانيةِ مُوصَدَةً في وجه العقل.

وبعد أن كانتِ الفلسفةُ الإسلاميةُ قد هَزّتِ الحياةَ الأوروبّيّةَ جاءت الفلسفةُ والعلومُ الإسلامية لِتَحُلَّ عن العقلِ الأوروبيِّ قيودَه ولِتُطلِقَ التفكيرَ الأوروبيَّ من سِجْنٍ كان قد أقامَ فيه خَمْسَةَ عَشَرَ قرناً! لقد كان لذلك في أوروبةَ

(١) علم الكلام: علم غايته الدفاع عن العقائد الإيمانية (مثل وحدانية الله، ووجوب النبوّة، والنفس، والبعث بالروح والجسد يوم القيامة). بالأدلة العقلية. هو في الحقيقة مزج للآراء الدينية بالآراء الفلسفية أو استخدام البراهين الفلسفية للدفاع عن الدين.

نتائجُ كِثارٌ منها حركةُ الإصلاحِ الدينيّ. لقد بدأ هذا الإصلاح مُنذُ بدأ الغربُ الأوروبيُّ يحتَكُّ بالشرق الإسلاميّ احتكاكاً شديداً، في القرنِ العاشرِ للميلادِ (القرنِ الرابعِ للهجرة)، فإنّ القِدّيسَ دونستان[1] (٩٢٤-٩٨٨م) هالَهُ الفسادُ الذي كان مُنتشراً في الأدْيِرَةِ في إنكلترةَ، فإنّ الرُهبانَ لم يكونوا يُراعُون روحَ الرَهْبنة: لم يكونوا يَفُونَ بالعهودِ التي كانوا قد قطعوها على أنفسِهم من الزهد والعِفّة والطاعة. ولا أحسَبُ أن القدّيسَ دونستان كان - حتّى قبلَ أن نَعْرِفَ أن القرآن قد نُقِلَ إلى اللغة اللاتينية - غافلاً عن وِجهةِ نظرِ الإسلامِ في الرهبنة النصرانية (سورة الحديد ٥٧: ٢٦-٢٧).

﴿ ولَقَدْ أرسَلْنا نُوحاً وإبراهيمَ وجعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِما النُبُوَّةَ والكِتابَ[2]،
فَمِنْهُم مُهْتَدٍ وكثيرٌ مِنْهم فاسِقون[3].
ثمّ قَفَّيْنا على آثارِهِم بِرُسُلِنا[4]،
وقَفَّيْنا بِعيسى بْنِ مَرْيَمَ وآتَيْناهُ الإِنْجيلَ؛
وجعَلْنا في قُلوبِ الذين اتَّبَعوهُ رأفةً ورحمةً
ورَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها[5] ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إلاّ ٱبْتِغاءَ مَرْضاةِ الله،
فما رَعَوْها[6] حَقَّ رِعايَتِها.
فآتَيْنا الذين آمنوا مِنْهُم أَجْرَهُم، وكثيرٌ منهم فاسِقون ﴾.

ولم يكتَفِ دونستانُ بالعملِ على إصلاحِ الأديرة وتقويمِ الرُهبانِ، بل أصرّ على أن يَحْيا جميعُ رِجالِ الدين حَياةً فيها عَفافٌ عن المحارم[7]. ثم

(١) دونستان (٩٢٤-٩٨٨م) قسّيس إنكليزي أصبح أسقفاً على كنتربري (أعلى مراتب الكهنوت في إنكلترة)، عام ٩٦٠هـ (٣٤٩م).
(٢) الكتاب: الوحي، النبوة (إنزال الكتب السماوية على الرسل).
(٣) الفاسق: الضال عن الإيمان والعمل بما يؤمن، هو يعتقد بالأمر الديني ولكن لا يقوم به.
(٤) قفّينا على آثارهم برسلنا: أرسلنا بعدهم رسلاً من عندنا.
(٥) ابتدع الرجل الشيء: اختلقه، أتى به من عند نفسه.
(٦) رعى الرجلِ العهد: حفظه (حافظ عليه)، وفى به.
(٧) العفاف: تجنب الشيء مع الميل إليه والقدرة عليه. المحارم: ما حرّم الله كالزنا وشرب الخمر.

تَخطّى إلى عَوامِّ الناسِ فأصدَرَ قوانينَ تُحَرِّمُ السُكْرَ والجدالَ والنِزاع. وتحريمُ الخمرِ في الإسلام أمرٌ مشهور. أمّا الجِدال والنزاع فيحتاجُ القاريء إلى شيء من الاستشهاد عليهما.

﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكِتابِ(١) إلّا بالتي هي أحسنُ،
إلّا الذين ظلموا منهم.
وقولوا: آمَنّا بالّذي أُنْزِلَ إلَيْنا وأُنْزِلَ إليكم.
وإلّهنا وإلّهُكُمْ واحدٌ، ونحنُ له مُسلمون (٢٩: ٤٦، العنكبوت).
وما نُرْسِلُ المُرْسَلينَ إلّا مُبَشِّرينَ ومُنْذِرين(٢).
ويُجادِلُ الذين كَفَروا بالباطلِ لِيُدْحِضوا به الحقّ(٣)
واتّخذوا آياتي وما أُنْذِروا هُزُواً. (١٨: ٥٦، الكهف، راجع أيضاً ٦: ١٢١ الأنعام، ٢٢: ٣،٨ الحجّ، ٣١: ٢٠ لقمان، ٤٠: ٣٥، ٤٠: ٥٦ غافر، الخ).
وأَطِيعوا اللهَ والرسولَ،
ولا تَنازَعوا فتَفْشلوا وتذهَبَ ريحُكم(٤)
واصْبِروا، إنّ اللهَ مَعَ الصابرين (٨: ٤٦ الأنفال. راجع أيضاً ٨: ٤٣ الأنفال، ثمّ ٣: ١٥٢ آل عمران، ٤: ٥٩ النساء، ٢٠: ٦٢ طه، ٢٢: ٦٧. الحجّ) ﴾.

ونأتي إلى مُصْلحٍ إنكليزيٍّ آخر هو جون ويكليف

(١) أهل الكتاب: الذين جاءهم رسولهم بكتاب من عند الله (وهنا هم اليهود والنصارى).
(٢) مبشّرين: يعدون الناس بالخير. منذرين: يهددون الناس بالشر.
(٣) أي إنّ الذين كفروا يجادلون المؤمنين (المسلمين) بالباطل (بالآراء الفاسدة) ليدحضوا (ليبطلوا) به الحقّ (الآراء الصحيحة).
(٤) تفشلون: تضعفون. ريحكم: قوّتكم.

(ت ١٣٨٤ م - ٧٨٦ هـ). كان ويكليفُ عظيمَ النقمةِ على رجالِ الكنيسة يرى أن جميعَ مساوئهم تَرْجِعُ إلى الثروةِ العظيمة التي جَمَعوها. فدعا الكنيسةَ إلى التخلّي عنِ التدخُّل في السياسة. ثمّ أعلن أن الإنسان يقومُ بعبادة الله بنفسه ولا حاجةَ به إلى الكَهَنوتية(١)، كما أرادَ الاستغناء عن البابويّة والرجوعَ بالكنيسة (بالنَّصْرانية) إلى الزُّهْد السَلَفيّ(٢) (الذي كان للنصارى الأوّلين). ولم يَرَ ويكليفُ لرجالِ الدين سُلطةً للتوسّط بينَ الناسِ والله كيما يَغْفِرُ اللهُ ذنوبَ الناس. ثمّ إنّه أنكرَ قُدرةَ رجالِ الدين على حلّ الناسِ من خطاياهم وأنكرَ الغُفْرانات (دَفْعَ مبالغَ من المالِ إلى الكنيسة لِشراء بَراءاتٍ من الذنوبِ الماضية). وقد أنكرَ أيضاً الحجَّ إلى المُدُنِ التي فيها قبورٌ للقدّيسين، كما أنكر عِبادَه القدّيسين وتكريمَ صُوَرِهِمْ (التعبّدَ لصُوَرِهِمْ). وأعلنَ ويكليفُ أن النجاةَ في الآخِرَةِ مِنْ عذابِ جَهَنَّمَ نعمةٌ من الله يَهَبُها لمن يشاء من عبادهِ وليسْتِ استحقاقاً للإنسان (في مقابلِ أعمالِه الصالحة). وهاجم ويكليف نِظامَ رَسْمِ الأساقفة(٣) (سُلطةَ الكنيسة على جَعْلِ الناسِ أساقفةً، لأنّ الأسقفَ إنسانٌ اختارَ مِنْ تِلقاء نفسِه أن يسلُكَ سبيلَ الوعظِ والإرشاد بينَ أبناء جنسه). وكذلك أنكرَ ويكليفُ استحالةَ القُربانِ (انقلابَ الخُبْزِ والخمر بين يدي القِسّيسِ لحمَ المسيحِ ودَمَه(٤)). **وقال إنّ الاعترافَ الإجباريّ عُبوديةٌ**

(١) الدرجات الكهنوتية (مراتب لرجال الدين المسيحي) وفي النصرانية يجب أن يقوم القسيس بالعبادة على نمط معين في مكان معيّن وهو يلبس ثياباً معيّنة. إن ويكليف لا يرى حاجة إلى ذلك، فكلّ إنسان يستطيع أن يقود أبناء دينه في العبادة.
(٢) السلف: الرجال الأولون الذين عاصروا ظهور الدعوة. وجميع أعمال هؤلاء تكون عن إخلاص بلا تصنّع.
(٣) في النصرانية يجب أن تقام للرجل حفلة دينية حتىّ يصبح أسقفاً أو يرتقي في الكهنوت من درجة إلى درجة.
(٤) يعتقد النصارى أن القسّيس إذا قرأ على شيء من الخبز وشيء من الخمر ألفاظاً معيّنة أصبح ذلك الخبز لحم المسيح، وأصبحت تلك الخمر دمه.

للدّجّال[1]. وقولُ الإنجيلِ عند ويكليفَ فوقَ أقوالِ الأُسقُفِ وأقوالِ البابا. حتّى الرجلُ القدّيسُ حَقًّا لا يُقْبَلُ قولُه إلّا بمقدارِ ما يكون قولُه موافقاً لقولِ الكِتاب المقدّس، لأنّ ما شَرَعَه المسيحُ (للنصارى) كافٍ وفوقَ جميعِ القوانينِ الأُخرى. ثم إنّ على الإنسان ألّا يأخذَ بهذهِ القوانينِ الأخرى إلّا إذا كانت تفصيلاً لشرعِ الله المجمَلِ.

إنّ جميعَ أوجهِ الإصلاحِ التي جاء بها ويكليفُ لا يمكنُ أن يكونَ قد جاء بها إلّا من الإسلام: إن الحياةَ السَلَفيّةَ البريئةَ من التصَنُّعِ والتعقيدِ والتَرَفِ على الوجهِ العاقلِ من السلوكِ الإنسانيِّ هو الإسلامُ. ثمّ إنّ إلغاءَ الدَرَجاتِ الكَهَنوتيّةِ وإنكارَ سُلطةِ رجالِ الدين وجَعْلَ نجاةِ الإنسانِ في الآخرة راجعةً إلى إرادةِ الله وأنْ لا شفاعةَ لأحدٍ يومَئِذٍ إلّا أنْ يشاءَ الله وإنكارَ الحجِّ إلى قُبورِ الأولياء لم تأتِ إلّا في الإسلام. وأمّا أنّ كلامَ الله هو المصدرُ الأوّلُ والأخيرُ لكلِّ شيء، وأن جميعَ الأقوالِ لا تُقْبَلُ إلّا إذا كانتْ تفصيلاً لما جاء في القرآن الكريم فَهُوَ القاعدةُ المتّفَقُ عليها في الإسلامِ وحدَه. وأمّا استحالةُ القُربانِ وقُدرةُ رجالِ الدين في النَصْرانيةِ على حلِّ الخطايا (غُفرانِ ذُنوب البشر أو وَعْدِ البشر بغُفران ذنوبهم) والاعترافُ (الإفضاء لرجلِ الدينِ بالذُنوب التي كان المرء قدِ ارتَكَبَها عَفْواً أو قَصداً حتّى يحُلَّها رجلُ الدين) فمن الأمور التي لم يقبَلْها الشرع الإسلاميّ قطُّ. والمُصْلِحُ ويكليفُ كان متأثّراً بلا ريبٍ بآراء الأشعرية الذين قالوا (على لسان الأشْعَرِيَّيْنِ العَظيمين: أبي الحسنِ الأشعريِّ والغزّاليِّ): إنّ الله يستطيعُ أن يَغْفِرَ لجميعِ المشركين إذا شاء وأن يُدخِلَ جميعَ المؤمنين إلى النار إذا شاء. ومنذُ أيام أحمدَ بن حَنْبَلٍ (ت ٢٤٢ هـ = ٨٥٥ م)

(١) الإعتراف: الإفضاء للقسّيس بالذنوب التي ارتكبها النصرانيّ حتىّ يحلّه القسّيس منها (يعده بأن الله سيغفرها). الدّجال = المسيح الدّجال (الكذّاب): رجل كاذب يظهر في آخر الزمان ويدّعي أنّه المسيح. عبوديّة للدجّال: تعبّد له، عبادة له.

كانتِ الحملةُ شديدةً على عوام المسلمينَ الّذين يَتَهافتون على زيارةِ قبورِ الأولياء والصالحين. ثمّ عَظُمَتْ هذه الحملةُ على يدِ ابن تَيْميّةَ (٧٢٨ هـ = ١٣٢٩ م) الذي جاء قبل ويكليفَ بنصفِ قرنٍ. غيرَ أن أحمدَ بنَ حَنْبلٍ وابنَ تيميّةَ قدْ أكّدا ذلك فقطْ، ففي حديثٍ عن محمّدٍ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم: «. . . ألا وإنّ مَنْ كانَ قبلَكم كانوا يتّخذون قُبورَ أنْبيائِهِمْ وصالِحيهِمْ مساجدَ، ألا فلا تتّخذوا القبورَ مساجدَ. إنّي أنْهاكُمْ عن ذلك».

أمّا الرجُلُ الذي اقترنَ الإصلاحُ الدينيُّ في أورُوبّةَ المسيحية باسمه فهُوَ الراهبُ الألماني مارتن لوتر (المشهورُ في البلادِ العربية بلفظِ اسمه على مُقتضى اللغة الانكليزية: لوثر).

وُلِدَ مارتنُ (١٤٨٣-١٥٤٦م) في بلدةِ أَيْسْلِيبن. وكان أبوه هانس (حنّا) لوثرُ فلّاحاً، غيرَ أنّه انتقلَ إلى مانسفَلْد وأصبحَ فيها عاملاً في المناجم ثمّ أصبحَ على شيء من الغِنى. وكذلك كان أبوه وأمُّه مرغريتُ تسيغلرُ قَويمَي السيرةِ حازمَيْن وشديدَيْن جدّاً في معاملته حتّى إنّهما كانا يَضْرِبانِهِ إذا أخطأ. وأخذ مرّةً جوزةً صغيرةً خِلْسةً فضربته أمّه حتّى سال دَمُهُ. ولم يكنِ المعلّمون في مدرسته الأولى أقلَّ قسوةً، إذ كان هو قليلَ البراعة في اللغة اللاتينية قليلَ الحبِّ لها.

ولمّا أصبحَ مارتنُ لوثرُ في الخامسةِ عَشْرةَ من العُمُر انتقل إلى مدرسةٍ في بلدةِ أَيْسيناخَ (١٤٩٨ م) فسكَنَ - في حديثٍ طويلٍ - في أُسْرةٍ وجيهةٍ غنيّةٍ تتّصل بآل قُطّا. وكان في هذه الأسرةِ امرأةٌ - لم يُسَمِّها مارتن لوثر - كانت تَعْطِفُ عليه جدّاً. وقد تَعَجّبَ كثيراً ذاتَ يومٍ إذ سَمِعَ هذه المرأة تُنْشِدُ مقطوعةً من الشعر فيها أنه لا شيء في الدنيا أحسنُ مِنْ حُبِّ امرأةٍ لرجلٍ استطاعَ هو أن يستميلَها إليه!

ثمّ إنّ مارتنَ لوثرَ انتقلَ إلى جامعة أرْفورت ونال فيها البكالوريا (١٥٠١م) ثمّ نال إجازتها (١٥٠٥م). وكان أبوه يريدُ منه أن يُصْبحَ محامياً. ولقد غِيظَ الأبُ لمّا عَرَفَ أن ابنه دخلَ الرَّهْبنة الأُغُسْطينية في أرفوت (١٥٠٦م) وبعدَ خمسةِ أشهُرٍ (شباط - فبراير ١٥٠٧م) رُسِمَ مارتنُ لوثر كاهناً. وفي عام ١٥١١م تخرّج برتبةِ فقيهٍ (دكتور في اللاهوت).

ولعلّ أسوأ ما مرّ في حياة مارتنَ لوثر كان ما خَبَرَهُ في رِحْلته إلى روما حيث قضى أربعةَ أشهُرٍ (١٥١٠-١٥١١م). وليسَ من الأدبِ أن أعيدُ أنا هُنا ما قاله هو عن روما ولا ما ذَكَرَ أنّه شاهدَهُ بعَيْنَيْهِ مِنَ السيّئاتِ الاجتماعية، ومن سيّئاتِ البابا وسيّئاتِ رجالِ الدين فيها، ممّا لا يُمْكِنُ أن يُصدِّقَه الإنسانُ لو سَمِعَهُ بأذُنَيْه!

وَغَبَرَتْ سِتُّ سَنَواتٍ كان لوثرُ في أثنائها كلِّها شديدَ الحميّةِ في انتقادِ رجالِ الكنيسة (الكاثوليكية) وقوانينها كثيرَ الإخلاص في اقتراحِ وُجوهِ الإصلاحِ مِنْ غيرِ أن يُفكِّرَ بقطعِ صِلته بالكنيسة الكاثوليكية. وفي عام ١٥١٧م (٩٢٣ للهجرة) - بعدَ أن فَتَحَ السُلطانُ سليمُ سوريةَ ومِصْرَ، وكانتِ الدولةُ العثمانيةُ يومذاك في إبّانِ قوّتها ومَجْدِها، وأعلامُ الإسلام ظافرةٌ في كلِّ مكان - جاء راهبُ ألمانيّ دومينيكانيّ اسمه يوحنّا تتْزِلُ (١٤٦٥-١٥١٩م) من قِبَلِ البابا لاوُنَ العاشِر (١٥١٣-١٥٢٢م) إلى ألمانيةَ ليبيعَ فيها «غُفرانات» لِتتميمِ بناء كنيسة القدّيس بُطرس في روما. فأثارَ ذلك غَضَبَ لوثرَ من الناحيةِ الدينيةِ ومن الناحيةِ الاقتصادية معاً فقال، في ما قاله، أنّ البابا نفسَه لو عَلِمَ بالطريقةِ التي تُبْتَزُّ بها الأموالُ أثماناً للغُفرانات لَفَضّلَ أن يَهْدِمَ كنيسةَ القدّيس بُطرسَ إلى الأرض على أن يُكْمِلَ بناءها بعَرَقِ أبناء الكنيسةِ (النصارى)

ودمائهم. ولقد شَعَرَ الشعبُ الألمانيّ بوَطْأةِ العِبء الاقتصادي تُلقِيه الكنيسةُ على عاتقهِ فوَقَفَ إلى جانبِ لوثرَ في حَمْلته الدينية!.

ولمّا كَثُرَ ضغطُ البابا على لوثرَ في شأنِ الغُفرانات - مِنْ طريق نَفَرٍ من رجالِ الدين ونَفَرٍ من الأمراء في ألمانية - عادَ لوثرُ إلى عزيمته الصُلْبةِ التي وَرِثَها عن أبيه وأمِّه فوَسّعَ حَملتَه حتّى شَمِلَتِ البابا نفسَه ووجودَ الكنيسةِ الكاثوليكية ذاتِها. وكانتْ عُقْدةُ المُشكلةِ التي جَمَعَتِ الألمانَ في مُعْظَمِهم - أمراءَ ورجالَ دينٍ وجُمهوراً - هي التاليَةَ: كيف يستطيعُ البابا أن يَغْفِرَ ذنوبَ المُذْنبين لقاءَ مبالغَ من المال؟ وما الدليلُ، في العقلِ أو الدين، على أنّه قادرٌ على ذلك؟

وطالَ الجدالُ بين الكَثْرةِ من الألمان الذين يَرَوْنَ رأيَ لوثرَ والقِلّةِ من الألمانِ الذين يَرَوْنَ رأيَ البابا، فعلّق لوثرُ (٣١/١٠/١٥١٧م) على باب كنيسةِ فيتّنبرغَ قائمةً فيها خمسٌ وتِسْعُونَ قضيّةً للمناقشةِ ودعا كلَّ من يريدُ مُناقشتَه فيها إلى لقاء علني. هذه القضايا الخَمسُ والتِسعون تدورُ كلُّها حولَ صِحّة ما يَدّعيه البابا من مقدرتهِ على غُفران الذنوب. وفي ما يلي عددٌ من الآراء الجُزْئية التي جاءتْ في هذه القضايا:

- لا يتمتّعُ البابا لا بالمَشيئة ولا بالقُدرة على تخفيفِ العِقاب عن مُذْنبٍ إلّا إذا كان هو (أي البابا) قد فَرَضَ عليه هذا العِقابَ من عند نفسِه أو بمُوجبِ القانونِ الكَنَسي (رقم ٥) - إنّ البابا لا يَقْدِرُ على أن يَغْفِرَ ذنباً (رقم ٦).

- من الخطأ أن يُقالَ إنّ الغُفراناتِ التي يُصْدِرُها البابا تُعْفي الإنسانَ من العِقاب على ذُنوبه (رقم ٢١) - كلُّ مَسيحيٍّ إذا أخلَصَ في توبته تَجِبُ له المَغْفِرَةُ لذنوبهِ والعفوُ عمّا عليه مِنَ العِقاب من غير أن يَحْصُلَ على الغُفرانات من البابا (رقم ٣٦) - يَجِبُ أن يُقالَ لكلِّ مسيحيٍّ إن كلَّ مَنْ يَتَصدّقُ على فقيرٍ أو يُقْرِضُ المُعْسِرَ مالاً، فإنّه يعمَلُ عملاً خيراً من شِراء الغُفرانات

(رقم ٤٣) ـ أليس من الأفضل، إذا كان البابا قادراً على غُفرانِ الخطيئات، أن يُنْقِذَ نُفوسَ الأبرياء من أولئك الذين ارتكبوا الذنوب عن جَهالةٍ رحمةً بهم وشَفَقَةً عليهم بَدَلاً من أن يَتْرُكَ هؤلاء في العَذاب ثمّ يَغْفِرَ خطيئاتِ الأشرار المُصرّينَ على الذنوب لأنّه يَقْبِضُ منهم لقاء ذلك مالاً (راجع ٨٢ وما بعد) ـ إذا كان قصدُ البابا غُفرانَ الذنوب لا جَمْعَ الأموال، فلماذا لا يُلْغي هذه الغُفراناتِ ويَغْفِرَ خطيئاتِ جميعِ أولئك الذين يَسْتحقّون غُفرانَ خَطيئاتِهم، بَدَلاً من أن يُحاولَ الدفاعَ عن بَيْعِ هذه الغُفرانات التي تُثير تساؤُلاً بينَ الرعيّة يُعَرِّضُ الكنيسة والبابا لِهُزُؤِ أعدائهما ثمّ يجعَلُ الشعبَ المسيحيَّ شقيّاً بذلك؟ (راجع رقم ٨٧ وما بعد).

ثمّ اشتدَّ الضَغْطُ على لوثر وطُلِبَ منه أن يَنْزِعَ قائمة القضايا عن باب كنيسة فيتّنبرغ وأنْ يَرْجِعَ عن رأيِهِ الذي عبّرَ عنه في تلك القضايا. فلم يشأ لوثرُ أن يفعَلَ. حينئذٍ ألقى البابا لاوُنُ العاشرُ، في عام ١٥٢٠م، الحُرْمَ على لوثرَ[1] وأرسلَ، إليه بذلك «براءة». ولكن لوثرَ لم يَمْتَثِلَ أمرَ البابا، بل أعلنَ عِصيانه على الكنيسةِ الكاثوليكية ثمّ أحرَقَ البراءةَ البابويّة في ساحةِ مدينةِ فيتنبرغ، في ١٠/١٢/١٥٢٠م (٢٨ من ذي الحجّة من سنة ٩٢٦). ومِنْ ذلك الحينِ عَزَمَ لوثرُ على الانشقاقِ عن الكنيسة الكاثوليكية.

* * *

يدخُلُ في موضوعِ تجديدِ التاريخ هنا أمورٌ:

ـ اتهامُ لوثرَ بأنه يَهوديّ.

ـ العناصرُ الموجهةُ في حركةِ لوثرَ.

ـ أثْرِ الإسلامِ في آراء لوثر.

١ ـ في مجلّة «المجتمع»[1] مقالة بقلم نبيه عبد ربّه في صدرها هذا العنوانُ الثانوي: مارتن لوثر اليهودي الذي اعتنقَ النصرانية، ولمّا وَجَدَ الفُرصةَ (سانحة) أعلنَ[2] حرباً شعواء على الكنيسة. هذه الجملة منتزعة من صلب المقالة المذكورة في جمل متباعدة.

لا أعلمُ مصدراً ذكر أنّ لوثرَ كان يهوديّاً. إنّ الذين انتقدوا لوثر[3] قد حملوا عليه من كلِّ جانبٍ وعَنُفوا عليه فرمَوْهُ بضَعْفِ الجسدِ واضطرابِ النفسِ واختلالِ العقل ثمّ بالكَذِبِ والخداع وبالفِسق والفُجور، ولكنّني لم أقَعْ عندَهم على ما يُشير إلى نَسَبه في اليهود. ثمّ إنّ النسبَ اليهوديَّ ـ لو صحّ في شأن لوثر ـ لما خَفَضَهُ في عيونِ النصارى، فإنّ المسيحَ نفسَه معدودٌ في اليهود[4]. ولكنّ هذا لا يَنْفي أنّ لوثرَ كان في مطلعِ حياتِهِ ومبدأ

(١) في «المنجد» (تأليف الأب لويس معلوف): «حرم الأسقفُ فلانا: منعه من شركة المؤمنين (منعهم من معاملته ومصاحبته ورفض دفنه في مقابرهم). وفي «المنجد» أيضاً: البراءة البابوية منشور يصدر به البابا أوامره الكنسية.

(١) الكويت، العدد ١٢٨ (٣٠ شوّال ١٣٩٢ =٥/٢/١٩٧٢)، ص٢٠ ـ ٢١، والجملة المستشهد بها ترد في النصف الأعلى من العمود الثاني على الصفحة الواحدة والعشرين.

(٣) في الأصلِ: أعلنها.

(٢) راجع مثلاً:

Luther as seen by the catholics, by Richard Stauffer

Trans. by Mary Parker and T.H.L. Parker).

Ecumenical Studies in History, No. 7), Lutterworth Press, London 1967, PP. 13ff

(٤) راجع رأي البابوية وزعماء النصرانية (في المؤتمر المسكوني الثاني) في موقف النصرانية من اليهودية واليهود وفي مكانة المسيح في اليهود.

ويقول، يوحنّا قمير (أصول الفلسفة العربية ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٨، ص١٧): «ولد يسوع في بيت لحم... ثمّ خرج فجأة إلى الناس يتجوّل في الجليل و(منطقة) اليهودية... وظلّ ينذر ويبشّر نحو ثلاث سنوات حتىّ أحفظ عليه بني قومه» (أحفظه: أغضبه). وفي المنجد (تحت كلمة «مريم»): إبنة يواكيم وحنّه من سبط يهوذا من آل داوود». و(تحت كلمة «يسوع»):... «كلمة الله المتجسّد من مريم العذراء... ولد في بيت لحم اليهودية. و(تحت «يهوذا أو تدّاوس): أحد أنسباء يسوع المسيح.

حركته ذا ميلٍ إلى الثقافةِ العِبرية، وخصوصاً فيما يتعلّق بالتوراة. غير أنّه، في ما بَعْدُ، حَمَلَ في نفسه شيئاً من النُفرة من اليهود. لقد كان في أثناء نقلِه للتوراة كثيرَ المُخالفة لوجوهِ التفسير التي اختارَها أحبارُ اليهودِ لعددٍ من أقوالِ التوراة. إنّ لوثر كان يعتقدُ أن أحبارَ اليهود قد أفْسدوا التوراة بتعليقاتهم. قال لوثر نفسه[1]: كثيراً ما كُنتُ أعْرِضَ ـ في أثناء الإشراف على نقل التوراة ـ على فوستر[2] جُمَلاً غامضةً يجوزُ فيها أكثرُ من معنىً ثمّ أقترحُ المعنى الذي اخْتَرْتُهُ أنا. كان فوستر يقول لي أحياناً: ولكنّ الأحبار يفهَمون من هذه الجُملةَ كذا وكذا. وكنت أجيبُ: «ولكن ألا تقْدِرُ أن تُبَدِّلَ في حركاتِ هذه الجُملة[3] ثمّ تَبْنِيها بناء يُوافقُ ما وَرَدَ في الإنجيل؟» ولقدِ استقرَّ في نفسِ لوثر، في أواخرِ حياتهِ شيء كثير من العِداء لليهود[4].

٢ ـ والعناصرُ الفاعلةُ في الحركة البروتستانتية كثيرة لأنّ

(١) هذه الفكرة ايضاً مأخوذة من الإسلام. ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تدلّ على أن أحبار اليهود كانوا يبدّلون في نصوص التوراة. من ذلك مثلاً (٢ : ٧٥، ٧٩ سورة البقرة): وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله (في التوراة) ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. . . . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم ممّا كتبت أيديهم وويل لهم ممّا يكسبون ﴾. من أجل ذلك نقول إذا نحن أشرنا الى التوراة (أو الى الأنجيل أيضاً) : التوراة التي بأيدي الناس. ويحسن أن نعلم أن أقساماً كثيرة من التوراة قد كتبت في عهد متأخر كما ذكر الذين درسوا التوراة من الغربيين أيضاً.

(٢) The Life and Letters of Martin Luther, by Preserved Smith, London 1911, P.265f'

(٣) في التوراة

(٤) في رسالة كتبها لوثر في ١٥٤٦/٢/١ (قبل وفاته بسبعة عشر يوماً) قال: «كنت أشعر بضعف في طريقي إلى أيسليبن، ولكنّ ذلك كان خطأي أنا. ولو كنت معنا لقلت أنّه خطأ اليهود أو إلّه اليهود. فقد كنّا نمرّ في قرية بجانب أيسليبن حيث يعيش يهود كثيرون. ولعلّهم كانوا ينفخون في قفاي نفخاً شديداً جدّاً».

البروتستانتية ليستْ عملَ شخصٍ واحدٍ، وإنْ كان مارتن لوثر أشهرَ الدُعاة إليها وأبرزَ قادتِها. ولقدِ اختلطَ في هذه الحركةِ عناصرُ دينيةٌ وسياسيةٌ وقوميّةٌ وشخصيةٌ، كما يتّفق في كثيرٍ من الحركات. ثمّ إنّ في البروتستانتية فُرقةً تعرف باسم «اللوثرية» ممّا يدلّ على أن مذهبه مخصوص باتّجاه معيّن غير عامّ.

سَبَقَ لوثرَ في الحركة البروتستانتية (أي في «الاحتجاج» على سُلطةِ البابا وأعمالِه المنافية، في رأي لوثر، للإنجيل) عددٌ من المصلحين[1]. إنّ لوثرَ ليسَ المُصلحَ الوحيدَ في تاريخِ النصرانية، في مَطْلَعِ العصور الحديثة، ولا كان المُصلحَ الأوّل. ولا بدَّ هنا من الإشارةِ إلى رَجُلَين لم يكونا أقلَّ أثراً، في الحركة التي اتّصل اسمُها باسمِ لوثر، من أثر لوثر نفسه: يوهان فون رويشلين (١٤٥٥ ـ ١٥٢٢م) وفيليب مالانشتون (١٤٩٧ ـ ١٥٦٠ م).

كان رويشلين ذا مواهبَ عديدةٍ: يَخُطُّ خطّاً جميلاً ويُحْسِنُ نُطقَ اللاتينية مَعَ أنّ أسلوبَه فيها كان ضعيفاً، ثمّ إنّه كان مُحيطاً بعددٍ من المعارفِ لم يَلْقَ عالماً إلّا حَرَصَ على أن يستفيدَ منه شيئاً. وتقلّبَ رويشلين في مناصبَ عاليةٍ كثيرةٍ في ألمانيةَ وفرنسة وإيطالية فاكتسبَ اختباراً نافعاً في ميادينِ الحياةِ المختلفة.

وقد تعلّم رويشلين اللغةَ العِبرية متأخّراً ثمّ ألف «القاموس النحويّ الجديد» (للغة العبرية). وفي هذا الكتاب بَدَأَ لوثر تعلّمَ اللغةِ العبرية.

(١) راجع، فوق: كالفن، ويكليف، إلخ (ص١٩١ ـ ١٩٢).

ثمّ عظُم اهتمام رويشلين بالآدابِ العِبرية فتوفّرَ على دِراسة العهدِ القديم (التوراة) فقاده ذلك إلى دراسة التلمود والقبّالة[١]. ولقد بَلَغَ من إعجابه بالثقافة العبرية أنّه ردّ اقتراحاً تقدّمَ به أحدُ اليهودِ المُتنصّرين لإتلافِ جميعِ الكتبِ العِبريةِ ما عدا التوراةَ. وكان هذا الاقتراح قد أحالَه أحد الأمراء الألمان إليه لإبداء رأيهِ فيه، ممّا يدُلّ على سَعَةِ علمهِ في الآداب العبرية وعلوّ مكانتِهِ السياسية والاجتماعية. ويبدو أنّ هذا الموقف كان أحدَ الأسبابِ التي حَمَلَتِ الرُهبانَ الدومينيقيّين[٢] المعروفين بشِدّة عِدائهم لليهود على اتّهام رويشلين بالهَرْطَقة (الزندقة) وبالنِفاق (بأنّه كان يهودياً في قلبه: بأنّه كان يُبطن اليهودية ويتظاهر بالنصرانية). ثم حوكِمَ رويشلين على هذه التهمة في مدينة كولن (كولونيا: في شماليّ غربي ألمانية) في ديوان التفتيش. ولكنْ لم تُسْفِر المحاكمةُ عن نتيجة عمليّة لأنّ البابا نفسَه أرجأ التصديقَ على الحكم إلى أجلٍ غيرِ مُسمًّى، فدلّ ذلك على أنّ القبضة الكاثوليكية في ألمانية كانتْ قد بدأت تتراخى وعلى أنّ الأمراءَ الألمانَ والرعايا الألمانَ كانوا قد بدأوا يَرَوْنَ قيمةَ الحركة الجديدة (البروتستانتية). ولقد وَقَفَ لوثرُ في جانبِ رويشلين وجانبِ الذين كانوا يناصرون رويشلين في مِحنتِه على أيدي الرُهبان الدومينيقيّين.

(١) القبالة: طريقة صوفية تقوم على التفسير الباطني للتوراة أو العهد القديم (راجع دائرة المعارف الكاثوليكية ٢: ١٠٣١ - ١٠٣٥. والقبّالة (بتشديد الباء) حركة بدأ أثرها بالبروز في القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) - وإن كان اليهود يرجعون بها إلى عهود قديمة ومردّ القبالة (التفسير الباطني للتوراة) إلى «التعليم الذي أعطاه الله لآدم ثم انتقل هذا التعليم من جيل إلى جيل من غير أن يطرأ عليه تبديل. راجع:

(٢) Encyclopaedia Judaica 9: 630ff.

إنّ رويشلين كان مسيحيّاً، ولكنّ نفراً كثيرين من أساتذته وممّن كان قد أخذ عنهم أشياءَ متفرّقةً من العلم كانوا يهوداً.

ولكنّ الصلةَ بينَ لوثرَ ومالانشتونَ كانت أشدَّ وأقوى: كان مالانشتونُ قريباً لرويشلين[١] وتلميذاً له أيضاً ثمّ كان زعيمَ الحركة البروتستانتية بعدَ وفاةِ لوثر (ت ١٥٤٤ م).

كان مالانشتونُ عالماً كبيراً قديراً في اللاهوت والفِقه، ولكنّه كان يُصدِّقُ بالخُرافات وخصوصاً ما كان منها مُتعلقاً بالتنجيم. ويَغْلِبُ على الظنّ أنّه لم يكُنْ يهودياً.

كان لوثر يحبّ مالانشتون ويحترمه ويُقِرّ له بالمقدرة في العلم: يقول إنّ مالانشتون أقدرُ في اللاهوت والفقه وفي تعليم التوراة وفي نَشر الدعوة أيضاً. وكذلك كانت لمالانشتون مكانةٌ رفيعة بين الناس[٢].

ومن مُطالعة تاريخ حركةِ لوثرَ نُدْرِكُ أنّ مالانشتون كان عظيمَ الأثر فيها وذا رأيٍ مُوجِّهٍ فيها. ولمّا عُقِدَ المؤتمر الدينيّ في فرانكفورت، في عام ١٥٣٩ م، حَضَرَه مالانشتون مُمَثِّلاً للكنيسة اللوثرية (للحركة اللوثرية). ولكن يبدو أنّه كان ثمّةَ اختلافٌ في الرأيِ بين لوثر ومالانشتون في عدد من الأمور منها زَواجُ رجالِ الدين فقد كَرِهَ مالانشتون أن يتزوّجَ لوثر. وبعدَ لوثرَ كان لمالانشتون أتباعٌ يعرفون باسم (فيليبيّين) (نِسبةً إلى اسمه الأوّل: فيليب).

وفي حركةِ لوثرَ يبرزُ العُنصرُ القوميّ (الجرماني) بُروزاً واضحاً - ممّا نَعْرِفُه من تاريخها السياسيّ: مِنَ النِزاع بينَ الأباطرة الجرمانِ والباباوات الرومانِ (نسبةً إلى روما): مَنِ الذي يختارُ الآخَرَ ويُثَبِّتُه؟ ألبابا يخلَعُ المُلْكَ على

(١ و٢) راجع في رويشلين ومالانشتون. Enc. Br.

الإمبراطور أم الإمبراطورُ هو الذي يُعيّنُ البابا؟ وما حقُّ البابا في العُشورِ والهِبات التي يجمَعُها من الأقطار المختلفة في بلادِ النَصْرانية؟ الخ. وإذا نحن رَجَعْنا - في البحثِ عن العُنصرِ القوميّ عند لوثَر نفسِه وَجَدْنا لوثَرَ نفسَه يقولُ[1]:

«ولقد **جَعَلْتُ من موسى** (في نقل القِصص التي كانت تدور على موسى في التوراة) **رجلاً جرمانياً** حتّى لَيَصْعُبُ على القارِيء للتوراة (التي هي من نقلي) أنْ يُدْرِكَ أنّ موسى كان يهودياً.

ونأتي الآن إلى أثرِ الإسلام في لوثر:

كنت مرّة (صيفَ عام ١٩٣٦) - في أثناء دراستي في ألمانيا - أسيرُ مَعَ أستاذي المستشرقِ يوسفَ هل (١٨٧٥ - ١٩٥٠م) ووصل بنا الحديث إلى لوثر فقال لي يوسفُ هلّ (وكان كاثوليكاً): «لا شكَّ في أنّ لوثر كانَ، وهو يَضَعُ المذهبَ البروتستانتي، ينظُرُ في مُصْحَفٍ» (نُسخةٍ من القرآن الكريم).

لم أجِدْ في المصادرِ التي بينَ يَدَيَّ مثلَ هذا القول، ولكنّ الأمورَ التي لم يَرْضِها لوثر من سلوكِ البابا ومن العقيدةِ الكاثوليكية هي أمورٌ لا يرضى الإسلام عنها. وكذلك أوجُهُ الإصلاح التي دعا إليها لوثرُ كانت من الأمور التي كان الإسلامُ قد دعا إليها. ثمّ إنّ لوثَرَ كان مثلَ الذين قد سبقوه في الدعوة إلى الإصلاح الدينيّ في أوروبّة المسيحيةِ (راجع، فوق، ص ١٩١) قد تأثّرَ بالإسلام. إنّ القرآن الكريم نفسَه كان قد نُقِلَ إلى اللغة اللاتينية قبلَ لوثَرَ بثلاثةِ قرونٍ ونصفِ قرنٍ[2]. أضِفْ إلى ذلك أن العِلم العربيَّ الإسلامي والثقافةَ العربيةَ

(١) Smith 266

(٢) راجع: أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية (للمؤلف)، بيروت - الطبعة الثانية، ص ٢٣. وراجع أيضاً **Wustenfeld 44f, 49f; Ueberweg II 361**

الإسلامية كان نَقْلُهما قد بدأ مُنْذُ زَمَنٍ طويل. ثمّ إنّ العربَ في الأندلُس وفي إيطالية كانوا مَصْدراً لنور الثقافةِ والحضارةِ، ذلك النورِ الذي كان يَشِعُّ في طولِ أوروبّةَ وعَرْضِها[1].

وبما أنّ وُجوهَ الإصلاحِ التي دعا إليها لوثر، فيما يتعلّقُ بالكنيسة الكاثوليكية قريبةٌ جداً مِمّا كان قد دعا إليه ويكليف خاصّةً (وليستِ الغايةُ من هذا الكتابِ عرضَ الحركة البروتستانتية بتفصيلٍ)، فيحسُنُ أن نكتفيَ، في هذا النطاقِ، بالذي كانَ ويكليفُ قد قالَه (راجع، فوق، ص١٩٢ - ١٩٤).

(١) راجع عدداً من كتب تاريخ العلم وتاريخ الفكر في اللغات المختلفة. إنّ جورج سارطون مثلاً قد ألّف كتاباً عنوانه «مقدمة إلى تاريخ العلم» (ظهر منه ثلاثة أجزاء في خمسة مجلّدات كبيرة) كان فيها للإسلام وللعلماء المسلمين مكان واسع بارز. ثمّ راجع له أيضاً محاضرة عنوانها «الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط» (نقلها المؤلّف إلى اللغة العربية).

العرب والعثمانيّون والدول الأوروبيّة

«لماذا يستغربُ نَفَرٌ من الناسِ إذا قيلَ إنّ العُثمانيّينَ قد نَزَلوا في القُطرِ الجزائريّ بطَلَبٍ من أهلِ القُطرِ الجزائريّ -حُكّاماً ومحكومينَ- بينَما هؤلاء النفرُ أنفسُهم يقولون إنهم هم أنفسُهم قد طَلَبوا من فرنسة أن تكونَ مُنْتَدَبةً على لُبنانَ»[1]

خرجتْ أُوروبّةُ من الحروبِ الصليبيةِ، سَنَةَ ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) خاسرةً ورابحة: خاسرةً بما ضاعَ من دمائها وأموالها وجُهودِها ومِنَ الزمَنِ الذي قَضَتْ منه قرنَيْنِ كاملينِ من الرُكودِ الداخليّ ومِنَ النِزاعِ الخارجيّ. ثمّ إنّها كانت رابحةً في أمورٍ منها:

١ - تَخَلُّصُها من عَدَدٍ من الأُمراء المُتنافسينَ الذين كانوا يَحُولونَ

(١) راجع «لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الأدنى» (النسخة العربية)- لا يظهر عليها اسم مؤلّف ولا مكان للطبع ولا سنة للطبع. ولكن على غلافها كلمة للبطريرك الماروني أنطون بطرس عريضة (في الكرسي البطريركي: ١٩٣٢ - ١٩٥٥ م). وهذا الكتيّب قد طبع حتمًا في بعض بلاد المهجر (في البرازيل، في الأغلب). ومنه نسخ بالفرنسية والإنكليزية والإسبانية والبرتغالية. وليس في يدي إلّا النسخة العربية (لأنّه كان يوزّع سرّاً).

بسُلوكِهم، وتَصادُمِ مَصالِحِهِمُ الشخصيةِ دونَ التَقدُّمِ سياسيّاً واجتماعياً وعِلْمِيّاً.

٢ - استفادَتُها من الرُقِيّ الذي كان يَتمتّعُ بهِ الشرقُ المُسْلِمُ في السِياسة والاجتماعِ والعِلمِ والفَنّ وسِوى ذلك.

٣ - إدراكُها أنّ الجانبَ الرُوحيَّ في النَصْرانيةِ لا يُؤدّي إلى الظَفَرِ في الكِفاحِ. وقدْ كانتِ الحروبُ الصليبيةُ نفسُها دَليلاً قاطعاً على ذلك. ولكنّ أُوروبّةَ احتاجت إلى قَرْنَيْنِ جَديدينِ وإلى عَدَدٍ من المعاركِ التي خَسِرَتْها قبلَ أن تضَعَ هذهِ الحقيقةَ مَوْضِعَ العملِ بها.

وفيما كانتْ أوروبّةُ تعمَلُ على الاسْتِفادةِ مِنْ كلّ ما تعلّمَتْهُ من العالمِ الإسلاميّ (من المَشْرِقِ الإسلاميّ ومن المَغْرِبِ الإسلاميّ، وفي الأندلس) بَرَزَ الأتراكُ العثمانيّون على مَسْرَحِ التاريخ.

وَصَلَ الأتراكُ (الذين سنُسمّيهم عُثمانيّينَ) إلى بلادِ الرومِ (آسِيَةَ الصُغرى) في مَطْلَعِ القرنِ السابعِ للهِجْرة (مطلع القرن الثالثَ عَشَرَ للميلاد)، وكان أبناء عَمّهم السَّلاجقةُ قد سَبَقوهم إليها وأنشأوا فيها دَوْلةً لهم. ثمّ تعاوَنَ الفريقانِ مِنَ الأتراكِ على اكْتِساحِ ما كان قد بَقِيَ للروم البيزنطيّين في آسِيَةَ الصُغرى. وفي سَنَةِ ٦٨٠ للهجرة (١٢٧١ م) جاء عُثمانُ بنُ أرطُغْرُلَ (وإليه يُنْسَبُ العُثمانيّون) فورِثَ دولةَ السَلاجقةِ المُحْتَضَرَةَ، ثمّ أصبح العُثمانيّون بعدَ نحوِ عشرينَ عاماً سادةَ شِبْهِ جزيرةِ آسِيَةَ الصُغرى كلِّها. وفي أيّامِ أُورخانَ بنِ عُثمانَ قَفَزَ العُثمانيون إلى الساحلِ الأوروبيّ وبدأوا فُتوحَهم في القارّةِ الأُوروبيّةِ نفسِها. وفي أثناءِ القرنِ الثامنِ للهِجرة (الرابعَ عَشَرَ للميلاد) اسْتَوْلى العُثمانيّون على مُعْظَمِ شِبهِ جزيرةِ البَلْقانِ وحوضِ الدانوب (مِنَ

مَصبِّ نهر الدِنْيَسْتَر على مَقْرُبَةٍ مِنْ أُودِيّسا في جَنوبيِّ الرُوسِيَة إلى شَماليِّ الساحل البَلقاني على البحر الأَدْرِياتيكيّ فإلىَ الطَرَفِ الأقصى من المُورة في جَنوبيِّ شِبةِ جزيرةِ البَلقان).

كانَ ذلك في أيامِ السُلطانِ مُرادٍ الثاني[١]. فلمّا خَلَفَ مُراداً الثانيَ ابنُه مُحمّدُ الثاني عَزَمَ على فَتْحِ القُسطنطينيةِ فحاصَرَها في البرِّ والبحر حتّى دَخَلها فاتحاً في التاسعِ والعِشرينَ من جُمادى الأولى من سَنَةِ ٨٥٧ (١٤٥٣/٥/٢٩ م) فأصبَحَ اسمهُ مُحمّداً الفاتحَ وأصبحَ اسمُها إستانبول (مدينة الدولة: العاصمة).

ثم غَبَرَ نِصْفُ قَرْنٍ أو يزيدُ غابَ النصرُ في أثنائه عن الجيشِ العثمانيّ بالمُنازعات الداخلية على العرش. وأخيراً قامَ الأميرُ سليمٌ، وهو يَوْمَذاكَ في السابعةِ والأربعين من العُمُر، فخلَعَ أباه بايزيدَ الثانيَ وتولّى الحُكْمَ مكانَه باسْمِ سليمٍ الأوّلِ. وكان في سليمٍ الأوّلِ جميعُ صفاتِ البُطولة والشَجاعة والمَقْدِرة الحَربية. ومَعَ أنّه لم يَتولَّ المُلْكَ سوى ثمانية أعوامٍ فإنّه استطاعَ في هذه المُدّةِ القصيرةِ في أعمارِ المُلوك أن يُضاعِفَ مِساحةَ الإمبراطوريةِ التركية. لقد وَرِثَ سليمٌ هذا الطُموحَ في الفتح من جَدهِ محمّدٍ الثاني الفاتح. غيرَ أنّ السُلطانَ سليماً قد اتّصفَ أيضاً بالشِدّة والقَسْوة فكَثُرَ قَتْلاه من أهلِه ووُزرائِه، بعدَ أن كان قد خَلَعَ أباه عن العرش، حتّى لُقِّبَ ياوُوز سُلطان سليم (السلطان سليماً الجبّار).

(١) جاء السلطان محمـد الثاني، من جرّاء النزاع مع أبيه مراد الثاني، إلى الحكم ثلاث مرات تعاقب فيها الأب وابنه على العرش: ٨٤٧ و٨٤٨ (فترتين قصيرتين) ثمّ من ثاني المحرّم من سنة ٨٥٥ إلى العشرين من ربيع الأوّل ٨٨٦ (١٤٥١/٢/٤ إلى ١٤٦١/١٢/٢٣ م)، وفي هذه الفترة الأخيرة كان فتح القسطنطينية.

في ذلك الحين كانتْ دَوْلَةُ المماليك البُرجيّة تحكُمُ مِصْرَ والشامَ، وكانت في حَضيض ضَعْفِها وذروةِ تَنازُعِها. ولم يَكُن السُلطانُ سليمٌ في حاجةٍ إلى مُسوِّغ (مُبرِّر) لفَتْحِ البلادِ العربية فاتّجَهَ بجيشه شَرْقاً ونازل السُلطانَ المَمْلوكيّ قانصوه الغُوريَّ في مَعْرَكَةِ مرج دابقٍ عند مدينة حَلَبَ، في الخامسِ والعِشرين من رَجَب من سَنَةِ ٩٢٢ (١٥١٦/٨/٢٦ م). فانهزمَ قانصُوه الغُوريُّ وسَقَطَ قتيلاً في المعْرَكة. ثمّ تقدّمَ سليمُ الأوّلُ حتّى لَقِيَ طومانَ باي - وهُوَ الذي خَلَفَ قانصوه على عَرْشِ المماليك - في معركَةٍ عِنْدَ غزّةَ، في أواخِرِ ذي القَعْدَةِ من سَنَةِ ٩٢٢ (أواسِطِ كانونَ الأوّل - ديسمبر ١٥١٦ م). ولَقَدْ تَلَقّى السوريّون واللُبنانيّون السُلطانَ سليمًا الأوّلَ بالتّرحاب وألْقى الأميرُ فخرُ الدين المَعْني الأوّلُ كبيرُ زُعماءِ لُبنانَ، بينَ يَدَيِ السُلطانِ العُثمانيّ، خُطبةً تُناسبُ المَقامَ. غيرَ أنّ المماليك أنفسَهم ظلّوا يقاومون في عَدَدٍ مِنْ مُدُنِ الشامِ وفي مِصْرَ حتى قُتِلَ طومانُ باي، في أواخرِ ربيعٍ الأول من سَنَةِ ٩٢٣ (منتصف نَيْسانَ - إبريل ١٥١٧ م).

ونقرأ في كتابٍ عُنوانُه «تاريخٌ للحضارةِ الوسيطةِ في أوروبّة» من تأليف وليم كولّينس[١] هذا المقطَعَ التالي:

«وأخيراً أُصيبتْ أوروبّةُ بذُعْرٍ شديدٍ من تَبَسُّطِ الأتراكِ في الأرض. إلى ذلك الحينِ كانَ الانشقاقُ الكبيرُ[٢] وما اسْتَتْبَعَه مِنَ المُنازعاتِ التي ثارتْ في

(١) A history of Medieval civilisation in europe, by Ross William Collins (Ginn & Co, Boston etc. 1936)'

(٢) الانشقاق في تاريخ النصرانية هو انقسام طاعة النصارى بين رئاستين دينيّتين (أو أكثر) ونشوء فروق في الطقوس (فرائض العبادة) لدى كلّ فريق. إنّ انقسام الامبراطورية الرومانيّة قسمين قسمًا شرقيّاً (عاصمته القسطنطينية) وقسمًا غربياً عاصمته روما في أيام الامبراطور ثيودوسيوس قد أكّد البغضة بين اللاتين (أتباع الطقس الغربي) والروم (أتباع الطقس الشرقي). ولقد انقطعت الصلات بين الكنسيتين مراراً، ولكنّ الانشقاق الحاسم جاء عام ١٠٥٤ للميلاد (٤٤٦ هـ) حينما ألقى البطريرك كيريليوس (بطريرك القسطنطينية) الحرم (بضم الحاء) على البابا ليون التاسع (بابا روما) بعد أن كان ليون التاسع قد حرم (بفتح ففتح) كيريليوس. ومع الأيّام=

أوروبّةَ قد صَرَفَا الاهتمامَ عن أحداثِ الشرقِ الأدنى، برُغْمِ التَحذيرِ تِلْوَ التحذيرِ على ألسنة رجالٍ منهم فيليبُ ميزيير[1] يَدْعُونَ إلى تَسْوِيَةٍ بين البابَوَيْنِ في سبيلِ تَجْييشِ حَملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ على الأتراكِ العثمانيّين. أمّا الآنَ وقد عَقَدَتْ إنكلترةُ وفرنسةُ بينهما صُلحاً (فقد سَنَحَتْ فُرصةٌ مُناسِبةٌ).

ورأى سِيغِسمُونْدُ مَلِكُ المَجَرِ الخطرَ العُثمانيَّ الطاغِيَ على حُدودِه الجَنوبيّةِ رأيَ العينِ فَتَوجّهَ إلى دُوَلِ غَرْبيِّ أُوروبّةَ باسْتِغاثةٍ للقيامِ بحربٍ صليبيّةٍ على العُثمانيّين. وَوَجَدَتِ اسْتِغاثةُ سيغيسمونْدَ ـ بما كان يُرافِقُها من الحَثّ المتوالي من جانب البابويّة ـ اسْتِجابةً واسعةَ النِطاقِ بينَ رجالِ الفُروسية في إنكلترةَ وأَلْمانيةَ وإيطاليةَ وفي فَرَنْسَةَ خاصّةً. وبعدَ عَدَدٍ من المُناوشاتِ التي ظَفِرَ فيها جيشُ هؤلاءِ الحُلفاءِ، وَصَلَ هذا الجيشُ نفسُه إلى مدينة نيقوبولي[2] ثمّ حاصَرَها حِصاراً شديداً. وهنالك، في مَعْرَكَةِ نيقوبولي، انهَزَمَ أُولئكَ الحلفاءُ أمامَ السُلطانِ

= انفصل بطارقة المشرق الثلاثة (في القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية) عن روما انفصالا تامّاً. ومحاولات توحيد الكنيستين (الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية) لم تنجح. وقد كان آخر هذه المحاولات في المجمع الفاتيكاني الثاني في روما من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٥ للميلاد (١٣٨١ ـ ١٣٨٥ هـ) ثم في لقاء أثناغوراس (بطريرك القسطنطينية) وبولس السادس (بابا روما) عام ١٩٦٤م في القدس.

وهنالك انشقاق كبير غربي (في قلب الكنيسة الكاثوليكية) حينما أعلن ثلاثة عشر كردينالاً، في عام ١٣٧٨م (٧٨٠هـ) أنّ انتخاب البابا أوربان السادس كان باطلاً ثمّ انتخبوا هم البابا أكليمنضوس السابع الذي اتّخذ مركزه في أفينيون (فرنسة). وقد نصرت هذا البابا فرنسة واسكتلندة وقشطالة (إسبانية قبل توحيدها) وبقي مع أوربان السادس إيطالية وألمانية والمجر وإنكلترة والبلاد السكندنافية (الدنمرك وأسوج ونروج). هذا الانشقاق الغربيّ الكبير أفقد بابا روما كثيراً من هيبته في النفوس ثمّ مهّد الطريق أمام الإصلاح الديني في أوروبة ونشوء البروتستانتيّة (اعتمدت في هذه الحاشية على Larousse, 3Volume, 3:600 b ولكن في قائمة البابوات المدرجة في تقويم البشير لعام ١٩٢٩م، ص ٦٣ ـ ٦٧ اختلافاً كثيراً).

(١) Philippe de Mesière (١٣٢٧ ـ ١٤٠٥م) كاتب فرنسي قضى حياته في الدعوة إلى حملات صليبية.

(٢) نيقوبولي Nicopoli مدينة تقع اليوم في بلغارية (في منتصف تخومها الشمالية).

بايَزيدَ[1] هزيمةً مُنْكَرَةً، في الخامسِ والعِشرينَ من أيلولَ (سبتمبر) من عام ١٣٩٦م[2]. إنّ النصارى كان ينقُصُهُمُ الاتّحادُ والتَنْظِيمُ، ثمّ كان الأتراكُ فوقَهُمْ في حُسْنِ القِيادةِ بمكانٍ بعيدٍ. عندَئِذٍ هَرَبَ سيغيسمونْدُ إلى ساحلِ البحرِ الأسودِ حيثُ اتّفَقَ وجودُ سفينةٍ بُندقيّةٍ[3] فالْتَقَطَتْهُ ونَجّتْهُ. غير أنّ نَفَراً كثيرين غيرَهُ، فيهم يوحنّا الجسورُ صاحبُ بورغونْدية، وقعوا أَسْرَىً في يَدِ العُثمانيّين. . .[4]» (ص ٧٣٢) (انتهى النّص).

في ذلك الحينِ لم يكُنْ قد بَقِيَ من الإمبراطوريةِ البيزنطية سوى عاصِمتها القُسطنطينيةِ ورقعةٍ ضَيّقةٍ من الأرض حولَها. ونَصَبَ السُلطانُ بايزيدُ الحِصارَ على القُسطنطينيةِ. ولكنّ الأحوالَ تقلّبَتْ بالأتراكِ العُثمانيّين مدّةً غيرَ قصيرةٍ، من جَرّاء تآزُرِ عَدَدٍ من الدُوَلِ الأوروبيّةِ لِعَرْقَلَةِ تقدُّمِ الأتراكِ وراء شِبْهِ جزيرةِ البَلْقانِ ومن جَرّاء الحَملة التي مرّ بها تيمورلنكُ على سَوريَةَ وآسيَةَ الصُغرى آتياً من الشرقِ كالريحِ العاصِفِ، حتّى إنّ السُلطانَ بايزيدَ نفسَه وَقَعَ أسيراً في يدِ تيمورلنكَ، في مَعْرَكَةِ أنقَرَةَ، في أواخرِ سَنَةِ ٨٠٥ للهجرة (صيفَ ١٤٠٢م)، فحَمَلَ تيمورلنكُ أسيرَه مُقَيّداً وطافَ به يَعْرِضُه في البلادِ. ولم تُطِقْ نفسُ بايزيدَ هذا الذُلّ فماتَ بعدَ ثمانيةِ أشهُرٍ من معركةِ أنقرة.

من أجلِ هذا كلِّه، ومن أجلِ شيءٍ من النزاعِ على العرشِ بينَ العُثمانيّين أنفسِهم، عَجَزَ العُثمانيّون عن فَتْحِ القُسطنطينيةِ فترةً من الزمن

---

(١) السلطان بايزيد (أبويزيد) الأوّل بن مراد الأوّل. وبايزيد هذا عرف بلقب يلديرم (الصاعقة) وكانت له فتوح مظفّرة في أوروبّة. وحاصر القسطنطينية ولكن لم يستطع فتحها.

(٢) في ٢٠ من ذي الحجّة ٧٩٨.

(٣) سفينة بندقيّة تابعة لجمهوريّة البندقيّة (شماليّ شرقي إيطالية).

(٤) يوحنّا الجسور Jean sans Peur (حنّا بلا خوف) صاحب (دوق: أمير حاكم) بورغندية (في شرقي فرنسة) كان موقفه من ملوك باريس متقلّباً، ناصر الإنكليز حيناً. ثمّ قتل عام ١٤١٩م.

امْتَدَّتْ نصفَ قرنٍ أو يزيدُ قليلاً. ثمّ أَحَبَّتْ أوروبَّةُ أن تَنْتهِزَ في العُثمانيّين فُرصةً جديدةً فدعا البابا أويجنيوس الرابعُ إلى حربٍ صليبيةٍ جديدة. ومَعَ أنّ إنكلترةَ وألمانْيةَ وفرنسةَ لم تَسْتَجِبْ للدعوة البابويّةِ، فإنّ البولونيّين والمَجَر والرومانيّين استجابوا لها ومشَوا بقيادة يوحنّا هونْيادي قائدِ الجيشِ المَجَريِّ لقتالِ العثمانيّين. ولكنّ هزيمةَ هؤلاء الحلفاء في فارْنا (بُلْغارية اليومَ) وإبادَةَ الجَيْشِ المَسيحيِّ وَضَعَتا حَدّاً لجميعِ المُحاولات في أوروبّةَ لنَجْدَةِ (البقيّةِ الباقية) من الإمبراطورية البيزنطية.

الحكم التركي في المغرب

إنّ الحُكْمَ التركيَّ في المَغْرِب لم يأتِ بعدَ فتحٍ قامت به الجيوشُ العُثمانيةُ، كما كانتِ الحالُ في المَشْرِق، بل كان تطوُّراً من طَلَبٍ تقدَّمَ به المَغاربةُ إلى جماعاتٍ من المُجاهدين الأتراكِ الذين كانوا يطوفون بمَراكِبِهِمْ في الحَوْضِ الغَربيِّ من البحر الأبيض المتوسّط لإنقاذ بقايا المسلمين الذين كان الإسبان يُلْقُون بهم إلى البحر، أو للدِفاع عن السواحلِ الإسلاميّةِ الإفريقية التي كان القُرْصانُ مِنَ الإسبانِ والبُرْتغاليّين وغيرهم يُحاولون الاستيلاء عليها باسْمِ جماعاتِهِمْ أو باسم دُوَلِهِمْ.

لمّا تمّ الحُكمُ التُركيُّ في آسِيَةَ الصُغرى والشام ومِصْرَ أصبحت طريقُ التِجارة البرّية وطَرِيقُ التِجارة البحرية - عَبْرَ مسافةٍ يسيرة من الأرض اليابسة في مِصْرَ - مسدودةً في وجهِ التُجّار الأوروبيّين. من أجلِ ذلك زادَ الطمعُ الأوروبيُّ في الاستيلاء على مُدُنٍ في المَغْرِب تُعَوِّضُ عليهم شيئاً ممّا كانَ لهم من طُرُقِ التجارةِ والامتيازات التِجارية في عَهْدِ المَماليكِ في المشرق.

Collins, op. cit. 733-734.

في مطلَعِ القرن العاشر للهِجْرة (السادِسَ عَشَرَ للميلاد) اشتد ضعفُ الأُسَر الحاكمة في المغرب: بني مَرينٍ (في المغرب الأقصى) وبني عبدِ الوادِ الزيّانيّينَ (في الجزائر) وبني حَفْصٍ (في تُونُس) ووقَعَ التنازُعُ في كلِّ أُسْرَةٍ على تولّي عرشِ بلادِها. وكان أسوأَ البلاد حظاً في ذلك تُونسُ التي جَعَلَ نفرٌ من حكّامِها يستنجدون بالإسبان على مُنافِسيهم في الحُكْم. هذا الضَعْفُ والتنازُعُ أطْمَعَا الدُّوَلَ الأوروبيّةَ في الاسْتيلاء على الأقطارِ المُخْتلفة في شَماليِّ إفْريقية.

في ذلك الحينِ كانتْ دُوَلُ أوروبّةَ الكُبرى: إنْكلترةُ وفرنسةُ وألمانيةُ والنمسةُ مشغولةً بثلاثةِ أحداثٍ داخليةٍ صَرَفَتْها عنِ الاهتمام بالعالَمِ الخارجيِّ. هذه الأحداثُ هي:

١ - التنازُعُ على الأراضي. كان المَلِكُ إذا تَزَوَّجَ أميرةً أجنبيةً انتقلَ إرْثُ هذه الأميرةِ من أرْضَ بلادِها إلى حُكْمِ الزوجِ المَلِك. وقد أثارت تلك الحالُ نزاعاً لا ينتهي بينَ إنكلترةَ وفرنسةَ وإيطالية والنمسة وإسبانية. وكان ينشأ من هذه الحالِ حروبٌ (بينَ هذه الدول) تَزيدُ في تعقيدِ هذا التنازُعِ على الأراضي (كحربِ المِائَةِ سَنَةً بين فرنسة وإنكلترة).

٢ - محاولةُ التحرُّرِ من رواسبِ العصور الوسطى. وَصَلَتْ أوروبّةُ إلى القرنِ الخامِسَ عَشَرَ للميلاد (التاسع للهجرة) والحياةُ الرسميةُ فيها من إرْثِ العصورِ الوُسطى (سُلطةُ النُبلاء من رجالِ الإقطاعِ والإدارةُ الحُكومية العشائرية واستخدامُ اللُغة اللاتينية في المعاملات الرسمية، في فرنسة مثلاً).

٣ - الأزَماتُ الاقتصاديةُ العامّةُ من جَرّاء انقطاعِ طُرُقِ التجارة بين

أوروبّةَ والشَّرْقين (الأدنى والأقصى) بعدَ الفتحِ العُثماني لِسُورية ومِصرَ ثمّ للعِراق. وقد كانت هذهِ الأزماتُ الاقتصاديةُ تُحْدِثُ فِتناً وَثَوراتٍ (في فرنسة مثلاً، وفي المُدُنِ الرئيسةِ التي تعيشُ على تصديرِ صِناعاتها أو جَلبِ المَوادِّ الخامِ لتلك الصِناعات).

٤ ـ الإصلاحُ الدينيُّ. إنّ نشأةَ المذهب البروتستانتيِّ والنِزاعَ الذي تَلاهُ في ألْمانيةَ وهولندة وإنكلترة وفرنسة قد صَرَفَ هذه الدُوَلَ عَنِ الاهتمام بالشؤونِ الأوروبيّةِ العامّة.

بَقِيَ في أُوروبّة ثلاثُ دُوَلٍ لم تتأثّرْ كثيراً بهذه الأحداثِ: إيطاليةُ وإسبانيةُ والبُرتُغالُ. أمّا إيطاليةُ فكانتْ جُمهوريّاتٍ وإماراتٍ صغيرةً لا تهتمُّ بالشُؤونِ العامّة أصلاً. وكان المُسَيْطِرَ عليها كلّها مَصالِحُها التِجارية، فالمُدُنُ الإيطالية اتّفقَتْ مَعَ العُثمانيّين كما كانتْ مُتّفِقةً مَعَ المماليك لأنّ الامتيازاتِ التي تَسْعى إليها هذه المُدُنُ التِجارية (أو الجُمهورياتُ التجارية) لا تَتّصلُ بمَطامعَ إقليميةٍ أو سِياسية.

من أجلِ ذلك كُلِّه خلا الجوُّ للدولتين إسبانيةَ والبُرتغالِ لمّا فَرِغَتْ أيديهما من مَشاغِلِ الأزماتِ الاقتصادية. إنّ إجلاء العرب بالقوّة من الأندلُس (إسبانيةَ والبُرتغالِ) في أثناء القرنِ الخامِسَ عَشَرَ للميلاد جَعَلَ إسبانيةَ والبُرتغالَ (قبلِ اكْتِشاف أميركة وتدفُّقِ الثَروةِ إليهما) تَسْتَوْليانِ على أملاكِ المُسلمين الجالِينَ وعلى أموالِهم. ثمّ إنّ الإصلاحَ الدينيَّ (الثورةَ البروتستانتيةَ) لم تَمَسَّ إسبانيةَ والبرتغالَ. وكذلك إيطاليةُ لم تَدْخُلْ إليها هذه الثورة. ولكنْ بما أنّ هذه الثورَةَ كانت في الأصلِ ثورةً على البابويّةِ فقد كان البابا حريصاً جِدّاً على ألاّ يمتدَّ ذلك الانشقاقُ الجديدُ إلى المُقاطعاتِ التي

يَنْبَسِطُ عليها حكمُه في أواسِطِ إيطالية ولا إلى المُقاطعات الإيطالية الأخرى. وبما أنّ البابويةَ كان لها سِياسةٌ في بلادِ أوروبّة (في ألْمانيةَ وفرنسةَ وانكلترة خاصّةً) من وراء سُلْطَتِها الدينية على أتباعِ المذهبِ الكاثوليكيِّ، فقد كان الإصلاحُ الديني شاغِلاً صحيحاً للبابويةِعن كلِّ شيء آخر.

إنّ الدولتين الفارِغَتَيِ الأيدي من الأزماتِ والخالِيَتَيِ البالِ من المشاغلِ إلى حدٍّ كبيرٍ اتّفَقَتا على اقتسامِ النفوذِ في البحر الأبيض المتوسّط وفي العالم. ولا ريبَ في أنّ إسبانيةَ كانتْ أوسعَ مِساحةً وأغنى أرضاً وأكثرَ عَدَدَ سُكّانٍ وأوفرَ مالاً، فكان الاتّفاق على أنْ تكونَ حُرّيّةُ العملِ في القُطْرِ المَغْربيّ (وعلى الساحلِ الإفريقي من المُحيط الاطلنطيقي خاصة) للبُرتغال. أمّا سواحِلُ إفْريقيَةَ على البحرِ الأبيض المُتوسّطِ، من طَنجةَ إلى حدودِ مِصْرَ العُثمانية) فيكونُ النفوذُ فيها لإسبانيةَ.

في هذا الحين[1] الذي ضَعُفَ فيه المَغْرِبُ ثمّ تقطّعتِ الصِلاتُ فيه بينَ الراعي والرعيّة وكَثُرَ التنازُعُ على الرئاسة ـ بعدَ فَقْدِ العَصبيّةِ ـ طَمِعَ مُلوكُ الإسبانِ[2] في القضاء على دولةِ الإسلام في الشَّمال الإفريقيّ بعدَ أن كانوا قد قَضَوْا على الدولةِ الإسلامية في الأندلُس وجعَلوا يطرُدون المسلمين من جميعِ أنحاء شِبه جزيرةِ إيبيرية (إسبانيةَ والبُرتغال) طرداً لا رحمةَ فيه.

وكان بينَ إسبانيةَ والبُرتغالِ خِلافٌ على اقتسام الأراضي التي كان كولومبوسُ قد كَشَفَها في أميركا، فعَقَدَتِ الدولتانِ مُعاهدة طوردِيسِيّا، عامَ ١٤٩٤ م (٨٩٩ هـ) ـ بعدَ خُروجِ العرب نِهائياً من الأندلُس بعامين ـ لاقتسامِ

(١) النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة (ومن القرن الخامس عشر للميلاد).
(٢) قبل أن تتوحّد إسبانية.

تلك الأراضي والأراضي التي سيَتِمُّ الكشفُ عنها فيما بعدُ. ثم أرادت البابويّة والدُوَلُ الكُبرى من إسبانيةَ والبرتغالِ أن تُوَسّعا اتّفاقَهُما في هذه المُعاهدة لِشَنّ حربٍ صليبيةٍ جديدةٍ على بلادِ الإسلام في كلّ مكانٍ وأن تَبْدَأ ببلادِ شَمالِيّ إفريقيةَ.

في ثالثِ ربيعٍ الثاني من سَنَةِ ٩١١ للهجرة (١٥٠٥/٩/٣م) بدأ الإسبانُ حملَتَهم على الجزائر بادئين بمدينة وَهْرانَ. ونَشِبَتْ بين الإسبان والجزائريّين معاركُ شديدةٌ دامتْ بِضْعَ سَنَواتٍ. وفي الثالث من المُحَرَّمِ من سَنَةِ ٩١٥ للهِجْرة (١٥٠٩/٥/١٥م) قام الإسبانُ بحملةٍ جديدةٍ كبيـرةٍ فاستطاعوا بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ أن يسْتَوْلُوا على مدينة وَهْرانَ من جَرّاء خيانةٍ، فقد كان في الجيش الزِّناتي (جيش الأُسرة الحاكمة يومَذاك) قائدان أحدُهما مُنافقٌ يتظاهرُ بالإسلام والآخرُ يهوديٌّ اسمُه أشطورا[1] ففتحا لجيوشِ الأعداء بابَ المَرْسى الكبير (مرفأ يَقَعُ مُباشرةً غَرْبَ وهران). ولمّا استولى الإسبانُ على وهرانَ اندفعوا فيها قتلاً وتخريباً لا يستَثْنون في اعتدائِهِمْ امْرأةً ولا طِفلاً ولا يُميِّزونَ بينَ عاجزٍ وقويّ. فهرب مُعْظَمُ أهلِ المدينة عنها. حينَئِذٍ قام الإسبانُ بمذبحةٍ في مَنْ عَجَزَ عن الهرب، ذهَبَ فيها ثمانيةُ آلافِ ذَبيحٍ في هذه الواقعة قال الشيخ أبو العبّاس أحمدُ بنُ عبدِ الله بن أبي محلى السِجِلْماسيُّ قصيدةً منها:

ويا معشَرَ الإسلامُ في كلّ مَوْطِنٍ، … وفي كـلّ نادٍ سـالفٍ ومُعاصرٍ،

ويا سادةَ العُربانِ من آلِ هاشمٍ … وغيرهُمُ، باللهِ، ما صَبْرُ صابر

(١) راجع «تاريخ الجزائر العامّ» لعبد الرحمن بن محمّد الجيلالي (الجزائر، المطبعة العربية ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م)، ٢: ١٨٣ - ١٨٤.

ويا معشَرَ الأتراكِ: يا كُلَّ عالمٍ، … وكـلَّ وليٍّ حـافظٍ لـلأوامر،

أُناشِدُكُمْ باللهِ، ما عُذْرُ جَمْعِكُمْ … لَدَى اللهِ في وَهْرانِ أمرِ الخنازِر؟

هذه زَفرةٌ كان الشريفُ الرُّنديُّ الأندلسيُّ[1] قد أطلَق مِثْلَها من قبلُ حينما كان الإسبانُ يدفَعون العربَ عنِ الأندلسِ ويُخرجونهم منها دَفْعاً يسيراً يسيراً أو شديداً شديداً ويقومون فِيهِم بالتعذيبِ والتقتيل - والعربُ في ما بَيْنَهُم مُتشاكِسون مُتدابِرون مُتنافرون مُخْتلفون - ولم يكنْ في العالَمِ الإسلاميّ يومَذاكَ مَنْ يَقْدِرُ أن يُنْجِدَ عَرَبَ الأندلس. ولقد كانتْ زفرةُ الشريفِ الرُّنديّ في قصيدةٍ منها:

دَهَى الجزيرةَ أمـرٌ لا عزاءَ له … هَوَى له أُحُدٌ وانْهَدّ ثَهْلانُ[2].

أصابَها العَيْنُ في الإسلام فارْتَزَأتْ … حتّى خَلَتْ منه أقطارٌ وبُلْدان[3].

فاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً: ما شأنُ مُرْسِيَةٍ؟ … وأينَ شـاطِبَةٌ أم أينَ جَيّـان؟[4]

وأينَ قُـرْطُبَةٌ دارُ العلومِ، فكَمْ … من عالمٍ قد سما فيها له شانُ[5]؟

وأيْنَ حِمْصٌ وما تَحْوِيهِ من نُزَهٍ … ونَهْرُها العَذْبُ فَيّاضٌ وملآن؟[6]

قـواعدُ كُنَّ أركـانَ البلاد، فمـا … عسى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أركان[7]!

(١) أبو البقاء صالح بن شريف الرندي (من بلدة رندة في جنوبيّ الأندلس) لا نكاد نعرف من حياته شيئاً. ولعلّ وفاته كانت بعد سنة ٦٧٥هـ (١٢٧٦م).

(٢) الجزيرة: شبه جزيرة الأندلس، يقصد المسلمين في الأندلس. أحد وثهلان جبلان في شبه جزيرة العرب.

(٣) أصابها العين: أصابتها العين: حسدها الناس فزالت النعمة عنها. ارتزأت: نزلت بها الرزايا (المصائب).

(٤) بلنسية ،مرسية وشاطبة وجيّان بلدان جميلة مشهورة في الأندلس.

(٥) قرطبة عاصمة العرب في الأندلس.

(٦) حمص إسم يطلق على أشبيلية (مدينة أندلسية كبيرة جميلة مشهورة) على بعد يسير من مصبّ (نهر الوادي الكبير)، وهي مشهورة أيضاً بمتنزّهاتها.

(٧) القواعد جمع قاعدة: عاصمة (المدينة المهمّة في منطقة من المناطق). والقاعدة: الأساس. والركن: جانب البناء الذي تعتمد عليه الجدران والسقوف.

تبكي الحَنيفيَّةُ البيضاء من أسَفٍ،   كما بكى لِفراقِ الإلْفِ هَيْمانُ[١]،

على ديارٍ مِنَ الإسلامِ خاليةٍ   قد أقْفَرَتْ ولها بالكُفْرِ عُمْرانُ:

حيثُ المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما   فِيهِنّ إلّا نواقيسٌ وصُلبانُ؛

حيثُ المَحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ،   حيثُ المنابرُ تَرْثي وهي عِيدانُ[٢].

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ،   إنْ كُنْتَ في سِنَةٍ فالدهرُ يَقْظانُ؛[٣]

وماشياً مَرِحاً يُلهيهِ موطنُهُ،   أبَعْدَ حِمْصٍ تَغُرُّ المرءَ أوطانُ[٤]؟

يا راكبينَ عِتاقَ الخيلِ ضامرةً   كأنّها في مَجالِ السَّبْقِ عِقْبانُ[٥]،

وحاملين سُيوفَ الهِندِ مُرْهَفَةً   كأنّها في ظَلامِ النَّقْعِ نيرانُ[٦]،

وراتعين وراءَ البحرِ في دَعَةٍ   لهم بأوطانِهِمْ عِزٌّ وسُلطانُ[٧]،

أعِنْدَكُمْ نبأٌ من أهلِ أندلسٍ؟   فقد سَرَى بحديثِ القومِ رُكبانُ[٨].

كم يستغيثُ صناديدُ الرجالِ وهُمْ   قَتْلى وأسْرَى فما يَهْتَزُّ إنسانُ[٩]!

---

(١) الحنيفية البيضاء: الإسلام. الإليف: الأليف: الذي تعوّد العيش معك. الهيمان: الشديد الحبّ.

(٢) المحراب: تجويف في الجدار القبلي من المسجد يقف فيه الإمام عند الصلاة. جامدة (من حجارة). المنبر: مرتفع يقف عليه الخطيب في المسجد يوم الجمعة وفي الأعياد للخطبة، قبل الصلاة أو بعدها. ترثي: تشفق. عيدان جمع عود: غصن شجرة (خشب).

(٣) سنة (بكسر ففتح): نعاس، نوم.

(٤) مختالاً، بنشاط مع البطر والتكبّر. حمص (راجع الحاشية).

(٥) العتيق: الكريم، الأصيل. ضامر: غير بطين، نحيف. عقبان جمع عقاب (بضمّ العين): طائر كاسر مجدول الجسم سريع الطيران (كناية عن الترف).

(٦) مرهف: رقيق (قاطع). النقع غبار الحرب. كأنها نيران: . . . لما يكون عليها من الدم (كناية عن الشجاعة وكثرة خوض الحروب).

(٧) راتعون: آكلون وشاربون في خصب (بكثرة). وراء البحر (في المغرب، إفريقية). دعة: خفض (سكون واطمئنان) وسعة في العيش. عزّ: قوة ومجد. سلطان: ملك، حكم.

(٨) هل وصلت إليكم أخبار أهل الأندلس (وما هم فيه من الضيق والخوف والذل). سرى: سار ليلاً (ذاع، انتشر). الركبان جمع راكب (حملت الركبان أخبارهم إلى كلّ مكان، فكيف لم تصل إليكم أخبارهم إلى الآن: كيف لم تهبّوا إلى نجدتهم!)

(٩) الصنديد (بكسر الصاد): السيّد، الشريف، الشجاع.

ماذا التَقاطُعُ في الإسلامِ بينكُمُ   وأنتُمُ، يا عبادَ اللهِ، إخوانُ؟

ألَا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هِمَمٌ   أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ؟

يا مَنْ لِذِلَّةِ قومٍ بعدَ عِزِّهِمُ   أحالَ حالَهُمُ جَوْرٌ وطُغيانُ[١]؛

بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازِلِهِمْ،   واليومَ هم في بلادِ الكُفْرِ عُبدانُ[٢].

فلو تراهُمْ حَيارى لا دليلَ لهم   عَلَيْهِمُ من ثيابِ الذُلِّ ألوانُ[٣]؛

ولو رأيتَ بُكاهم عند بَيْعِهِمُ،   لَهالَكَ الأمرُ واسْتَهْوَتْكَ أحزانُ[٤]:

يا رُبَّ أُمٍّ وطِفْلٍ حِيلَ بينهما   كما تُفَرَّقُ أرواحٌ وأبْدانُ[٥]،

وطِفلةٍ مِثْلَ حُسْنِ الشمسِ إذ طلعتْ   كأنّما هي ياقوتٌ ومَرْجانُ

يقودُها العِلْجُ عند السَّبْيِ مُكْرَهَةً   والعينُ باكيةٌ والقلبُ حَيْرانُ[٦].

لِمِثْلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ،   إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ[٧]!

ولكنَّ هذه الزفرةَ المُؤلِمَةَ ذهبَتْ في الريح، فإنّ عربَ الأندلس أنفسَهم لم يُلْقوا إليها أُذُناً مُصْغِيَةً فاسْتمرّوا في نِزاعِهِمْ وقِتالِ بعْضِهم بَعْضاً وفي استعانةِ بعضِهِمْ بالأعداء على بعضٍ[٨]، كما كان أهلَ المَغْرب مشغولين عن أهلِ الأندلسِ بما كان في بلادِهِمْ هُمْ من الاعتداء الذي كانتِ الدولُ الأوروبيّةُ

---

(١) أحال حالهم: بدّل (غيّر) أحوالهم (من العزّ إلى الدل). الجور: الظلم. الطغيان: كثرة الظلم.

(٢) عبدان جمع عبد: مستعبد.

(٣) عليهم من ثياب الذل ألوان: يقاسون أنواعاً كثيرة من الذلّ (سوء المعاملة والظلم).

(٤) بكاهم = بكاؤهم. عند بيعهم: عند المناداة عليهم للبيع في سوق النخاسة (حينما يباعون ليكونوا عبيداً وخدماً). هال، يهول: أفزع، أخاف. لهالك الأمر: لوجدت هذا الأمر (بيع المسلمين ليكونوا عبيداً) أمراً فظيعاً. استهوتك أحزان: ملت إلى الحزن الشديد.

(٥) حال الأمر بيني وبينه: فرّق بيننا، أبعد بعضنا عن بعض. كما تفرّق أرواح وأبدان (بالموت).

(٦) العلج: الإفرنجي من أهل الأندلس. السبي: الأخذ غصباً، الخطف، الأسر.

(٧) الكمد: الحزن الشديد.

(٨) كان أمراء الأندلس أحياناً يستعين بعضهم بملوك الإسبان على بعض، وكان ملوك الإسبان في العادة يستولون على بلاد الذي استعان بهم وعلى بلاد خصمه.

القويّةُ يومَذاكَ تقومُ به[١]. ثمّ لم يكُنْ يومَذاك أيضاً دولةٌ إسلاميةٌ قادرةٌ وفارغةُ اليَدَيْن[٢] حتىّ تَسْتطيعَ أن تُنْجِدَ أهلَ الأندلس. فزالَ العربُ عنِ الأندلسِ وزالَ الإسلامُ مِنْ الأندلس.

ثمّ إنّ هذه الزفرةَ نفسَها هِيَ التي زَفَرَها إبراهيمُ طوقانُ[٣] لمّا رأى مَوْطِنَهُ فِلَسْطِينَ مُمَزَّقاً بالاختلافاتِ الداخليةِ وبالمطامع الشخصية، ثمّ رأى الشُعوبَ العربيةَ حولَ فِلَسْطِينَ لاهيةً في تَرَفِها القليلِ غارقةً في غَفْلَتِها العميقةِ، كلُّ شَعبٍ منها مشغولٌ بنفسِه يُرتِّبُ المكائدَ لأخيه ثم يُلهِيهِ قليلُ حاضره عن كثيرِ مُستقبلِهِ ويَلْفِتُهُ أمنُه الشخصيّ عنِ الخَطرِ العامّ المُطِلّ عليه وعلى غيره.

في هذه الحالِ التي كانَ ابراهيمُ طوقانُ يراها مُخْزِيَةً كان جَماعاتٌ من الناس في مدينة بيروتَ (في عام ١٩٣٥) يَغْبِطون أهلَ فِلَسْطينَ على الأثمانِ المُرتفعة التي كانَ اليهودُ يدفَعونها في شراء الأراضي العربية ثمّ على الترفِ الذي غَرِقَ فيه الفِلَسْطينيون بِضْعَ سَنَواتٍ. وكان ابراهيمُ طوقانُ يُدْرِكُ أن هذا المالَ الذي كان اليهودُ يدفَعونه ثمناً للأراضي العربيةِ كانوا يَسْتَرِدّونَهُ ثمنَ لهوٍ وفِسْقٍ أو ثَمَنَ أسباب تَرَفٍ لا قيمةَ لها. فقال إبراهيمُ طوقانُ في ذلك (الأبياتُ التاليةُ نُشِرَتْ في جريدةِ «صوت الأحرار»، بيروت ـ يومَ السبتِ في ١٩٣٥/٤/٢٠):

يقولون في بيروتَ: أنتُمْ بِنِعْمةٍ،   تَبيعونَهم تُرْباً فيُعطونكم تِبْرا[٤].

---

(١) كان المغرب أيضاً معرّضاً في ذلك الحين لاعتداء دول أوروبّة (راجع، فوق، ص).
(٢) كانت الدول الإسلامية في المشرق في ذلك الحين مشغولة بالحروب الصليبية وبهجمات التتر.
(٣) إبراهيم طوقان (ت ١٩٤١) شاعر وقف معظم شعره على تنبيه قومه على أخطار السياسة البريطانية وعلى أطماع اليهود في فلسطين. وكان يرى هذه الأخطار والمطامع قبل زمن طويل من وقوعها.
(٤) ترب = تراب (شيء لا قيمة له). تبر: ذهب.

شَقِيقَتَنا، مهلاً! متى كان نَعْمَةً   هلاكُ أُلوفِ الناسِ في واحدٍ أثْرى[١]؟
وباذلُ هذا المالِ يعلَمُ أنّه   يُسَلِّمُ باليُمنى إلى كفِّهِ اليُسرى[٢]...
على أنّها أوطانُنا، ما كُنوزُهم   وأمْوالُهم، حتّى تُساوى بِها قَدْرا[٣].
ولو كان قومي أهلَ بأسٍ ونخوةٍ   إذَنْ أصْبَحَتْ للطامعين بها قبراً
ولكنّهُمْ قد آثروا السَهْلَ مركَباً   تُسَيِّرُهُ الأهواءُ واجْتَنبوا الوَعْرا[٤].

وفي أوائلِ عام ١٩٣٣ كان ابراهيمُ طوقانُ قد نَظَمَ في مِثْلِ هذا المعنى قصائدَ أناشيدَ جاء في عددٍ منها[٥]

أحبابَنا، لا تُخْدَعوا   عنّا بظاهرة الثَراء[٦]
ليستْ فِلَسْطينُ الرخيّةُ   غيرَ مَهْدٍ للشقاء[٧].
عُرِضَتْ لكم خَلْفَ الزُجا   جِ تَميسُ في حُلَلِ البهاء[٨].
هَيْهاتِ ذلك، إنّ في   بَيعِ الثَرى بيعَ الثَراء؛[٩]
فيه الرحيلُ عن الربو   عِ غداً إلى وادي الفناء
فاليومَ أمْرَحُ كاسياً،   وغداً سأُنْبَذُ بالعَراء[١٠]...

---

(١) أثرى: اغتنى، أصبح غنيّاً.
(٢) يسلّم باليمنى إلى كفّه اليسرى: يدفعه ثمن الأرض ثمّ يسترده ثمناً للهو والخمر والفسق الخ.
(٣) مع أن الأرض التي يشترونها أرضنا، ومع أن الأموال التي يدفعونها ثمناً لأرضنا هي أموالنا (أخذوها من بلادنا).
(٤) آثر: فضّل. اجتنب: ابتعد عن الشيء. الوعر: الأرض الصلبة القاسية. ـ فضّلوا العيش السهل (بلا عمل ولا كفاح) على الكدّ (بذل الجهد) في سبيل العيش الكريم.
(٥) القطع الثلاثة من بحر واحد. القطعة الثالثة مستقلّة. وفي أبياتها شيء من التقديم والتأخير (من عمل الناظم).
(٦) ظاهرة الثراء (الغنى): الكاذب (اسراف الإنسان في الكماليّات وهو بعد محتاج إلى الضروريّات).
(٧) الرخيّ (اللين) من الرخاء (بفتح الراء): سعة العيش.
(٨) تميس: تتمايل. في حلل البهاء (ليست هي بهيّة أو جميلة ولكنّها تلبس ثياباً جميلة).
(٩) هيهات ذلك: ليست فلسطين رخيّة (غنيّة) كما تظنّون! في بيع الثرى بيع الثراء (الأرض هي الثروة الحقيقية. ومن باع أرضه فلا ثروة له).
(١٠) أمرح (أسير مختالاً، متبختراً، فرحاً) كاسياً (لابساً ثياباً جميلة). سأنبذ (سأطرح، ألقى بعيداً) بالعراء (في الأرض التي لا يسترها عن الشمس والريح شيء).

* للحق سطرٌ في صحا فتنا وللتضليلِ نَهْرُ[1] .
قَلْبَ صحائفِها يُطِلُّ عليكَ بُهتانٌ وهُجْرُ[2] :
للخاملين نباهةٌ فيها، وللأغمارِ ذِكْرُ[3]
هذا يُقالُ له الزعيـ ـمُ كما يُقالُ لذاك حُرّ.
وهناك سِمْسارُ البلا دِ فإنّه الشَهْمُ الأغرّ.
فالمَدْحُ مثلُ القَدْحِ تَضْـ ـمَنُه لهم خُضْرٌ وحُمْرُ[4].
تلك الصحافةُ! كيميا ءُ لها بخَلْقِ الله سِرّ[5] :
تَدَعُ الكرامةَ وَهْيَ هزْ لٌ والمُروءةَ وَهْيَ سُخْر[6] .
مُنذُ احتلالِ الانكليـ ـزِ ونحنُ نبحثُ في السياسة[7].
شأنُ الضميرِ مَعَ السيا سةِ كالرقيقِ مَعَ النخاسة[8]
مرّتْ علينا سِتَّ عَشْـ ـرَةَ كُنَّ مجلَبَةَ التعاسة[9]

---

(١) النهر (في الجريدة): العمود (نحو سبعين سطراً). في الجرائد قليل من الحق وكثير من الباطل.
(٢) البهتان: الكذب والافتراء. الهجر (بضمّ الهاء): الكلام القبيح.
(٣) نباهة: شهرة، ذكر كثير. الأغمار جمع غمر (بفتح الغين): القليل التجربة (بكسر الراء)، من لم يجرّب الأمور. ذكر: صيت حسن.
(٤) كانت ورقة الجنيه الفلسطيني خضراء وورقة الخمسة الجنيهات حمراء
(٥) كيمياء = إشارة إلى الصنعة (الكيمياء القديمة) محاولة قلب المعادن الخسيسة (كالرصاص والنحاس) معادن شريفة (كالفضّة والذهب). لها بخلق الله سرّ (يقصد أن الصحافة تصوّر الحق بصورة الباطل والباطل بصورة الحقّ، إذا طلب أحد منها ذلك ودفع لقاء ذلك مالاً.
(٦) تدع (تترك، تجعل) الكرامة (الحياة الشريفة) وهي هزل (مزح، هزؤ). المروءة (صفات الرجولة، الإنسانية) وهي سخر (هزؤ، احتقار).
(٧) منذ احتلّ الإنكليز فلسطين (عام ١٩١٧) ونحن نبحث في السياسة (يجادل بعضنا بعضاً في الأمور النظرية: في الكلام على الاستعمار، الصهيونية، الاستقلال، الإضراب، المظاهرات. . .) ولم نعمل عملاً يفيد فلسطين (من العلم، الجهاد، السعي المثمر في المحافل الدولية، الخ).
(٨) شأن (عمل) السياسة بيع الضمائر (الاتجّار بالمبادىء) كما أن عمل النخاسة بيع العبيد الأرقّاء.
(٩) مرّ علينا ستّة عشر عاماً، منذ وعد بلفور ١٩١٧/١١/٢) إلى وقت نظم هذه القصيدة (أواخر ١٩٣٣) كانت علينا أيام نحس لأنّنا كنّا نتلهّى بالجدال من غير أن نعمل عملاً نافعاً.

فإلى متى، يا ابنَ البلا دِ، وأنتَ تُؤخَذُ بالحَماسة؟
وإلى متى زُعماءُ قو مِكَ يَخْلِبونَك بالكِياسه[1]؟
ولَكَمْ أحَطْنا خائناً منهم بهالاتِ القَداسة.
ولكم أضاعَ حُقوقَنا الر جلُ المُوكَّلُ بالحِراسة.
واللهِ، ليسَ هناك إلّا كلُّ قنّاصِ الرئاسة[2]
تأتيه من بَيْعِ البلا دِ وما إليه من الخَساسة
وإذا اتَّقاكَ فبالجرا ئدِ؛ والنَجاسةُ للنجاسه[3]!

ومِنَ المُؤسِفِ أنّ فِلَسطينَ خاصّةً وأنّ العربَ عامّةً لم يَتَنَبّهوا إلى ما تنبّهَ له ابراهيمُ طوقان، كما أن العربَ والمسلمينَ من قبلُ لم يَتَنبّهوا لما تَنَبّهَ له الشريفُ الرُنديُّ الأندلسيّ. وكان من حُسْنِ الحظِّ أن العثمانيّين قد أدْركوا ما قالَ الشاعرُ السِجلماسيّ واعترضوا الدولَ الأُوروبيّةَ التي كانت تريدُ احتلالَ بلادِ المغربِ مِنذُ القرنِ السادسَ عَشَرَ للميلادِ وحاربوها وقاتلوها وحَمَوُا المَغْرِبَ بضعةَ قرونٍ.

في رمَضانَ من سَنَةِ ٩١٥ (١٥١١/١/٦ م) وَصَلَ إلى مرفأ بجايَةَ أسطولٌ إسبانيٌّ عليه عَشْرَةُ آلافِ مُقاتِلٍ اقتحموا تلك المدينة وأعْمَلوا فيها القتلَ والتدميرَ بعدَ أن نَقَلوا كلّ ما وَصَلَتْ إليه أيْديهم من نفائِسِها إلى إسبانية. وكان في ما هدّموه مَنارُ قصر اللؤلؤة ـ وهو آيةٌ من آياتِ فنّ المِعْمارِ الجزائريّ ـ وقصرُ الكوكبِ والجامعُ الأعظمُ، حتّى تغيّرَ وجهُ المدينةِ تغيُّراً كاملاً.

---

(١) يخلبونك: يخدعونك. الكياسة: السلوك المصطنع والدهاء والممالقة.
(٢) قنّاص: صيّاد.
(٣) إذا اتّقاك: إذا رأى أنّك فطنٍ (عاقل) لا تخدع بالكياسة (بالكلام الحلوالفارغ) فبالجرائد (سلّط عليك الجرائد يدفع لها قليلاً من المال فتكتب ضدّك محاولة أن تشوّه سمعتك).

وَمَعَ أن الجزائريّين قد دافعوا يومَذاك عن بلادِهِم حتّى وَصَلَتْ بِهِمُ الجُرأةُ إلى مُهاجمةِ الساحلِ الاسبانيِّ نفسِه ثمّ الرجوع مِنه بغنائمَ وأسرَى، فإنّ قوّةَ الجزائرِ المُتضائلَةَ يومَذاك وقُوةَ الإسبانِ المُتعاظمة لم تكونا مُتكافِئتَيْن. وقد كان من البادي للعيان أنّ الأمرَ إذا استَمَرَ على هذا السَّيْرِ فإنّ بلادَ شَماليِّ إفريقِيَةَ ستخرُجُ وشيكاً من أيدي أهلِها (كما كانت الأندلُس قد خرجتْ من يَدِ أهلِها)، ذلك لأنّ الإسبانَ أنفُسَهم كانوا يواصلون اعتداءهُمُ المُتواليَ على مَرافِئَ أُخرى من بلادِ الجزائر وعلى مَرافِئِ تُونس وليبيا، بينَما كان البُرتغاليّون يستَوْلون على مَرافِئَ اختاروها في المَغْرب (الأقصى). وكانت هَمَجيّةُ الإسبان والبُرتغاليين، في التقتيلِ والتخريب، واحدةً في كلِّ مكانٍ. ولا فائدةَ مِنَ اقْتِصاصِ الأحداثِ المُفْرَدَةِ في أقطارِ المغربِ الأرْبعة لأنّ الأسبابَ والنتائجَ مُتماثِلَةٌ وإنِ اخْتلَفَتِ الأسماء والأماكنُ والتواريخ.

ومن جميعِ الذين استغاثَ بِهِمُ الشاعرُ السِجلماسيُّ لم يَهُبَّ لِنُصْرَةِ الجزائرِ وسائرِ أقطارِ المَغْرب هَبّةً فيها نَخوةٌ وحِكمةٌ وقوّةٌ معاً إلاّ الأتراكُ العُثمانيّون.

ولم يَكُنِ المستغيثُ بالأتراكِ العثمانيّين من أهلِ الأقطارِ المَغْربيّة ذلك الشاعرُ السِجلماسيُّ وحدَه، بل كان هنالك إجماعٌ عامٌّ في المَغْرب والجزائر وتُونسَ وليبيا على الاستنجاد بالدولة العُثمانية أقوى دُوَلِ الإسلام يومَذاك، لأنّ الغَزْوَ الصليبيَّ الجديدَ الذي أرادتِ البابويّةُ ودُوَلُ أوروبّةَ الغَرْبيةُ أن تقومَ به من وراء إسبانيةَ والبُرتغالِ وعصابةِ فُرسانِ القِدّيس يوحنّا في مالطةَ (إسرائيل

---

(١) فرسان مالطة أو طريقة فرسان ماريوحنّا أو فرسان رودوس أو الأسباتاريّة طريقة دينية عسكرية مسيحيّة أسّست عام ١٠٤٨ م (٤٤٠ هـ)، في أثناء الحروب الصليبية، في مستشفى (هوسبيتال) في القدس ولذلك عرفوا أيضاً باسم اسبتار واسبتاريّة. وقد أجازها البابا باسكال الثاني، عام=

ذلك الزَمَن) كان يرمي إلى الأغراض التي رَمَتْ إليها الحروبُ الصليبيةُ من قَبْلُ وترمي إليه الدُوَلُ الغَرْبيّةُ اليومَ من وراء زَرْعِ إسرائيلَ في قلب العالمِ العربيِّ في المَشْرق. ومَعَ أن الأقطارَ المَغْربية كان فيها ثَغَراتٌ في الهُجوم والدِفاع، فإنّ الواضحَ أن المَغاربةَ كانوا أصلَبَ عوداً في القِتال وأقدرَ على الاستمرارِ فيه.

واشتد الأمرُ على أقطارِ المَغْرب ثم وَضَحتِ الخُطّةُ الأوروبيّة. كَتَبَ المَلِكُ فرديناند ملكُ آراغونَ (في إسبانية) إلى الكونت بدرو نابارّو (قائد الحملة الإسبانية على المغرب) رسالةً مؤرّخةً في أيّارَ (مايو) من عامِ ١٥١٠ م (٩١٦ للهجرة) جاء فيها: (الباروني ٢٩ - ٣٠)[1].

إذا أردْنا الاستقرارَ في إفريقِيَةَ فيَنْبَغي أن نحتلَّ (المرافيء الثلاثة) وَهرانَ وبجاية (في القُطر الجزائري) وطرابُلُسَ (ليبيا). وإذا آلتِ الأخيرةُ (طرابُلُسُ الغرب) ألى أيدينا فيَجبُ أن نُسْكِنَها بأكْمَلِها بالمسيحيّين، لأنّ المَغاربَةَ[2] هم أصحابُ كلِّ ما تَبَقّى مِنَ البلاد. وإذا نحن سَمَحْنا لهم بالإقامة في مُدُنِ السواحل فَلَنْ نَتمكّنَ مِنَ الاحتفاظ بمُمْتَلَكَاتِنا زمناً طويلاً. ويجب أن تكونَ الأماكنُ الثلاثةُ؛ إذَنْ - وانتظاراً لِما هو أحْسَنُ محافظةً[3] - بحِمايةٍ قويّةٍ من المسيحيّين ولا يُسمَحُ لأيِّ عربيٍّ بالدخولِ إليها».

= ١١١٣م، (٥٠٧ هـ). واستولت على جزيرة رودوس عام ١٣١٠ م، ولم يستولوا على مالطة إلاّ عام ١٥٣٠ م. وكان هؤلاء قرصاناً (راجع، تحت، ص ٢٢٧) للإغارة على السفن الإسلامية وعلى الشواطيء الإسلاميّة بعيد انتهاء الحروب الصليبية.

(١) الإسبان وفرسان القدّيس يوحنّا في طرابلس، تأليف عمر الباروني، مطبعة ماجي في طرابلس (الغرب)، ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) المغاربة: المسلمون.

(٣) . . . لما هو أحسن في المحافظة عليها.

وكان الذي يُمَوِّلُ هذه الحملةَ ويُشْرِفُ على تَوْجيهِها (إلى جانب الملكِ فرديناند) الكارديناڵَ خيمينس. كان خيمينسُ هذا (أو فرانثيسكو خيمينس دي ثيسنيروس) رئيسَ أساقفةِ طُلَيْطِلَةَ وجاثليقَ (كبيرَ الأساقفة في إسبانية) ومُرْشِدَ (مُعَرِّفَ) المَلِكَةِ إيسابلاّ (زوجةِ الملكِ فرديناند) ورئيسَ ديوانِ التفتيش[1] في قَشْطالَةَ أو بلادِ القِلاع (الكاستيل، في أواسط إسبانية). وقد رُسِمَ كاردينالاً في عامِ ١٥٠٧. وفي العامِ التالي ١٥٠٨م (٩١٤هـ)، أعَدَّ حملةً للاستيلاء على بلادِ المَغْرب[2].

إنّ هذه الحربَ الشاملةَ التي كانتِ البابوّيةُ والدُّوَلُ الأوروبيّةُ تقومُ بها مُجْتَمِعةً مُتكاتِفَةً لم تكن حرباً مِنْ حروبِ الأطماع المحدودةِ يُمْكِنُ أن تنتهيَ بمعاهدةِ سلامٍ وبصُلْحٍ للتعايُشِ إلى حينٍ على الأقلّ، بلْ كانتْ حربَ حِقْدٍ لا ترضى بتَسْويةٍ. من أجل ذلك ما كانَ بإمكانِ قُطْرٍ وحدَه أن يقومَ لها: فلا القُطر الطرابُلُسيّ (الليبيّ)، ولا القُطر التونسيّ، ولا القطر الجزائريّ، ولا القطر المغربي، ولا هذه الأقطارُ الأربعةُ مجتمعةً كانتْ قادرةً على أن تقومَ لها. فكان لا بُدَّ، إذَنْ، من اللُجوءِ إلى قُوّةٍ يُمكِنُ أن تقومَ لهذه القُوى المُتَجَمِّعةِ للوُثُوبِ على هذه الأقطار. ولم يَكُنْ في العالمِ الإسلاميّ يومَذاكَ دولةٌ قادرةٌ

(١) ديوان التفتيش: «محكمة التفتيش» محكمة دينية مدنية في القرون الوسطى كانت تقتصّ من الخارجين على الدين (المسيحي) لكونهم أعداء الدولة أيضاً (المنجد في اللغة للويس معلوف)، بيروت (المطبعة الكاثوليكية)، في القسم التاريخي للأب فرديناند توتل، ص ١١١ (تحت كلمة: تفتيش). وهو في الحقيقة محكمة دينية كاثوليكية أنشأها البابا إنّوسنت الثالث، عام ١٢٠٣م (٦٠٠هـ) للقضاء على المخالفين للمذهب الكاثوليكي (في فرنسة). ولكنّ عمل ديوان التفتيش كاد ينحصر فيما بعد في إسبانية (للاستبداد في الأحكام على المسلمين ثمّ على النصارى الإسبان الذين كانوا في الأصل مسلمين أو كان يشكّ في تركهم الإسلام واعتناق النصرانية). وقد أصبح ديوان التفتيش في إسبانية الأداة الفعّالة لاضطهاد الجماعات اليهوديّة والجماعات المسلمة. وكان عمل هذا الديوان (أو المحكمة) يقوم على إقناع المتّهم بالتنصّر. فإن لم يقتنع وقع عليه اضطهاد ثمّ طرد من إسبانية (راجع ص ٧٥٦ في كتاب **Collins**.

(٢) Larousse, 3Vol., 1:654d, **sous** cisneros.

على الوُقوفِ في وجهِ أوروبّةَ الواثبةِ على المَغْرِبِ لاستعماره إلّا الدولةُ العثمانيةُ. فطَلَبَ أهلُ الأقطارِ المَغْربيةِ معونة الدولةِ العثمانية. وكانت الدولةُ العثمانيةُ حكيمةً فلم تُرْسِلْ جيوشَها وأساطيلَها جَهْرةً، بل آثرت أن تترُكَ الأمرَ في يدِ «المُرابطينَ في البحر».

والمُرابطون في البحر حَرَكَةٌ قام بها نَفَرٌ من الأتراك العُثمانيّين لمُقاومة «القَرْصَنَةِ». والقرصنةُ عَملُ القَراصنةِ (لُصوصِ البحر)، وهم بحّارة مُغامرون من الإسبان والبُرتغاليّين والهولنديين والفرنسيين والإنكليز في الأكثر كانوا يطوفون البحارَ بسُفُنٍ شِبهِ حربيةٍ يُغيرون بها على سُفُنٍ تجاريةٍ أو على المُدُنِ الساحليّةِ ينهبون المَتاعَ والأموالَ أو يأسُرون الناسَ. وقد كثُرَتْ هَجَماتُ القَراصنةِ الإسبان والبرتغاليّين، في أواخرِ القَرْنِ التاسعِ وأوائلِ القَرْنِ العاشرِ للهجْرة (الخامِسَ عَشَرَ والسادِسَ عَشَرَ للميلاد) على موانىء الأقطار المَغْربية. وتَبَنَّتْ إسبانيةُ والبُرتغالُ أعمالَ القراصنةِ من رعاياهما، فأصبحَ هؤلاء القراصنةُ طلائعَ استعمارٍ لدَوْلَتَيْهِما: فكان إذا نَجَحَ نَفَرٌ من هؤلاء القراصنةِ في وَضْعِ أقدامِهِمْ في إحدى النُقاطِ على ساحلِ المَغْرب، أسرعتِ الدولةُ التي ينتمي إليها هؤلاء النَفَرُ من القراصنة فأرسلتْ جُنوداً وسُفُناً لتُرْسِخَ هناك احتلالَها واستعمارَها. ولقد كانتْ هَجَماتُ القراصنةِ - على السفنِ الإسلاميةِ في الحوضِ الغربيِّ من البحر الأبيضِ المُتوسِّطِ خاصّةً، وعلى سُفُنِ المُسلمينَ الذين كانوا في ذلك الحينِ يَجْلُونَ عن الأندَلُسِ على الأخصّ (حتّى يلجأوا إلى بَلَدٍ إسلامي يحميهم) - كثيرةً جداً ومُنَظَّمةً مُهَيَّأةً مدروسة. في هذهِ الحالِ المؤسفةِ التي كانَتْ وَبيلةً على المسلمين في البحرِ وعلى سواحِلِ البحرِ قام رجلٌ اسمه عَروجُ وإخوةٌ له بإنشاء حركةِ «المُرابطين في البحر» لردِّ عاديَةِ القراصنةِ النصارى عن المسلمين. ومَعَ أن الأحداثَ الأولى في حياةِ عَروجَ هذا وإخوته ليستْ كثيرةَ العددِ ولا كثيرة

الوضوح ، فإنّ ما يلي كافٍ في التعريف بهم : كان يعقوبُ بنُ يوسُفَ[1] رجلاً من آجي آبادَ في الرُوملّلي (بلادِ الروم : شِبهِ جزيرةِ آسِيَةَ الصُغرى). ويبدو أنّه كان خزّافاً يصنَعُ الخزفَ: أدواتٍ مِن الفخّار). ثمّ كان في جَيْشِ السُلطانِ محمّدٍ الثاني في فتْحِ القُسطنطينية، سَنَةَ ٨٥٧ هـ (١٤٤٣ م). ثمّ إنّه استَقرَّ في جزيرة مَدللي[2] وتزوّجَ فيها(؟) امرأةً ذِمّيّة (كتابيةً، يونانية رُوميّة في الأغلب). وكان ليعقوبَ هذا أربعة أبناء هم على توالي أسْنانِهِم: إسحاق وعروجُ (أو أروجُ) وخيرُ الدين وإلياسُ. وكان عروجُ وخيرُ الدين أشْهَرَ الإخوةِ الأربعةِ، ثمّ زاد عليه خيرُ الدين في الشُهرة، لأنّ عروجَ تُوُفِّيَ باكراً. وغلَبَ على خيرِ الدين لَقَبُ «برباروس»[3] (خيرُ الدين برباروس) ، ورُبّما قيل لأخيه عروجَ: عروجُ برباروس أو بابا عَروج اختصاراً.

وُلِدَ عَروجُ في جزيرة مدِلّلي ونشأ مُحِبّاً للبحر فاتّخذَ مركباً يتّجِرُ عليه بين مرافىء الحوضِ الشرقيّ للبحر الأبيضِ المتوسّط. وقد وَقَعَ عَروجُ في الأسرِ، أسَرَهُ القُرصان البنادِقةُ[4] - برُغْمِ مُعاهدةِ الصداقة التي كانتْ قد أُبرِمَتْ بين العُثمانيّين والبنادقة، سَنَةَ ٨٥٨ هـ (١٤٤٤ م) - فنالَهُ في أيْديهِمْ تعذيبٌ وتنكيلٌ شديدان. فلمّا نجا من الأسْرِ كان قدِ استقرَّ في نفسه حِقْدٌ شديدٌ على القراصنة فانتقَلَ من التجارة إلى «الرِباط في البحر انتقاماً من القراصنة وجهاداً في سبيل الله لدَفْعِ أذى القراصنة عن المسلمين». وبدأ عروجُ (وإخوته) نشاطَهم في الحَوْضِ الشرقيِّ من البحر الأبيضِ المتوسّط ثم نَقَلوا نشاطَهم إلى الحَوْضِ

(١) راجع تاريخ الجزائر العام ٢ : ٢٩٠.

(٢) مدلّلي الأسم التركيّ لجزيرة لسبوس (ويقال لها أيضاً: متيلين): جزيرة كبيرة قرب الشاطيء الغربي لآسية الصغرى (شمال أزمير) وهي تابعة اليوم لليونان.

(٣) برباروسّا (اللحية الحمراء): خير الدين برباروس (خير الدين ذو اللحية الحمراء: الأصهب، الأحمر اللون).

(٤) البنادقة: نسبة إلى مدينة البندقية في الشمال الشرقي من شبه جزيرة إيطالية.

الغربي لشدّة الأذى الذي كان يَقَعُ من القراصنة على المسلمين في الحوض الغربي.

وجاء عَروجُ وخيرُ الدين[1] إلى تونُسَ في أيّامِ السلطانِ الحَفْصيِّ أبي عبدِالله محمّدِ بن الحسن المتوكّل[2] (٨٨٩ - ٩٣٢ هـ) فأعطاهُما، سَنَةَ ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) مركَزيْن واحداً منهما عندَ مدينة تونس وآخرَ في جزيرةِ جَرْبَةَ، على أن يكونَ له خُمُسُ ما يَغْنَمانِه. وفي سَنَةِ ٩١٦ هـ (١٥١٠ م) كان عَروجُ قد نال مكانة في المغرب، ثم وَثِقَ السُلطانُ محمّدُ بنُ الحسنِ المتوكّلُ بعَروج فجعَلَه قائداً (حاكماً) على جزيرة جربةَ.

وقد كان للإسبان مراكزُ في مرافىء القُطرِ الجزائريّ: في وَهْرانَ (٩١٥ هـ) وفي هنين (غربَ وهران) وفي بجايةَ، كما كانوا قد بَنَوْا حُصْنَ بَنْيون (بستيون) قُبالةَ مدينةِ الجزائر. وكان لهم مركزٌ في طرابُلسَ (ليبيا) أيضاً.

ودارتْ معاركُ شديدةٌ بينَ عَروجَ وخيرِ الدين من جانب والإسبان من جانبٍ آخَرَ، ففقَدَ عَروجُ في إحدى المعارك إحدى ذِراعَيْهِ.

ولمّا قَبِلَ سُلطانُ تِلِمْسانَ (في القطر الجزائري) أبو حمّو موسى بنُ محمّدٍ (٩٢٢ - ٩٣٤ هـ) الحِمايَةَ الإسبانيةَ، استخلفَ عَروجُ أخاه خيرَ الدين على مدينةِ الجزائر ثمّ سار في جيشٍ كثيفٍ على تلمسانَ. وفي أثناء مسيرِهِ

(١) ولد خير الدين في جزيرة مدليّ سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) وخلف أخاه عروج لّما سار عروج على تلمسان وبعد موت عروج انتخب أتباع عروج رئيساً عليهم خير الدين. وأصبح خير الدين بيلرباي مدينة الجزائر. وكانت وفاته في خامس جمادى الأولى من سنة ٩٥٣ (١٥٤٦/٧/٤ م).

(٢) أبو عبد الله محمّد بن الحسن المتوكّل من سلاطين الدولة الحفصية في تونس في أواخر أيامها، جاء إلى العرش سنة ٨٩٩ هـ ثمّ توفّي سنة ٩٣٢ هـ (١٤٩٣ - ١٥٢٥ م). في ذلك الحين كانت الدولة الحفصية في أيام ضعف مشرفة على الزوال. ومع ذلك فقد كان أبو عبد الله محمّد هذا محبّاً للخير أنشأ مكتبة جامع الزيتونة المشهورة باسم «البداية».

استَوْلى على قلعةِ بني راشدٍ وجعَلَ أخاه إسحاق عليها ثمّ تابعَ سيرَه واستولى على تِلمسانَ في ذي الحِجّة من سنة ٩٢٣.

ولمّا وَصَل أبو حمّو يَدُهُ بِيَدِ الإسبانِ وسارَ معَهم لقتال عَروجَ التَقى عروجُ الإسبانَ وأبا حمّو عند نهر سلادو (النهر المَلِح، المالح) فاسْتُشْهِدَ عروجُ في المعركة، في شَهْرِ جُمادى الأولى من سَنَةِ ٩٢٤ (أيار - مايو ١٥١٨ م)، وعُمُرُهُ يومَذاك نحوَ أربعٍ وأربعينَ سَنةً.

فَرِح الإسبانُ بمَقْتَلِ عروجَ ثم فرّجواعن خَوْفهم منه وحِقْدهم عليه بأن حَزّوا رأسَه وجعلوا يطوفون به في طول إسبانيةَ وعَرْضِها تطميناً لأهلِها بأن هذا الرجلَ الذي كان عَثْرَةً في وَجْهِ أطماعِهِمْ وكابوساً في أحلامِهِمْ قد مات.

ولمّا اسْتُشْهِدَ عَروجُ، سَنَةَ ٩٢٤ هـ، اجتمع أتباعُه وانتخبوا أخاه خيرَ الدين خَلَفاً له بالإجماع. واسْتقرّتِ الأمور في القُطْر الجزائريّ من ناحيةٍ، وحدثَتْ خِلافاتٌ هنالك من ناحيةٍ أُخرى. فأبْدى خيرُ الدين رَغبةً في تَرْكِ الجزائرِ لأهلِها والرجوعِ إلى «الرباطِ والغَزْو» في الحَوْضِ الشرقيّ من البحر الأبيضِ المتوسّط. فأبى أعيانُ البلادِ وأهلُ الرأي فيها ذلك وأصرّوا على أن يبقى بَيْنَهم. فاقترح عليهم عِنْدَئِذٍ إلحاقَ القُطْرِ الجزائريّ بالدولة العُثمانية، فاسْتَصْوبوا رأيَهُ وقَبلوه. فكَتَبَ خيرُ الدين إلى السُلطان سليمٍ (٩١٨ - ٩٢٦ هـ) بذلك واسْتَنْجَدَهُ. فأنْجَدَهُ السُلطانُ سليمٌ بألْفَيْ رَجُلٍ وعَيّنه بَيْلَرْباي[1] وخَلَعَ عليه لَقَبَ «باشا» ثمّ أجازَ له أن يجمَعَ المرابطين (المتطوّعين في سَبيلِ الله) من الشرق، فَلَحِقَ بِهِ أربعةُ آلافٍ منهم.

(١) بيلرباي حاكم مقاطعة مدني وعسكري في وقت واحد.

وكان شاركان[1] لا يزالُ يحلُمُ بالاسْتيلاء على الجزائر فجَهَّزَ حملةً عظيمةً بقيادة هوغودي مونكادا[2]، فوَقَعَتْ بينَ الإسبانِ والجزائريين معرَكَةٌ بناحيةِ الحرّاش (على مقرُبَةٍ من مدينة الجزائر) انهزَمَ فيها الإسبانُ ووقَعَ منهم في يدِ الجزائريّينَ ثلاثةُ آلافِ أسيرٍ فيهم كثيرٌ من الضُباطِ منهم قائدُ الحملةِ نفسُه، سَنَةَ ٩٢٦ هـ (١٥١٩ م).

وبعد أن ظفر خيرُ الدين بنفر من الرؤساء الجزائريين الثائرين عليه حاصَرَ الإسبانَ في حُصنِ بَنْيونَ (بستيون)، قُبالةَ مدينةِ الجزائر ثمّ اسْتَوْلى عليه، في ٢٠ من رَمَضانَ سَنَةَ ٩٣٥ (١٥٢٩/٥/٢٧ م) وقَتَلَ القائدَ الإسبانيَّ مارتين دي بارغاس . بعدَئِذٍ هَدَمَ الحُصنَ وجعَل من أنقاضِه سُوراً لِصَدِّ الأمواجِ عن ساحلِ مدينةِ الجزائر. من هذا السورِ نَشأ المرفأ الحديثُ لمدينةِ الجزائر.

في تلك السَنَةِ نفسِها عَنُفَ الإسبانُ في طَرْدِ بَقايا المسلمين من الأندلس، فاسْتَغاثَ مُسْلِمو الأندلسِ بخيرِ الدين فأغاثَهُم خيرُ الدين بستّةٍ وثلاثين مركَباً برئاستِه هو وقيادةِ نائبَيْه أَيْدينَ رئيس وصالحِ رئيس. وحاولتِ السُفُنُ الإسبانيةُ اعتراضَ طريقَ خيرِ الدين فحاربها خيرُ الدين وأغرقَ بعضَها وأسَرَ بعضَها الآخَرَ. وكَثُرَ تردُّدُ خيرِ الدين إلى شواطىء إسبانية حتّى أنقذَ نحو سبعينَ ألفاً من مُسلمي الأندلُسِ كانوا مُعرّضين للإبادة.

(١) شارل كنت (شارل الخامس) إمبراطور الإمبراطوريّة الرومانية الجرمانية المقدّسة (١٥١٩ - ١٥٥٦ م) وملك إسبانية (باسم كارلوس الأول) ١٥١٦ - ١٥٥٦ م)، أغنى الملوك وأقواهم في زمنه وأوسعهم ملكاً، أخذ على نفسه محاربة العثمانيّين والبلاد الإسلامية. توفّي عام ١٥٥٨ م (أواخر ٩٦٥ هـ).

(٢) هوغودي مونكادا ولد عام ١٤٧٦ م (٨٨١ هـ). قبطان إسباني ونائب الملك في جزيرة صقلّية (١٥٢٢ م). سجنه أندريا دوريا (راجع بعد قليل ٢٣٢) عامين (١٥٢٤ - ١٥٢٦ م). قتل في أثناء حصاره لمدينة نابولي، عام ١٥٢٨ م (٩٣٤ - ٩٣٥ هـ).

في هذه الأثناء كلِّها كانَ الإسبانُ يُعيدون الكرَّةَ على سواحلِ الجزائر مرّةً بعدَ مرّةٍ. فقد جاء أندريا دوريا[1]، في ذي الحِجّة من سَنَةَ ٩٣٧ (صيف عام ١٥٣١ م) يقودُ أُسْطولاً كبيراً فاسْتَوْلى على مدينة هنين (غربَ مدينة الجزائر) واعتدى على السواحلِ المُجاورة لها. فقامَ خيرُ الدين بحَرَكَةٍ كبيرةٍ فغزَا الجزائرَ الشرقيّةَ أو جزائرَ البليار: مايوركا (الكبيرة) ومنورقا (الصغيرة) ويابسَة ـ لِقَطْعِ صِلاتِ الأُسطولِ الإسبانيِّ بقواعدِه القريبةِ ـ فَقَوّضَ حُصونَها وغَنِمَ مُؤنَها وذَخائرَها ثمّ ارْتَدَّ على سُفُنِ أندريا دوريا فَهَزَمَها.

وطارتْ شُهرةُ خيرِ الدين لبراعتِه في تنظيم الأساطيل ولمقدرتِه في المَعارك البحرية، فعَيّنَهُ السُلطانُ سُليمانُ القانونيُّ، سَنَةَ ٩٤٠ هـ (١٥٣٤ م)، قبودان باشا[2]. فاستَخْلف خيرُ الدين على الجزائر ابنَه حَسَنَ آغا[3] وذَهَبَ هو

(١) آل دوريا من جنوى (إيطالية) أشهر أعضائها أندريا دوريا، وهو قرصان كبير وقائد محترف من طبقة المرتزقة: أخضع ثورة جزيرة كورسيكة على جنوى (١٥٠٣ ـ ١٥٠٦ م)، ثمّ أخذ على نفسه أن يحارب العثمانيّين في البحر. عينّ قبطاناً على عدد من السفن الفرنسية، سلّم جنوى لجنود الإمبراطور (شارلكان؟) عام ١٥٢٧، حاصر نابولي (إيطالية)، دخل في خدمة شارلكان فعينه شارلكان أميراً على عدد من السفن. حارب الإفرنسيّين في نابولي. حاول احتلال شرشال (الجزائر) فلم يستطع، ٩٣٧ ـ ١٥٣١ م). استولى على تونس (٢٢ من المحرّم ٩٤٢ = ١٥٣٥/٧/٢٠ م). توفّي ١٥٦٠ م (٩٦٧ ـ ٩٦٨ هـ).

(٢) قبودان باشا: في الأصل الأمير الأعلى للأسطول العثماني، وكانت له السلطة على دار الصناعة (مكان بناء السفن) وكان مركزه في استانبول. وفي أيام خير الدين أصبح قبودان باشا عضواً عاملاً في الديوان (الوزارة) وكان أقوى الأعضاء وأرفعهم راتباً.

(٣) حسن آغا أو محمّد حسن آغا الطواشي من جزيرة ساردانية (إيطالية) سباه خير الدين وأعتقه وجعله من خصيانه وأخصّائه فأصبح من أتباعه المخلصين الموثوقين. ولّما غادر خير الدين الجزائر إلى استانبول ليتوليّ مركز قبودان فيها جعل حسن آغا مكانه وسمّاه «خليفة». وكان حسن آغا إداريّاً حازماً وقائداً بارعاً ورجل إصلاح وعمران. وقد استطاع بعد سنة من ولايته (٩٤١ هـ = ١٥٣٥ م) أن يستولي نهائياً على مدينة قسنطينة (القطر الجزائري). ثمّ توالى استيلاؤه على عدد من مدن الساحل الجزائري وردّ عنها اعتداءات الإسبان. وفي سنة ٩٥١ (١٥٤٤ م) توفّي حسن آغا في مدينة الجزائر. ومن آثاره العمرانية الفنار (المنارة) المطلّة على المرسى (المرفأ) القديم لمدينة الجزائر. ومن آثاره أيضاً سلطان قلعة سي (قلعة السلطان) في كدية الصابون، وتعرف اليوم باسم برج مولاي حسن أو قلعة بوليلة أو حصن الإمبراطور.

إلى إستانبولَ وَنَظَّمَ الأُسطولَ العثمانيَّ. ثمّ قامَ خيرُ الدين بحَمَلات على جُزُرِ بحرِ إيجَة[1] فاسْتَولى على كلِّ ما لم يَكُنْ منها في أيدي العُثمانيّين إلى ذلك الحين. وكان خيرُ الدين يشتركُ في تلك الحَمَلاتِ شخصيّاً وفِعْلِيّاً.

ولمّا عَجَزَ شارلكانُ عَنِ التغلُّبِ على البلادِ التي كان خيرُ الدين يَحْميها بأُسطولِهِ ومَقْدرتِهِ وجهادِه، ظَنَّ أنّ بإمكانه أن يَشْتريَ خيرَ الدين بعَرَضٍ من أعراضِ الدنيا ففاوَضَهُ وعَرَضَ عليهِ أن يَتولّى الحُكْمَ على الشَّمالِ الإفريقيِّ في مُقابلِ أتاوةٍ يسيرةٍ (كأنّ الشّمالَ الإفريقيَّ مُلْكٌ لشارلكان!). استطاع خيرُ الدين أن يَسْتَدْرجَ شارلكان في المفاوضات حتّى حَصَلَ على عددٍ من الوثائقِ المُتعلّقةِ بهذا الشأنِ ثمّ أَطْلَعَ السُلطانَ على تلك الوثائق.

ثمّ إنّ خيرَ الدين عادَ، سَنَةَ ٩٤١ (١٥٣٤ م) إلى غربيِّ البحر الأبيضِ المتوسّط فهَزَمَ شارلكانَ نفسَه هناك وردّه عن المَغْربِ وأخرج من عددٍ من مُدنِ القطرِ الجزائري جنودَ الإفرنجِ الذين كانوا قد احتلّوا تلك المُدُنَ. وأسّس خيرُ الدين مدينةَ البُليدة في سهلِ مَتيجة[2] وأقامَ بها مسجداً وعدداً من المُنْشآت العُمرانية. ويبدو أن خيرَ الدين قد بَقِيَ في القُطْر الجزائري بِضْعَ سنوات (٩٤١ ـ ٩٤٦ هـ؟) ثمّ عادَ إلى استانبول حيثُ تُوُفّيَ في سادسِ جُمادى الأولى من سَنَةِ ٩٥٣ (١٥٤٦/٧/٤ م).

والذي يُجْمعُ عليه الباحثون اليومَ من أُولئك الذين أخذوا يَرْجعونَ إلى المصادرِ المَغْربية والمصادرِ التُركية ـ ولا يكْتَفون بالمصادرِ والمراجعِ الأوروبيّة الاستعمارية ـ أن نزولَ العُثمانيّين في أقطارِ المَغْرِبِ كان بطَلَبٍ من المغاربةِ

(١) بحر إيجه (البحر الأيوني) بين تركية واليونان.

(٢) سهل متيجة في القطر الجزائري يشبه سهل البقاع (في الجمهورية اللبنانية) بخصائصه الجغرافية وبخصبه وتنوع نباته وفاكهته، ولكنّه أكثر سعة.

أنفسهم. غير أنّ هذا لم يَمْنعْ نَفَراً من أعضاء الأُسَرِ الحاكمة في تونِسَ وفي الجزائرِ من أن يَصِلوا أيديهم بيَدِ الإسبانِ لمقاومةِ العثمانيّين.

ومِنَ الذين تناولوا هذه القَضِيّةَ ـ نزولَ الأتراكِ العُثمانيّين في الجزائرِ خاصّةً ـ مؤرّخٌ جزائريٌّ بحّاثةٌ هو المَهْديُّ بوعبدلّي فقال[1] إنّ الحديثَ عن الأتراكِ العُثمانيّين في القُطرِ الجزائريّ وعلى تأسيسِ دَوْلَتِهم فيه واتّخاذِ مدينةِ الجزائرِ عاصمةً قد تَعَرَّضَ له الباحثون منذ أمَدٍ بعيدٍ، ولكن لا يَزالُ في هذه القضيّةِ جوانبُ تحتاجُ إلى شيءٍ من الجَلاءِ وأخطاءٌ تحتاجُ إلى تصحيحٍ. مِنْ هذه مَثَلاً نُزول عَروجَ وأخيهِ خيرِ الدينِ في مدينة الجزائر. إنّ عروجَ وأخاه خيرَ الدينِ قدِ احتلا (مدينة) الجزائر بطَلَبٍ من أهلِها وبرضاهُمْ، ولهذا قُوبِلا بالحَفاوةِ والتّرحابِ مُقابَلَةَ إخوةٍ مُسلمينَ جاءوا لإنقاذِ أهلِ (مدينة الجزائر) من خطرِ الصَليبيّةِ التي انتقلَتْ حروبُها من المَشْرقِ إلى المَغْربِ. ثمّ يستشهدُ المَهْديّ بوعبدلّي بعَدَدٍ من المَصادرِ المُعاصرة لنزولِ الأتراك في الجزائر:

ـ قال ابنُ عَسْكَرٍ في دوحةِ الناشر»[2]: «وكان السببَ في دخولِ

(١) في الملتقى السادس للتعرّف على الفكر الإسلامي (مدينة الجزائر، سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م)، الوثيقة (المقال المنسوخ على الحرير) رقم ٢١، راجع ص ١٨ ـ ١٩.

(٢) هو ابن عسكر المغربي (أبو عبد الله محمّد بن عليّ بن عمر بن الحسين بن مصباح) من نسل الأدارسة (أوائل ملوك المغرب)، ولد سنة ٩٣٦ هـ (١٥٣٠ م) وتطوّف كثيراً في المغرب. وقد تولىّ القضاء والإفتاء مدّة طويلة ثمّ أصبح قاضِيَ الجماعة، سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م). ولما قتل سلطان مراكش أبو عبد الله محمّد المهدي المعروف بالشيخ، سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) جاء بعده أبو عبد الله محمّد المتوكّل. فثار عبد الملك بن محمّد الشيخ على محمّد المتوكّل وانتزع الملك منه. فهرب محمّد المتوكّل إلى البرتغال وتبعه ابن عسكر. ثمّ عاد محمّد بن المتوكّل بجيش برتغالي بقيادة دون سبستيان ومعه ابن عسكر. فدارت معركة وادي المخازن على مقربة من قصر كتامة (بضمّ الكاف)، في ٣٠ من جمادى الأولى من سنة ٩٨٦ (١٥٧٨/٨/٤ م). وسقط في هذه المعركة عبد الملك ابن محمّد الشيخ وخصمه محمّد المتوكل ودون سبستيان وابن عسكر. ولابن عسكر كتاب «دوحة الناشر لمحاسن من كان من بالمغرب من مشاهير (مشايخ) القرن العاشر» (وقد طبع طبع حجر في فا س سنة ١٣٠٩ هـ ملحقاً بكتب: الأشراف، والدرّ السني، ونتيجة التحقيق. وقد نشره واير عام ١٩٠٤ م.

التُركمان[1] لمدينةِ الجزائر واستيطانِهِمْ فيها وفي المَغْرب الأوسط[2] إلى الآن حُسنُ ظَنّه بهم[3] ومَحَبّتُه الجهادَ في سبيلِ الله».

ـ وقال صاحبُ «الزهرة النائرة بما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة[4]» ـ بعد أن حقّق أنّ احتلالَ عَروج وأخيه خيرِ الدين لعاصمةِ الجزائر كانَ سَنَةَ ٩٢٥ للهِجْرة ـ إنّ أهلَ مدينةِ الجزائرِ أرسلوا إلى عَروج وأخيه، وهُما في جِيجِلَ[5] رسالةً جاء فيها:

«أخذتُمْ بجاية وجِيجَلَ من أيدي النصارى ونَصَرْتُمُ الدينَ، فهَنِيئاً لكم، أيُّها المُجاهدون. ولا بُدَّ أن تَقْدُموا إلينا لتُخَلّصونا من أيْدي هؤلاء المَلاعين الكَفَرَةِ لأنّنا في مِحْنَةٍ عظيمةٍ وذُلٍّ شديدٍ».

ـ وَصَفَ صاحبُ «الثَغْر الجُماني» مدينة الجزائرِ في عهدِ الأتراكِ فقال:

«هِيَ اليومَ قاعدةُ مَلِكِ الأمراء العُثمانيّين في الغَرْب الأوسطِ... (قد) حَصّنوها أتَمَّ تَحْصينٍ وأحاطوا بها، من جميعِ جِهاتِها، الأسوارَ المَنيعةَ والأبراجَ الهائلةَ وأناطوا بها المدافعَ الضَخْمة. فَهِيَ الآنَ بحيثُ لا تُنالُ ولا يطمَعُ في أخْذِها إلّا من يطمَعُ في المُحال».

ـ ثمّ علّقَ بوعبدلّي على ذلك بقوله (مَعَ شيءٍ يسيرٍ من التصرُّفِ اللّفظي):

أصبحتْ مدينةُ الجزائرِ عاصمةَ المملكة، ثم خُطّتْ حدودُها فَبَقِيَتْ

(١) ـ التركمان ـ يقصد الأتراك العثمانيّين.

(٢) المغرب الأوسط: القطر الجزائري.

(٣) حسن ظنّ (أهل) المغرب الأوسط في الأتراك، ثقته بهم.

(٤) كتاب «الزهرة النائرة... الخ» ألّفه محمّد بن محمّد بن عبد الرحمن التلمسانيّ نحو سنة ١١٣٩ هـ (١٧٧٩ م).

(٥) جيجل: مدينة ساحلية في الجزائر، شرق بجاية وإلى الشمال الغربي من (قسطنطينة.)

تلك الحدودُ على ما خُطّت إلى عهدِ الاحتلالِ الفرنسيّ. وكذلك نُظِّمَت الإدارةُ برُغمِ توالي هَجَماتِ الصليبيّين ـ طَوالَ ثلاثةِ قرونٍ ـ باءتْ في أثنائها تلك الهَجَماتُ كلُّها بالخَيْبة. ولقد عَزَّزَتِ الجزائرُ مركزَها بعدَ أنِ انضمّتْ إلى الخِلافة العثمانية، فاطْمأنّ فيها السُكّانُ. ونالتِ الدولةُ الجزائريةُ رِضا السُكّانِ وتأييدَهم، ثمّ بَلَغت قُوّاتُها البرّيةُ والبحريّةُ ـ كما بلغَتْ هَيْمَنَتُها على الحَوْضِ الغربيّ من البحرِ الأبيض المتوسّط ـ مبلغاً حَمَلَ المؤلّفينَ، على اختلافِ أجناسِهم، على أن يَخُصّوها بمِئاتِ التآليف. إنّ غنائمَ الأُسطولِ الجزائريّ، مثلاً، بلغَتْ في مَدَى ثَماني سَنَواتٍ ـ من سَنَة ١٠٢٢ إلى سَنَةِ ١٠٣٠ للهجرة (١٦١٣ ـ ١٦٢٢م) ـ ٤٤٧ سفينةً هولنديةً و١٩٣ سفينةً فرنسيةً و١٢٠ سفينةً إسبانيةً و٦٠ سفينةً إنكليزيةً و٥٦ سفينةً ألمانية.

في ذلك الحين كانتِ الدولةُ الحَفْصيةُ في أواخرِ أيّامِها مُشرفةً على الانقراض. والملوكُ في ساعاتِ اليأسِ ـ كعوامّ الناسِ ـ يُقْدِمون أحياناً على أعمالٍ لا تستقيمُ في المَنْطِق ولا في الرأي. وقد كان من سوءِ رأي أبي عبدِ الله محمّدٍ (٨٩٩ ـ ٩٣٢م) وسوءِ رأي ابنِهِ الحَسَنِ (٩٣٢ ـ ٩٤٤هـ) أن وَصَلا يَدَيْهِما بالإسبانِ ظنّاً مِنهُما أنّ الإسبانَ سينصُرونَهما على العُثمانيّين ويحفَظون لهما عرشَهما في تونس. ولكنّ خيانتَهما لم تُغْنِيا عَنْهُما شيئاً.

وخافَ عَروج وأخوه خيرُ الدين مِنَ الوُقوعِ بينَ الإسبانِ من جانبٍ وبين الخائنَيْنِ الحَفْصِيَّيْنِ من جانبٍ آخرَ، فعَزَمَ خيرُ الدين على السَفَرِ إلى إستانبول لِطَلَبِ نجدةٍ. يقول أحمدُ بنُ أبي الضياف[1]:

«فَجَمَعَ (خيرُ الدين) العلماء وأعيانَ البلادِ وفاوَضَهُمْ في ذلك. فمَنَعوه

(١) اتحاف أهل الزمان ٢ : ١٠.

وتَضرّعوا له أن لا يخرُجَ من بَيْنِهم حتّى تَضَعَ الحربُ أوزارَها، وقالوا له: يَجبُ عليك المُقامُ بهذه البلدةِ الإسلامية لحِمايتها، ولا رُخْصَةَ لك في تَرْكِها نُهْبَةً للمُفْترس». عندَئذٍ قال لهم: لقد رأيتُمْ ما فَعَله بنا صاحبُ تِلِمْسان من بني زَيّان[1] واستعانَتَه عَلَيْنا بغيرِ أهلِ مِلّتِنا ولكن كَفانا اللهُ أمرَه. و(كذلك) صاحبُ تُونسَ الحَفصيُّ[2] لا رأيَ له في نَصْرِنا وإعانَتِنا، وقد أسْلَمَنا إلى العَدوّ بمَنْعِ البارود عنّا (لمّا طَلَبْنا منه إمدادنا ببارودٍ)، ولولا لطفُ الله بنا (لهَلَكْنا). فالرأيُ أن نَصِلَ أيْدِيَنا بالقُوّةِ الإسلاميةِ ـ وَهُو السُلطانُ سليمُ خان[3] ـ ونعتمدُ عليه في حِمايةِ هذه المدينة. ولا يكونُ ذلك إلّا ببَيْعَتِهِ والدخولِ في طاعتِهِ بالدُعاء له في الخُطَبِ على المنابرِ وضَرْبِ السِكّة باسْمِه[4] لِنتَفَيّأ ظِلَّ حِمايته. فرَضوا بذلك وأعلنوا بالدُعاء للسُلطان العثمانيّ على المنابرِ وكَتَبوا بذلك للحَضْرة السُلطانيّة».

هذا القَدْرُ من الأحداثِ العامّةِ الرَّئيسَةِ في تاريخِ الأقطارِ المَغربيّة كافٍ للدَلالةِ على حقيقةِ الصِلةِ بينَ تلك الأقطارِ وبينَ الدولةِ العثمانيّة. وفي ما يلي مُوجَزٌ لجوانبِ تلك الحَقيقة:

أ ـ إنّ الدولةَ العُثمانيّةَ لم تحتلَّ المَغربَ بالمَعْنى المألوفِ من كلمةِ «احتلال» ولا هِيَ أرسلَتْ إلى المَغْرِبِ جيوشاً وأساطيلَ للفتحِ كما فعلَتْ في فُتوحِ البَلْقانِ وفتحِ الشامِ ومِصْرَ مثلاً.

(١) أبو حَمّو موسى بن محمّد (راجع، فوق، ص).
(٢) أبو عبد الله محمّد المتوكّل (راجع، فوق، ص).
(٣) السلطان سليم الأوّل العثماني فاتح الشام ومصر، سنة ٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ (١٥١٦ ـ ١٥١٧م).
(٤) السكّة: العملة. ـ إذا أصدربلد عملة باسم ملك فإنّ ذلك يدل على أن ذلك البلد تابع لذلك الملك.

ب ـ إنّ الأقطارَ المَغْربيّةَ كانت تتعرّضُ لحربٍ صليبيّةٍ عامّةٍ شاملةٍ تقومُ بها البابوّيةُ ودُوَلُ أوروبّةَ جميعُها ظاهرةً أو مُسْتَتِرَةً للقضاء على الحُكْمِ الإسلاميِّ في بلادِ الشّمالِ الإفريقيّ كما كانتِ البابويّةُ والدُّوَلُ الأوروبيّةُ من قبلُ قد قَضَتْ على الحُكم الإسلاميّ وعلى المسلمين في الأندلس ، وكما كانتْ، قبلَ ذلك إيضاً، قد حاوَلتْ أن تفعَلَ في الشامِ ومِصْرَ في أثناء الحروبِ الصليبية .

جـ ـ إنّ أهلَ الأقطارِ المَغْربيةِ هُم الذين كانوا يَسْتنجدونَ بالعُثمانيّين ـ إخْوتِهِمْ في الإسلام ـ لإنقاذِهِمْ من الغَزْوِ الصّليبي .

د ـ إنّ الدولةَ العُثمانيّة لم تَقُمْ بفُتوحٍ عسكريّةٍ في أقطارِ المَغْرب، وإنّما كانَ الذين استجابوا لاسْتِغاثةِ أهلِ الأقطارِ المَغْربيةِ بالدولةِ العُثمانيّة أفراداً عثمانيّين كانوا يقومون بحركةِ «الرباط في البحر» ليُقاوموا بحَرَكتهم هذهِ حركةَ القراصنة الذين كان بعضُهم يَعْتدي على بعضٍ ثمّ اجتمعتْ جُهُودهم على الاعتداء على المسلمين، في الحَوْضِ الغربيّ من البحرِ الأبيضِ المتوسّطِ خاصّة .

هـ ـ إنّ الذي خَضَعَ للحُكمِ التركيّ في أقطارِ المَغْرب في أوّلِ الأمر كان عدداً من المُدُنِ الساحليّة مِثلَ طرابُلُسِ الغَرْبِ وجزيرةِ جَرْبَة (وكانت تابعةً لطرابُلُسِ الغرب، وهي اليومَ تابعة لتُونسَ) والقَيْروانِ وتونسَ ثم مدينةِ الجزائرِ ووَهْرانَ .

و ـ إنّ الحُكّام في هذه المُدُنِ لم يكونوا مُحْتلّينَ لتلك المُدُن، بل كانوا فيها حُماةً، وكان حاكمُ كلِّ مدينةٍ يُسْرِعُ عند الحاجة إلى نَجْدَةِ كلِّ مدينة أخرى (لقد كانتْ هذه المُدُنُ عند هؤلاء الحكّامِ رِباطاتِ دفاعٍ عن

البلاد الإسلامية في ذلك الجانب من الأرض ، ولم تكُنْ تُمثّلُ وَحَداتٍ سياسيةً مستقلّةً يَسْتبدُّ حاكمُ كلِّ قطرٍ بما تحتَ يَدِهِ في سبيلِ نفسهِ أو أُسرتِهِ) .

ز ـ إنّ الحُكْمَ الذي نشأ في لِيبيا وفي تونسَ وفي الجزائر ـ فيما بعدُ ـ كان تُركيّاً لأنّ الأفرادَ الذين أنشأوه كانوا أتراكاً، لا لأنّ الدولةَ العُثمانيّة قد فَتَحَتْ تلك الأقطارَ وانتزعَتْها من أيْدي أصحابها وأهلِها . غيرَ أن الأقطارَ المَغربيةَ (ليبيا وتونُسَ والجزائر) التي أُلْحِقَتْ فيما بعدُ بالدَولَة العُثمانية لم تَكُنْ تشعُرُ شعورَ البَلَدِ الخاضعِ لأنّ الإسلامَ كان يجمَعُ بينَها وبين العُثمانيّين بجامعِ الدينِ (ذلك الرباطِ الروحيِّ المتين) .

ح ـ فَتَحَ السُلطانُ سليمٌ الأولُ الشامَ ومِصْرَ، سَنَةَ ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م)، ثمّ لم يُفكِّرْ هو أو أحدٌ من خُلَفائه في أن يُجَهِّزَ حملةً لفَتْحِ ما وراءَ مِصْرَ. ولمّا أُلحِقَتْ الجزائرُ وتونسُ بالدولةِ العثمانيةِ وأصبحتْ وِلايةً في الإمبراطوريّة العُثمانية، سنة ٩٨١ هـ (خريف عام ١٥٧٣ م)، كانتِ الدولةُ العثمانيةُ قد ضَعُفَتْ وأصبحتْ ـ إذا نحن قَبِلْنا تعبير كريسي[1] ـ مُختبئةً في إهابِ (جلد) أسدٍ .

ي ـ لمّا كان الرجالُ الأتراكُ يَنْزِلون في عَدَدٍ من مرافىءِ المَغْرب لم يَنْزِلوا في المغرب الأقصى قطُّ . ولو كانت حركةُ النزولِ في الأقطارِ المَغْربية حركةَ فَتْحٍ لَاسْتَوْلى الأتراكُ على المَغْرب الأقصى أيضاً .

ك ـ ولَمّا احتلَّ الإفرنسيّونَ الجزائرَ، سَنَةَ ١٢٤٧ هـ (١٨٣٠ م) وتُونس سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨١ م) ثمّ قام الإيطاليون باحتلال لِيبيا سَنَةَ ١٣٢٩ هـ

(1) Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks, p.?

(١٩١١ م) بعد عصر القَوْميّاتِ وفي إبّانِ الكلامِ على القوميةِ العَرَبية، كان الشعورَ الذي يخالجُ قلوبَ أهلِ الأقطارِ المَغْربيةِ هو الشعور الإسلامي من غيرِ شعورٍ بأن أحدَ الأقطارِ المغربيةِ كان تابعاً تَبَعيّةً سياسيةً أو إداريّة.

إنّ احتلال فرنسةَ للقُطْرِ الجزائريّ يَنْطِقُ بضَعْفِ «التَبَعيّة السياسية بينَ السُلطانِ مِنْ جهةٍ والولاياتِ العُثمانية الإفريقية من جهة أُخرى[1]».

ل - ومِنَ الأدلّةِ على أن الصِّلَةَ بينَ الأقطارِ المَغْربيةِ وبيـنَ الدولةِ العُثمانية كانتْ صِلَةَ عاطفةٍ وحَميّةٍ أكثرَ منها صلةَ تَبَعيّةٍ حُكْمُ هذه الجُملِ المأخوذة من وثيقةٍ رسميّة[2]:

«لقد طَلَبْتُم منّا، يا حضرةَ السُلطان، أن نَكُفَّ عنِ الهُجوم على البواخرِ التجاريةِ الروسيّة والنمساوية لأنّكُم ارتبطتُمْ مَعَ هاتين الدَوْلَتين بعلاقاتٍ وُدّيّة... فنحن نُعْلِمُ سُلطانَنَا أنّنا قَبِلْنا كلَّ أمرٍ صادرٍ عنه بكلّ طاعةٍ إذ، حَسْبَ مبادىء ديننا نُحاولُ دَوْماً تَجَنُّبَ أيّ خِلافٍ بيننا... يا حضرةَ السُلطانِ، بالنظرِ إلى قِلّة عدد الإنكشارية، فإنّنا نطلُبُ منكم أن تُرْسِلوا إلينا عدداً من الجنودِ من الأقاليم...»

إنّ هذه الجُمَلَ من رِسالةٍ يَبْعثُ بها الداي (حاكم الجزائر) عُمَرُ بنُ محمّدٍ تَدُلُّ على أن الصِلَةَ بينَ الجزائرِ وبينَ الدولةِ العُثمانية لم تكُنْ صِلة تَبَعيّة وخضوع في الحُكم، فإنّ التابعَ الخاضِعَ لا يُنَفِّذُ أوامرَ رئيسه «تأدّباً وامْتِثالاً» بل جَبْراً وغَصْباً. والجامعُ في الطاعةِ بين الداي (حاكم الجزائر) والسُلطانِ العثمانيّ إنّما كان جامعَ الدينِ (الإسلام).

---

(١) بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، للدكتور عبد الجليل التميميّ ١٩.

(٢) مثله ص ٢٤٥.

«نابليون الأوّل»

جميع الحُكّام معرَّضون للوقوع في خَطأيْن: اعتقادِ الكمالِ في أنفسِهم واستحسانِ الأقوالِ التي يُمْدَحون بها حقّاً أو باطلاً. وربّما بدأ الحكّامُ بدءاً عاقلاً بأن يجمعوا حولَهم مستشارين عاقلينَ عُلماءَ مُخلصين. فإذا نجَحَ أحدُ هؤلاء الحكّام في أعمالِه ظنّ أن نجاحَه راجعٌ إلى جُهودِه هو لا إلى عقول المستشارين وعلمهم وإخلاصهم. ذلك لأنّ الجماهيرَ حينما ترفَعُ أصواتَها تُنادي بأسماءِ الحُكّام لا بأسماء أولئك المستشارين. وصوتُ الجماهير المُتدفّقةِ المُتدافعةِ أعلى، بطبيعةِ الحال، من أصواتِ المفكّرين الفاضلين من الناس. لا فائدةَ من الجِدال في أيّ العاملين أشدُّ أثراً في مجرى التاريخ: أأثرُ الفردِ في الجماعة أم أثرُ الجماعة في الفرد؟ إنّ الزعيم الحقيقيّ ذا الأثرِ البالغِ الواضح في بيئته هو الفردُ العاقل الذي يدرُسُ أحوالَ أمّتهِ أو شعبه ثمّ يحاولُ أن يستخدمَ تلك الأحوالَ في استخراج طاقاتِ قومِهِ وفي جلاء شخصيّة قومه. أمّا الذين يتّفق أن تَحْمِلَهُمْ الريحُ إلى مُقدّمةِ السائرين على الطريق فيدخُلُ أحدُهم غرفةً من غُرَفِ بيتِه ثمّ يتخيّلُ دساتيرَ وأنظمةً ووسائلَ تنفيذٍ فقد يصيبه ما أصابَ كثيرين من الزعماء في الشرق وفي الغرب، في أيّامنا وقبل أيّامِنا. وربّما نجَحَ زعيمٌ في مَيْدانٍ من ميادينِ الحياة فظنّ نفسَه قادراً على أن ينجَحَ في جميعِ ميادينها.

غير أنّ الأزَماتِ العامّةَ في الشعوب قد تُتيحُ الفُرَصَ للمغامرين من الأفراد. وهذا ما اتّفق للفتى الإيطالي الفقير القميء الذي استطاعَ أن يحكُمَ فرنسةَ مباشرةً أو غيرَ مباشرةٍ نحو رُبْعِ قرنٍ من الزَمَنِ وأن يزرَعَ جانباً من قارّةِ أوروبّةَ بعَدَدٍ من الأسر الحاكمة ثمّ يجعَلُ اسمَه من أشدّ الأسماء لَمَعاناً في تاريخِ فرنسةَ وفي تاريخ أوروبّةَ الحديث. ذلك الفتى كان نابليونَ بونابارته ابنَ كارلُو بونابارته وليتيزا رامولينو.

نابليون بونابارته:

في القرنِ الثامِنَ عَشَرَ كانتْ جزيرة قورسقةَ الإيطاليةُ خاضعةً لجمهوريّة جَنَوَةَ الإيطالية. ولكنّ القورسقيين الذين كانتْ عِصَبيّاتهم وأهواؤ هم كثيرة لم يكونوا راضِينَ عن شيء فكَثُرَتْ ثَوْراتُهم على الحُكم الجَنَويّ. وفي عام ١٧٥٥ م قدّم أهلُ قورسقة على أنفسِهم زعيماً منهم هو باسكال باوْلي فاشتدّتْ المقاومةُ في وجهِ الجَنويّين. ثمّ كانت معاهدةُ فرساي (١٧٦٨ م) فانتقلتْ بها قورسقةُ إلى حُكْمِ فرنسة. ولكنّ القورسقيّين الذين لم يكونوا راضين بحكم جَنوَةَ لم يَرْضَوْا أيضاً بحكم فرنسة، فاستمرّ باسكال باوْلي الثائرُ على جنوةَ ثائراً على فرنسة.

وكان من أنصارِ باولي في العهدِ الجنويّ وفي مطلعِ العهدِ الفرنسي كارلو بونابرته وزوجته ليتيزا رامولينو. وفي عام ١٧٦٩ م رُزِقَ كارلو وليتيزيا ابنَهُما الثانيَ فسمّياه نابليون - وهو اسمٌ شائعٌ في أُسرةِ بونابرته القورسقية.

وفي عامِ ١٧٦٩ م أيضاً قضى الفرنسيون على باسكال باولي وَنَفَوْه وسائرَ زعماء الثورة عن قورسيقة، فدخل كارلو وليتيزيا في وَلاء الإفرنسيّين وأصبحا صديقَيْن للحاكمِ الفرنسي. وفي العام التالي أرادتْ فرنسة أن تَزيدَ

في تَألُّفِ كارلو بونابرته فأضافتْ اسمَ أُسرته إلى أسماء الأسر النبيلة فأصبح يُدعى «دي بونابرته».

في هذا الجوّ نشأ نابليون. ثمّ نال مِنحةً مَلَكيّة للدراسة دخل بها (١٧٧٩ م) مدرسةَ بريّن في شامبانية (فرنسة). كان المِنهاجُ في بريّن واسعاً: فيه القراءةُ والكتابة والموسيقى والرسم، وفيه الفرنسيةُ واللاتينية والألمانية، وفيه الرياضيّات، وفيه الجغرافية والتاريخ، وفيه الرقص والمُبارزة بالسيف. وكان نابليون ذكيّاً مُجتهداً، وكانت براعته الخاصّةُ في الرياضيّات والجغرافية والتاريخ.

وبعد خمسِ سَنَواتٍ أنتقلَ نابليونُ إلى المدرسة العسكرية في باريس (١٧٨٤ م). وفي العام التالي يموتُ كارلو بونابرته ويتخرّج نابليون في المدرسة العسكرية في باريس، ولكن بدلاً من أين يلحَقَ بالمركز العسكري الذي عُيّن فيه في فرنسة نفسِها، فإنّه احتال للحصولِ على إجازة طويلةٍ قضاها في جزيرة قورسقة.

وبرُغْمِ تَقَلُّبِ نابليونَ في المدارس المدنية والعسكرية مُدّةً طويلةً فإنّ لغتَه الفرنسيةَ ظلّت مشوّهةً مَشُوبَةً بلُكنةٍ قورسيقيةٍ (إيطالية مشوّهة)، فكانَ رِفاقُه العسكريّون يَتَندّرون بلفظِه «الأجنبي»: بلفظِ رجلٍ يَحْمِلُ لَقَباً نبيلاً في أمّةٍ لا يُحسِنُ لُغَتَها!

ولمّا نَشِبَتِ الثورةُ الفرنسية الكبرى، عام ١٧٨٩ م، كان نابليونُ في العشرين من العُمُر، وكان قد خطا في الحياة العسكرية خُطُواتِه الأولى. أمّا طُموحه العسكريُّ فكان أوسعَ كثيراً مِنَ اختباره العمليّ. ولم يكن نابليون واضحَ الهوى في الحياة العامّة: تَقَلّبَ في المناصبِ العسكرية الفرنسية، وكان

هواه الأكبرُ مَعَ نِقْمةِ القورسيقيّين على الحكم الفرنسي. وعاش في زمن المَلَكيّة دهراً وكانت آراؤه غيرَ مَلَكيّة. ثمّ رَفَعَتْه الثورةُ الفرنسيةُ إلى مكانِ الصَدارة الأولى فيها فألْغى الحُكْمَ الجُمهوريَّ وأقام إمبراطورية.

لا يستطيعُ زاعمٌ أن يزعُمَ أن نابليون دي بونابارته لم يكن عبقريّاً، ولكنّ الذين دَرَسوا حياة نابليون لا يستطيعون أيضاً أن يُنكروا أن ذلك الشابّ قد رُزِقَ حظّا كبيراً في حياته العسكرية، فإنّ ارتقاءه إلى عددٍ من المراتب العسكرية، مَعَ تخطّيةِ أحياناً عدداً آخرَ من المراتب المُمَهِّدة لمراتبَ أعلى، لم يكنْ نَهْجاً مألوفاً في الحياة العسكرية العاديّة.

إنّ الثورةَ الفرنسية الكُبرى لا يمكنُ أن تُوصَف بأنّها «حَدَثٌ محليٌّ». إنّ نجاحَ هذه الثورة كان بالإمكانِ أن يَعْنِيَ ـ وقد عَنَى فِعْلاً ـ أنّ الملكيّةَ التي زالتْ بفعلِ تلك الثورة من فرنسةَ يُمكن أن تكونَ ـ وقد كانت فعلاً ـ مقدّمةً لِزَوالِ المَلَكيّات من أوروبّة. من أجلِ ذلك اتّفَقَ نفرٌ من رؤساء الدول الأوروبيّة الكبرى على مُقاومة ذلك الاتّجاه الثَوْرَويّ في فرنسةَ، بالحربِ إذا لم يكنْ مَفَرٌّ من الحرب في سبيل ذلك.

في عام ١٧٩٦ أصبح نابليون قائداً لجيشِ إيطاليةَ (الجيش المعَدِّ لمقاومة أعداء الثورة في إيطالية) لقد جَعَلَتْهُ «الدير كتوار» (مجلسُ «إدارة» الثورة) في هذا المَنْصِبِ فَفَتَح ذلك أمامَه بابَ الترقيّ في الجيش وباب المجد على مِصْراعَيْها!

كان جانبٌ من شَماليّ إيطاليَة تابعاً للنمسة، فلمّا قَطَعَ بونابارته جبالَ الألب إلى إيطالية وَجَدَ الجيشَ النمسويَّ وجيشَ ملكِ (جزيرةِ) ساردانية الإيطاليّ معاً، فاحتال في أن لَقِيَ أوّلاً الجيشَ السرداني فهزَمَهُ. ثمّ لَقِيَ الجيش النَمْسَوي (١٥/٥/١٧٩٦) فهزمه أيضاً. ثمّ أنّه قاد جيشَه إلى مقرُبَةٍ من فِيِنّا

(عاصمةِ النمسا) فاضْطُرّ النمساويّون إلى أن يَعْقِدوا صُلحاً مَعَ القائدِ الفرنسي الشابّ (نيسان ـ أبرايل ١٧٩٧). ثمّ عُقِدَ صُلحُ كامبو فورميو، بينَ فرنسةَ والنمسة (١٧/ ١٠/ ١٧٩٧).

ولم يقنَعْ نابليونُ بونابارته أن يكونَ قائداً لجيشٍ، بل أراد أن يَكون سيّداً مُطْلَقاً في فرنسة كلّها، وأن يُشْعِرَ رجال مَجْلِسِ إدارة الثورةِ أنّه شخصٌ لا يُستغنى عنه في الدولة. كانتِ الدولةُ العثمانيةُ قد أعلنتِ الحربَ على فرنسة، مِثْلَ غيرها من الدول الكبرى، فاختارَ بونابارته أن يُجَرِّبَ حظّه في قِتال العثمانيّين، فيحتلَ جوانبَ من البلادِ العثمانية ثمّ يقطَعَ طريقَ الهند على انكلترّة في وقتٍ معاً. واستولى بونابارته في طريقه على جزيرةِ مالِطَةَ (وكانت تابعةً للدولة العثمانية) ثمّ وصل إلى مِصْرَ العثمانيةِ ونازلَ بقايا المماليكِ في معرَكَةِ الأهرام وهَزَمَهُم. ولكنّ نلسون أميرالَ الأسطولِ الانكليزي كان قد دَمّر أسطولَ بونابارته عند أبي قير، في تاسعَ عَشَرَ صَفَرَ ١٢١٣ (١/٨/١٧٩٨ م).

وطَمِعَ بونابارته أن يُلاقِيَ في الشام نجاحاً أعظَمَ من نَجاحه في مِصْرَ، فقد توهّم ممّا كان قد قرأه في «رحلة في مِصْرَ والشام [١]»، أنّ السوريّين سَيَثورون على الدوْلَةِ العثمانية إذا رَأَوْا فاتحاً جديداً وأنّ النصارى سيُساعدون في احتلالِ البلادِ وأنّ أسوارَ عكّاءَ ضعيفةٌ لا تَثْبُتُ في وجهِ فاتحٍ! ووقف بونابارته سبعينَ يوماً عند أسوار عكّاءَ من غيرِ أن تلينَ أسوارُ عكّاء. ثمّ اتّفق من الأحداثِ العامّة والأحداث الخاصّة في فرنسة ما حَمَلَ بونابارته على الرجوع إلى فرنسة على عَجَلٍ فوصل إليها في تاسعِ آبَ (أغسطس) من عام ١٧٩٩ م.

ورأى بونابارته عَجْزَ مجلسِ إدارة الثورة فقام في (٩/١١/١٧٩٩) بانقلابٍ وَصَلَ به إلى رِئاسةِ الدولة وأصبحَ القُنْصُلَ الأوّلَ والأوْحَدَ في فرنسة.

---

(١) C. Volney, Voyage en Egypte et en Syrie.

في هذه الأثناء كانتِ الدولُ الكُبرى قد أفسدت ما كان بونابارته قد صَنَعهُ في إيطالية في حَملته عام ١٩٧٧ . فأعاد بونابارته الكرّة على أوروبّة يميناً وشِمالاً . قَطَعَ جبالَ الألب إلى إيطالية وهزم النمساويّين في مارنغو في شماليّ إيطالية (١٨٠٠/٦/١٤) .

وفي عام ١٨٠٢ أصبح قُنصلاً مدى الحياة بنصّ أُدْخِلَ في الدستور مَعَ الحقّ بأن يُسمّيَ خَلَفَهُ، ثمّ أُضيفَ إلى ألقابه لقبُ إمبراطور (١٨٠٤) وكرّسه **البابا بيوس السابع في** كاتدرائية باريس (١٨٠٤/١٢/٢) إمبراطوراً.

وعاد نابوليون الأوّل إلى التفكير بغَزْوِ إنكلترة، ولكن معركةَ الطَرْفِ الأغرّ، غَرْبَ إسبانية، وقد قَضى فيها الأميرالُ نلسُون الانكليزيُّ على الأُسطولينِ الإفرنسيّ والإسبانيّ (عام ١٨٠٥)، صَرَفَتْهُ نِهائياً عن هذا التفكير.

ثمّ إنّ نابوليون استأنف فُتوحَه البرّية ـ نقولُ: فتوحٌ، على التَجَوُّز. إنّها مَعارك! ـ فانتصرَ في أوْلْم (في فورتنبورغ من جَنوبيّ ألمانية) على الجيشِ النمساوي، (١٨٠٥/١١/٢٠)، وانتصر في أوْسْترْليتز (في مورافية من تشيكوسلوفاكية اليومَ) على الجيش الروسيّ والجيش النمساوي (١٨٠٥/١٢/٢). وكذلك انتصر في يانا (من شرقيّ ألمانية) على البروسيّين (الألمان) في ١٨٠٦ . ثمّ انتصر أيضاً في آيْلاوْ (في شَماليّ شرقيّ ألمانية) على الروس والبروسيّين (عام ١٨٠٧)، وكذلك في فريدلانْد (من مقاطعةِ لِثوانية في غربيّ الاتّحاد السوفياتي اليومَ) على الروس (عام ١٨٠٧)، وفي أكْمولَ (في بفارية من جَنوبيّ ألمانية) على النمسة (عام ١٨٠٩).

وفي هذه الأثناء ضمّ المقاطعات البابويّة إلى عرشه (١٨٠٧ ـ ١٨٠٩) واحتلّ البرتغال (عام ١٨٠٧) وسيطر على العرش الإسباني (١٨٠٨ ـ ١٨٠٩)

ثمّ حَجَرَ على البابا بيوسَ السابعِ، عام ١٨٠٩، وهو البابا الذي كرّسه إمبراطوراً، عامَ ١٨٠٤، في كاتدرائية باريس. وكان آخرُ انتصاراتِه الحاسمةِ في معركةِ وَغْرامَ (١٨٠٩/٧/٦)، إلى الشَمال الشرقيّ من فيّنا، انتصر فيها على النمساويّين. ثمّ ضمّ إلى ملكهِ مملكةَ هولندة وجانباً من الساحلِ الألماني (عام ١٨١٠). وكانت حملةُ نابليون على الروسية مغامرةً جريئةً جدّاً، سار فيها بأربَعِمَائةِ ألفِ جُنديّ. ولكن الروسَ جعلوا ينسحبون أمامَه حتّى وَصَلوا به إلى أرض قَفْرٍ (لأنّهم كانوا قد أتْلفوا كلَّ شيءٍ فيها قبل انسحابِهِمْ منها). ولمّا نَشِبَتِ المعرَكَةُ في بورودينو، بين نابليونَ والروس، (١٨١٢/٩/٧) انتصر نابليونُ ثمّ دخل إلى موسكو في الأُسبوع التالي. ولكنّ شِدّةَ البردِ وقِلّةَ الطعام حَمَلاه على أن ينسَحِبَ راجعاً إلى فرنسة. في هذه الأثناء قبل مَعْرَكَةِ بورودينو وبعدَها خَسِرَ نابليون مُعظمَ جيشه ولم يَنْجُ منه إلاّ نحوُ عشرينَ ألفاً أو أقلُّ من ذلك.

هذه الحَملاتُ الظافرةُ المُتلاحقةُ لم يَعْرِفِ التاريخُ لها مثيلاً إلاّ في حَمْله الإسكندرِ المقدونيّ. ومعَ ذلك فإنّ الآثارَ العسكريّةَ والسياسيّةَ لِمعاركِ نابليونَ زالَتْ ـ كما زالتْ آثارُ معاركِ الإسكندر ـ في مدّةٍ أقصرَ من المدّةِ التي كانتْ ضروريّة لخوضها.

وفي شهرينِ اثْنَيْنِ تقوّضَ المجدُ العسكريُّ الذي بناه نابليونُ: حَزَمَ الروسُ والبُروسيّون (الألمان) والنمساويّون أمرَهم على الاتّفاق والتكاتُفِ ولَقُوا نابليون عند لَيْبزغ في معركة أُغْرِمَ الألمانُ بِتَسْمِيَتِها «معركة الأمم» وهزموه هزيمةً تامّة (١٨١٣/١٠/١٩). زالَ السلطانُ النابوليوني عن جميعِ مقاطعاتِ ألمانيةَ وعن هولندةَ وإسبانية. ورَفَضَ نابليونُ أن يَعْقِدَ الصُلحَ معَ الظافرين اليومَ والمهزومين بالأمسِ، فحَزَمَ هؤلاء أمرَهم مرّةً ثانية وساروا على باريس

واحتلّوها (١٨١٤/٣/١٣) ثمّ فَرَضوا على نابليونَ أن يعتزلَ الحكمَ وينزويَ في جزيرة ألْبا وتركوا له الخيارَ في الاحتفاظِ بلَقَبةِ الإمبراطوريّ في تلك الجزيرة البالغةِ في الصِغَر. ثمّ أُلْغِيَت الجُمهوريةُ في فرنسة وعادَ آل بوربونَ إلى العرشِ فتولاّه منهم لويسُ الثامنَ عَشَرَ.

وانزوى نابليون في ألْبا عاماً كاملاً ثمّ حَدّثته نفسُه بأنْ يعودَ إلى فرنسة ففَعَلَ، ولكنّ الذين تحمّسوا لِعَوْدَته إلى فرنسة، مِنَ الفرنسيّين أنفُسِهِمْ، كانوا قليلينَ جدّاً. وانضمّ الآن الإنكليزُ إلى أعداء نابليونَ ونَشِبَتْ بينه وبينَ أعدائه معرَكَةٌ فاصلةٌ في واترلو (جَنوب بروكسل عاصمةِ بلجيكةَ اليوم) فانهزم نابليونُ (١٨١٥/٦/١٨) فحملَهُ الإنكليزُ أسيراً إلى جزيرةِ القدّيسةِ هِيلانةَ، وَهِيَ مُستعمرةٌ لهم.

* * *

كان ذلك وجهاً بارزاً جداً من حياة نابليونَ بونابرته، هو الوجهُ الذي يتوفّرُ على سَرْده المؤرّخونَ في العادةِ. هذا الوجهُ الذي أثارَ أوروبّةَ نحو رُبعِ قَرْنٍ من الزمن ثمّ زالت آثارُه في بِضْعِ سَنَواتٍ فقط. لقد كانتْ مَعاركُ نابليون في طولِ أوروبّةَ وعَرْضِها جُهْداً ضائعاً. وإذا كان التاريخُ تَطَوُّراً لأوجهِ الحضارة - وهو كذلك، أو يَجبُ أن يُنْظَرَ إليه على أنه كذلك - فإنّ نابليونَ بونابارته لم **يكُنْ رجُلاً عسكرياً يُدْرِكُ** العواملَ الفاعلة في مجرى التاريخ. إنّ المعاركَ التي خاضها نابليون وظَفِرَ فيها كانت مُحاولةً لإلْقاء صورةٍ من خَيالِه على أرضِ هذا العالم، ثمّ ما لَبِثَت هذه الصورةُ من خَيالِه أن زالتْ قبلَ أن يزولَ هو. لِنَتَخَيَّلْ نحن الآنَ معركة اليَرْموك كما كانت في ذِهْنِ خالدِ بن الوليدِ يومَ أعَدَّ خالدُ بنُ الوليدِ معرَكَةَ اليرموك ثمّ قادَها: إنّها معركةٌ أزالتْ حضارةً شائخةً فاسدةً ثمّ جاءت بحضارةٍ فَتِيّةٍ صالحةٍ. إنّها معركة جاءت إلى العالمِ بوجوهٍ من

الحضارة: في الدينِ واللُغةِ والاجتماعِ والثقافةِ ثمّ ثَبَتَتْ على وجهِ الدهر. فإذا نحن جَعَلنا خالدَ بنَ الوليد - بما رأينا من نِتاج معاركِه في الحضارة - ثمّ قِسْنا بها معاركَ نابليونَ بونابارته، من حيثُ النتائجُ أيضاً، بدا لنا نابليون بونابارته طِفلاً كبيراً يلهو في غَفْلةٍ من أهلِ زمانِه بتَشْويه معالِمِ بيئَتِه. فلمّا تَنَبّه أهلُ زمانِه وأدركوا ما كان يعمَل ضَرَبوا على يَدَيْهِ ثمّ أعادوا كلّ شيء إلى ما كان عليه. بعدئذ حَجَزوه حتّى لا يعودَ إلى مِثلِ ما كان قد فعل.

غير أنّ لحياةِ نابليونَ بونابارته جانباً آخرَ ليس أقلّ بروزاً في التاريخ ثمّ هو أصْدقُ اتّساقاً في تطوّرِ الحَضارة لأنّه وجهٌ ثابتٌ في مجرى التاريخ.

كانتِ الثورةُ الفرنسية الكُبرى، في مَدى عشرِ سنواتٍ، منذُ نُشوبِها (عامَ ١٧٨٩م) إلى الانقلابِ الذي قام به نابليون (في أواخر عام ١٧٩٩م)، قد ساعدتْ على إغراقِ فرنسة كلِّها في الخراب والدّمار وفي الفوضى والعَسْف والإرهاب. إن الثورةَ الفرنسيةَ قد هدمتِ النظامَ الذي كان قائماً - بِقَطْعِ النظر عمّا كان في ذلك النظامِ من سيّئاتٍ كثيرةٍ أو من حَسَناتٍ قليلةٍ - ولكنّها لم تستطعْ بأداتِها الثَّوْرَوِيّة أن تُحَقِّقَ الهَدَفَ الذي نَشِبَتْ من أجلِه تحقيقاً واضحاً سريعاً. إنّ الظُلْمَ الذي كان واقعاً على طَبَقةٍ من الشعب الفرنسيّ - إذا نحنُ قَبِلْنا أن يكونَ هذا الظُلمُ أثقلَ مِمّا كان في بروسية وفي الروسية مثلاً، أو في إسبانية وهولندة، أو في إيطالية واليونان - استمرّ ثمّ نالَ جميعَ طَبَقاتِ الشعب الفرنسيّ. إنّ الثورةَ الفرنسية الكبرى كانت قد بدأتْ عَمَلاً بهَدْمِ نظامٍ قديم، ولكنّها لم تستطيعْ أن تُتِمَّ ذلك العملَ بتشييدِ بناء جديد، بل، لم تستطعْ أن تَجدَ طريقَها بين رُكامِ الأنقاضِ التي خَلّفَتْها شَهَواتُ رجالِ الثورة.

جاء نابليونُ إلى الحُكْمِ الفِعليّ، قبل الحكم الشرعيّ - وكان الافرنسيّون قد تَعِبوا من الخراب والفوضى والإرهاب - فأطاعوا نابوليونَ

بونابارته، فاستطاعَ نابليونُ ـ إلى جانبِ المعاركِ التي كان يخوضها أو يُخَطِّطُ لخَوْضها ـ أن يقومَ بعددٍ من وجوه الإصلاح:

ـ أصلحَ الطُّرُقاتِ التي كانتْ قد خَرِبَتْ بالمعارك في الشوارع، وكَرَى المَرافِئ التي كانت قد طَمَرَتْها الرِمالُ من طول الإهمال.

ـ أصلح الإدارة التيكانت قد فَسَدت بالرَشاوَى وحَصّلَ كثيراً من الضرائب التي كانَ الزمنُ قد طال على إهمال جِبايتها. ثمّ قضى على الإرهاب الذي كان يُمارَسُ باسمِ الدولة.

ـ ردّ الحياةَ الطبيعية إلى الصِناعة والتِجارة. إنّ عدداً من المصانعِ والمعاملِ كان قد توقّفَ، كما أنّ عدداً آخر كان قد خسرنَشاطَه :كان ثَمّةَ معاملُ تستخدم سِتّين أو سَبعين أو ثمانين عاملاً.

ـ وكان ذلك عدداً كبيراً بالإضافة إلى الحياة الصِناعية في القرنِ الثامنَ عَشَرَ ـ فسقط عددُ العمّال فيها إلى عَشَرَةِ عمّال.

ـ حَفِظَ الأمنَ في البلادِ فأمِنَ الناسُ على أرواحِهم في تَجْوالهم، كما أمِنوا على أموالِهم في بُيوتهم وأماكنِ عَمَلِهم ثم بينَ بيوتهم وأماكنِ عملهم.

ـ نظّمَ الإدارةَ الحكومية بعدَ أن عَمّتها الفوضى وثبّت **الميزانَ الماليّ بين فرنسة والعالم** بعد أنِ اضطربتِ الحالُ الماليةُ في فرنسة.

غير أنّ هذه الإصلاحاتِ وأمثالَها يُمْكِنُ أن تكونَ داخليةً بَحْتاً وقاصرةً على فرنسة ولا صلةَ لها في مجرى «التاريخ» الذي هو التاريخُ العامّ للإنسانية. ولكنّا نرى في أيّام نابليونَ ثلاثة أمورٍ لا يمكن إلاّ أن تكونَ مرحلةً من مراحلِ التاريخ الإنسانيّ ووجهاً من وجوه الحضارة الإنسانية لا خلافَ في قيمتها

وأثرِها في الحياة الإنسانية: في القضاء وفي السياسة وفي العِلم: في الاجتماع الانسانيّ عامّة.

ـ موجز القانون المدني

في شهر آذار (مارس) من عام ١٨٠٤ صَدَرَ المُوجز في القانون المدني (Napoleon) في فرنسةَ. كان نابليونُ قد عيّن لَجْنةً لاختيارِ هذا الموجزِ من القوانينِ التي كان معمولاً بها في فرنسة ومن القانون الرومانيّ على الأخصّ. ولقد كان لنابليونَ في تحرير هذا القانون دورٌ شخصيٌّ فوق ما كان له من الجُهْد السِياسيّ الرسميّ. ثمّ كان لهذا «الموجز» أثرٌ كبيرٌ في القوانينِ التي سَنّتها دولٌ حديثةٌ كثيرةٌ غربيةٌ وشرقية.

ـ الدستور الفرنسيّ

في أثناء ولاية نابليون صدر الدستور الفرنسيّ بعد أن طرأ عليه عدد من وجوه الزيادة ومن وجوه التعديل أو الإصلاح.

الدستور هو القانون الأساسيّ الذي تدار به الدولة فيما يتعلّق بالشؤون العامّة. والدستور يكون مكتوباً نصّاً أو مَرْويّاً عُرْفاً. والدساتيرُ بمعناها العامّ قديمةٌ كدُستورِ الأثينيّين في اليونان قَبْلَ الميلاد. وأمّا الدساتير بمَعْناها المألوفِ فهي حديثةٌ تَرْجِعُ إلى العصور الوسطى. إنّ أقدم الدساتير، بهذا المعنى، دستورُ كلارِنْدُن (في إنكلترة)، صَدَرَ في ٢٥ كانونَ الثاني (يناير) من عام ١١٦٤م (٥٥٩ للهجرة) لتحديد سُلطة الكَهنة. ثمّ كان في انكلترة أيضاً صدورُ «الشِرعة العظمى» (ماغنا قارتا) في تاسعَ عَشَرَ حزيران (يونيو) من عام ١٢١٥م (صَفَر ٦١٢) لتحديد سُلطة الملك يوحنّا الثاني. وفي انكلترة «قانون

عامّ» (Common Law) هو في الحقيقة مجموعٌ من دساتيرَ جُزئيةٍ مُدوّنةٍ ومِنْ أعْرافٍ معمولٍ بها تواضعاً (اتّفاقاً مَرْضِيّاً بَيْنَ الناس).

وأقدَمُ الدساتيرِ التامّةِ المُدَوّنةِ الدستورُ الأميركيّ (١٧٨٧ ـ ١٧٨٩ م).

غيرَ أنّ الدستورَ الانكليزيّ دستورٌ مَلَكيّ ثمّ هو أجزاء متفرّقةٌ، فغَلَبَ عليه أنّه دستورٌ عُرفيّ غيرُ مكتوب. وأمّا الدستورُ الأميركيّ فهو دستورٌ رئاسيّ لم يكن له تأثيرٌ كبيرٌ في الحياة السياسية العامّة (وإن كانت سويسرةُ وبلادٌ في أواسِطِ أميركة قد تأثّرت به). أمّا الدستورُ الذي حاولتْ دوَلٌ كثيرةٌ، في أوروبّةَ وآسيةَ خاصّةً، أن تَقْتَدِيَ به فهو الدستورُ الفرنسيّ.

بدأ التاريخُ الدستوريّ في فرنسةَ بدستورِ عام ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ)، في أثناء الثورة الفرنسية، وكان يَنُصّ على مَلَكيّةٍ مُقيّدةٍ (بدستور). ثمّ حُكِمَ على الملكِ لويسَ السادسَ عَشَرَ بالإعدام وأُعْدِمَ (٢١/١/١٧٩٣ م). وأُعلِنَتْ فرنسةُ جمهوريّةً. وفي العام ١٧٩٣ م نُشِرَ الدستورُ الأوّلُ في عهد الجُمهورية، في عاشر آبَ (أغسطس)، ولكنْ سَرْعانَ ما عُلِّقَ للفوضى التي كانَت تسودُ عهدَ الثورة، حتّى لَيَصِحُّ أن يُقالَ إنّ هذا الدستورَ لم يُعْمَلْ به قطّ.

ولكنّ الإلحاحَ العامّ في طلب دُستورٍ حَمَلَ رجالَ الثورةِ على تأليفِ لجنةٍ لوضعِ دستور، فوُضِعَ هذا الدستورُ (١٧٩٥ م) وكان يَنُصّ على مَجْلِسَيْنِ تَشْريعِيّين وعلى مجلسِ إدارةٍ تنفيذيّ مؤلّفٍ من خَمْسةِ أعضاء.

ـ النظام العشري في العلم والمعاملات

والسَنَواتُ العَشْرُ الأخيرة من القرنِ الثامنَ عَشَرَ (١٧٩٠ ـ ١٧٩٩ م)، وهي التي شَهِدَتْ تَسَلُّقَ نابليونَ إلى سُدّةِ الحُكم المُطلق في فرنسةَ، قد

شَهِدَتْ هي نفسُها أيضاً إقرارَ النظامَ العَشْري في العِلم والُمعاملات.

تتواضَعُ الجماعاتُ المتفرّقةُ في هذا العالمِ الفسيحِ عادةً على أوزانٍ ومقاييسَ ومكاييلَ تتعاملُ بها في حياتها. ثمّ يَتّفِقُ أن تَنْضَمّ بعضُ هذه الجماعاتِ إلى بعضٍ فتؤلّفَ جماعةً سياسيةً واحدةً أو جماعاتٍ سياسيةً مُتجاورةً فيكونَ فيها من أجلِ ذلك ـ وقد أصبحتْ جماعةً واحدةً ـ أوزانٌ ومقاييسُ ومكاييلُ مختلفة متفاوتة معمولٌ بها في البيئةِ الواحدة في الزمن الواحدِ. وهذا أمرٌ مُنافٍ للمنطق، إذِ المفروضُ في الجماعةِ الواحدةِ أن تكونَ واحدةً في كلّ شيء قَدْرَ الإمكان.

هذه الحَال نفسُها كانت في صدرِ الإسلام. لمّا اتّسعتِ الدولةُ الإسلامية فضمّتِ الحجازَ والعِراقَ والشامَ وفارسَ ومِصْرَ وسِواها كانتِ الدواوينُ (سِجِلاتُ الدولة الإسلامية) تُكتَبُ بثلاثِ لُغاتٍ (الفارسيةِ في العراق والرومية، أي اليونانية البيزنطية، في الشام والقِبْطية في مصر)، كما كان في هذه البلادِ أوزانٌ مختلفةٌ ومقاييسُ ومكاييلُ ذاتُ أقدارٍ مُتفاوتة.

في أثناء خلافةِ عبدِ الملكِ بن مَروانَ ـ من سَنَةِ ٦٥ إلى سنةِ ٨٦ للهجرة (٦٨٤ ـ ٧٠٥ م) اقترحَ عليه الحَجّاجُ بنُ يوسُفَ الثّقفيُّ واليه على العِراق (٧٥ ـ ٩٥ هـ) أن يَسُكَّ للدولةِ الإسلاميةِ عِملةً إسلامية وأن ينقُلَ الدواوينَ (سِجِلاّتِ الدولة) من الفارسية والرومية والقِبطية إلى اللغة العربية لغةِ القرآنِ والإسلامِ، وأن يقومَ أيضاً بتَوحيدِ الأوزانِ والمقاييسِ والمكاييلِ وبإصْلاحاتٍ أُخرى من هذا القَبيل. وتَمّ ذلك كلُّهُ في أثناء ولايةِ الحَجّاج على العراق. إنّ هذا الذي تفتّحتْ له عبقريّةُ الحجّاجِ بن يوسُفَ في القرنِ الأولِ للهجرة (أوائل القرنِ الثامنِ للميلاد) لم تَرَهُ العبقريّةُ الفرنسية إلاّ في آخِرِ القرنِ الثامنَ عَشَرَ

للميلاد (أوائلِ القرنِ الثالثَ عَشَرَ للهجرة) - بعدَ أَحَدَ عَشَرَ قَرْناً! وَمَعَ ذلك فإننا لا نُنكِرُ ذلك على العبقريّة الفرنسية.

وقامَ الإفرنسيون في أثناء الثورة بنَقْلِ أوزانِهم ومقاييسهم ومكاييلهم من الوَحَدات المُتفاوتة في المُقاطعات الفرنسيةِ المختلفة إلى المِقياس العَشْري: المِتر والكيلو واللِتر. إنّ العملَ الفرنسيَّ هذا قدّ سهّلَ على الناس كثيراً من مُعاملاتِهم كما سهّل على العلماء - وعلى طُلّاب المدارس - طريقَ الحُسبان في حلّ المسائِل في الحِساب والفيزياء والكيمياء وسوى ذلك. ونَقَلَتِ الدُوَلُ المتحضّرة عن فرنسة هذا النِظامَ العَشْري الجديدَ وبَقِيَ الإنكليزُ المحافظون مُحافظين على أوزانِهم ومكاييلهم ومقاييسهم المُتنافرة المُعقّدَة زمناً طويلاً. ثمّ اقْتَنعوا بالعَمَل الحَضاري الفَرنسي في عام ١٩٧٠.

لا رَيْبَ في أن المُوجزَ في القانون المَدنيّ والدستور الفرنسي ثم النِظامَ العَشريَّ في العِلم والمُعاملات كانتْ أبلغَ أثراً وأكثرَ نفعاً وأحسنَ وقعاً في حياةِ الناسِ وفي سير الحَضارة من معاركِ نابليونَ التي لم تُخْلِّفْ إلّا البؤسَ والعداوةَ والاضطراب في حياة الناس من غير أن تتركَ أثراً يدُلّ على عبقريةِ نابليونَ دَلالةً واضحة. إنّ الذي لا يَسْتَشْرِفُ الأمورَ من بعيدٍ - في الزمانِ وفي المكان - ولا يُمْكِنُ أن يكونَ عبقريّاً بالمعنى الذي سَنُسمّيّ به القادةَ العربَ - بعدَ صَفَحتَيْنِ أو ثلاثِ صَفَحاتٍ - عباقِرَةً!.

رأيْنا في الاستعراضِ السريعِ الذي مرّ بنا في الصَفَحات السابقةِ أن نابليونَ قد بَذَلَ من الجُهْدِ المقصود الواعي في سبيلِ معاركه أكثرَ ممّا كان قد بَذَلَ في سَبيل الأعمالِ الاجتماعية التي تَمّتْ في أثناء حياتِه السياسية. إنّ نابليونَ كان يرى - مِمّا نرى نحن في ضوء تعليلِ التاريخ - أنّ الهَدَفَ الأوّل

والأهمّ في حياة الحاكم أن يَصِلَ الحاكمُ إلى المجد وإلى الشُهرة في المجد ممّا يُشْبِعُ غُرورَ الأفرادِ والجماعات. من أجل ذلك رأينا نابليونَ يقضي الزمنَ الأفضلَ من حياته في خَوْضِ المعارك للوصول إلى المجد لإشباع غرورِ النَفس الطامحة. ومعَ أنّ نابليونَ قد صَنَعَ في المدّة القصيرة - من معركة ميليزيمو في إيطالية (١٤/٤/١٧٩٦) إلى دُخولِ موسكو (١٤/٩/١٨١٢) - في مَدى سِتّةَ عَشَرَ عاماً وخمسةِ أشهُر، في الفتوح وفي القضاء على دولٍ قديمةٍ وإقامةِ دُولٍ جديدةٍ، صَنيعاً كبيراً وهّاجاً، فإنّ هذا الصنيعَ الكبيرَ الوهّاجَ بدأ يتضاءل ويخبو بعد زمنٍ قصيرٍ جدّاً، بعدَ أربعةٍ وثلاثينَ يوماً: حينما اضطُرّ نابليونَ إلى الخروجِ من موسكو والتراجعِ غرباً نحو فرنسة.

غير أنّ عِنادَ نابليونَ قد حَمَلَ نابليونَ على أن يَسْتَنْفِدَ ما كان قد بَقِيَ من قُواه ومن قُوى فرنسةَ في محاولاتٍ جديدةٍ في سبيل المجد وفي سبيل الشهرة بالمجد. كان نابليونُ قد رَضِيَ بعدَ رُجوعه من موسكو مهزوماً أن يتنازلَ عن العرش (١٨١٤م) وأن يرضى بالإقامةِ في جزيرة ألْبا مَنفيّاً أو شِبْهَ مَنفيّ.

ولكنْ بعدَ عامٍ واحدٍ عاد إلى نابليون طُموحُه وغُرورُه وعِنادُه فهَرَبَ من مَنفاه في جزيرةِ ألْبا ورجَعَ إلى فرنسةَ فاجتمع حولَه جماعاتٌ قليلةٌ من أنصاره. ومعَ أنّ نابليونَ قدِ انتصرَ في معركة جُزئية عند لِيْنيي (في بلجيكة) وهَزَمَ البُروسيّين (الألمان)، في سادِسَ عَشَرَ حَزيرانَ (يونيو) من عام ١٨١٥، فإنّه بعدَ يومين فقطْ انهزمَ في مَعْرَكَةِ واترلو (جَنوبَ بروكسل عاصمةِ بلجيكة) وحُمِلَ أسيراً إلى جزيرةِ القديسةِ هيلانَة (وهي مستعمرةٌ بريطانية صغيرةٌ في المحيط الاطلنطيّ على مقرُبَةٍ من إفريقية) حيثُ تُوُفِّيَ مقهوراً في الخامِسِ من أيّارَ (مايو) من عام ١٨٢١.

لو أنّ نابليونَ تناسى الطُموحَ العسكريَّ - ذلك الطُموحَ الخائبَ، إذا نحن قِسناه بالنتائجِ التي أدّى إليها والتَضحِياتِ التي تَطَلّبها - ثم تَوَفَّرَ، أي نابليونُ، على الإصلاحِ العُمرانيّ والاجتماعيّ والعِلميّ، ولقدْ كان في هذه أحسنَ حظّاً وتفكيراً منه في مُغامراته الحربية، لكانتْ جُهودُه أنفعَ للحضارة وللإنسانية وأنفعَ لفرنسةَ نفسِها وأنفعَ له هو نفسِه. ولكنّ الإنسانَ عريضُ الأطماع يُحِبُّ التطلُّعَ إلى المجهول وإلى ما وراءَ المجهول لِلَمَعانِ المُغامرات في العالمِ الواسعِ. ولا رَيْبَ في أن الرجالَ جميعَهم - إذا هم بلغوا في العِلم مبلغاً - يَعْرفون جُملةَ سُقراطَ: «أعرِفْ نفسَك!» ولكنّهم لا يُريدون أن يُفسّروها التفسيرَ الذي أرادَه سُقراطُ.

وأغربُ من هذا أن مُعْظَمَ الذين يطلُبون الأمجادَ من طريقِ الحُكم يقرأون قِصَصَ نابليونَ في معاركِهِ فتتراءى لِعُيونهم انتصاراتُه مُتراقصةً لَمّاعةً وتَغيبُ عن عُقولهم هزائمُه. وقلَّ من الحكّام من يَقْصُرُ همّه على جوانبَ من الإصلاحِ العُمرانيّ أو الاجتماعيّ أو العِلميّ، إذا كان لا يأنَسُ من نفسه العبقريةَ العَسكرية، أو إذا كان لا يستطيعُ أن يَضْمَنَ لِجُهوده العسكريةِ آثاراً باقيةً. إنّ الذين كانوا مِثْلَ نابليون (الإسكندرَ المقدونيَّ وحَنَّبَعْلَ القرطاجيَّ في القدماء ثمّ هتلر وموسوليني في المعاصرين لنا) كانوا عباقرةً لأنّهم فَعَلوا في الزمنِ الأقصر ما لم يستطعْ كثيرون أن يفعلوه في الزمن الأطول. ولكنّهم ليسوا عباقرةً في فَنّي الجُنديّة والحُكم لأنّهم قدّموا على مَذبحِ طُموحهم وغُرورهم تَضْحِياتٍ كباراً كثاراً ثمّ لم يُحدثوا سوى تبديلٍ جُغرافي قصيرٍ عُمُرُه - على سَعَةِ مَداه - قليلٍ ظِلُّه، هذا إذا لم نذكرِ الأسى الذي أدخلوه على النفوس الإنسانية بين أبناء قَوْمِهم وبين غير أبناء قومهم. ولقد كان في هؤلاء الذين سمّيناهم وفي أمثالهم، في تاريخ العالم الطويل، عبقريّةٌ فَذّة حقّاً، ولكنّهم

أنزلوا هذه العبقريةَ في غيرِ منزلِها وصرّفوها في غيرِ وَجْهِها. ولو أنّهم وَقَفوا كلَّ حياتِهم على الجانبِ العَمَليّ من الإصلاحِ الاجتماعيّ الذي نَجحوا في مَيْدانه بالقليلِ الذي اختاروا أن يبذُلوا من جُهْدِهم لكانَ ذلك خيراً لهم ولنا.

إنّ القادةَ الكِبارَ العباقرةَ حقّاً وصِدْقاً، منذُ كان العالَمُ إلى اليوم وإلى ما بعدَ اليوم، هم خالدُ بنُ الوليد وأبو عُبَيْدةَ عامرُ بنُ الجرّاحِ وسعدُ بن أبي وقّاصٍ وعُقْبَةُ بنُ نافعٍ ومحمّدُ بنُ القاسم الثَقَفيّ وموسى بن نصير و صلاحُ الدين الأيّوبيُّ والظاهرُ بَيْبَرْس ومُحَمّدٌ الفاتح وأكبرُ وجهانكير وأمثالُهم من الذين فتحوا في البلاد شرقاً وغرباً ثمّ بَقِيَتْ آثارُهم في السِياسة وفي الحضارة ظاهرةً فيما عَمِلوا، ذلك لأنهم لم يقوموا بما قاموا به اندفاعاً من طُموحِهم وغُرورِهم، بل لأنّهم كانوا يَلْمحون مَثَلاً أعلى فرَجَوْا تحقيقَه، وكانوا يَرَوْنَ حقّاً مهضوماً فأرادوا أن يُدافعوا عنه. إنّ هؤلاء كانوا معالِمَ في مَوْكِبِ التاريخِ الإنسانيّ ساروا فيه على هُدىً وبصيرةٍ فأصبحوا بأعمالِهم جُزءاً من تُراثِ الإنسانية كلِّها.

إنّ التاريخَ، في مَنْطِقِ الحياة، ليس قاضياً يستمعُ إلى الخَصْمين ثمّ يَسْتَشْهِدُ الشهودَ لِيَقْضِيَ بما يراه هو أو بما فُرِضَ عليه قولُه في القوانين التي وضعَها الناسُ من قبلِه. إنّ التاريخ حَكَمٌ يَقِفُ على شَرَفٍ من حياةِ البشرِ لِيُدَوِّنَ في سِجِلٍّ بين يديه - هو هذا العالم الرَحْبُ من عُقولِ البشرِ - تلك النتائجَ الحضاريةَ التي تجلّتْ عنها عَبْقريّةُ الأفرادِ والجماعات. وهذا التاريخ الذي نَصِفُهُ هذا الوَصْفَ قَلّما يُعنى بأعمالِ أحدٍ إذا لم تتركْ تلك الأعمالُ آثاراً حضاريةً واضحةً.

القوميّة والدين
في العصر الحديث

إنّ الرُقيَّ المادّيَّ الحاضرَ في دُوَلِ الغَرب (في أوروبّة وبعض أميركا) قد بَهَرَ عُيونَ الشعوب الشرقيّةِ إلى حدٍّ جعَلَ جُمهورَ هذه الشعوب يُعْجَبُ بكلِ شيء في الغَرْب. ولا غَرْوَ، فالمغلوبُ ـ كما يقولُ ابنُ خَلْدونٍ ـ مُولَعٌ بتقليدِ الغالب. ولكنّ الضعيفَ (المغلوبَ) يَعْجزُ بطبيعةِ الحال عن مُجاراةِ القويّ (الغالب) في الخصائص التي تجعَلُ القويَّ الغالبَ قويّاً غالباً فيكْتَفي المغلوبُ حينئذٍ بتقليدِ ذلك القويّ الغالِب في ظاهرِ أعمالِه ممّا تَسْهُلُ محُاكاتُه ويكونُ ظاهراً لحاسّةِ النظر وحاسّةِ السَمْع. وليسَ من الغريب أن يَتَوَهّمَ الضعيفُ، وخصوصاً إذا كان جاهلاً، أنّه إذا أغْرَقَ في تقليدِ القويّ في تِلك المظاهِر فإنّه يُصْبِحُ قويّاً أو مِثْلَ القويّ.

من الأمور التي كَثُرَ فيها تقليدُ المُسلمين عامّةً والعَرَب خاصّةً للغَرْبيّين ـ وممّا نَحْنُ هنا بسبيله ـ الإغراقُ في نَقْلِ الكتب الأجنبيّة إلى لُغاتنا والنسجُ على مِنوالِ أصحابِ تلك الكتب حينما يَضَعُ نَفَرٌ منّا عدداً من الكتب وَضْعاً جديداً أو يعتقدُ أولئك النفَرُ أنّهم يفعَلون ذلك.

إنّ نَقلَ الكُتُب يمكنُ أن يكونَ في حياةِ الأمم طَوْراً ثقافيّاً سليماً صحيحاً نافعاً، كما اتّفقَ في العَصرِ العبّاسيّ لمّا نَقلَ المُسلمون تُراثَ الأُمَمِ

القديمة ـ ولا سيّما اليونانُ ـ إلى اللُّغةِ العربية، ثمّ كما اتّفق في أعقاب العُصور الوُسطى ومَطْلَعِ العصور الحديثةِ لمّا نَقَلَ الأوروبيّون إلى اللُّغة اللاتينية ثمّ إلى لُغاتِهمُ القوميةِ عَدداً لا يَكاد يُحْصى مِنَ الكتب العربيةِ التي كانت خزائنَ لتُراثنا نحن وللتراثِ الذي كان أصحابهُ قد أضاعوه فحَفِظناه نحن لهم ولَنا وللإنسانية.

ولكنّنا نحنُ اليومَ نُغْرِقُ في ذلك حتى إنّنا ننقُلُ حيناً كُتُباً غيرَ ضروريّةٍ كما ننقُلُ في بعض الأحيان كتباً تافهةً جدّاً كالقِصص والشِعر وكُتبِ المباذِل الجنسية والسياسية ومقالاتِ الآراء الغَربية صحيحةً نافعةً كانت أو خاطئةً ضارّةً!

من جرّاء ذلك الجَهْل في التقليدِ وهذا الإغراق في النَقْلِ أصبح عندَ كثيرين منّا مَنْهَجٌ غَرْبيّ في التأليف مُشَوّهٌ حيناً أو مُسْتَعْبَدٌ حيناً آخَر. إنّ كلَّ منهجٍ في الحقيقة يقومُ على مُفرَداتٍ من الحقائق المأخوذة من نِطاقٍ مُعَيّنٍ فيُحاول ذلك المنهجُ تنظيمَها ومُعالجَتَها. ومِنْ أسوأ ما وَقَع فيه العَرَبُ في العصر الحديثِ أنهّم كانوا في بعضِ الأحيان مُضْطرّينَ ـ لما فَقَدوا كثيراً من عَبْقَريّتِهمُ الأُولى ـ إلى أن ينقُلوا عن المُؤلّفين الغَرْبيّين، أولياء للثقافةِ الإسلاميةِ كانوا أو أعداء، كُتُباً تتعَلّقُ بتُراثنا وبتاريخنا، وأكادُ أقولُ بدِيننا! من أجلِ ذلك أكْتَسَبَ كثيرون مِنّا، عندَ مُعالجةِ قضايانا، تفكيراً غريباً (بتقديمِ الياء آخر حروفِ الهجاء) ولا أقولُ غَرْبيّاً (بتقديم الباء ثاني حُروفِ الهجاء). وقَلَّ مِنَ المُؤلّفين مِنّا مَنْ نجا مِنْ هذهِ السيّئة نجاةً تامّة.

لا أستطيعُ في هذه الصَفَحاتِ التاليةِ أن أتناولَ بالبحث للتجديدِ جميعَ تاريخِنا ولا جميعَ أحداثِ عَصْرٍ من عصورِ تاريخنا. من أجلِ ذلك سأقْتَصِرُ

على عَدَدٍ من المواقف فأمَسُّ منها جوانبَ مُعيّنةً. هذهِ المواقفُ هي: من تاريخ العثمانيّين في بلادهم وبلادنا؛ في المَشْرِق والمَغْرِب، وقد مرّ الكلامُ على ذلك كله (ص ٢٠٣) ـ نشأةُ القوميات في العصر الحديث ـ عبد الحميد (السلطان العثمانيّ) وفِلَسْطين ـ شريفُ مكةَ الحسينُ بن علي: الثورةُ العربية وفِلَسْطين. وكذلك قد سَبَقَ الكلام على الإسكندرِ المقدونيّ ويوليوسَ قيصرَ ونابليونَ.

ليس الإسكندرُ وزميلاه ممّا هو مقصودٌ لنفسِه، ولكنْ ممّا يستقيمُ في التخريج ويتّفقُ في الأُسس ثمّ يختلفُ فقطْ في المَثَل المضروب. ولقد كُنتُ أوَدُّ أن يكونَ المثلُ المضروبُ من رجالنا في العصرِ الحديث، ولكنّ الذي أدْركه أنّ جُمهورَ العَرَب لا يتّسعُ صدرُه لغيرِ الكلامِ العاطفي، وأنت إذا ضَرَبْتَ له مثلاً على قاعدةٍ تَعلّقَ بالمَثَل المضروب الذي هو اسم مشهورٌ مألوف عنده ثمّ غابتْ عنه القاعدةُ لأنها تحتاجُ في إدراكها إلى مُستوًى حَضاريٍّ وإلى تَنْشِئةٍ ثقافيةٍ وإلى اختبارٍ شخصيّ معاً. إنكَ إذا حَدّثتَ نفراً من شُبّانِ العرب اليومَ في رأيِ ابن خَلدونٍ في سَيرِ التاريخ، وذلك «أنّ المُلْكَ لا يكونُ إلاّ بالغَلَب. والغَلَبُ لا يكونُ إلاّ بالعصبيّةِ، والعصبيةُ عَدَدٌ كبيرٌ من الناسِ ثم مالٌ وفيرٌ يُستَخْدَمُ في وُجوهه ثم سلاحٌ أكثرُ أو أحسنُ من سِلاحِ الخَصم ثم جامعٌ روحيٌّ يؤلف بين أولئك الناسِ بمالِهِمْ وسِلاحِهِمْ على مَثَلٍ أعلى وهَدَفٍ واضح»، قال لك: ابنُ خلدونٍ رجْعيٌّ بورجوازيّ إنهزاميٌّ إمبرياليّ.

غيرَ أنّ الذينَ يُدْركون الأمورَ من جميعِ جَوانبِها يُدْركون أيضاً أن جُمهورَنا العربيّ اليومَ ليس شرّيراً. إنّه حائرٌ ناقِمٌ. والناقمُ العاجزُ يبدو لبعض العيونِ شرّيراً. إنّ هذا الجمهورَ العَرَبيَّ يشعرُ اليومَ أنّ قومَه (وهُوَ مِنْهُمْ) في خَيْبةٍ سياسيّةٍ وعجزٍ ماديّ أمامَ خصومِه في الحياة (وتِلكَ فَضيلةٌ ودَلالةٌ على

نَبْضِ الحياة في جِسْمِ الأُمّةِ المريض)، ولكنّه لا يُريد أن يُقِرّ على نفسِه بهذين العارَيْن عَلَناً، وإن كان يُقِرُّ بهما بَيْنَه وَبَيْنَ نفسِه. من أجل ذلك تراه يصرُخُ بشِعاراتِ الحقّ والمبادىء وبألفاظِ القوّة والتضامُن ـ تعبيراً عن النقمة التي في نفسه على نفسه، واسْتمداداً لشيء من القوة للاستمرار في موقف الدفاع السَلْبي أمَلاً في أنّ القوّةَ الحَقَّ ستعودُ إليه يوماً ما (وهذا أيضاً فضيلةٌ ودَلالةٌ ثانية على نَبْضِ الحياة).

والآنَ حينُ استعراضِ هذه المواقف:

نشأة القوميّات في العصر الحديث

عُرِف القرنُ الماضي ـ القرنُ الثالثَ عَشَرَ للهجْرة (التاسعَ عَشَرَ للميلاد) ـ في أوروبّةَ بأنّه عصرُ القَوْميّات. والقوميّة هي العَصَبيّةُ الجِنْسية؛ هي شعورُ جماعةٍ من الناس بأنّهم يَنْتَمون إلى أصلٍ واحدٍ. ودليلُهم على ذلك أنّهم يتكلّمون لُغَةً واحدةً ويشتركون في تراثٍ واحدٍ ثمّ يَتَّجِهُ تاريخُهم اتّجاهاً واحداً جامعاً. ومَعَ أنّ في القوميّة عناصرَ أُخرى كالدين (الرابطِ الروحيّ) والتنظيمِ الاجتماعي (إنشاء الأُسرة السليمة) والتنظيمِ السياسيّ (الدولةِ الصحيحةِ: إنطباقِ نطاقِ الدولةِ على نطاقِ الأُمّةِ)، فإنّ مُعْظَمَ الدُعاةِ إلى القوميّة في القرن الماضي والقرن الحالي لا يُعيرون أمثالَ هذه العناصر (وخصوصاً عُنصرَ الدين) اهتماماً وافياً. أمّا عنصرُ الدين خاصّةً فإنّ دُعاةَ القَوْميّاتِ الجديدةِ يستَخْدِمونه مرّةً إذا وافق هواهُمُ السياسيَّ ثمّ يُهْمِلونه مرّةً إذا خالف الْتِزامَهُمُ الحِزبيّ.

ومَعَ أنّ اللُّغة عنصرٌ مُهِمٌّ جدّاً في أصل الدعوة القومية (لأنّ اللُغةَ أوضحُ آثارِ القومية)، فإنّ اللُّغةَ نفسَها ليست دليلاً الْبَتّةَ على وَحْدةِ الأصل. إنّ الأرْمَنَ يتكلّمون ـ إلى جانبِ لُغتِهِمُ ـ اللغة التُركية أو الرُوسية أوِ العربيةَ أو الإنكليزية، بحَسْبِ تَشَرُّدِهِم في الأرض. وكانَ أديبُ إسحاقَ أحدَ بُلغاءِ العَرَبِ في العصر الحديث، ولكنّ أديبَ اسحاقَ وقومَه الأرْمَنَ ليسوا أتراكاً (بل هم أعداء الأتراك) ولا رُوسيّينَ ولا عَرَباً. ثمّ إنّ في شُعوبِ إفْريقِيَةَ وآسِيَةَ ـ من تلك الشُعوبِ التي كانتْ تحتَ الاستعمارِ أو لا تزالُ تحتَ الاستعمار ـ شعوباً لا يتكلّمُ أهلُها إلاّ اللُّغَةَ الإنكليزية أوِ اللغة الفرنسية، ومَعَ ذلك فَهُمْ ليسوا إنكليزاً ولا فَرَنْسيّينَ. وكان مُحَمَّدُ علي جَناح الذي حَقّقَ حُلُمَ المُسلمين في إقامةِ دولة باكستانَ يجهَلُ اللغةَ العربيةَ لغةَ الإسلامِ ويجهل اللغةَ الأُورديّةَ لغةَ قومِهِ مُسلمي الهند ولا يَعْرِفُ إلاّ اللغة الإنكليزية. ومَعَ ذلك كُلّه فإنّ لُغَةَ محمّدٍ علي جَناح لا تَرْبِطُ محمّدَ علي جَناح بالإنكليزِ من قريبٍ ولا من بعيدٍ ثمّ لا تقطَعُه من أهلِ باكستانَ ولا من مُسلمي الهند. وفي الجمهوريةِ اللُبنانيةِ نَفَرٌ كثيرون ـ يكادون يَكُونون بلدةً كبيرةً ـ عاشوا يتكلّمون اللغةَ الفرنسيةَ في بيوتِهِمْ ويكتُبون الكُتُبَ أو يُحَرّرون الصُحُفَ ثمّ يَخْطُبون ويتخاطبون باللغةِ الفرنسية. وقد ماتَ كثيرون مِنْهُمْ وليس لهم كَلِمَةٌ مخطوطةٌ إلاّ باللغةِ الفرنسية. وَمَعَ ذلك فهؤلاء ليسوا فرنسيّينَ، لا عِنْدَ الفرنسيّين ولا عندَنا، ولا عند أنْفُسِهِمْ فيما أظنّ!

وسُيِّرَ التاريخُ القوميُّ في أوروبّةَ في القرنِ الماضي سَيْرين مختلفين.

حَرَصَتِ الدُوَلُ الأوروبيّةُ الكُبرى (بريطانية وفرنسة والروسيّة) منذُ مطلعِ القرن الماضي على تفكيك الإمبراطوريّة العُثمانيةِ لإضعافِ الدولةُ العُثمانية الأمّ وهَدْمِ سَيْطَرتِها في البحر الأبيض المتوسّط (وقد كانت الدولةُ العثمانية سدّاً منيعاً في وجهِ التوسّع الأوروبّيّ في الشرق، وفي آسِيَةَ وإفْريقِيَةَ خاصّةً). كانتْ أوروبّةُ قد هزّتْها الثورةُ الصِناعيةُ وأصبحتْ في حاجّةٍ ماسّةٍ إلى الموادِّ الخامِ ثمّ إلى أسواقٍ تبيعُ فيها تلك الموادَّ الخامَ مصنوعةً. ولم يكنْ لأوروبّةَ أملٌ بالوصول إلى هذه الأسواقِ الخارجيّةِ وإلى تلك الموادِّ الخامِ ما دامتِ

الدولةُ العثمانية قويّةً. وكذلك لم تكُنْ دُوَلُ أوروبّةَ الكُبرى مستطيعةً ضَمانَ مصادرِ تلك الموادّ الخام وتلك الأسواقِ الخارجيّةِ لمَصْنوعاتها إلّا إذا كانت هِيَ حالّةً محَلَّ الدولةِ العُثمانية في تلك البلادِ التي كانت تابعةً للدولةِ العُثمانية في آسيَةَ وإفريقيةَ خاصةً وفي أوروبّةَ أيضاً. وهكذا نشأتْ في أُوروبّةَ القوّيّةِ نَظَريّةُ «الرجل المريض»:

إنّ التعبيرَ «الرجلَ المريضَ» جاء على لِسان القيصر الروسي نُقولا الأوّلِ في المُحادثاتِ التي كانت جاريةً بينَ الروس والإنكليز، سَنَةَ ١٢٧٠ للهِجْرة (١٨٥٣ م)، على عَتَبَةِ حَرْبِ القِرْم[1] وكانَ القَيْصَرُ نقولا الأوّلُ يُشيرُ بهذا التعبير إلى الإمبراطوريّة العُثمانية. وكان رأيُ الروسيةِ تَقْسيمَ تَرِكَةِ الرجلِ المريض، بينَما اقترحتْ إنكلترةُ مُداواتَه وشفاءه.

ومَعَ أنّ الدُوَلَ الأُوروبيّة الكُبرى كُنّ مُخْتَلِفاتٍ مُتَخاصِماتٍ - بعضُهُنَّ عدوُّ بعضٍ - فإنّهن كُنَّ، فيما يتعلّقُ بالقضاء على الدولة العثمانية على وِفاقٍ وإجماعٍ، وإن لم يَكُنَّ مُتّفقاتٍ على السَهْمِ الذي كانتْ كلُّ دولةٍ منهُنّ تطمَعُ في أن يَقَعَ إليها!.

ونَظَرتِ الدُوَلُ الأُوروبيّةُ الكُبرى إلى البلادِ التي كانتْ في نِطاقِ

(١) القرم شبه جزيرة في جنوبيّ الروسية على البحر الأسود كانت تابعة لتركية. وحرب القرم كانت بين تركية وبريطانية وفرنسة وبيامونتي (مملكة سافوي الإيطالية، قبل توحيد إيطالية) وبين الروسية. أرادت الروسية التوسّع جنوباً (على حساب الإمبراطورية العثمانية) فاتّخذت حجّة هي أنّ الحجّاج الروس لا يتمتعون في فلسطين والقدس بالحريّة الكافية لزيارة الأماكن التي جعلها المسيح مقدّسة بمروره فيها وطلبت من السلطان أن يمنحها حماية النصارى الأرثوذكس في الإمبراطورية العثمانية. فأبى السلطان فاخترقت الجيوش الروسية الحدود التركية. وخافت بريطانية أن تصل الروسية إلى القسطنطينية وتعرقل حرية التجارة في شرقيّ البحر الأبيض وتقطع الاتصال بينه وبين الهند فدخلت الحرب إلى جانب تركية. وكانت فرنسة تعدّ نفسها حامية النصارى (الكاثوليك) في الشرق، وطلب الروسية يجرح وجاهتها، فدخلت الحرب إلى جانب تركية أيضاً. هذه الحرب دامت عامين ثمّ انتهت بهزيمة الروسية وبمعاهدة باريس، سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٦ م).

الإمبراطوريّةِ العُثمانية على أنّها قِسمانِ: بلادٌ نَصْرانيّةٌ وبلادٌ غيرُ نَصْرانيةٍ. أمّا البلادُ النَصْرانيةُ فاسْتَخْدَمَتِ الدُوَلُ الكُبرى فيها آلةَ الدين تَدفعُ به السُكّانَ النصارى إلى الثورة على الأتراكِ المُسلمين وتَعِدُهُم بالمَعونة صِدقاً أو كَذِباً[1].

كان سُكّان شِبهِ جزيرةِ البَلْقانِ مزيجاً غريباً من القوميّاتِ الجِنْسية. كان فِيهم اليونانُ والصَقالبةُ (السلاف) والأرناؤوطُ (الألبان) والأتراك والرومان. هذه التَسْمِياتُ كانتْ لُغويّةً لا عِرْقِيّةً، فاليونانُ مَثَلاً هم الذين يتكلّمون اليونانيّةَ (وكُنْتَ تَجِدُ فِيهِمُ اليونانيَّ والبُلْغاريَّ والتُركيَّ والسلافيّ)، وكذلك كان في الصقالبةِ (الذين يتكلّمون الصِربيةَ مثلاً) الصِربيُّ القُحّ واليونانيُّ والتُركيُّ إلى جانب السُلوفانيِ والكُرْواتي والألباني. وكان الرومانُ أو الرومانيّون (سُكّان رومانية) مِثْلَ جيرانِهِمْ في المزيج. ثمّ إنّ هؤلاء كلَّهم كانوا مُقَسَّمينَ بالدين، ففي كلِّ أبناء لُغةٍ نَصارى ومُسلمون، والنصارى كانوا أرْثوذُكساً في الأكثر وكاثوليكاً في الأقل.

وكانتِ الدُوَلُ الأُوروبيّةُ الكُبرى التي احْتَرَفَتْ إثارةَ الاضطراب في البَلْقانِ على الدولةِ العُثمانية قد تَبَنَّتِ العَزْفَ على وَتَرِ الدين لأنّ الدينَ أعمقُ أثراً في العواطف ولأنّ تلك الدُوَلَ كانت أقدَرَ على أن تجمَعَ باسمِ الدينِ (بالنَصْرانية) أكثرَ مِما كانتْ تستطيعُ أن تجمعَ باسمِ قوميّةٍ من تلك القوميّات المُختلفة المُتناقضة.

لنأخُذْ مثلاً على ذلك قيامَ دولةِ الصِرب. لقد وَضَعْتُ يَدِيَ اتّفاقاً على

(١) في ذلك الحين اتّصلت إنكلترة بالأرمن (وأرمينية بلاد داخلية جبلية، بين الروسية وتركية وإيران) ودفعتهم إلى الثورة على الدولة العثمانية ووعدتهم بالمعونة، فثاروا. فجرّدت الدولة العثمانية عليهم حملة وقتلت عدداً كبيراً من الثائرين. وطلب الأرمن تلك المعونة الموعودة (وكانت إنكلترة قد نالت من تركية شيئاً من مطالب لها) فردّت الوزارة البريطانية عليهم بقولها: إنّنا نأسف كثيراً، فإنّ الأسطول البريطاني لا يسير فوق الجبال!

كتاب عُنوانه: **البَلقانيّون: تاريخٌ مُوجَزٌ لبَلْغارية والصِرب واليونانِورومانية وتُركِيَةَ**، ألفه جماعةٌ من كبار المؤرّخين ومن ذَوي الشُهرة أيضاً، وطبعَتْهُ جامعةُ أكسفورد.[1] والجُمَلُ التاليةُ المأخوذةُ من هذا الكتابِ تدُلُّ على غَلَبَةِ العُنْصرِ الدينيّ في حَرَكةِ البَلْقانِ للانفصالِ عن الدولةِ العُثمانية:

- (ص ١١٧): إنّ الثورةَ في اليونانِ، عامَ ١٨٢١ للميلاد (١٢٣٧ هـ)، قدْ ألقتْ على المسألة الصِربية، من وِجْهةِ النظر الدَوْلِيَةَ، حِجاباً كثيفاً، ولكنّ القيصرَ نقولا الأوّلَ الذي جاء إلى العَرْشِ الروسيّ عام ١٨٢٥م سَرْعانَ ما تظاهرَ بأنه يهتمُّ بالقضايا البَلقانيةِ اهتماماً بالغاً فَعّالاً. وبما أنّ الشُعورَ بالجامعةِ الصَقْلبية (السِلافية) لم يكُنْ قدِ اتّخَذَ بعدُ في تلك الأيام شكلاً ملموحاً، فلم يُمكِنْ أن تَخْطُوَ الروسيةُ إلى التدخُلِ إلّا بالسياسةِ القديمة: أيْ بالّادعاء بأنّها حاميةُ أبناء دينِها الذين يَعيشون تحتَ رايةِ الهِلالِ (في تُرْكيَةَ المُسلمة).

- (ص ١٣٢): إنّ العَداوة بينَ المَسيحيّ والمُسْلم، أي بينَ الصِربيّ والتركيّ، لم تكن في يومٍ ما أشدَّ منها بينَ المَسيحيِ والمسيحيّ، أي بين الصِربي والجِرْمانيّ أو المَجَريّ...

- (ص ١٣٣): والصِربُ كانوا (في ذلك الحين) خاضعينَ مُباشرةً لبودابستِ (عاصمةِ المَجَر الكاثوليكية)، وكان الاستقلالُ الداخليُّ الذي يَمْلِكونه هو الاستقلالَ الكَنَسيَّ (الديني).

- (ص ١٤١): إنّ الفوضى الدائمةَ في الإمبراطورية التُرْكية... قد

(١) The Balkans: a history of Bulgaria, Serbia, Greece, Rumania, Turkey, by Neville Forbes, Arnold J. Toynbee, D. Mitrany, D.G. Hogarth, Oxford (Clarendon Press) 1915.

حَملَتِ الدُوَلَ المُجاورة لها في أثناء الفِتَنِ المُتلاحقةِ في مَقْدونيةَ - وقد كانت تلك الفِتَنُ من نَفْخِ أفواهِهِنّ - على انتهازِ الفُرْصةِ لَقيامِ كلِّ صاحبِ قوميّةٍ بأَشْنَعِ أنواعِ العُدوان على أصحابِ القوميّاتِ الأُخرى ثم تَنت تراه يُلْقي اللؤمَ على الأتراكِ المساكين.

- (ص ١٩٢): وفي الواقع، إنّ دُعاةَ الهِلّانية (القوميةِ اليونانية) لم يكونوا يرغَبون كثيراً في إخراج الشعب اليونانيّ من الإمبراطورية العُثمانيةَ بقَدْرِ ما كانوا يُريدون أن يجعَلوه العُنْصُرَ الحاكمَ في الإمبراطورية نفسِها بأن يَطْرُدوا الأتراكَ من مناصِبِهِمُ الممتازةِ ثمّ يَجْمَعوا بينَ كلِّ طوائفِ السُكّان الذين هم على المذهبِ الأرثوذُكسيِّ.

- (ص١٩٣-١٩٤): وفي الشَمال قام غرمانوس مَطْرانُ بطراسَ بحَشْدِ الثُوّار في دير ماغاسبلايون ثمّ رفَعَ غِطاء المَذْبَح[1] على أنّه الرايةُ القومية.

- (ص ١٩٥): وهكذا يبدو أنّ الثورةَ المسيحيّةَ العامّةَ قد بدأتْ. وفي مطلَعِ هذا الذُعْر الذي كان يُهَدِّدُ الأتراكَ المسلمين جعلَ الأتراكُ المسلمون يَثْأرونَ ثأراً عامّاً على مُستوَى تلك الثورةِ (التي كانتْ عليهم).

- (ص ٢٠٨): إنّ الدولَ الثلاث الكُبرى (الروسيةَ والنمسا وبروسية[2]) وجدتْ أنّ من العَبَثَ تحرير اليونانِ من الحُكم العثمانيّ إذا لم

(١) المذبح: مكان مرتفع (شبه طاولة) في صدر الكنيسة حيث يقف الكاهن للقيام بالقدّاس (بالصلاة عند النصارى). ويكون للمذبح غطاءان: غطاء كبير عادي يستر المذبح كلّه. ثمّ يكون على هذا الغطاء الكبير العادي قطعة من نسيج على شيء من السعة ومستطيلة الشكل استطالة قريبة من التربيع. في أطراف هذه القطعة صور للأناجيل الأربعة، وفي وسطها صورة للصليب عليه المسيح (في رأيهم). وعلى جانبي الصليب مريم العذراء ومريم المجدلية.

(٢) بروسية: المقاطعة الشمالية الشرقية من بلاد ألمانية (وكانت دولة كبيرة قبل الوحدة الألمانية، سنة ١٨٧١م).

تُوجد هي لليونانِ شَكْلاً من الحُكم بديلاً. وهكذا اتّفقتْ على مَلَكيّةٍ ثمّ مَنَحتْ تاجَ اليونان، في شَباطَ من عامِ ١٨٣٢ للميلاد، للأميرِ أوتو وهو ابنٌ صغيرٌ لملك بافارية (الألمانية)[١].

وهنالك كتابٌ آخرُ صَدَرَ أيضاً في مجموعٍ من الدِراسات في التاريخ الأوروبيّ، وصدَرَ في الولايات المتّحدة الأميركيّة، بينَما الكتابُ السابقُ قد صَدَرَ في إنكلترةَ (في أوروبّة). هذا الكتاب عُنوانُه: «نهضة القومية في بلاد البلقان: ١٨٠٠ - ١٩٣٠»[٢].

ومَعَ أنّ هذا الكتابَ وُضِعَ لتأريخ الحركةِ القوميةِ في البُلقان، فإنّ العُنْصُرَ الدينيَّ في التحرُّكِ الذي أُريدَ منه فصلُ بلادِ البَلقان عن الإمبراطورية العثمانية بارزٌ فيه جدّاً.

في الفصل الأوّلِ من هذا الكتابِ كلامٌ عامٌّ في حياة الشعوب المسيحيّة في شِبه جزيرة البَلقان ووصفُ تلك الحياةِ (ص ١٠) بأنّها بائسة، حتّى أنّ المؤلّفَ يُسيء فَهْمَ كَلِمَةِ «رعايا» ويجعَلُها مرادفةً لكَلِمَةِ قطيعٍ أو كَلِمَةِ بهائمَ. ولكنّ المؤلّفَ يعودُ في الصفحة نفسِها لِيقولَ: «أمّا في القرن السادسَ عَشَرَ وفي القرن السابعَ عَشَرَ أيضاً فإنّ الحُكمَ العثمانيَّ (على النصارى) لم يكن من المُمْكِنَ فقطْ أن يُوصَفَ بالتسامُحِ، بل كان من المُمْكِنِ جدّاً أن يُقال إنّه كان أفضلَ من غيره من أنواعِ الحُكم، في النمسةِ والبُنْدقيةِ مَثلاً. وفي الصفحة العاشرةِ يتكلّمُ المؤلّفُ عن شَقاء النصارى في البَلقان تحت الحكم العثماني:

(١) إن اليونان هلّانية (إغريقية، يونانية) أرثوذكسية، وملك بافارية جرماني (ألماني) كاثوليكي. فهو لم يأت إلى عرش اليونان لأنّه ألماني ليحكم مكان العثماني التركي، بل لأنّه مسيحي ليحكم مكان العثماني المسلم.

(٢) The rise of Nationalism in the Balkans 1800-1930, by Wesley M. Gewhr (Ber kshise Studies in European History), NewYork (Henry Holt and Co) 1931.

في الظُلم والرشوة وبَهْظِ الضرائب وما نُتجَ عن ذلك كلّه من الفقر والبؤس.

وبعدَ ثلاثِ صَفَحاتٍ، من صَفَحاتِ هذا الكتاب الصغير الحجم يَنْسى المؤلّفُ ما كان قد قاله ثمّ يتكلّمُ (ص١٣ وما بعد) على سَعَةِ العيشِ التي كان يعيشُ فيها «الرعايا» اليونانيّون خاصّةً لأنّهم كانوا مُسْتَوْلينَ على أسبابِ التِجارة الداخليةِ والخارجيةِ وعلى كثيرٍ من المناصب الرفيعة في الدولة العثمانية نفسِها.

ويتكلّم المؤلّف على الإنكشارية[١] ويذكُرُ أنّهم كانوا في القرن السادسَ عَشَرَ أقدرَ قوّةٍ عسكريةٍ في العالم (ص١٧). ومَعَ أن هذا المؤلّفَ، كسائر المؤلّفين الأجانب وكنفَرٍ من المؤلّفين العَرَبِ أيضاً، يُحبُّ أن يسوّدَ صَفْحَةَ الدولةِ العثمانية في جميعِ أنحائها وأقطارها، فإنّه - بخلافِ هؤلاء كلِّهِمْ - يَرْجِعُ أحياناً إلى الإنصافِ ويذكُرُ كثيراً من الحَسَناتِ إلى جانب تلك السيِّئاتِ المعروفةِ. فمما جاء في هذا الكتاب:

- (ص ٢١): وكان على أصحابِ الأملاكِ المسلمين أن يبيعوا جميعَ أملاكهم (لصربيّين) وأن ينسحبوا من البلاد؛ ولم يُسْمَحْ للأتراك (المسلمين) أن يسكنوا في غير المُدُنِ الثمانِ التي بَقِي فيها للعثمانيين حامياتٌ عسكرية. ولمّا قَبِلَتْ الصِربُ بهذه الحامياتِ (العثمانية في بلادها) وبدفع أتاوةٍ سَنويّة استطاعتْ الصرب أن تحصُلَ على الاستقلال... وممّا يبدو غريباً أن ثورة اليونانّيين كانت مَدينةً إلى حدٍّ كبيرٍ للتشجيع الروسيّ. من أجل ذلك يَجبُ ألا يُفَسَّر هذا التشجيع بعطفِ الروسيةِ المستبدّة على الثورةِ الصِربية بل بعاملٍ سياسيّ غايتهُ إضعاف الإمبراطورية العثمانية المُسلمة ومُحاولة السيطرةِ (باسْمِ

(١) الإنكشارية (ينيشري) طبقة من الجنود كانوا في خدمة الدولة العثمانية، وكانوا أحسن أقسام جيشها.

القومية الصقلبية السلافيةَ حيناً وباسم الدين المسيحي حيناً) على شِبهِ جزيرة البلقان إن اليونانَ والصقالبةَ (السلاف) والرومانيّين (أهلَ رومانية) كانوا ينظُرون إلى الروسية الأرثوذكسية على أنّها الدولةُ الكبرى التي يَقْضي بها المنطقُ لتخليصِهم من الحُكم الإسلامي.

- (ص ٢٢): وقدِ استطاعتِ الروسيةُ بفضلِ معاهدة كوجك كانارجي أن يكونَ لها حقٌّ تكونُ هِيَ به حاميةَ النصارى الرومَ الأرثوذُكسَ في الإمبراطورية العثمانية.

- (ص ٢٥) وفي أثناء الحرب اليونانية (١٨٢١ - ١٨٢٤ م) كان أصحابُ الأراضي المسلمون (من اليونانيّين وغير اليونانيين) أمامَ أحد أمرين: إمّا اللجوء إلى المُدُن التي فيها حامياتٌ عثمانيةٌ أو أن يذهبوا ضحيّةَ ذبحٍ أكيدٍ.

هذه النصوص، سواء علينا أكانتْ شاملةً أم لم تكُنْ، تدُلُّ على مَدى تأثيرِ الدين في ثوْراتِ شِبهِ جزيرةِ البَلقان. إنّ العواملَ المادّيةَ، من النَسَب والأرض والاقتصاد، عوامل عارضةٌ تَجيء وتذهبُ، ولكنّ العُنصُرَ الروحيَّ (الذي يُعدُّ الدينُ أبرزَ وجوهِهِ) هو الجامعُ الأقوى في حياةِ البشر. وكذلك حينما نَتبدّلُ بالدينِ مَثَلاً أعلى آخَرَ من القوميةِ أو الاشتراكية أو الحِزبية أو المصلحة الاقتصادية، فإنّما نكونُ قدِ اتّخذْنا ديناً آخرَ وسمّيناهُ اسْماً جديداً.

في هذا السيرِ الأوّلِ كانتِ القوميّةُ عاملاً مُفكِّكاً، لأنّ الدينَ واللّغة والنِظْرةَ الإقليمية هي التي خطّتْ اتّجاهَهُ. وإلّا فما كانَ الداعي إلى نشأةِ دَولةَ الصِرب ودولة الجبل الأسود ودولة البوشناق (البوسنة) والهرسك ودولة بُلغارية إذا كانت القوميّةُ في هذه البلاد كلّها صَقْلبية (سلافية)؟.

أمّا السيرُ الثاني للتاريخِ القوميّ في أوروبّة فقد كانتِ اللغةُ فيه عُنصراً

مُرَجّحاً للوَحْدة كما حَدَثَ في إيطاليَةَ وفي ألمانية خاصّةً. وإيطاليةُ وألمانيةُ هما المثالانِ اللذانِ يُؤكِّدُ دُعاةُ القوميّة جانبِهما تأكيداً شديداً.

والواقعُ أن إيطاليةَ التي توحّدت كانتْ كُلُّها كاثوليكيةً، ولم تكنْ كُلُّها إيطاليةً (لاتينيةً أو رومانية). إنّ الجانبَ الشّمالي الشَّرقي منها مُتنازَعٌ بين السِلاف والجرْمانِ واللاتين (الرومانِ، الإيطاليّين)؛ والمناطقُ الشمـاليةُ جرمانيةٌ وأهلُها يتكلّمون الألمانيةَ؛ وأهلُ الجَنوب (في جزيرة صِقِلِّيَةَ وفي شبه جزيرة كالابرية) مزيجٌ مركومٌ (بعضُه فوق بعضٍ) من شعوبٍ مُختلفةٍ. أمّا جزيرةُ ساردانية وجزيرةُ كورسيكا (وفيها كِلْتَيْهِما مزيجٌ مركوم أيضاً) فإنّ أقربَهُما إلى الأرض الإيطالية تابعةٌ لفرنسة.

وأمّا دُعاةُ الوَحْدة الألمانية فقدِ اعتمدوا اللغةَ في دَعْوتِهِمْ، ومَعَ ذلك فلم يستطيعوا أن يَضُمّوا جميعَ المُتكلّمينَ بالألمانية إلى «وَحْدتِهِم»، لأنّ المذهبَيْنِ المَسيحيّين فيها لم يستطيعا الائتلاف في حُكمٍ واحدٍ. إنّ النمسةَ الكاثوليكية ظلّت مُسْتقلّةً ثم عدوّةً في أكثرِ الأحيان. حتّى الأقسامُ التي تألّفت منها «الإمبراطورية الألمانية» لم تكُنْ موحّدةً، فقد بَقِيَت بافاريـا ووُرْتَمْبرغ الكاثوليكيّتان مُنفصلاً بعضُهما عن بعضٍ ومُستقلّتَين في كثيرٍ من أمورهما عن الدولةِ الألمانية الأمّ، إذ بَقِيَ لكلِّ مقاطعةٍ منها مَلِكُها وطوابعُها وشَخصيتُها المُمَيِّزةُ لها في «الإمبراطورية الألمانية الاتّحاديّة». والسَبَبُ في ذلك أن بُروسيَةَ صانعةَ الوَحْدة الألمانية كانَ الغالبَ فيها المذهبُ البروتستانيّ مذهبُ الأُسرةِ الحاكمةِ.

وفي الإمكان الاستمرارُ في استقراء التاريخِ فيما يتعلّق بالعُنصر الدينيّ (الروحيّ) وبمكانته في بناء الدُوَلِ صَفَحاتٍ كثاراً طوالاً. ولكن الذي مَضى يُغْنى عمّا يُمْكِنُ الانتقالُ إليه. ثمّ إنّني لا أقصدُ أن أُخرِجَ العُنصرَ القومي

(عُنْصُرَ النَّسَبِ الثابت أو الموهوم) ولا العُنصرَ اللغويَّ ولا العنصرَ الاقتصاديَّ ولا العنصرَ النفسيَّ أو العنصرَ الشخصيَّ أو العنصرَ البُطوليَّ مِنَ الاعتبارِ عندَ النظرِ في استقراءِ خصائصِ الأممِ أو عندَ دراسةِ نُشوءِ الدُّوَلِ. ولكنّني قَدّمْتُ ما قدّمتُ تَنْبيهاً على ما يَوَدُّ دُعاةُ القوميّةِ المُلْحِدَةِ أن يذهبوا إليه مِنَ الاكتفاءِ عندَ النظرِ في بناءِ الدولِ (لأنّ مَدْرَكَ الأمّةِ لا وزنَ له في حسابِهِمْ) باعتمادِ «التعريفِ اليهودي»: إرادةِ التعايُشِ. ولكنّ هذا التعبيرَ غامضٌ جدّاً، فإنّ الإراداتِ في أفرادِ البشرِ مُتبايِنَةٌ (شديدةُ الاختلافِ والتنافُرِ). ثمّ إنّ المفهومَ من التعايُشِ، فيما يتعلّقُ بنَوْعِهِ وبمِقْدارِه، مُخْتَلِفٌ بينَ جماعاتِ الناسِ اختلافاً شديداً أيضاً. فإذا أنتَ سألتَ هؤلاء توضيحَ هذا التعبيرِ الغامضِ قالوا: «جماعةٌ من الناسِ رَبَطَتْ بينَهم مصالحُ مُعَيَّنَةٌ فتراضَوْا على أن يعيشوا معاً».

وكذلك اليهودُ الذين وضعوا هذا التعريفَ لِيَسْهُلَ دخولُهم في كلِّ دولةٍ ولِتَسْهُلَ سيطرتُهُمْ على كلِّ دولةٍ لم يعملوا به قطُّ. إنّ اليهودَ لمّا استطاعوا أن يُقيموا دولةً لهم أصرّوا على عُنْصُرِ الدينِ وحدَه. ولَقَدْ قَبِلَ اليهود في دَوْلَتِهِمُ المزعومة» جميعَ الأجناسِ مِمّن كان أسلافُهم يهوداً أو من كان أحدُ أبويه أو حدُ أجداده يَهوديّاً - وفي هذا تساهُلٌ شديدٌ في العُنْصُرِ الجِنْسيِّ -. ثمّ أنّهم ساهلوا أيضاً في عُنْصُرِ اللُّغة، فليس كلُّ مَن انتقلَ إلى إسرائيلَ «المزعومة» قد تمى اللغةَ العِبْرية عن أمّه وأبيه. ولَعلَّ فيهم إلى اليومِ من لا يَعْرِفُ هذه اللغة.

وكان اليهودُ قد تَنَبَّهوا إلى مكانِ الخطرِ في هذا التعريفِ الذي وَضَعوه رهم - وَيَتَمَسَّكُ به نَفَرٌ من دُعاةِ القوميةِ عندَنا اليومَ - فنَصّوا في صُلْبِ ريحِ بلفورَ على خِلافِه. جاء في تصريحِ بلفورَ (وموضعُ الشاهدِ في آخرِ الجُملةِ التالية).

«إنّ حكومةَ صاحبِ الجَلالةِ تنظُرُ بعينِ العطفِ إلى أن يقومَ في فِلَسْطِينَ وطنٌ قوميٌّ للشعبِ اليهوديّ، وستعمَلُ على بَذْلِ جُهدِها في سبيلِ هذه الغايةِ، على ألّا يَضُرَّ ذلك بحقوقِ **الجماعاتِ** غيرِ اليهوديةِ من الذين يَعيشون **في فِلَسْطين أو بالحقوقِ السياسيةِ التي يتمتّعُ بها اليهودُ في البلادِ الأخرى**».

إنّ تصريحَ بلفورَ قد وَصَفَ أهلَ فلسطين المسلمين والنصارى بأنّهم جماعات يعيشون في فِلَسْطينَ ولم يجعَلْهُمْ شَعباً من أُمّةٍ. ثمّ إنّه حَفِظَ حقوقَ اليهودِ الذين يختارون الجنسيّةَ الإسرائيلية فيما بعدُ (ولو لم يسكُنوا في الدولةِ الجديدةِ) في أن يحتفظوا بحُقوقِهِمُ السياسيةِ التي كانوا يتمتّعون بها قبلَ نشأةِ الدولةِ الجديدةِ. **ومعنى ذلك** أن اليهوديَّ الذي يَحْمِلُ الجنسيةَ الأميركية أو الألمانية أو الإنكليزية يستطيعُ إذا بَقِيَ في دولتِهِ الأولى أن يَسْلُكَ سُلوكَ المواطنِ في الدولةِ الجديدة. وهذا امتيازٌ لا يتمتّعُ به أحدٌ فيما يَنُصُّ عليه التاريخُ الدستوريُّ في العالم. وأظنّ أن قَوْمِيَ العَرَبِ يستطيعون أن يَفْهَموا الآن لماذا يسلُكُ اليهودُ في الولاياتِ المتّحدةِ مسلَكَهُمُ المعروفَ ثمّ يستطيعون أيضاً أن يفسّروا حادثةَ مونيخ الأولمبية يومَ اشترك نَفَرٌ من قوى الأمنِ الإسرائيليةِ في عَمَليةٍ داخليةٍ على الأرضِ الألمانية[1]!

(١) بدأت دورة الألعاب الأولمبية في منشن (ميونيخ) بألمانية سنة ١٩٧٢ م. وفي الصباح الباكر من يوم الثلاثاء في الخامس من أيلول (سبتمبر) هجم نفر من الفدائيّين (قيل كانوا خمسة) بالرشّاشات على مقر الفريق الإسرائيلي في القرية الأولمبية (لا في الملعب) فقتل اثنان من أفراد الفريق الإسرائيلي وأخذ الفدائيون نفراً من أفراد الفريق رهائن (قيل ثمانية، وقيل عشرة). وبينما كان الفدائيّون ينقلون الرهائن وقعوا في كمين نصبه رجال الأمن الألمان فقتل أربعة منهم (وقيل قتل ثلاثة وانتحر رابع) وفرّ الفدائي الخامس كما تخلّص الرهائن الإسرائيليّون.
وقيل: كان في الكمين الذي نصبه الألمان للفدائيّين جنود (أو شرطة) من الاسرائيليّين. ثمّ نشرت الصحف التفصيل التالي (جريدة الأنوار، بيروت ٧٢/٩/١٢، الصفحة الأولى):
«اعترفت صحيفة نيويورك تايمز» بأنّ دايان وزير الدفاع الإسرائيلي أشرف شخصياً على إدارة العمليّات الفاشلة ضدّ الفدائيّين في المطار العسكري في ميونخ يوم الثلاثاء الماضي... وكان رئيس بوليس ميونيخ قد اعترف أمس الأول بأنّ وحدة من رجال البوليس الإسرائيلي الخاصّ اشتركت في المعركة ضدّ الفدائيّين في المطار».

عبد الحميد وفلسطين

في هذا الكتاب توقّرتُ على صِلة العُثمانيّين بتاريخ المَغْرب ولم أُعَرِّجْ على شيء من تاريخ المشرق لأسبابٍ كثيرة. ولكنْ لا بدّ من كَلِمةٍ عنِ المشرق لا يجوزُ أن تُهْمَلَ ولا أن تُنسى: عن فِلَسْطِينَ.

من الواجب أن نعلَمَ أن تاريخ العثمانيّين في المشرق أيضاً لم يَكُنْ أسودَ كما يريدُ نَفَرٌ من الناس أن يُلوّنوه، ولا كان السلطانُ عبدُ الحميد الثاني أحمرَ كما يشاء نَفَرٌ من المؤرّخين أن يُصوّروه. إنّ للعصور مظاهِرَ وضّاءة ومظاهرَ قاتمةً ـ بحَسْبِ الأحداثِ التي تجري فيها ـ بعواملَ داخليّةٍ وخارجيّةٍ خارجةٍ في كثيرٍ من الأحيان عن قُدرةِ الأُمَمِ وعن إرادة الأمم. فَمِنَ الظُّلْم أن نَدينَ الفَرْدَ بأخْطاء المجموع وأن نحكُمَ على المجموع بأسواء العصر. وليس من الإنصاف ولا من فَهْمِ التاريخ في شيء أن يَسْلُكَ نَفَرٌ من أتباع مذهبٍ ما غير سبيلِ الحقّ ثمّ نَحْمِلُ نحنُ أخطاء هؤلاء النَفَر على المذهبِ نفسه، وإن كانتْ وَجاهةُ كلِّ مذهبٍ وكلّ نظامٍ تخسَرُ كثيراً أو قليلاً من لألائها بتالك الأخطاء.

عبد الحميد...

كان السلطانُ عبدُ الحميد الثاني (ابنُ السلطانِ عبدِ المجيد الأوّل) الرابعَ والثلاثين في سِلسلةِ سلاطينِ آلِ عُثمانَ، تولّى السَّلْطنة في عاشرِ شعبانَ

من سَنَةِ ١٢٩٣ (١٨٧٦/٨/٣١ م)، بعدَ أخيهِ مُرادٍ الخامس الذي خُلِعَ بحجّة ضَعْفٍ في قواه العقلية وعَجْزه، بطبيعةِ الحال، عن إدارة المملكة. ثمّ خُلِعَ السلطانُ عبدُ الحميد الثاني هذا في سادِسِ ربيعٍ الثاني من سَنَةِ ١٣٢٧ (١٩٠٩/٤/٢٧ م).

كان مِدْحَت باشا[1] يَرْأسُ حركةً ترمي إلى التحرُّرِ والتقدّم. من أجل ذلك كان يُدعى أبا الأحرار. ومِدْحت باشا هو الذي ساعدَ السُّلطان عبدَ الحميد الثاني على ارتقاء العرش. فليس مِنَ المُسْتغرب أن يبدأ عبدُ الحميد الثاني عهدَه بإعْلانِ دستورٍ للبلاد وبإنشاء مجلسِ نوّابٍ. ولكنّ حالةَ البلاد العُثمانية يومَذاك لم تكُنْ تُشجّعُ على القِيام بإصلاحٍ سياسيٍّ أو اجتماعيٍّ لأنّ أيْدِيَ الحكّامِ كانتْ مُكَبَّلَةً بالمَصاعبِ الداخلية والخارجيّة. وكانتِ المصاعبُ الخارجيّةُ تَغُلّ أيْدِيَ الحكّام عن كلِّ إصلاحٍ مُمْكِنٍ أو ضروريّ.

ـ الديون العمومية:

أوّلُ المصاعبِ الداخلية كانتِ «الديونَ العمومية» ـ وَهِيَ الديونُ الناشئة من القُروض الخارجيّة التي تراكَمَتْ على الدولة حتّى بَلَغَتْ مِائَتَيْ مليونِ ليرةٍ إسترلينيةٍ (ويَحْسُنُ أن نَتَنَبَّهَ إلى القوّة الشِرائية التي كانت للمال يومذاك، قبلَ مائةِ عامٍ!) ـ. كانت هذه الديونُ قديمةَ العهدِ، وقد تعاظمتْ في أيامِ عبدِ

(١) مدحت باشا: ولد في الطائف (الحجاز) سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) واضع الدستور العثماني وصاحب عدد من وجوه الإصلاح الإداري والسياسي، ولذلك يعرف بلقب «أبي الدستور» ولقب «أبي الأحرار». تولىّ مقاطعة الدانوب سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) ثلاث سنوات. ثمّ أصبح والياً على بغداد سنة ١٢٨٦ م (١٨٦٩ م) مدّة ثلاث سنوات أيضاً. ثمّ أصبح صدراً أعظم (رئيساً للوزارة) في الخامس والعشرين من جمادى الأولى من سنة ١٢٨٩ (١٨٧٢ م). وفي سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) حدث ما أوجب السخط عليه فنفي. ثمّ عفي عنه وعينّ والياً على الشام سنة ١٨٩٥ هـ فبقي هنالك نحو عامين. بعدئذ اتهّم بقتل السلطان عبد العزيز فقتل ١٣٠١ هـ (١٨٨٤ م).

العزيزِ الذي خُلِعَ من أجلِ ذلك في سَنَةِ ١٢٩٣ للهجرة ثمّ انتحرَ في أواخرِ تلك السَنَةِ نفسِها.

ولقد أرغمَتِ الدولُ الأجنبيةُ السلطانَ عبدَ الحميدِ الثاني على أن يقبَلَ بإشراف لَجْنةٍ من الدولِ صاحبةِ الديون على جَمْعِ عَدَدٍ من الضرائب من أقطارِ الإمبراطورية العثمانية ضَماناً لِسِدادِ الفوائدِ ورأسِ المال لِحَمَلَةِ سَنَداتِ تلك الديون. وهكذا أنشأتْ هذه اللَجْنةُ الأوروبيّة دائرةً في قلب الدولة العثمانية اسْمُها «إدارةُ الديون العمومية العثمانية» كان فيها ثلاثةُ آلافٍ من الأجانبِ يَجْمَعون الضرائبَ من الرعايا العثمانيّين (أو يُشْرِفُونَ على جمع عددٍ من الضرائبِ في البلادِ العثمانية لا تَدْخُلُ إلى خِزانةِ الدولة العثمانية بل تدخل إلى خِزانة البنك العثماني، وقد كان في الحقيقة بنكاً فرنسيّاً إنكليزيّاً، حتّى تُدْفَعَ إلى حَمَلَةِ سَنَداتِ الديون العمومية العثمانية.

وهكذا كانت «إدارة الديون العمومية» بابَ الأستعمارِ الاقتصاديّ إلى الإمبراطورية العثمانية.

- **الأحزاب السياسية:**

وكَثُرَ تحريضُ الدول الأجنبية للبلادِ المختلفة في الإمبراطورية العثمانية على إنشاء الأحزاب السياسية ذاتِ الطابَعِ القوميّ في الأكثر[1]. ولقد كانتِ الغايَةَ من إنشاء الأحزاب السياسية قيامُ ثَوْراتٍ في المقاطعات المختلفة في الإمبراطورية العثمانية لتكونَ تلك الثوراتُ - بدَوْرِها - حُجَجاً لتدخّل الدُول الأوروبيّة الكبرى وطَلَبِ الاستقلالِ لهذه المقاطعات الثائرة، لا

(١) راجع فصل «نشأة القوميّات في العصر الحديث»، ص ٢٥٩ .

لِتُصْبِحَ هذه المقاطعاتُ الثائرة دُوَلاً مستقلّةً استقلالاً صحيحاً، بل لِتَخْرُجَ هذه المقاطعاتُ من الإمبراطورية العثمانية ثمّ تدخُلَ في حُكْمِ تلك الدول الكبرى (كما دخلتِ البوشناق والهَرْسَك: البوسنة والهرسك في الإمبراطورية النمساوية) أو في نفوذِ الدول الكبرى (فقد فُرِضَ على اليونان مَلِكٌ ألمانيٌّ وَدخلتْ بلغاريةُ والصِربُ والجبلُ الأسودُ في فَلَكِ الرُوسية).

ثمّ إنّ دِراسةَ القوميةِ بين العرب في العصر الحديث ونُشوء الأحزاب السياسية يحتاجان إلى «مجالٍ غيرِ هذا المجال». ويحسُنُ هنا أن نقولَ، مَعَ زينِ نورِ الدينِ زينٍ[1]، إنّ الكلام على الشعور القوميّ بين العرب - بينَ المسلمين في الأكثر، وبين النصارى أيضاً، وخصوصاً إذا تناولنا القوميّة بمَدْرَكِها الأساسيِّ الصحيحِ - كان فيه مبالغةٌ كبيرة ثمّ هو مُفْتَقِرٌ إلى سَنَدٍ تاريخيٍّ.

- **الحروب المتوالية على الدولة العثمانية:**

إنّ الدول الأوروبيّة - بِرُغْمِ ما كان بينَهُنَّ من العداوة - قد شَغَلْنَ الدولةَ العثمانية المُسلمةَ بسلسلةٍ من الحروب يُثِرْنَها عليها مُباشرةً أو من وراء دُوَلِ البَلقانِ الضعيفة. ثمّ إنّ دولَ البَلقان الضعيفةَ كانت إذا انهزمتْ في حرب الدولة العثمانية خرجتْ بِربْحٍ وافرٍ من أرضٍ أو مالٍ أوِ امتيازٍ سياسيٍّ أو قضائيٍّ، حتّى قيل في الدولة العثمانية إنّها بين الدول الأوروبيّة كالخروفِ السائرِ بين الأشواك، كلّما عَلِقَتْ به شوكةٌ أو عَلِقَ بشوكةٍ خَسِرَ من صوفهِ عَمِيتةً[2]. إنّ الدول الأوروبيّة الكبرى كانت إذا رأتِ الدولةَ البلقانيةَ الضعيفةَ

(١) Zeine N. Zeine, The Emergence of Arab Nationalism, p. 59-60.

(٢) العميتة (بفتح العين) القطعة من الصوف.

قدِ انتصرتْ على الدولة العثمانية واقتطعت من الدولة العثمانية شيئاً من أرضٍ قُلْنَ: هذا قانونُ الحرب! أمّا إذا انهزمتِ الدولة البلقانية أمامَ الدولة العثمانية فكُنَّ يَتَوَسَّطْنَ للدولة البلقانية ويأخُذْنَ لها من الدولة العثمانية شيئاً من المغانم على سبيلِ التسويةِ والتَّرْضيةِ والحلّ لمشكلةٍ دولية.

فمن الحُروبِ المتواليةِ التي عَمَدَتِ الدولُ الأوروبيّة الكبرى إلى إثارتها مُباشرةً أو غيرَ مباشرةٍ على الدولة العثمانية في القرنِ التاسعَ عَشَرَ للميلاد وحدَه: حملةُ بونابرته على مِصْر والشام (١٧٩٩-١٨٠١) - حربُ الصِرب (١٨٠٤-١٨١٧) - حربٌ مع الروسية (١٨٠٦-١٨١٢) - ثورةُ اليونان (١٨٢١-١٨٢٩) - مَعْرَكَة نَوّارينَ (نافارينو) البحرية عند سواحِل اليونان، وقدِ اشتركتْ فيها إنكلترّةُ وفرنسةُ والروسية (١٨٢٧) - الحربُ الروسية (١٨٢٨-١٨٢٩). - فرنسة تحتلّ الجزائر (١٨٣٠م) - حملة ابراهيمَ باشا على الشام (١٨٣١-١٨٣٣) بتشجيع فرنسة خاصّةً.

ثمّ يمرّ عِشرون عاماً (١٨٣٠-١٨٥٠ للميلاد) لا نرى فيها حرباً دوليّةً على الدولة العثمانية فنَظُنُّ أنّ الهدوء قد عادَ إليها وأنّ حِقدَ الدول الأوروبيّة قدِ ارتفع عنها، ولكننا سَرعانَ ما نرى أن الدولَ الأوروبيّة قد شَغَلَتِ الدولة العثمانية - في هذه الحِقْبَةِ التي خَلَتْ من الحروب الدولية - بالمُفاوضات في عَقْدِ المعاهدات لانتزاعِ المغانم بالضَغْط السياسيّ والعسكريّ والاقتصادي أو بإثارة القلاقل الداخلية في الحِجاز واليمن ومِصْرَ والشام (فلسطين وسورية ولبنان) وبين الأرمن في شرقي آسية الصغرى.

وفي هذه السنينَ العِشرينَ أيضاً نَشِبَتْ مُنازعاتٌ داخليةٌ في دُوَلِ البَلْقان الجديدة، وخافتِ الدولُ الأوروبيّة الكبرى أن تفسَحَ هذه المُنازعاتُ مجالاً

للدولة العثمانية لاستعادةِ سُلطانِها على البَلْقان فَرَفَعَتْ سَوْطَها قليلاً عن الدولة العثمانية إلى حينٍ لِتَتَفَرَّغَ لإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ في دول البَلْقان النصرانية.

وتعودُ الحروبُ الدولية على الدولة العثمانية وشيكاً: بريطانيةُ تحتلُّ عَدَنَ (١٨٣٩) - حرب القِرْم (١٨٥٣-١٨٥٦) - حرب الجبل الأسود (١٨٦٢) - حرب الصِرب (- ١٨٦٧) - الحرب التركية الروسية أو حرب المسكوب (١٨٧٧-١٨٧٨) - فرنسة تحتلّ تونس (١٨٨١) - بريطانية تحتلّ مِصْرَ (١٨٨٢) - الحرب اليونانية (١٨٩٧) - إيطالية تحتل ليبيا (١٩١١) - حرب البلقان (١٩١٢).

بِرُغْمِ هذا كلّه استطاع السُلطانُ عبدُ الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) أن يُحاوِرَ الدول الأجنبية أو يُداوِرَها بالمُلاينة حيناً وبالتهديد بإعلانِ الجِهاد في العالم الإسلامي حيناً آخرَ، في الإمبراطوريةِ العثمانيةِ نفسها وفي الإمبراطورياتِ الأخرى التي تضُمّ مسلمين، فكانت بريطانيةُ تخافُ مِنَ استجابةِ الهنود المسلمين لدعوة عبد الحميد إلى الجهاد كما تخاف فرنسةُ من استجابةِ المسلمين في شَماليّ إفريقية لتلك الدعوة. من أجل ذلك كانتْ بريطانيةُ وفرنسةُ تَلينان لِتهديد عبدِ الحميد فتُخَفّفان من عُنْفِهما ثمّ تُساعدانِ على أن تُخَفّفَ الدولُ الأجنبية الأخرى أيضاً من عُنْفِها.

ولقد كان عبدُ الحميد في السياسة الدولية رمزَ الجامعة الإسلامية يدعو إليها ويشجّع أنصارَها في كلّ مكانٍ فاتّسعتْ فكرةُ الجامعةِ الإسلامية في أيّامِه اتّساعاً كبيراً. وقام عبد الحميد بعَدَدٍ من وجوه الإصلاح منها - في ما يتعلّق بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية - مَدُّ السِكّة الحديدية من دِمَشْقَ إلى الحِجاز والحدُّ مِنَ الامتيازاتِ الأجنبيةِ التي كانت في مجموعها امتيازاتٍ لغيرِ المسلمين في بلادِ الإمبراطوريّة العثمانية المسلمة.

وفي أواخر القرن التاسعَ عَشَرَ فَقَدَ عبدُ الحميد ثِقَتَهُ بانكلترةَ التي اقْتَنَعَ في مُقاربتها برأيِ مِدْحت باشا، فغَضِبَ من أجل ذلك على مدحت باشا ثمّ انقلب إلى الاستعانة بألمانيةَ في تنظيمِ الدولة وتدريبِ الجيش. فكان عملُ عبد الحميد هذا غيظاً عظيمًا لإنكلترة.

ولم يستطعِ الاستعمار أن يتغلّبَ على مقدرةِ عبدِ الحميد ودهائِهِ حتّى جاء إليه في لِباسِ الوطنية والإصلاح من طريقِ الأحزاب السياسية.

لم يَكُن المسلمون في الإمبراطوريّة العثمانية يَشْكون شيئاً يَحْمِلُهم على النقمة، فإنّ الدولةَ العثمانية كانت دولةً مُسلمةً، وبذلك كانتْ دولتَهُم. وإذا كانتِ الدولة العثمانية قد مرّت في أواخرِ أيّامِها بأحوالٍ قاسيةٍ، فإنّ تلك الأحوالَ كانتْ خارجةً عن سيطرةِ الدولةِ العثمانية وكانتْ قسوتُها عامّةً في التُرْك والعرب وفي المسلمين وغيرِ المسلمين. ثمّ أنّ المسلمين كانوا يتحمّلون هذهِ الأحوالَ القاسيةَ لأنّهم (أو لأنّ أسْلافَهم) كانوا قد تمتّعوا بالأمجادِ التي كانتْ للدولةِ العثمانيّة في تاريخِها الطويل. ثمّ إنّ الدولة ليستْ في المغانمِ المادّية فحَسْبُ، بل الدولةُ جوٌروحيّ أيضاً يعيشُ فيه الفَرْدُ وتعيش فيه الجماعة على رِضاً واطمئنانٍ في حالِ الأمن وعلى أملٍ بالرضا والاطمئنان المُقْبِلَيْن في حالِ البأسِ والشِدّة. وليس الوطنُ وطناً إذا اطمأنّت الحالُ فيه بالفرد ثمّ يبْطُلُ أن يكونَ وطناً إذا قَلِقَتْ فيه الأحوال! وكذلك ما كان للنصارى أن يَشْكوا شيئاً في الدولة العثمانية لا في أيامِ الرَخاء ولا في أيّامِ الشدّة. ففي أيّامِ الرخاء كانوا يتمتّعون بكلّ ما يَتَمتّع به المُسلمون من الحقوق ثمّ يَزيدون في أحيانٍ كثيرة، في الامتيازات، على المسلمين. لقد رأينا (ص ٢٦٩) أنّ النصارى واليهود في الإمبراطورية العثمانيّة كانوا ملوكَ الاقتصادِ والتجارة. كان على المُسلم أن يقومَ بالخِدمة العسكرية يَقْضي فيها السِنينَ الطِوالَ وربّما مات في

حملة من الحَمَلاتِ على اليمن أو في مَعْرَكةٍ من المعارك مَعَ الروس. وإذا أراد المُسلم أن يَسْتَعْفِيَ ـ لسببٍ من الأسباب ـ من الخِدمة العسكرية فكان عليه أن يدفع البَدَلَ العسكريَّ (خمسينَ ليرةً عُثمانية ذهباً) مرّةً أو مرّتين أو أكثرَ يقضي جانباً كبيراً من العُمُرِ في تحصيله وجمعه فيمنَعُه ذلك كثيراً ممّا يريدُ من العلم والزَواج والعَمَل المنتج. أمّا غيرُ المسلم فكان مَعْفِياً من الخِدمة العسكرية ـ لأسبابٍ كثيرة أيضاً ـ. ثمّ إنّ غيرَ المسلم كان يتمتّعُ بحِمايةٍ فعّالةٍ في ظلّ الامتيازات الأجنبية. فربّما تجنّسَ غيرُ المسلم بالجنسية الأميركية أو الانكليزية أو الفرنسية أو الروسية أو اليونانية حتّى يُصْبِحَ في تلك الامتيازاتِ كالأميركيّ أو الإنكليزيّ أو الفرنسيّ أو الروسيّ أو اليونانيّ. وربّما فَعَلَ الرجلُ ـ مُسْلماً أو غيرَ مُسلمٍ ـ فِعْلةً ثمّ لجأ إلى السفارة الأميركية أو إلى بيتِ امرأةٍ يونانيةٍ أو امرأةٍ تَحْمِلُ الجنسيةَ اليونانية فلا يجسُرُ رئيسُ الشُرطة في استنانبول أن يَطَأ عَتَبَةَ بيتِ تلك المرأةِ اليونانية. أمّا في سورية ولُبنانَ خاصّةً وفي مَدينة بيروتَ بالذاتِ فكان يَكْفي أن يخطُو الفردُ مهما تكُنْ جريمتُه خُطوةً واحدةً وراء الخَطّ الدائر على مُتصرّفيةِ جَبَلِ لُبنانَ حتّى يَعْجِزَ الجيشُ العثمانيُّ أن يَطالَه وهو يراه رأيَ العين. في هذا الزمن وفي هذه الحالِ استطاع كثيرون من غير المسلمين أن يَبْنُوا حياتَهم الاقتصاديةَ والاجتماعية والثقافية بناء ثابتاً لم يستطع بناءَ مِثْلِه المسلمون عامّةً. غير أنّ الدولة العثمانية ـ في الجانبِ الروحي من الحياة ـ لم تكن دولةَ غيرِ المسلمين.

من أجل ذلك يَجِبُ ألّا نعجَبَ إذا رأينا جميعَ المُنتسبين إلى الأحزاب السياسية في أولِ الأمرِ من غير المسلمين وأنّ القِلّة في ما بعدُ فقطْ كانتْ من المسلمين.

وبما أنّ هذا المكانَ من هذا الفصلِ ليس للكلامِ على نشأةِ الأحزاب

في الإمبراطورية العثمانية، بل لموقفِ السُلطانِ عبدِ الحميدِ من قَضيّةِ فِلَسْطين خاصّةً، فإنّني سأوجز الكلامَ هنا إيجازاً فقط في جمعيةِ الاتّحاد والترقّي المنبثقة من حركةٍ تركية الفتاة، تلك الحركةِ التي كانتِ العاملَ الهَدّامَ في الإمبراطورية العثمانية والُمحرِّكَ الأوّلَ لخَلْعِ السلطان عبدِ الحميد، لأنّ السلطانَ عبدَ الحميد أبى أن يُفرِّطَ بشيء من حقوق العربِ والإسلامِ في فلسطين.

كان في الإمبراطورية العثمانية، وفي شِبه جزيرةِ البَلْقان خاصّةً ثمّ في مدينةِ سلانيكَ على الأخصّ، جماعاتٌ من الدونما. والدونما (المرتدّون) يهودٌ يَتَسَمَّوْنَ بأسماء إسلامية ويتظاهرون بشعائرِ الإسلام ثمّ يَكيدون للإسلام وللدولة العثمانية كُلّما سنحتْ لَهُمُ الفرصة. هؤلاء الدونما في الإمبراطورية العثمانية يُشْبِهون المنافقين الذين كانوا يُبْطنون الكُفْر ويُظْهِرون الإسلامَ في أيامِ الرسولِ صلّى الله عليه وسلّم، وقد كان هؤلاء أيضاً من اليهود. ولقد توصّل أولئك الدونما إلى مراكزَ ساميةٍ في الحكومة وفي الجيشِ ثمّ استطاعوا أيضاً أن يَنْفُذوا - بطريقةٍ من الطرق وعلى شكلٍ من الأشكال - إلى قصرِ السلطانِ عبدِ الحميد.

بين هؤلاء الدونما نشأتْ في سالونيك «حركةُ الأتراك الشُبّان» التي عرفت في اللغة العربية باسم «جمعية تركية الفتاة». وقدِ استطاعتْ هذه الحركةُ أن تنفُذَ إلى الجيش. والواقعُ أنّ «تركيّة الفتاة» لم تكن جمعيّة، بل كانتْ حركةً نشأ منها عددٌ من الجمعيّات. ومَعَ أنّ نشأة هذه الحركة تَرْجِعُ إلى السَنَواتِ الأخيرة من القرن التاسعَ عَشَرَ فإنّها لم تظهَرْ ولم تكتسبْ قوّةً فَعّالةً إلّا نحو عام ١٩٠٧.

وكانتْ مِصْرُ مركزاً مُهِمّاً لحركة تركية الفتاة في العالم العربي، ذلك لأنّ بريطانيةَ التي كانت تحتلُّ مِصْرَ سَمَحَتْ لأتباعِ هذه الحركة بالقيامِ بنشاطِهم

مكشوفاً فأنشأوا (عام ١٨٩٩) مطبعةً لنشرِ جريدة اسمُها «القانونُ الأساسي» غايتُها نَشْرُ الدعوةِ إلى هذه الحركة.

في عام ١٩٠٢م اجتمع في باريسَ طائفةٌ من أتباعِ هذه الحركةِ وعقدوا مؤتمراً عامّاً. ولكنّ الآراء افترقتْ في الموقفِ من الإصلاحِ المطلوب ومن طبيعة مُستقبَلِ الحياة السياسية في الإمبراطورية العثمانية. هنا انقسَمَ الأعضاء قِسْمَيْن: أمّا الأتراك فأنشأوا رابطةَ (جمعيّة) الاتّحاد والترقّي، وقد كانوا مُتشدّدينَ في الاتّجاه القوميّ راغبينَ في تتريكِ شُعوبِ الإمبراطوريّة. وأمّا غيرُ الأتراك (من العرب وغيرهم) فسَمّوا أنفُسَهم «حزبَ اللامركزيّةِ الإداريّةِ العثمانيّ» ولقد كان هؤلاء مُعتدلين في اتّجاهِهِمْ يُريدون البقاء في الإمبراطورية العثمانية، على أن يكونَ لكلّ مقاطعةٍ غير تركيةٍ نظامٌ إداريٌّ خاصٌّ في ما يتعلّقُ بالضرائبِ وعلى أن تكونَ لُغةُ كلّ مقاطعةٍ لغةً رسميّةً في المقاطعةِ نفسِها إلى جانبِ اللغة التركية.

ويُقالُ إنّ مصطفى كمال - الذي أصبحَ فيما بعدُ الرئيسَ الأوّلَ للجمهورية التركية - كان مُتّصلاً بحركة تركية الفتاة (ومصطفى كمال هذا من سلانيك، ويَغْلِبُ على الظنّ أنّه من الدونما) وأنّه أنشأ، لمّا كان في حاميةِ دِمَشْقَ (الشام)، عام ١٩٠٦، جمعيّةً سمّاها «وطنوحرّيتجمعيّتي» وجمع لها أعضاء من بيروتَ ويافا والقُدس. وقيل أيضاً: بل كان مصطفى كمال عُضواً في هذه الجمعية التي كان لها فروعٌ في أماكنَ مختلفةٍ ومنها سالونيك.

واختمرتْ في رؤوس نَفَرٍ من أتباع هذه الحركة فكرة مؤامرة يُطيحونَ بها بالسلطانِ عبدِ الحميد الثاني. كان على رأس هذه المؤامرة أنور بك (المُلحق العسكري في برلين) وأحمد نِيازي (وكان مقدّماً في الجيش). وكان مع أنور

ونيازي رجلٌ آخرُ اسمُه طلعتُ كان عاملَ تلغراف) وكان يساعِدُهما في تنفيذ خُطَطِهما. هؤلاء المتآمرون أطلقوا على أنفسِهم اسمَ «لجنة (حزب) الاتّحاد والترقّي» «ثمّحصلوا على مساعداتٍ مالية من الدونما من أهلِ مدينةِ سلانيك (سالونيك). ثم إنّ هؤلاء تظاهروا بالمطالبةِ بإعلان دُستورِ مِدْحت باشا الذي كان السلطانُ عبدُ الحميد قد أعلنه، سَنَةَ ١٨٧٦ م، ثمّ عَلّقه في العام التالي. بعدئذٍ جعل هؤلاء يُنادون بإلغاء الفوارقِ الطبقية والدينية والجنسية في الإمبراطوريّة العثمانية اعتقاداً منهم أن ذلك يستميلُ النصارى في الإمبراطوريّة العثمانية إلى حَرَكَتِهم. ولكنّ جمعيّة الاتّحاد اتّبعتْ في اتّجاهها سِياسَتَيْن: سياسةً إسلامية (في البلاد العربية من الإمبراطورية العثمانية) وسياسةً طورانية (في البلاد التركية) كان هَدَفُهُمُ الأصيلَ من حركتهم هذه أن يرْجِعوا بها إلى خصائصِ أسْلافِهِمُ الطورانيّين (من سُكّان التركستان في أواسطِ آسية) قبلَ دخول التُرْكِ في الإسلام. وكانتِ السياسة الطورانية تَحْمِلُ عِداءً للإسلام ولسائر القوميّات غيرَ قوميَّتِهِمْ. لقد كانوا بهذه السياسة يُريدون تتريكَ الإمبراطورية بأن يفرُضوا اللغةَ التركية وحدَها على جميع شعوب الإمبراطورية ثمّ يَصْبغوا تلك الشعوبَ كلَّها بالثقافة التركية. ثمّ إنّهم توصّلوا بالدسائسِ والتهويلِ والتهديدِ وبالاغتيال أحياناً إلى السيطرة على مناصبَ كثيرةٍ في الدولة.

فلمّا انكشفتْ هذه الحركةُ المتطرّفة لشعوب الإمبراطورية انفلتَ العربُ خاصّةً إلى حركةٍ عربيةٍ متطرّفةٍ في الدعوة إلى القومية العربية الجاهلية ـ كأنّما كان نَفَرٌ من العرب المُسلمين يُريدون رَجْعَةً إلى الوثنية الجاهلية لأنّ الدونما (يهود الأتراك) أرادوا أن يردّوا المسلمين الترك إلى الوثنية ـ. من أجل ذلك نشأتْ جمعيّاتٌ عربية كانتْ في الواقع ردّة فعلٍ لجمعية «تركية الفتاة». من

هذه الجمعيّاتِ التي كان بعضُها عربيّاً متطرّفاً كما كان بعضها مُعتدلاً: جمعيّة الإخاء العربي ـ المُنتدى الأدبي ـ الجمعيّة القَحْطانية ـ العَلَم الأخضر ـ العهد ـ الجمعية الإصلاحية (وهي مسيحيّة، أنشئت عام ١٩٠٩) ـ جمعيّة البصرة الإصلاحية ـ جمعية الإخاء العربي العثمانيّ ـ النهضة اللبنانية (وكانت تطالب بالاحتلال الفرنسي) النادي الوطني العلمي ـ جمعيّة الناطقين بالضاد (وهي جمعيّة نشأتْ عام ١٩٠٩). ثمّ إنّ الطلاّب العرب في باريس بدّلوا اسمَها، عام ١٩١١، وجعلوه «الجمعية العربية الفتاة» وكانت تعرف اختصاراً باسم «الفتاة»، (وقد كان جميع أعضائها من المسلمين). ثمّ إنّ مُعْظَمَ هذه الأحزابِ والجمعيّات انضمّتْ إلى حِزب اللامركزية الإدارية العثمانيّ.

وبينما كان الدونما ـ أعداء الإسلام والعرب ـ يجمعون جُهودَهم كلَّها في جمعيّة واحدةٍ ذاتِ فروع على نظامٍ معلومٍ وهَدَفٍ معيّن كان العربُ يؤسّسون الأحزابَ والجمعيّات التي تَتّجهُ إلى كلّ جهة وتَتَخَبّطُ في الأهداف على غير هُدىً. أليس هذا ما يفعلونه اليومَ أيضاً بعدَ سَبعينَ عاماً كان نِصْفُها كافياً لأن يجعَلَ من عددٍ من شعوبِ العالمِ أُمَماً عظيمةً مرهوبةَ الجانبِ!

ـ خلع السلطان عبد الحميد:

في أواسطِ عام ١٩٠٨م (١٣٢٦ للهجرة) وجد الاتّحاديّون (أعضاء حزب الاتّحاد والترقّي) في أنفُسِهِمُ القُوّةَ على البدء في تنفيذ مأرَبِهِمُ الأكبر، وهو إضعافُ الدولةِ العثمانية المسلمة، ولكنّهم ظلّوا يُخفون هذا المأربَ وراء الحِرْصِ على إعلانِ الدستور وعلى مَنْحِ الحُرّيّة لشعوب الإمبراطورية. وفي شهر تَمّوزَ اسْتَبَقوا الأحداثَ ونادَوْا بإعلانِ الدستور من جانبِهِم في مدينة سَلانيكَ ثمّ كتبوا إلى السلطان عبدِ الحميد بأن يُقِرَّهم على عَمَلِهم وأن يُعْلن عودةَ الدستور من العاصمة؛ فإن لم يفعلْ فإنّهم يَزْحفون حينَئِذٍ على العاصمة.

وكذلك أوعز الاتّحاديّون إلى طوائفَ من أنصارِهِمْ في عددٍ من المُدن مثل أُسكوبَ ومُناستيرَ (وهما اليومَ في يوغوسلافية، واسْمُهما: سكوبليا وبيتوليى) بأن يُبرقوا إلى السلطان بهذا المعنى. فأمرَ عبدُ الحميد بإعلانِ الدستور ودعا إلى انتخاباتٍ نيابيّةٍ في أقطارِ الإمبراطورية ومَنَح «الحرّيّة» لرعاياه جميعاً، في الرابع والعِشرينَ من تموز من عام ١٩٠٨م.

ما كان نَبَأ إعلانِ الدستور ومَنْحِ الحرّية ينتشرُ في البلاد حتّى قام العرب بالاحتفال بذلك اليومِ الأغرِّ بالأصواتِ والألوانِ والأنوار ثم جاوزوا ذلك إلى الرقص في الشوارع والأسواق وتقبيلِ بعضِهِمْ بَعْضاً حتّى قال الشاعرُ المُهاجرُ أسعدُ رُسْتُم[1] قصيدةً شعبيةً استعملَ فيها عدداً من الكَلِماتِ العاميّةِ من غير أن يترُكَ فيها الإعراب مطلَعها:

بلديّـــةُ بيـــروتَ انتحستْ، بَطِرَتْ من كَثْرة ما لَحَسَتْ[2]
ومَطالبَ أهليهـــا رَفَسَتْ، وأبتْ للحـــالِ استبـــدالا
أفذلك حقٌّ؟ لا لا، لا لا!

وفيها:

أفَمَا عَبَطَ الشيخُ الخوري مِنْ بعدِ مَجيءِ الدُّستور[3]،
وأقـام له الشعبُ السـوري عيداً نفخوا فيه البُـورى[4]؟
أفذلك حقٌّ؟ لا لا، لا لا!

ومنها:

(١) أسعد رستم (١٨٧٠ - ١٩٦٩م) شاعر لبناني فكاهي عاش مدّة في الولايات المتّحدة.
(٢) لحست (أخذت أموالاً بطرق غير شرعية).
(٣) عبط (عانق). - كان إعلان الدستور العثماني (الحريّة) ١٩٠٨م.
(٤) البوري (مزمار من نحاس للجنود) - نفخ البوري (كناية عن الفرح).

رَمَضـانُ وداغـرُ شهمـانِ؛ وحياةِ أمين الريحاني[1]،
ما بينَ الأوّلِ والثـاني فـرقٌ إلّا بـالأديـان!
أفذلك حقّ؟ لا لا، لا لا!

وقد كان أسعدُ رستم مُصيباً في «التوريات» التي استخدَمَها في قصيدتِه، فإنّ جميعَ تلك المظاهرِ التي رافقتْ نشرَ الدُستور العثمانيّ وإعلانَ الحُرّيةِ العثمانية مظاهرُ كاذبةٌ لا مُحَصَّلَ تحتَها. فلا الشيخُ «قبّل» الخوري، ولا الخوري «قبّل» الشيخَ فَرَحاً بالدستور والحُرّية. وإنّما كان عَمَلُهما نوعاً من اللياقات التي تعوّدها العرب في تاريخِهِمُ الحديث يأتونها ولا يَقْصِدونها. ألا نرى كلّ يومٍ في صُحُفِنا مُلوكاً وحُكّاماً ورؤ ساءَ وزعماءَ يُعانِقُ بَعْضُهُمْ بعضاً ثمّ يطبَعُ بعضُهم على وَجَناتِ بعضٍ قُبُلاتٍ كثيرةً وفي صُدورِهِمْ ما اللهُ به عليم!

لقد أخطأ العربُ في ذلك الحين - كخَطَئِهِم إلى اليوم - باتّباعِ عواطِفِهِمْ في أمورٍ لا مجالَ فيها للعواطف (هذا إذا كان للعواطف في شيء من أشياءِ الحياة مجالٌ صحيحٌ أو أثرٌ محمود!). في تلك المناسبة قال أمينُ سعيدٍ[2] في كتابه «الثورةُ العربية الكبرى[3]»:

«ما كان اغتباطُ العرب الدستوريّ الجديد يَقِلُّ عن اغتباطِ التُـرك، فقـد مـلأوا الجوّ هُتـافـاً وصِيـاحـاً، وَنَـظَمَ شعـراؤهم القصـائـدَ وحَبّـرَ كتّـابُهُمُ المقالاتِ في التغنيّ بمـزايـا العهـد الجـديـد. ثمّ انضمّ رجـالُهم ومُفكّـروهم إلى الاتّحـاديّـين

(١) كانت بيروت مقسومة قسمين غربيّاً وشرقيّاً. وكان أحد آل رمضان (المسلمين) رئيساً للبلدية (للمنطقة الغربية) وأحد آل داغر (الروم، الموارنة؟) رئيساً للبلدية (للمنطقة الشرقية). وأمين الريحاني (ت ١٩٤٠م).
(٢) أمين بن محمّد سعيد (ت ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م).
(٣) طبع في القاهرة (مطبعة عيسى البابي الحلبي) بلا تاريخ.

مُوالين ومُؤيِّدين لاعتقادهم أن دولَتَهُمُ (العثمانية) ستُجَدِّد شبابَها وتستردَّ مَقامَها، وأنّ أُمَّتَهُمُ (العربيةَ) ستُنْصَفُ وكرامتها ستُصان. . . و(لكنْ) تحوّلَ الحالُ حينما بَدَرَتْ بوادرُ الخِلاف العُنْصريّ، وظهر أنّ الاتحاديّين يسيرون على سياسةٍ قوميةٍ سُداها ولُحْمَتُها تعزيزُ الجامعةِ الطورانية وتأييدُها، . . . فتخلّى عنهم (عن الاتّحاديّين) مُعْظَمُ نُوّاب البلاد العربيةِ وأنشأوا «كُتلةً» مستقلّةً اتّحدتْ مَعَ نوّاب الألبان والأرمن والكُرد وبعض التُرك من مُعارضي الاتّحاديّين . وقدِ انبثقَ عنها (عن هذه «الكتلة») حزب الائتلاف العثمانيّ . . . وتألّفت في خِلالِ هذه الفَترةِ جمعيّاتٌ عربية عديدةٌ في الآستانة (استانبول) والقاهرة وبيروتَ ودِمَشْقَ وبَغدادَ لتعزيز شأن العرب والمطالبة بحقوقهم ومُساواتهم بالتُرك (ثمّ) اقتداءً بهؤلاء (الاتّحاديّين المُتطرّفين في تعزيز الجامعة الطورانيّة) في تعزيز قوميّتهم. فأثّرت هذه الجمعياتُ أثراً بليغاً في تكوين الرأي العامّ العربيّ، وإليها يَرْجِعُ مُعْظَمُ الفضلِ في إنشائه (إنشاء الرأي العام العربي) وإعداده بالتعاوُنِ مَعَ الصحافة العربية في مِصْرَ والشام والعِراق والآستانة . . .» .

وفي شَهْرِ نَيْسانَ (ابريل) من عامِ ١٩٠٩ كَشَفَ الاتحاديّون عن وُجوهِهِمْ ـ وقدِ استوتْ القوّةُ في أيْديهم ـ فسار منهم قِطعةٌ من الجيش من مدينة سلانيكَ نفسِها (المدينةِ التي يكثُرُ فيها الدونما والماسونيّون) بقيادةِ حُسين حسني ومَعَه مصطفى كمال رئيساً لأركان الحرب، فاستطاع محمودُ شوكت باشا أن يدخُلَ إلى العاصمة بعدَ مناوشةٍ يسيرة. وفي السادِسِ والعِشرينَ من نَيْسان أعلن الاتّحاديّون خَلْعَ السلطان عبدَ الحميدِ، ثمّ حملوه أسيراً إلى مدينة سلانيك. فلمّا سقطت مدينة سلانيك، عامَ ١٩١٢، في يد اليونانيّين (في الحرب البلقانية) نُقِلَ عبد الحميد إلى استانبول ثمّ حُمِلَ إلى

بلدةِ مِنِيسيا (مغنيسيا: في غربيّ آسية الصُغرى، على خطّ يَمُرُّ في استانبول إلى الجَنوب). وبَقِيَ السُلطانُ عبدُ الحميد الثاني أسيرَ الاتّحاديّين في منيسيا حتّى أدْرَكَتْهُ فيها الوفاةُ في السابعِ والعِشرينَ من ربيعٍ الثاني من سَنَةِ ١٣٣٦ (١٠/٢/١٩١٨م).

سبب خلع السلطان عبد الحميد الثاني

نشرَ الأستاذُ سعيدُ الأفغانيُّ في مجلّة «العربي» مقالاً عُنوانُه: «سببُ خلْعِ السُلطانِ عبدِ الحميد» أوردَ فيه نصّاً لوثيقةٍ عليها إمضاء عبدِ الحميد الثاني. في هذه الوثيقةِ ذكرٌ صريحٌ للصِلة بين خلعهِ على أيدي رؤساء حزبِ الاتّحادِ والترقّي ورفضِهِ التفريطَ بشيء من حقوقِ الإسلامِ والمسلمين في فلسطين. (يغيب عنّي الآن تاريخ هذا العدد من مجلة «العربي»).

ـ تيودود هرتسل والصهيونية:

تيودور هرتسل يهوديٌّ مَجريّ (هُنغاريّ) وُلِدَ في بودابَسْت (عاصمةِ المَجَر) عامَ ١٨٦٠م وتوفّي في أدْلاخ (إحدى قُرى النمسا) عام ١٩٠٤م. وهو مُنشيء الحَرَكةِ الصهيونية وصاحبُ فكرة الدولة اليهودية والداعي إلى عقد المؤتمر الصهيونيّ الأوّل في باسل (في سويسرة) عام ١٨٩٧م.

بعدَ مؤتمر باسل اتّصل نفرٌ من اليهود كان فيهم هرتسل بالسلطان عبدِ الحميد الثاني وطلبوا منه السماحَ بإنشاء وطنٍ قوميٍّ لليهودِ في فِلَسْطينَ ثمّ عَرَضوا عليه في مُقابلِ ذلك:

١ ـ أنّ إنشاء دولةٍ يهودية في فلسطين يُساعدُ على القضاء على الحركة

القومية العربية (لعِلْمِهم بأن السلطان عبد الحميد كان يكره جميعَ الحَركات التي يمكن أن تُؤدّي إلى تجزئة الإمبراطورية العثمانية أو إلى إضعافها).

٢ ـ تسديدَ الديونِ العمومية، أي وفاء مِائَتَيْ مِليونِ ليرةٍ استرلينيّةٍ ذَهَباً كانت للدول الأجنبية على الدولة العثمانية.

٣ ـ هبةً شخصيةً للسلطان عبد الحميد مقدارها مائةٌ وخمسونَ مِليون ليرةٍ عُثمانيةٍ ذَهَباً.

ولكنّ السلطانَ عبدَ الحميد الثاني رَفَضَ إمكانَ البحث في هذا الطلب بقَطْعِ النظر عن كلّ ما أُحيطَ به هذا الطلبُ من المُغْريات للبَشَر العاديّين. ومن حُسنِ الحظّ أنّه قد بَقِيَ من الماضي القريب وثيقةٌ عليها إمضاء السلطان عبد الحميد الثاني تَكْشِفُ المَظْلمة عنه وعن الدولة العثمانية ثم تُنير للمؤرّخ الباحثِ ناحيةً من النواحي الكثيرة المظلمة في قضيّةِ فلسطين. فلعلّ شُبّانَنا الأغرّاء الذين حُملوا على تَخَيُّلِ صورةٍ مُشوّهةٍ للدولةِ العُثمانية عامّةً وللسلطان عبدِ الحميد الثاني خاصّةً بما كان قد ألقاه على أسماعهم وأقرّه في نُفوسهم معلّمونَ ومؤلّفون جَهلوا رسالةَ التعليم والتأليف أو خانوها ابتداء من عِندِ أنفسهم أو نقلاً غَبيّاً من كتب المبشّرين والمستعمرين ـ فنَقَلوا من كُتُبِ المُبشّرينَ والمستعمرين أشياءَ يعتقدونها أو لا يعتقدونها ـ أن يَرجِعوا إلى شيء من الصواب والحق.

هذا الجانبُ الذي أُحِبُّ أو أُوردَ صورتَه هنا يَرِدُ في مَقْطَعٍ من رسالةٍ كتبها السلطانُ عبدُ الحميد الثاني في الثاني والعِشرينَ من أيلولَ مِنْ سَنَةِ ١٣٢٩ هـ (١٩١١م) إلى شيخِه (في الطريقةِ الشاذلية اليَشْرُطيّة ـ إحدى الطُرُقِ الصوفية المتأخّرة) الشيخِ محمودِ أبي الشامات الدِمَشْقيّ (ت ١٣٤١ هـ = ١٩٢٢ م).

قال السلطانُ عبدُ الحميد الثاني في هذه الرسالة:

«. . . إنّني لم أتَخَلَّ عنِ الخلافة الإسلامية لسببٍ ما، سوى أنّني ـ بسبب المضايقة من رؤساء جمعيةِ الاتّحاد المعروفة باسم جون تورك وتهديدِهم ـ اضْطُرِرْتُ وأُجْبِرْتُ على تَرْكِ الخلافة.

«إنّ هؤلاء الاتّحاديّين قد أصرّوا ـ وأصرّوا عليَّ ـ بأنْ أُصادقَ على تأسيس وطنٍ قوميّ لليهود في الأرض المقدّسة (فلسطين). ورُغْمَ إصرارِهم فلم أقبلْ بصورةٍ قطعية هذا التكليفَ، وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مائةً وخَمسينَ مليونَ ليرةٍ إنكليزيّة ذهباً، فرفضتُ هذا التكليفَ بصورة قطعية أيضاً، وأجَبْتُهم بهذا الجواب التالي:

«إنّكم لو دفعتُمْ مِلءَ الأرضِ ذهباً ـ فضلاً عن (١٥٠) مِائَةٍ وخمسينَ مليونَ ليرةٍ إنكليزية ذهباً ـ فلن أقبلَ بتكليفِكم هذا بوجهٍ قطعيّ. لقد خَدَمْتُ المِلّة الإسلامية والأمّةِ المُحمّدية ما يزيدُ على ثلاثينَ سَنَةً فلم أُسَوّدْ صحائفَ المسلمين آبائي وأجْدادي من السلاطينِ والخُلفاء العثمانيّين!! . لهذا لن أقبلَ تكليفَكم بوجهٍ قطعي أيضاً.

«وبعدَ جوابي القطعي ـ اتّفقوا على خَلْعي وأبلغوني أنّهم سيُبْعِدونني إلى سلانيك. فقَبِلْتُ بهذا التكليف الأخير . . .».

ويُقالُ إنّ نَفَراً من الذين دخلوا على عبدِ الحميد يومَ خَلْعه عامَ ١٩٠٩ م، كانوا مَعَ هرتسل يومَ دَخَلَ عليه هرتسل، عامَ ١٨٩٧ م، يساومُهُ على وطنٍ قوميٍ لليهود في فلسطين.

تلك قصّةٌ واحدةٌ من قِصصِ الأحزابِ الكثيرةِ في الإمبراطورية العثمانية.

شريف مكّة الحسين بن عليّ :
الثورة العربيّة وفلسطين

إنّ «تجديدَ التاريخ»، فيما يتعلّقُ بثورة شريفِ مكّةَ الحسين بنِ عليٍّ خاصّةً، معناه أن نخرُجَ في كتابة التاريخ من الإنشاء إلى البَحْث (أي من فَوْرة العاطفةِ إلى رَصانةِ العلم)؛ ومعناه الخُروج من عالَمِ الأماني إلى عالَمِ الواقع (أي من تخيُّلِ ما نريدُ الحصولَ عليه إلى التبصُّر في ما نحن فيه)؛ ومعناه أن نخرُجَ ممّا أرادَ غيرُنا أن يُلْهِيَنا به عن حقيقةِ أمرنا إلى ما يَجِبُ أن نقومَ به نحن (أي التخلُّص من الحبائل التي يريدُ عدوُّنا أن يَنْصِبَها لنا إلى التخطيط الذي يجِبُ أن نقومَ به نحن لأنفسنا في سبيل ذُرّيّتنا وأُمّتنا وبلادِنا)؛ ومعناه أن نرتَفِعَ في تَدْوين التاريخ من حَضيض السَرْدِ البدائيّ للقِصّة الظاهرة إلى مِعْراجٍ من معارجِ النَظَر الدقيق في الأسباب والنتائج؛ ثم معناه، فوقَ هذا كلّه أن نكتُبَ نحن تاريخَنا لا أن نَسْتَمْلِيَ مِنْ غَيْرِنا - ومن عدُوّنا خاصّةً - ذلك التاريخَ الذي يريدُ هو أن يُلَقِّقه!.

ويحسُنُ، قبلَ أن نَصِفَ ثورةَ الحُسين بن عليٍّ وَصْفاً جديداً، أن نَسْتَعْرِضَ عدداً من الحقائق التي وَرَدَتْ في مُراسلاتٍ جرَتْ بينَ شريفِ مكّةَ الحُسين بن عليّ وبينَ السير هنري أرثر مكماهون نائب جلالةِ المَلِك (ملك الإنكليز) في مِصْرَ. ولكن يجب قبلَ ذلك أيضاً أن نُشير إلى المُلاحظاتِ التالية:

أ - إنّ هذه الرسائلَ ليست وثائقَ بالمعنى المعروفِ في «نقدِ التاريخ»، لأنّها ليستِ النَّص الحرفيَّ، لا لرسائلِ مكماهونَ إلى الحُسين ولا لرسائلِ الحسين إلى مكماهون. أمّا رسائلُ مكماهون إلى الحسين فكانتْ تُوضَعُ أوّلاً باللغةِ الإنكليزية ثمّ يُنْقَلُ منها نُسخةٌ إلى اللغة العربية بتصرُّفٍ مُثْقَلٍ بألفاظِ التَبْجيل في كلّ سطر منها وبالنَقَراتِ العاطفية التي تُلهي القاريء عن حقيقةِ ما يمكن أن تؤدّيَ إليه التعابيرُ المدوَّنَةُ.

ب - إنّ هذه الرسائلَ مأخوذةٌ من مجموعِ أصْدَرَتْهُ وزارةُ الخارجيّةِ البريطانيةُ، لأنّ الحسين - فيما يبدو - لم يَحْتَفِظْ بالرسائلِ التي تَسلَّمَها ولا بِنُسَخٍ للرسائلِ التي وجّهَها.

جـ - إنّ مكماهون كان في الحقيقة «مُحرّراً» للرسائل، ولم يكُنْ كاتبَ تلك الرسائلِ ولا كان مسؤولاً عمّا تحتوي: كان يتناوَلُ الرسالةَ من وزارةِ الخارجيّةِ البريطانيةِ باللغة الانكليزيةِ طبعاً فيأمُرُ بنَقْلها إلى اللغةِ العربية نقلاً عاماً غائماً، كما يبدو من المُناقشات التي تَلَتْ في السِنينَ العِشرينَ بعدَ الحرب العالميةِ الأولى، ومن التفاسيرِ التي أصْدَرَتْها الحكومةُ البريطانيةُ لِعَددٍ من الفِقْراتِ المُهمّة من رسائِلها هي بعدَ الإشارة إلى النصّ الأصلي باللغةِ الإنكليزية لا إلى النص العربيّ الذي «حُرِّرَ» للشريفِ حسينٍ بأسلوبٍ هازيء ماكر، ولكن على وجهٍ يُرْضي غُرورَ الرجلِ العاديّ السليمِ الصَدْرِ. من ذلك مثلاً[1]:

(١) من «الوثائق الرئيسية في قضيّة فلسطين» المجموعة الأولى، أصدرتها جامعة الدول العربية (الأمانة العامّة - إدارة فلسطين: الشعبة السياسية)، القاهرة (مطابع جريدة الصباح) ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٧ م. هذه المجموعة ضمّت عدداً يسيراً من الوثائق: بضع رسائل متبادلة بين الحسين بن علي وبين هنري أرثر مكماهون - صكّ الانتداب على فلسطين - إتفاقية فيصل ووايزمن في ما يتعلّق بمستقبل فلسطين (والغالب أن فيصلاً قد عقد هذه الاتفاقية نيابة عن أبيه الحسين بن=

إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمّدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيّد بن السيّد والشريف بن الشريف السيد المبجّل دولتلو الشريف حسين سيّد الجميع أمير مكّة المكرّمة قبلة العالمين ومحطّ رجال المؤمنين الطائعين عمّت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيّات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كلّ شائبة نَعْرِضُ أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهار عاطفة الإخلاص وشرف الشعور والإحساسات نحو الإنكليز. وقد يسرّنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد وأن مصالح العرب هي نفس مصالح الإنكليز، والعكس بالعكس...

وأمّا من خصوص مسألة الحدود والتخوم **فالمفاوضة فيها تظهر سابقة لأوانها...**

أمّا الحسين فكان يكتُبُ رسائلَه باللغة العربية، فإذا وصلَتْ إلى مكماهون أمر بنَقْلِها إلى اللغة الإنكليزية حتّى تُرْسَلَ إلى وزارةِ الخارجية البريطانية. ولعلّه كان يُرْفِقُ كلَّ رسالةٍ بعَدَدٍ من المُلاحظات هي التي كانت تُعْتَمَدُ في وَزارةِ الخارجيةِ البريطانية. ولم تَكُنْ رسائلُ الحُسين إلى مكماهون - في أُسلوبها - أقلَّ بُعْداً عن مُقوّماتِ الوثائقِ التاريخيّةِ ولا أقلَّ دَلالةً على الطُفولة السياسية. فمن رِسالةٍ للشريفِ حسينٍ إلى مكماهون:

= عليّ. ثمّ ازدحمت هذه المجموعة بالتعليقات والتفسيرات وبتقاريرَ للجان التحقيق التي ذهبت فيما بعد إلى فلسطين للنظر في الاضطرابات التي كانت تقع بين العرب واليهود. ومع أنّ هذه التعليقات والتفسيرات والتقارير أيضاً مهمّة من الناحية الحقوقية، فإنّها من الناحية التاريخيّة لا قيمة لها البتّة، ذلك لأنّ هذه التعليقات والتقارير قد جاءت بعد أن كانت الأحداث التاريخية قد وقعت. وخطى التاريخ ليس لها آلة توجّهها إلى الوراء!

معالي الوزير الخطير الشهم الهمام - بأنامل الإبجال والتوقير تلقّينا رقيميكم ٩ صفر الجاري برفق حاملهم (كذا) وعلمت مضمونَيْهِما وأدخلا علينا من الانشراح والارتياح ما لا مزيد (عليه) لإزالتهما ما يختلج بصدري، ألا وهو وقوف حضرتك بعد وصول أحمد شريف وحظوته بالجناب بأنّ كلّما أتينا به في الحال والشأن ليس بنا شيء (كذا) من عواطف شخصية أو ما هو في معناها ممّا لا يعقل، وأنّها قرارات ورغائب أقوام وأنّا لسنا إلّا مبلّغين أو منفّذين لها بصفتنا التي ألزمونا بها إذ هذا عندي من أهم ما يجب وقوف شهامةِ الجناب عليه...

ولكن بما أنّنا لا نَمْلِكُ هذه الرسائلَ إلّا في هذا الشكل، فنحن مُضْطرّونَ - حتّى الحينِ الذي نستطيعُ فيه أن نحصُلَ على النصّ الأصليّ لهذه الرسائلِ - أن نَعُدَّ الرسائلَ في شَكْلِها الحاضرِ مراجعَ بمثابةِ مَصْدرٍ، وعلى الأخصّ إذا عَلِمْنا أن «تاريخ العرب الحديث» في الحَوْضِ الشرقيّ من البحر الأبيضِ المتوسّط قد جرى بِحَسْبِ ما في هذه الرسائلِ المشوَّهَةِ لا بِحَسْبِ ما أرادَ أصحابُها العربُ والإنكليزُ أن يكونَ فيها.

والآن حين الاستشهادِ بِفَقَراتٍ من هذه الرسائل[1] :

- من حسين إلى مكماهون: **٢٨ رمضان ١٣٣٣ (١٩١٥/٧/١٤م)**:

... وأودّ بهذه المناسبة أن أصرّح لكم ولحكومتكم أنّه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا لأنّه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة... (١ و ٦).

وفي المذكّرة الملحقة بالرسالة السابقة:

(١) من الرسائل الرئيسة في قضيّة فلسطين المذكورة آنفاً.

. . . أن تعترف إنكلترة باستقلال البلاد العربية من مرسين ـ أدنة[1] حتّى الخليج الفارسيّ شَمالاً، ومن بلاد فارس حتّى البصرة شرقاً، ومن المحيط الهندي للجزيرة جَنوباً ـ يُستثنى من ذلك عَدَن التي تبقى كما هي[2] ـ ومن البحر الأحمر والبحر المتوسّط حتّى سينا غرباً (١ : ٧).

. . . والشعب العربي . . . يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح. وإذا انقضت هذه المدّة ولم يتلقّ من الحكومة جواباً فإنّه يحفظ لنفسه حرّية العمل كما يشاء (١ : ٨).

ـ من مكماهون إلى الحسين ١٩ شوّال ١٣٣٣ (١٥/٨/٢٠):

. . . وأمّا من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنّها سابقة لأوانها وتصرف الأوقات سدى في مثل هذه التفاصيل . . . وعلى الأخصّ ما علمناه . . . أنّ فريقاً من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد مدّ يد المساعدة إلى الألمان . . . والأتراك (١ : ٩ ـ ١٠).

ـ من الحسين إلى مكماهون، ٢٩ شوّال ١٣٣٣ (١٩١٥/٩/٩ م).

. . . ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت له أنّ «البرودة» و«التردّد» اللذين ضمّنهما كتابه فيما يتعلّق بالحدود وقوله أنّ البحث في هذه الشؤون هو إضاعة للوقت . . . يدلّ على عدم الرضا أو على النفور أو على شيء من هذا القبيل . . .

. . . ولذلك سنطلب إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه

---

(١) أدنة بلدة في الجنوب الشرقي من آسية الصغرى قريبة من سورية. ومرسين مرفأ إلى الجنوب الغربي من أدنة.

(٢) أي مستعمرة بريطانية.

الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها[1] . . . فإنّ الشعب البيروتي لا يرضى قطّ بهذا الابتعاد والانزواء . . . ولا يمكن السماح لفرنسة بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة . . . (١ : ١١ ـ ١٢).

ـ من مكماهون إلى الحسين، ١٥ من ذي الحجّة ١٣٣٣ (١٩١٥/١٠/٢٦):

. . . إنّ ولايَتي مرسين وإسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة[2] في الجهة الغربية لولايات دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال إنّها عربية محضة. وعليه يجب أن تُستثنى من الحدود المطلوبة. ومع هذا وبدون تعرّض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب[3] نحن نقبل تلك الحدود . . . هذا وإنّ المفهوم أنّ العرب قد قرّروا طلب نصائح وإرشادات بريطانية العظمى وحدَها وأن المستشارين والموظّفين الأوروباويّين اللازمين لتشكيل هيئة إدارية قويمة يكونون من الإنكليز[4] (١ : ١٤ ـ ١٥).

ـ من صكّ الإنتداب على فلسطين (وضع ٢١/٧/٦، صودق عليه ٢١/٧/٢٤، وضع موضع التنفيذ ١٩٢٣/٩/٢٩ م):

في المقدّمة: . . . دول الحلفاء الكبرى قد وافقت أيضاً على أن تكون الدولة المنتدبة (بريطانية) مسئولة عن تنفيذ التصريح الذي أصدرته في الأصل حكومة صاحبة الجلالة البريطانية في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني سنة

---

(١) إقرأ: وأجزاء من بلاد الشام (سورية) واقعة (منصوبة على أنها نعت أجزاء).

(٢) ولايات: مناطق إدارية تشبه ما نسميّه اليوم محافظات.

(٣) شيوخ القبائل في عدد من مناطق شبه جزيرة العرب (على السواحل خاصّة) حيث كانت بريطانية قد عرفت بوجود بترول.

(٤) هذا يدلّ على أن بلاد العرب لن تكون مستقلّة بل تحت الانتداب البريطاني (مبدئياً).

١٩١٧ [١] وأقرّته الدول المذكورة لصالح إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن يُفْهَمَ جَليّاً أنّه لن يُؤتى بعمل من شأنه أن يَضير بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتّع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة الآن في فلسطين [٢] أو بالحقوق وبالوضع السياسيّ ممّا يتمتّع به اليهود في أيّة بلاد أخرى [٣].

المادّة الرابعة: يُعترف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عموميّة لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معهما في الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثّر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكّان اليهود [٤] في فلسطين ولتساعد وتشترك في ترقية البلاد على أن يكون ذلك خاضعاً دوماً لمراقبة الإدارة.

. . . ويترتّب على الجمعية الصهيونية أن تتّخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة حكومة صاحب الجلالة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذي يبغون المساعدة في إنشاء الوطن القومي اليهودي.

- من اتّفاقية فيصل وايزمن [٥] (لندن: ١٩١٩/١/٣):

. . . عند إنشاء دستور إدارة فلسطين تتّخذ جميع الإجراءات التي

---

(١) وعد بلفور.

(٢) هذه الجملة تعني أن اليهود هم سكّان فلسطين (راجع بعد بضعة أسطر)، وأنّ العرب طوائف (جماعات غير منظّمة) اتّفق أن كانت موجودة في فلسطين.

(٣) هذا معناه أن اليهوديّ يصبح آلياً مواطناً في الدولة اليهودية في فلسطين من غير أن يخسر شيئاً من حقوقه السياسية في البلاد التي كان يسكنها (الولايات المتّحدة - بريطانية - ألمانيا - سويسرة، الخ).

(٤) راجع أوّلاً الحاشية الثانية. هذه الجملة أعطت اليهود في فلسطين، في أيام الإنتداب، حق الاشتراك في الحكم والإدارة (ممّا لم يكن حقّاً للعرب). لأنّ العرب في نصّ صكّ الانتداب ليسوا سكّاناً في البلاد (ليسوا من أهل البلاد).

(٥) فيصل بن الحسين، وكان قد ذهب إلى لندن للمطالبة بعرش له في سورية.

من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرّخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ [١].

ويجب أن تُتَّخَذَ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدىً واسعٍ وللحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة. ولدى اتّخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب [٢] ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدّم الاقتصادي . . .

تقترح المنظّمة الصهيونية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيّات الاقتصادية في البلاد وأن تقدّم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها. وستضع المنظّمةُ الصهيونية اللجنةَ المذكورةَ تحت تصرّف الدولة العربية بقصد دراسة الإمكانيّات الاقتصادية في الدولة العربية [٣] وأن تقدّم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها. وستستخدم المنظّمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانيّات الاقتصادية في البلاد [٤].

إذا نحن درسْنا المُراسلاتِ التي دارتْ بينَ الحُسينِ ومكماهون دِراسةً إيجابيةً دقيقةً رأيْنا أنّها تنكشفُ عن أشياءَ منها:

---

(١) وعد بلفور لإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين.

(٢) معنى هذا: أن السكّان العرب أصحاب المزارع سيكونون مستأجرين عند اليهود، لأنّ الأرض نفسها (وكلّها) ستعطى لليهود.

(٣) معنى هذا: أن الإدارات المختلفة في الدول العربية سيجعل رؤساؤها من اليهود (فيصبح اليهود هم المنتدبين أو المستعمرين للبلاد العربية).

(٤) معنى هذا: أن المرافق الاقتصادية في البلاد العربية (الصناعة والتجارة، الخ) ستكون بإشراف اليهود.

أ ـ أن الإنكليز كانوا يُخاطبون حُسيناً بأمورٍعامّةٍ ثمّ يُشيرون إشاراتٍ عارضةً إلى عددٍ من غاياتِهِمُ التي يبدو أنّهم قد كَتَموها في أولِ الأمرِ عن الحُسين ثمّ صرّحوا له بِبَعْضِها شِفاهاً لا كِتابةً. ففي رِسالةِ مكماهون إلى الحُسين[1] مقطَعٌ هُوَ:

«إنّي مُرْسِلٌ خِطابي هذا مَعَ رسولِكُمُ النبيلِ الأمينِ الشيخ محمّد بن عارفِ بن عُريفانَ. وسيَعْرِضُ على مسامِعِكُمْ بعضَ المسائلِ المفيدةِ التي هِيَ من الدرجةِ الثانيةِ مِنَ الأهمّيّة ولم أذْكُرْها في كتابي هذا».

ب ـ إنّ معاهدةَ سايكس ـ بيكو السريّةَ عقدت في عامِ ١٩١٦، ولا ريبَ في أن طَرَفاً مُهماً في هذه المُعاهدة قد أفْصَحَ الإنكليزُ عنه للشريفِ حسينٍ (من غير أن يُخبِروه بوجودِ المعاهدةِ صَراحةً). وهذا ظاهرٌ في ما كتب مكماهونُ إلى الشريفِ حُسينٍ في أمرِ فرنسةَ ومِنْطَقَةِ نفوذها في سُوريَةَ. والشريفُ حسينٌ قد وافَقَ على ذلك مَبْدَئياً في الوقتِ الراهنِ على أن يَرْجِعَ عن قبوله هذا بعدَ انتهاء الحرب[2].

جـ ـ إنّ وَعْدَ بلفورَ كان موجوداً في أثناء تَبادُلِ الرسائل بين الحُسين ومكماهونَ، ولكنّه أُعْلِنَ في ٢/١١/١٩١٧م. ثمّ إنّ اتّفاقيةَ فيصلٍ ووايزمن كانتْ في الشهر الأول من عام ١٩١٩، ثمّ أُدْخِلَتْ خلاصتُها في صكّ الانتداب[3] على فِلَسْطينَ (١٩٢٢م). من هذاكلّه يَجِبُ أن يَضِحَ أن الشريف حُسيناً كان على علمٍ صريحٍ بخُروجِ المناطِقِ التالية من الوَحْدة العربية المَرْجُوّة: سنجقِ الإسكندرون ـ مناطقِ البترول في شِبْهِ جزيرة العرب ـ

(١) الوثائق الرئيسية ١: ١٦.
(٢) مثله ١: ١٢ أسفل الصفحة.
(٣) المادّة الرابعة (أنظر فوق).

فِلَسْطين ـ شِبْهِ جزيرةِ سِيناء. وقد سَبَقَ أن رأيْنا أن هذه الملابساتِ كلَّها كانت واضحةَ المعالمِ في الرسائِلِ التي تبادَلَها الشريفُ حُسينٌ ومكماهونُ في عامِ ١٩١٥.

د ـ إنّ البلادَ العربيةَ في إفريقيَةَ لم يُشِرْ إليها الحُسينُ بنُ عليٍّ في مُراسلاتِه مَعَ مكماهون ولا هوذَكَرَها بِكَلِمَةٍ في مناسبةٍ ما، مَعَ العِلْمِ بأنّ مركزَ المُراسلاتِ كان في مِصْرَ! وليس في رسائلِ الشريفِ حُسينٍ إشارةٌ ما إلى المَغْرِبِ ولا إلى أحَدِ أقطارِ المَغْرِب.

ومَعَ هذا كلِّه ـ مَعَ المُساعدةِ الضئيلةِ التي كان الحُسينُ بنُ عليٍّ يَرْجوها مِنَ الإنكليز، ومَعَ التنازُلِ العظيمِ الذي قَبِلَ بهِ في ما يَتَعَلّقُ بحُرّيّةِ العَرَب وبوَحْدَتِهِمْ ـ فإنّ الحسينَ بنَ عليٍّ سِبْطَ خاتَمِ الأنبياء والطامعَ في خلافةٍ عربيةٍ على العالَمِ الإسلامي يُعْلِنُ الثورةَ على الدولةِ العُثمانية لِيَقِفَ بجانبِ الإنكليز. ولقد كانتْ طريقةُ إعلانِ الثورةِ العربيةِ طريقةً بَدْوِيّةً بدائيّةً فيها من الصورةِ الحَماسية كلُّ شيء ثمّ ليس فيها من القوّةِ الصحيحةِ شيء!

في صَباحِ يومِ السَبْتِ تاسعِ شَعْبانَ مِنْ سَنَةِ ١٣٤٤ (١٠/٦/١٩١٦م) وَقَفَ الشريفُ الحسينُ بنُ عليٍّ في قَصْرِه في مَكّةَ ثمّ أطلَقَ رَصاصةً على قشلاقِ التُرْكِ (ثُكْنة الجنودِ العثمانيّين) فكانتِ الإعلانَ الرسميَّ للثورة العربية الكبرى، كما كانتِ الإشارةَ التي اتّفق عليها (الشريفُ حسينٌ) بَيْنَهُ وبينَ رِجاله للبدء بالهُجوم، وقد كان رجالُه قد احتشدوا في مكانٍ مُجاورٍ[1].

* * *

إن المؤرّخَ بعدَ أن يدرُسَ الأحداثَ والمُلابساتِ المُتَعَلِّقَةِ بثورةِ الحسين

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١: ١٤٦-١٤٧.

ابن عليٍ على الدولةِ العثمانية مِثْلَ هذه الدراسةِ، أو دراسةً أوسعَ منها وأشملَ وأعمقَ، ثمّ يرى هذه الثورةَ تَقَعُ، فإنّ جميعَ ما سَبَقَها يبطُلُ حُكْمُهُ لأنّ التاريخ هو «سِلْسلةُ الوقائعِ في مكانٍ وزمانٍ». والمؤرّخُ لا يَدْرُسُ الأسبابَ إلّا إذا احتاجَ إلى فَهْمِ النتائج. أمّا إذا كانتِ النتائجُ مفهومةً بنَفْسِها فإنّ جميعَ الأسبابِ ترتَدُّ حِينَئذٍ إلى نِطاقِ الجَدَلِ النَظَرِيّ. ثمّ إنّ التاريخَ حَكَمٌ وليس قاضياً: إنّه يَفْصِلُ في ما وَقَعَ بما تَدُلُّ عليه الآثارُ التي تَرَتَّبَتْ على وقوعِ الحوادثِ ولكنه ليس مُضْطراً إلى سَماعِ حُجَجِ المُخْتَلِفِيْن في وقوعِ الحوادثِ، وليس عملُه أيضاً تطلُّبَ الأعذارِ لمن ساءتْ حُظوظُهم في مَيادينِ الحياة. حينما تنتهي مَعْرَكَةٌ من المعاركِ فالمنتصرُ في قاموسِ التاريخ هو الذين غَلَبَ، والمَغْنَمُ الماديُّ والوَجاهةُ المعنويةُ يكونانِ حينئذٍ للغالبِ وحدَه.

لِنُوجِزِ الآنَ قَضِيَّةَ شريفِ مكّةَ الحسينِ بن عليٍّ:

ماذا الذي أرادهُ الحسينُ بنُ عليٍّ من ثورتِه، وماذا الذي نُتِجَ من ثورته؟

لقد أراد[1] إنقاذَ المُسلمينَ (في الدولة العثمانية) عامّةً والعَرَبِ خاصّةً من تسلُّطِ الاتّحادِيّينَ[2] على الدولةِ ومِنْ مُحارَبَتِهِمْ للإسلام من الداخل. ولمّا

(١) في منشور الثورة (راجع الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد، ١: ١٤٩ وما بعد.

(٢) في سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) نشأت في الدولة العثمانية حركة «تركية الفتاة» ظاهر دعوتها توحيد جميع رعايا الدولة العثمانية (وهم مختلفون في قوميّاتهم وأديانهم ولغاتهم) بأن يصطبغ الجميع بالصبغة الطورانية (التركية القديمة) في الثقافة واللغة وأن تكون إدارة الدولة مركزيّة مطلقة. وبدت هذه الحركة عنيفة ضيّقة الأفق. ففي سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٤ م) انبثق من هذه الحركة لجنة دعا أعضاؤها أنفسهم «جمعية الاتّحاد والترقّي» ثمّ عرف أتباع هذه الحركة اختصاراً باسم «الاتحاديّين». وكان معظم القائمين بحركة تركية الفتاة ثمّ بجمعية الاتّحاد والترقّي (أو معظم النافذين فيهم) من الدونمة (اليهود المتظاهرين بالإسلام من أمثال أنو باشا وطلعت بك. ويبدو أن هذه السلسلة من الدونمة قد استمرّت إلى اليوم. إنّ أعمال مصطفى كمال المتأخرة وأعمال نفر من أتباعه لا يمكن تفسيرها إلّا إذا نظرنا إليهم على أنّهم من الدونمه. (وكانت خالدة أديب زوجة مصطفى كمال - أتاتورك، فيما بعد - من الدونمة).

نَقَلَ الاتّحاديّون نشاطَهُمْ إلى الحِجازِ ابتغاء القَضاء على الإسلامِ في مَهْدِه لم يَبْقَ للحسين بن عليٍّ خِيارٌ إلّا في الثورة.

ويُوردُ الشريفُ الحُسينُ بنُ عليٍّ في «منشورِ الثورة» عَدَداً من القرائن الواضحةِ التي اشْتَهَرَتْ عن حُكْمِ الاتّحاديّينَ والتي أثارَتْ عَلَيْهِمُ النِّقمةَ العامّةَ بينَ المُسلمينَ عُموماً وخُصوصاً، من غير أن يستطيعَ تأويلَها. وقد قال هو نفسُه: «وأمّا نحنُ فكُنّا كُلّما سَمِعنا أو رأينا شيئاً من هَجَماتِهم على الإسلامِ ندفعُهُ بالتأويل[1] إلى أنْ أعيانا التأويلُ؛ وكُلّما عَلِمْنا بجِنايةٍ منهم على الدولةِ أو على العَرَبِ قلنا لعلّهُ ذنبُ عارضٍ يَرْجِعون عنه بعدَ قليلٍ[2]...».

فمن القرائنِ التي أَوْرَدَها الحسينُ بنُ عليٍّ في «منشورِ الثورة» ما يلي:

- كانوا يُظْهِرون حقداً على العَرَبِ واللغة العربية.

- أغرقوا في القَوْمية وفي مُعاداةِ الإسلام فكان[3] مَنْ يَنْتَقِدُ جَمْعِيّتَهم أو تَصرُّفَهُمْ يُعاقَبُ بالقتلِ والنَّفْيِ والسَجْنِ، وكان من يَطْعَنُ في الإسلامِ يُعزَّزُ ويُكَرَّم.

- جعلوا الصلاةَ في الجَيْشِ اختياريةً وأجبروا الجُنودَ على الإفطارِ في رَمَضان.

- خاضوا حُروباً لا مُبرِّرَ لها أَفْقَدَتِ الإمبراطوريّةَ العثمانيةَ عدداً من وِلاياتِها.

(١) التأويل: الغوص على باطن نصّ من النصوص في سبيل تطلّب الوجه الصالح منه.
(٢) الثورة العربية الكبرى ١: ١٥٥.
(٣) مثله ١: ١٥١.

ـ أنشأوا سِجِلّاتِ المُسْتَشْفِعين(٦): بيعَ الشفاعةِ النَبوِيَّة لطالِبِها بليرةٍ عُثمانيةٍ وكتابةَ أسماء هؤلاء المُشْترينَ لهذه الشفاعةِ في سِجِلّاتٍ تُودَعُ في الحَرَمِ النَبويِّ الشريف (في المدينة). وهذا أمرٌ مُنافٍ للإسلامِ (٢).

ـ سمحوا بنشر الكُتُب والمَجلّات التي تطعَنُ على الإسلام وتستهزيء بأركانِه وفرائضِه، مِثلَ كتاب «قوم جديد» ومجلّة «اجتهاد».

ـ اغتصبوا السُلْطة العُثمانية من أيْدي السُلطانِ الشَرعي (وهو الخليفةُ) ثمّ وَضَعوها في أيدي زعانِفَ ليس لأكثرِهِمْ في الشعبِ التُركيّ الإسلاميّ أصلٌ راسخٌ، ولا في الإسلام عِلْمٌ صحيحٌ ولا عَمَلَ صالحٌ كأنورَ باشا وجمالٍ باشا وطلعَتْ بك(٣)...

ليس في العربِ من يُنْكِرُ أنّ الحُسينَ بنَ عليٍّ قد أرادَ بثورتهِ على الأتراكِ (والأتراكِ الذين عناهُمْ هُوَ) خيراً للبلاد العربية ـ ونحن في هذا نرى رأيَه ـ لأنّ رؤساء الاتحاديّين كانوا من طائفةِ «دونمه» (اليهودِ الذين يتظاهرون بالإسلام)، أولئك الذين لم يستطيعوا تَهْدِيمَ الدولةِ الإسلاميةِ والإسلامِ بالهُجوم عليهما مِنْ خارجٍ فعَمِلوا على أن يَتَسرّبُوا إلى مَقاماتِ الحُكْمِ في الدولةِ العثمانية ليُحاولوا تَقْويضَهُما من الداخل. ولعلّ كلَّ إنسانٍ آخرَ مِنّا، لو كان في مكانِ الشريفِ الحُسينِ بنِ عليّ لكان من المُمْكِنِ أن يفعَلَ فِعْلَهُ ويقومَ بمثلِ عَمَلِه. إنّ الرجلَ كان، في ما بينَه وبينَ نفسِه، مُخلِصاً؛ ولكنّه كان قصيرَ النظر في أمْرَيْنِ: أولُ هذينِ الأمرينِ أنّه فَعَلَ ما فَعَلَ بدافعِ النِّقمةِ وحدَها

---

(١) سجلّات المستشفعين هذه تشبه «الغفرانات» عند النصارى (محو الذنوب بمبالغ من المال تدفع للبابا). وقد انتشرت الغفرانات في القرن الخامس عشر للميلاد (التاسع للهجرة) انتشاراً واسعاً فعمّت النقمة عليها في شمالي أوروبّة ونشأ المذهب البروتستانتي.

(٢) ويبدو أن غاية الاتحاديين من هذه السجلّات ابتزاز الأموال من العوامّ السذج.

(٣) الثورة العربية الكبرى ١: ١٥٥.

وهو ـ من حيثُ العَصَبيةُ ـ أضعَفُ من أن يقومَ بمثلِ هذا العمل. وجميعُ الذين يَصْدُرون عن نِقمةٍ عاطفيةٍ من غيرِ استنادٍ إلى قوّةٍ حقيقيةٍ يَخِيبون في ما يقومون به. أمّا ثاني الأمرَيْنِ فإنّ الحُسينَ بنَ عليٍّ أرادَ أن يُخْرِجَ نفسَه من قبضةِ عدُوٍّ تَسْهُلُ مُقاوَمَتُهُ إلى قبضةِ عدوٍّ تستحيلُ مُقاوَمَتُهُ. أضِفْ إلى ذلك أن الحُسينَ ابنَ عليّ لم يكُنْ ـ ممّا رأينا في المراسلاتِ بينَه وبينَ مكماهونَ ـ في المُستوى السِياسيِّ الصحيحِ عند المفاوضةِ في مُسْتَقْبَلِ بلادٍ وفي مَصيرِ أُمّةٍ.

غيرَ أنّ منشورَ الثورةِ لم يَتَضَمّنْ ذِكْرَ الثمنِ الذي كان الشريفُ الحسينُ ابنُ عليٍّ يريدُ الحُصولَ عليه إذا هو ثارَ على الأتراك ووَقَفَ بجانِبِ الإنكليزِ ـ وهو الثمن الذي ذُكر في المراسلات ـ هذا الثمن كان «جمعَ البلادِ العربيةِ (في آسِيةَ) في دولةٍ يكونُ هو مَلِكاً عليها ثمّ النفوذَ مِنَ المَمْلكةِ العَربية إلى الخلافة على العالم الإسلاميّ». فالثورةُ العربيةُ كانتْ في رأيهِ طريقاً إلى استقلالِ العرب (في آسِيَةَ) ثم إلى إنشاء وَحْدةٍ عربيةٍ (قاصرةٍ: ليس فيها بلادُ العرب في إفريقيةَ ولا عددٌ من المناطِقِ العربيةِ في آسِيَةَ نفسِها).

فما النتائجُ التي تَخَلَّفَتْ عن ثورةِ الحُسينِ بنِ عليٍّ.

١ ـ في العام الذين أعلن الحسين بن علي فيه تلك الثورة تَقَسَّمَ الإنكليزُ والفرنسيّون بلادَ العرب (معاهدة سايكس بيكو، ١٩١٦).

٢ ـ وبعدَ ثلاثةِ أعوامٍ أو أربعةٍ أقامتْ إنكلترّةُ على أشْلاء البلادِ العربيةِ ثلاثَةُ عُروشٍ قَلِقَةً وَرَفَعَتْ عليها ثلاثةً من أبناء الحسين: عَلِيّاً في الحِجازِ وعبدَالله في الأُرْدُنّ وفَيْصَلاً في سُورِيَةَ ثمّ في العِراق. أمّا سُورِيَةُ ولُبنانُ فقد أدْخَلَتْهُما فرنسةُ في «انتدابها» ـ وهذا اسْمٌ جديدٌ للاستعمار ـ ثم تَخَلَّتْ عن سنجقِ إسكندرونَة للأتراك.

٣ ـ أمّا فِلَسْطينُ فقد أُعْطِيَت لليهود.

٤ ـ والعربُ الذين كانوا في تلك الأيامِ العاطفيةِ يَحْلُمون بالوَحْدة العربية في ظِلِّ عَرْشٍ واحدٍ وخِلافةٍ شاملةٍ أصبحوا اليوم مُشَرَّدينَ في خَمْسةٍ وعِشْرينَ دولةً أو تزيدُ منها مَمالكُ ومنها إماراتٌ ومنها جُمهوريّاتٌ. ومن الجمهوريّاتِ العربيةِ ما هوَ ذاتُ اليمين، ومنها ما هوَ ذاتُ الشِّمال، ومنها ما هوَ بَيْنَ بَيْنَ. وهذه الأقطارُ التي كان تَحْلُمْ بالوَحْدة أصبَح عددٌ منها مُعَسْكراتٍ مُتَنافرةً يُحارِبُ بعضُها بعضاً سِرّاً وعَلانيةً.

٥ ـ وبعدَ أن كان الحُسينُ بنُ عليٍّ وثورتُه العربية الكُبرى جِسْرَيْن مرّتْ عَلَيْهما بريطانيةُ إلى جميعِ أهدافها الاستعمارية في بلادنا اسْتطاعَتْ بريطانيةُ أن تُنْسِيَ العربَ شَيْئَيْن اسْمُها الثورةُ العربيةُ والوَحْدةُ العربيةُ، ثمّ حَمَلَت الحُسينَ بنَ عليٍّ نفسَه أسيراً إلى جزيرةِ قُبْرُصَ لِيموتَ فيها ذليلاً مقهوراً.

ونُريدُ الآنَ أن نُدَوِّنَ تاريخَ هذه الحِقْبةِ الطويلة. فماذا نقولُ؟

إنّ الأسطرَ التاليةَ كافيةٌ لوصفِ هذه الحِقْبة ـ بِحَسْبِ النتائجِ المُؤسفَةِ التي تَخَلَّفَتْ عنها ـ ووافية بوصفِ أثرِ ثورةِ الحُسينِ بنِ عليٍّ:

«إنّ الحُسينَ بنَ عليٍّ، بثورتِه على الدولةِ العُثمانية وبوُقوفِه إلى جانبِ بريطانيةَ، في أثناء الحربِ العالميةِ الأولى، قد غابتْ عنه أسبابُ تلك الحربِ ثمّ أخطأ هو تَقْديرَ النتائجِ التي يُمْكِنُ أن يَنْكَشِفَ عنها مِثْلُ هذا العمل. لقد ساعدَ الحُسينُ بنُ عليٍّ بعملِه ذلك على أن يَفْتَحَ جميعَ بلادِ العرب أمامَ الاستعمارِ بلا قِتالٍ: إنّه لمّا تَخَلّى عن الدولة العثمانية ولم يثْبُتْ مَعَها ـ بشيء من الصَّبْرِ الذي احْتَمَلَهُ في الوقوفِ مَعَ بريطانيةَ ـ ثمّ قَدّمَ لبريطانيةَ عَرَباً بلباسِهِمُ البَدْويِّ حتّى يَدْخُلوا في طليعةِ الجيوشِ البريطانية إلى العراق وفِلَسْطينَ

وسُوريَةَ، جَعَلَ أهلَ هذهِ البلادِ ـ وقد أُخذوا بهذا المظهَر العاطفيّ البَرّاق ـ يَطْمَئِنّون إلى أن الداخلين هُمُ العربُ لا الإنكليز. وبدُخولِ الجيوشِ البريطانيةِ إلى بَغْدادَ والقُدْسِ ودِمَشْقَ، بهذِه الخِدعة، انتهى دَوْرُ تلك الطلائعِ العربيةِ التي سارَتْ على خُيولِها بأعلامِها وسُيوفِها ورماحِها أمامَ الجيش البَريطانيّ الزاحفِ. ثمّ دَخَلَتْ بلادُ العربِ كلُّها بعد ذلك في الاستعمارِ الذي لا نَزال نَرْزَحُ تحتَه إلى اليومِ» ـ من الناحية العملية على الأقلّ.

فهرس هجائي

م = مكرّر، ح = في الحاشية.

٢ / ١١ / ٨٠



دار الباحث للطباعة والنشر والتوزيع
بناية اميل الأشقر - طلعة جنبلاط - كليمنصو
تلفون: ٣٦٨٥٢٥-٣٦٨٥٣٨ - برقياً: دالباحث
ص.ب: ١١٣/٥٦٦٠ - بيروت - لبنان